مذكراتي

محمد مهدي الجواهري

الجزء الثاني

مدونة
Riyadh
Hamza

/http://riyadhhamza.blogspot.com

مذكراتي

مذكراتي

محمد مهدي الجواهري

الجزء الثاني

دار المجتبى

مدونة
Riyadh
Hamza

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الاولى

٢٠٠٥ م
١٣٨٤

منشورات

دار المجتبى للطباعة والنشر والتوزيع

مطبعة : قلم الكمية : ١٥٠٠

شابك : ٢-٨٧-٨٧٦٢-٩٦٤ شابك الدورة: ٦-٨٥-٨٧٦٢-٩٦٤

يطلب من: مكتبة رياض الغرّاوي ، النجف الاشرف - سوق الحويش / نقال : ٠٧٨٠١٢١٤٥٨١

توزيع

بنى الزهراء (ع) للطباعة والنشر والتوزيع

اسواق القدس ، الطبقة الثالثة ، رقم المحل : ٨٢
شارع ارم / قم المقدسة ، ايران
هاتف : ٧٧٤٨٥٥٥ - ٧٧٣٢٧٣٠

وُلِدوا

فتعذّبوا

فماتوا

حكيم صيني

أُهديه

إلى من هم أعزّ عليّ من صفو الحياة

إلى كلّ مَن ودّعني من أهل بيتي

وإلى كلّ مَن أقام

إيجاز..
...لا إعجاز

أما بعد وأنا أقدم ذكرياتي الثانية هذه عن عقود سبعة مازلت واقفاً بعدها على بوابة العقد العاشر بشيء من سلامة البصر والسمع، وبشيء من امتداد القامة، وأنا أمزق قرابة الثلاث صفحات، لا لمجرد كره الاستطالة أو لحب اراحة القارىء ولا لانها تقدم نفسها بنفسها، ولكن لأنني وجدت هذه الصفحات في حقيقة الأمر لا تخرج عن كونها مجرد سطور. . . يقول الشطر الأول منها:

عبثاً يحاول القارىء أن يجدني قبلها بما يقرب من خمسة عقود، في الجزء الأول، بل حتى وان أغلقت عليّ بعدها بوابة هذا القرن لأكون في بداية القرن الواحد والعشرين - وهذا ما لا أتمناه! -. . عبثاً أن يجدني في كل ذلك بمثل ماسيجدني في هذين العقدين، أو بما يزيد عليهما بقليل، في الجزء الثاني من هذه الذكريات.

ويقول الشطر الثاني:

إن كل أضواء الدنيا لو أطبقت على التاريخ وعلى من عاشه، لما قدرت أن تقضي على لواعج نفسي مما كان من أمر الصميم الأليم من مواقفي وعواقبها، وهفواتي وأثمانها، وأوجاعي ومآتمها. . وبمثل ذلك، ومن الجانب المقابل، فلو أن كل ظلمات الدنيا كتب لها أن تطبق على هذا التاريخ وعلى من عاشه أيضاً، لما قدرت أن تمحو من عدسة عينيّ ماعنّت لي في حياتي المتضاربة المتصاعدة، المتنازلة، من مباهج وأفراح وجمالات وأسمار، بل حتى أن تنزع من نفسي ثقتي بنفسي وهي أجمل أفراح الحياة. .

ويقول الشطر الثالث:

إن كل ماكان من هذا وذاك لايخرج عن نطاق صراع مرير أحياناً، وحلو أحياناً - وما بينهما تارات آخر - مع الحياة وتقلباتها ومع المجتمع ومخلفاته، وأكثر من هذا كله، فمع النفس وأهوائها، إلا مصارعاً واحداً، لم يقدر ولن يقدر من هو أقوى

مني أضعافاً مضاعفة من جبابرة الدنيا وعمالقتها وفراعنتها إلا أن يستسلم اليه، ويقع صريعاً بين يديه، ألا وهو القدر المقدور، الذي أؤمن به لا لمجرد الايمان حسب، بل ولأنني رأيته بعيني ولمسته بيدي وهو يتمدد أمامي وفي بيتي، ولشدّ مايعجبني، وأنا الذي حاسب نفسه بما لم يحاسبها أحد من الشعراء قبله، ولربما فلن يحاسبها أحد بعده، ان استشهد ـ ونحن في معرض القدر ـ، بما قاله الجبار العملاق المتمرد الشهيد جلداً بالسياط حتى النزع الأخير، بشار بن برد، ان لم تخني الذاكرة:

خُلقت على ماكنتُ غير مُخيَّر ... هوايَ، ولو خُيِّرت كنت المهذبا
أُريد فلا أعطى، وأُعطى ولم أردْ ... وتَكره نفسي أن أكون المجربا

وآخراً وأخيراً، وأنا بصدد استغفار القارىء من كل مافي ذكرياتي هذه من أخطاء أو زلات على حد سواء، في الكلمة المفردة أو في الجملة، أو في الأسلوب، فضلاً عن علامات الترقيم والأخطاء المطبعية، فكل ماأريده من القارىء أن يتذكر أنها تكاد تكون فريدة من نوعها في جمع أشتاتها وتوارد الخواطر فيها وامتداد أبعادها وأتعابها. . . وأن لاينسى أنها وأنا أدونها على الذاكرة، وفي الغربة، وبلا أي مرجع سوى ديواني والتأكد من هذا الموقف مني أو ذاك، في هذه القصيدة أو تلك، وفي تاريخها مستعيناً وبكتاب واحد يساعدني على التثبت أكثر فأكثر من هذه التواريخ، هو «تاريخ الوزارات العراقية» للسيد عبد الرزاق الحسني.

لقد استغرقت هذه الذكريات، وأقولها بصدق وأمانة، أكثر من عشر سنوات وبالضبط، فمن بداية السنة الثانية والثمانين بعد الألف والتسعمائة، حتى يومي هذا واستهلكت عدة آلاف من الصفحات منسوخة ومطبوعة ومسوّدة ومبيّضة مرات ومرات لتكون هذه الألف، أو مايزيد عليها بقليل، وبعشرات وصلت للأعداد الأولى من المئات، أي بأكثر من مائة شريط تسجيل للصوت أو الصورة، وأحياناً فيهما سوية، وبخاصة ففي السنوات الست الأخيرة منها وقد حرمت من القراءة تماماً وبما يقرب من ذلك فمن الكتابة أيضاً.

محمد مهدي الجواهري
٢٨/١٠/١٩٩١

الفصل الأول

خمسٌ وعشرونَ انقضتْ وكأنّها
بشخوصِها خَبَرٌ من الأخبارِ
ضِقنا بها ضِيقَ السجينِ بقيدِهِ
من فَرْطِ ماحَملتْ من الأوزار
وتجهَّمتْ فيها السماء فلم تَجُدْ
للخابطينَ بكوكبٍ سيَّار
شاخَ الشبابُ الطيبون وجُدِّدتْ
فيها شبيبةُ شيخةٍ أشرار
وبدا على وَجهِ الحفيدِ وجدِّه
للناظرينَ تقارُبُ الأعمار
مَن كان يحسَبُ أنْ يُمَدَّ بعُمره
حُكْمٌ أقيمَ على أساسٍ هاري؟!
ومِن الفظاعةِ أنْ تُريدَ رَعيَّةٌ
في ظِلِّ دُستورٍ لها وشِعار
مايَطلُبُ المأسورُ من يدِ آسرٍ:
إسداء عارفةٍ وفكِّ إسار

وثبة كانون

انتهى الجزء الأول من ذكرياتي . . . وقد عدت من لندن، واصبحت نائباً برلمانياً بالتزكية كما اسموها وعن امر بليل، كما اسميتها . . .

وقتها كان العراق بأكمله يعيش غليانه الجماهيري على الأحلاف والمعاهدات والجور والخروج عن الدستور والانتهاز البرجوازي لادوات الحكم والغش في خبزه اليومي .

كما كان الشارع العراقي مشحوناً ضد العملاء والمرتبطين بالقوى الاجنبية المتنكرين لانتمائهم الوطني والقادمين إلى البرلمان بالوساطة والتزوير، حتى لأستطيع الجزم ان الادوات الحاكمة لم تكن تحظى بتأييد اكثر من ٥٪ من كل الشعب العراقي ، خاصة وان الوعي بدأ يتغلغل إلى ذهنية ونفوس الطليعة الشابة المتحمسة لقضاياها وانتمائها .

وفي الشارع السياسي كانت هناك احزاب ثلاثة هي الحزب الوطني الديمقراطي والحزب الشيوعي العراقي وحزب الاستقلال .

واستطيع التأكيد هنا ان حزب الاستقلال كان محط أنظار الطلائع النظيفة البريئة والقوية ايضاً إلا أنه فتح الباب عريضاً للمنتهزين والمنتفعين وبعض المشبوهين . . .

وإن الحزب الشيوعي العراقي بما كان لديه من مواقف صائبة ومواقف خاطئة كان الحزب الأكثر عرضة للاعتقال والسجن والاعدام على اعواد المشانق ما بين الاربعينات والستينات من تاريخ العراق المعروف بوثباته وانتكاساته ومظاهراته وانحساراته . وفيما بينهما كان الحزب الوطني ممثلاً للطبقة البرجوازية الوسطى بكل مالها وماعليها .

كذلك وفي هذه المرحلة بالذات كان التزوير يطال كل شيء لا الانتخابات النيابية وحدها، وكان الذين يقطفون ثمار هذه المرحلة الانتهازيون والمتهالكون على المناصب بأي ثمن والمتصارعون على النيابات والمنسلخون عن قضايا العامة.

صحيح ان الوثبة باحداثها الرهيبة مما سيأتي ذكره حلت المجلس النيابي المزيف وغير النظيف لمن لم يحتلوا مقاعدهم فيه، وساهمت في انتخابات برلمانية (نظيفة وغير مزيفة للذين أخذوا مقاعدهم فيه) بعد ان قدم الشعب شهداءه وضحاياه قرابين عدالة... ومساواة... وخلاص... وارادة قرار...

كما انه صحيح كذلك ويا للعجب ان نوري السعيد؛ وبعد الحالة الديمقراطية التي جرت فيها انتخابات ما بعد الوثبة وقف ذات يوم ـ وقد ضاق صدره من هذا المعارض او ذاك ليقول: وبالحرف الواحد

«إنني اتحدى أي واحد منكم يثبت انه دخل هذا المجلس بدون ارادة الحاكمين»...

ولم يسمع الحاضرون، ولم يكتب المؤرخون ان شخصاً واحداً من اولئك النواب تجرأ على القول: ها انذا أمامك... أنا الذي لم اصبح عن امر بليل نائباً...

هكذا كانت الأوضاع في العراق وهكذا كان شكل (الديمقراطية).

ولا شك أن أوضاعاً كهذه لابد أن تخلق حالة من الكبت الجماهيري الذي يبحث عن مفجر..

وجاءت معاهدة (بورتسموث) الجائرة بحق العراق والتي تنال من هيبة الوطن العراقي لتكون الشرارة التي نزعت صاعق الفتيل وصعّدت غضبة الجماهير لتحتشد في الشوارع بمظاهرات صاخبة اكتسحت بها كل قوة الحاكمين واسلحتهم وسلطاتهم العاتية...

لقد ثار طلاب كلية الحقوق ضد المعاهدة وبنودها ومشبوهية القائمين على توقيعها وهاجمت الشرطة هؤلاء الطلاب وأوقعت عدداً من الجرحى في صفوفهم...

وما لبث الحماس الثوري وردود الفعل الطائشة من الحكومة ان جعل من شوارع بغداد بركاناً مهيأ للانفجار في كل لحظة، حيث انتشر الطلاب ومعهم جموع غفيرة من المواطنين في كل حي وشارع وهتافاتهم تشق عنان السماء.

وحديث الوثبة يطول ويطول. . . وهناك اكثر من كاتب ومؤرخ سجل احداثها وحلل نتائجها واني لن ادخل الآن في سرد تفاصيلها والوقوف عند مفارقاتها او بحث تناقضاتها، غير انني سأتعرض لتأثيراتها عليّ وعلى عائلتي منذ بدايتها وحتى نكستها السريعة التي سيقول التاريخ ما سيقوله عن اولئك الذين دعموها في البداية ثم ما لبثوا ان تاجروا بدماء شهدائها بحثاً عن المناصب والمكاسب والنيابات التي يزيفونها وقد حُرموا منها، ويُزكّونها (متى عُيّنوا فيها). . . . !!!

وهي حالهم في جميع الوثبات والانتفاضات التي حدثت في العهد الملكي.

وعلى أي حال فما أن اعلن وزير الخارجية (الجمالي) بنود معاهدة بورتسموث في كانون الثاني عام ١٩٤٨ حتى كانت ردة الفعل الأولى وهي اضراب طلاب كلية الحقوق.

وكنت قد اصدرت جريدتي (الرأي العام) المسائية في نفس اليوم وهي تحمل مقالاً افتتاحياً خطيراً ومثيراً احمل فيه على تجاوز رجال الشرطة للقانون واقتحامهم مقر الكلية وسقوط الجرحى في ساحتها.

وكان لهذا المقال وقع كبير واكثر من رد فعل لدى عبد الاله ووزارته بحكم ما كان بيننا من علاقة وطيدة، وبحكم ما كان عليه الشارع العراقي المهيأ نفسياً للثورة على كل شيء.

اتصل بي هاتفياً جمال بابان نائب رئيس مجلس الوزراء، (طيلة فترة غياب صالح جبر الذي كان موجوداً في لندن. . . لتوقيع المعاهدة) وتحدث معي عن خطورة الموقف وحراجته خاصة في مثل هذا الجو المشحون بالغضب. . . مشيراً في ثنايا حديثه إلى مدى ارتباط جريدتي وارتباطي شخصياً بالأمير عبد الإله فقلت له «لا علاقة لأحد بالكلمة التي اكتب وبالموقف الذي اتخذ. . . ولا يستطيع احد ان يملي علي ما أريد قوله. . . وجريدتي منتمية إلى الجماهير قبل ان تكون منتمية لرجل وإذا كانت مواقف جريدتي وافكارها لا تروق سياستك فبامكانك اغلاقها».

وقد اغلقها الرجل فعلاً ولكن اغلاقاً رمزياً لمدة يومين، كي يثبت لي أن له كلمته وموقفه أيضاً. . .

قبل هذا الموقف كنت احد المعارضين في احدى جلسات مجلس النواب لبنود

هذه المعاهدة الظالمة الجائرة التي تكبل العراق لمدة / ٢٥ / عاماً بقواعد عسكرية وارتباطات تخدم بريطانيا طيلة هذه المدة ولا يحق لأحد الطرفين ـ بريطانيا والعراق الاخلال ببنودها دون موافقة الطرف الآخر، ومعنى ذلك أن يبقى العراق مكبلاً مدى الأبد مالم يُفرج عنه الطرف الأقوى. . . أي بريطانيا نفسها.

المهم ان الجماهير المنتظرة شرارة الانفجار اكتسحت الشوارع والساحات واشتد غضبها في الليل وتمردت على كل اشكال القمع وتحدت ازيز الرصاص والطلقات الحية القاتلة ودفعت امامها رجال الشرطة هاربين ليختبئوا في الجوامع والمدارس.

وكانت المفاجأة في اليوم الثاني تتجلى في ذلك البيان الشهير وغير المتوقع والذي يقول «بناء على اهتمام حضرة صاحب السمو الملكي الوصي وولي العهد المعظم بشؤون البلاد العامة والأوضاع الحاضرة ونظراً لرغبة سموه الملكي في الاستئناس بآراء بعض أهل الرأي فقد تفضل سموه الملكي بدعوة رؤساء الوزراء السابقين ونائبْ رئيس مجلس الاعيان ورئيس مجلس النواب وقسم من الأعيان والنواب والوزراء السابقين وممثلي الأحزاب السياسية. . فاجتمعوا في البلاط الملكي العامر في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم بحضور هيئة الوزارة وقد عرض المجتمعون آراءهم بخصوص مسودة لائحة معاهدة بورتسموث (العراقية الانكليزية) وقد أجمعت آراؤهم على انها لا تحقق اماني البلاد، وليست اداة صالحة لتوطيد دعائم الصداقة بين البلدين سيما وان مجلس الوزراء لم يقر بعد تصديق المعاهدة المذكورة. ولهذا فإن صاحب السمو الملكي الوصي وولي العهد المعظم يعد الشعب العراقي بأنه سوف لاتبرم أي معاهدة لاتضمن حقوق البلاد وأمانيها الوطنية. . . «نص البيان من كتاب تاريخ الوزارات ص ٢٢٦»

كان هذا البيان ضربة موجعة وقاصمة للتعيس صالح جبر الذي خطط للايقاع به منذ أن ألقي على عاتقه وعاتق وزرائه عبء المفاوضات في لندن.

وللحقيقة فإن هذا البيان كان مكسباً ليس بعده من مكسب للجماهير لو احسن من بيدهم قيادة هذه الجماهير التصرف ولو استعملوا الحكمة والتروي والعقلانية والتخطيط. . .

وانني مازلت أتساءل: . . لماذا عادت المظاهرات إلى الشوارع. . بعد ان اسقطت المعاهدة وسقطت حكومة «صالح جبر» ولماذا لم تفكر قيادة هذه الجماهير

الجواهري الى اليمين وخلفه الشهيد «جعفر»

بتحقيق مكاسب شعبية عن طريق الحكمة مستغلة ضعف موقف البلاط وضعف جميع رموزه وقتها . . . اعيدها ثانية لماذا عادت المظاهرات، ولماذا عاد الشهيد «جعفر» أخي وبقية شهداء الوثبة ليسقوا بدمائهم تراب شوارع بغداد وجسورها؟ .

ويكون بعدها ما كان من دفع الثمن الغالي، الذي تجسد في انتكاسة الوثبة بل قل انتكاسة التاريخ العراقي .

بل دعني أستعمل جرأة القول لأعلن : ان انتكاسة الوثبة كانت فاصلاً بين تاريخ وتاريخ للعراق .

كذلك دعني استعمل الجرأة وانا احاسب ذاتي متسائلاً : لماذا كنت انا احد الذين لم يتعظوا بنتائج الوثبة؟ . . . لماذا ظللت احرض على المتابعة؟ ولماذا بقيت اشحن هؤلاء الشباب والشارع العراقي بالحماس والثورة؟ . . . حتى دفع ذلك الحماس ببعضهم إلى المعتقلات وببعضهم الآخر إلى السجون أو إلى دار الخالدين .

كيف فعلت كل ذلك وانا الذي اذكر حتى هذه اللحظة كيف رفعت سماعة الهاتف إلى رئيس البلاط الملكي بالنيابة كي اثمن موقف الغاء المعاهدة، ولتصدر جريدتي «الرأي العام» وهي تحمل قصيدة تبارك فيها الشعب الذي اسقط تلك المعاهدة والرجل الأول الذي نزل عند ارادة الشعب . . .

قف باجداث الضحايا لا تسل ... فوقها دمعاً ولا تبكي ارتجالا
لا تذل عهد «الرجولات» التي ... تكره الضعف وتأبى الانحلالا
وضع الاكليل زهراً يانعاً ... فوق زهر من ضمير يتلالا
ثم خفض من جناحيك بها ... ثم ابلغها إذا شئت مقالا
أيها الشاوون في جولاتكم ... طبتم مثوى وعطرتم مجالا
كلنا نحسدكم ان نلتم ... شرف الفرصة من قبل اهتبالا

* * *

لقد كنت في المجلس النيابي صبيحة ذلك اليوم المشهود حين ابتدأت معركة (الجسر) ومازلت أتذكر حتى هذه اللحظة المهزلة التي كانت تتم فصولها في جلسته الأخيرة حيث كان (عبد العزيز القصاب) رئيس المجلس فرحاً مرة، وساخراً مرة،

ومتشفياً ثالثة، وكأني بلسان حاله يقول: سأكون البديل المنتظر، أو أنه كان يؤمل نفسه بمنصب جديد في المرحلة الجديدة، وهي الحالة التي كانت الطبقات الانتهازية تتصيد خلالها الفرص، غير عابئة بدم الشباب ولا بتضحيات المخلصين واندفاعاتهم ولا حتى بمستقبل الوطن نفسه.

وفي ذلك اليوم أيضاً كان ابني (فرات) وهو ابن الثامنة عشر مندفعاً متهوراً شأنه شأن كل من عاش في بيت (الجواهري)، كذلك كان اخي (جعفر) الذي جاء بصورة مفاجئة الى العراق من دمشق لمجرد أن يموت. لقد كانا يشكلان لدي قلق المحبين وخوفهم، والرعب الداخلي من الآتي.

وحين اشتد صوت الرصاص في الشوارع وكنا مانزال في المجلس النيابي، وجدت نفسي مندفعاً خارج المجلس لأصل الى الشارع برغم منع الحراس لي وبرغم التماسهم لي بعدم الخروج وبرغم تحذيرهم من الرصاص المتساقط على الجدران..

واخترقت الشوارع والرصاص يتساقط حولي يميناً ويساراً بكل جرأة لأصل البيت، وبكل لهفة وريبة سألت زوجتي وكأنها المعنية بكل شيء هل جاء جعفر..

قالت: لا

قلت باللهجة الدارجة: «هسه يجيبوه»، أي الآن سيأتون به.

ولم تمض فترة طويلة على وَجَسي وقلقي وترقبي، حتى سمعت نبأ يقول: لقد وقع جعفر صريعاً على الجسر... وصدقت نبوءة الشاعر ويالمرارة نبوءات الشعراء.

بعد فترة قصيرة جداً كنت على باب المستشفى الملكي لأرى (جعفر) محمولاً وهو غارق بالدماء وكان مازال على قيد الحياة... رأيته وليت صورته هذه تستطيع أن تغادر ذاكرتي..

رأيته يصارع الموت بثقة، ويتعامل مع جراحه بحيوية.. وكان من الجرّاح الشهير «كاظم شبر» وهو من أعز أصدقاء العائلة ان أراني ورغماً عني الجرح الفاغر الذي اخترق صدر جعفر إلى الظهر عن طريق المرآة العاكسة.

وقتها تذكرت جعفراً وأنا أقول له على الفطور بعد احتضان وتقبيل وقبيل مغادرتي البيت: لك الحق ياأخي جعفر أن تشارك فيها يشارك الآخرون وان تعبر

عن عواطفك ومشاعرك الوطنية وأن تكون مع من تقع على أكتافهم مهمات الثورة ضد الخيانات والتخاذل والتآمر. ولكن ليس لك الحق في أن تدفع بنفسك إلى الموت كالمتحرين... وليس لك أن تواجه الرصاص بصدرك الأعزل فالحياة لأمثالك أجدى. والبقاء لشبابك أمضى... غير ان ضراعتي هذه لم تجد، ورجائي هذا لم يثمر... وتعقلي هذا لم يستطع أن يطفىء النار التي تشتعل ثورية في داخله أو تقلل من الحماس الذي كان يجري في عروقه.. وابتدأ جعفر مرحلة الصراع مع الموت... صارعه بكل ماكان يملك من وعي صارعه بكل ماكان يحمل من ارادة، صارعه بكل مايملك من شجاعة.

وكان طبيعياً والجرح قتال ان يعجز الأطباء الكثيرون وفي مقدمتهم شيخ الأطباء (الوتري) والجراح الشهير (نجيب اليعقوبي) عن انقاذ حياته.

ومازلت أتذكر أنه قال لي وهو مؤمن من أنه سيفارق الحياة: كل ماأريده منك ياأخي ثلاثة أبيات في رثائي... ومات جعفر..

قضى جعفر نحبه... وكانت آخر كلمة يلفظها وانا اقبله قبلة الوداع «امي»ناديت على التعيسة امه التي كانت تسهر واخته الوحيدة معها طيلة ليل ونهار الأيام السبعة التي قضاها في المشفى وقلت لها جعفر يريدك:

جاءت وقبلته وأظنه قبلها وكانت آخر ومضة من حياة هذا الشاب الذي كانت شرطة بغداد في حالة استنفار تحسباً لوفاته كما اخبرني «سلطان كرماشة» معاون مدير شرطة بغداد آنذاك، لا حباً بي وبجعفر بل خوفاً مما سيحدث موته من عواقب يصعب التكهن بنتائجها..

اذيع نبأ وفاة ـ جعفر ـ من الاذاعة العراقية في أول اخبار النشرة المسائية وكان ذلك سابقة لم تكن لتحدث لولا انني اتصلت وانا اجهش بالبكاء بدار السيد «محمد الصدر» رئيس الوزراء الذي اعقبته وزارته وزارة «صالح جبر» وهو المحب الصميمي لي ولعائلتي الجواهرية... وحين لم اجده اخبرت من اجابني واظنها ابنته او زوجته وطلبت منها ان تخبره بانني اريد ان يأمر باذاعة النبأ.

وكان الاستثناء لوفاة شهيد كان الحاكمون يقرون كل شيء إلا بما كان يسمى

«شهداء» وأذيع النبأ لتزحف الجماهير صبيحة اليوم التالي وعقب اذاعة النبأ وتوزيع الملصقات. تزحف وقد نظمت الاحزاب الصفوف المواكبة للتشييع واحتشدت الجماهير الغاضبة والجماهير الموالية للأحزاب وجماهير كل المؤمنين بالقضية الوطنية ودماء الشهداء، لتشهد بغداد ما لم تشهده إلا يوم انتحار «السعدون» حين قلت:

نصفان بغداد فنصف محشر ساحاته اكتظت ونصف بلقع

- فمن الجانب الغربي منها من الكرخ حتى الكاظمية وعبر الأعظمية زحفت المواكب ووصلت الجانب الشرقي من نهر دجلة لتصب جميعها في جانب الرصافة عابرة «جسر الاحرار» الواصل بين الجانبين إلى حي الصالحية حيث تحرك موكب التشييع لجنازة الشهيد إلى مقره الأخير بجانب ابائه وأجداده في مقبرة آل الجواهري بالنجف، وكانت الجنازة تكبر وتكبر والنعش يمر وتنضم إلى المشيعين وفود المستقبلين في المحمودية والمسيب والحلة وكربلاء...

حقاً لقد كان سلطان كرماشه صادقاً حين قال لي: ان قوى الامن كانت مستنفرة ليلة الجنازة ونهارها...

وسواء كان هذا اليوم هو رمز قوة «وثبة كانون» وقد بلغت قمة هرمها الثوري. او لم يكن فقد كانت الوثبة المضادة حاضرة بالجنازة متمثلة بالقوى الرجعية وفي المقدمة منهم «اجهزة الامن» واتباع «صالح جبر» وكانت جل امنياتهم ان يمر هذا اليوم بسلام وان لا ينقلب إلى زحف ليس بوسعهم ولا بوسع الاقدار نفسها ان تتكهن بما سيكون بعده من مصائرهم ومصائر الجماهير نفسها.

لقد كانت رهبة هذا المحشر من جهة والتحفز له من جهة اخرى، كلاهما لصالح الحاكمين واجهزة الأمن بالرغم من ان الجانب الآخر الذي احسن تخطيط وتدبير المسيرة الصامتة في هذه الجنازة كان يخشى ان يندس بين الصفوف من يسعى لتعكير مسيرة هذه الجموع ولا سيما ان رؤساء الاحزاب الوطنية جميعها والشخصيات البارزة من نواب واعيان وممثل البلاط الملكي «تحسين قدري» كانوا في مقدمة الصفوف...

- واصل الموكب طريقه إلى النجف وفيه كل الطلائع الثورية للشباب وفيه نماذج من الكهول والشيوخ وكان يوماً مشهوداً في كل تاريخ النجف، حيث اغلقت الاسواق وعطلت المدارس وغصت الشوارع بالجماهير المستقبلة، وتناثرت اكاليل

في ذكرى
الوثبة الخالدة

الـورود من كل حدب وصـوب وعلت هتـافـات الجـماهـير وبكـل العـاطفـة المتـوثبـة وصـدق المشـاعـر تراكضت الجموع إلى المقر الأخير للشهيد «جعفر» ومع ذلك فإن اعـداء الـوثبـة لم يتركوا مجالاً إلا وتحركوا من خلاله حتى ان اخوال الشهيد «جعفر» وابنـاءهم لا غيرهم كانـوا يتسلقـون سقف «جـامـع الجـواهري» وهو لا يرتفع عن الأرض إلا بأقل من المترين كي يخفوا اكاليل الورود، فقط لأنهم من انصار صالح جبر «ولأنهم معادون للوثبة» وشهدائها.

عادت المـواكب الحـزينـة وتفـرقت الجموع وانا تركت البيت الحزين المجلل بالسـواد في النجف... وعـدت إلى بغـداد لاقيم الفـاتحـة إلى جوانب الفـواتـح الأخرى المستمرة على ارواح الشهداء..

في اليـوم الثـالث من هذه الفـواتـح وفي صباحه تحديداً تركت مجلس الفاتحة على خلاف ما ينبغي ودخلت البيت الأسـود الكئيب الحـزين في «الحيـدرخانـة» الواقع على بعد امتار من جامع «الحيدرخانة» المقامة فيه الفواتح واقتحمت أصغر الغرف واشدها قتامة واغلقت علي الباب وبدأت الحداء بصراخ لم امارسه من قبل، صراخ الشـاعـر الذي لا يستطيع ان ينسى طيف شهيده. ولم يودع اعزمنه، صراخ من يحمل مسؤوليته ومسؤولية اندفاعه الثوري... لأخط ماتنزل علي من الهـام شعري:

اتـعـلـم ام انـت لا تعـلـم	بان جراح الـضـحـايـا فم
فمٌ ليس كالمـدعـي قولـة	ولـيـس كآخـر يسـترحـم
يصيـح على المـدقعـين الجيـاع	اريـقـوا دمـاءكـم تطـعـمـوا
ويهـتـف بالـنـفـر المهـطـعـين	اهـيـنـوا لئـامـكـم تكـرمـوا

في عصـر اليـوم نفسـه وفي الجلسـة الختـاميـة لمجلس العـزاء ومن على سطح المسجـد ومن مكـبرات الصـوت فيه القيت هذه القصيدة دون سابق انذار، وما إن وصلت البيت الـرابـع او الخـامس منهـا إلا وكـان الشارع الطويل العريض (شارع الـرشيـد) قد امتلأ بالحشـود الجماهيرية قاطعاً بذلك سير المواصلات وحركة التنقل ساداً كل الطرق المؤدية إليه والخارجة منه..

وبـرغم كل هذه الاحتفـالية للدم الوطني الطاهر وكل هذه الوجدانية في اداء التقـديس لدم الاحـرار ورغم كل هذه الجنـائـزيـة الشعبية الوطنية وبرغم كل هذه

الـزحـوف البشـريـة وجلجلة هتـافهـا وبـرغم ان كل ذلـك كان قد شوهد من قبل الشخصيـات المسؤولـة والشخصيـات الحـزبيـة واعـوانهم وحضـور رؤ سـاء تحرير الصحف، فقـد نعي الشهيـد «جعفر» وفي بعض الصحف لا كلها باسطر اربعة او خمسة على صفحاتها الأربعة او الثمانية الفارغة في معظمها، فمن يصدق ذلك . .

من يصـدق ان خوف هؤلاء وصـل حد تجاهـل الدم النقي الذي تدفق ثورة على شوارع بغداد.

ومن يصـدق ان انتهـازيـة القـائمـين على حكم تلك المـرحلة تدفعهـا إلى التعمية على الرجال الذين تقحموا الموت بارادتهم بحثاً عن الكرامة وبخاصة منهم «جعفر» الشاب المنصهر حتى عظامه بقضايا العراق المصيرية . .

كذلـك من يصـدق ان حقد هؤلاء وخوفهم من المواقف ورجالها ومن الوطن وحماة قيمه دفعهم ليتهمـوني، وأنـا في غمرة الألم والدم وفي غمرة التوحد مع الحزن وفي غمرة كل هذا الالتفـاف الجـماهيري الصادق حولي وفي تلك الحالة المدهشة التي كنت أوحِّدُ فيها بين الحزن والفرح حزني على جعفر اعز من فقدت . . وفرحي من أن الشارع الشـعـبي قادر على فعــل المستحيــل ويفـتروا عليّ بواسطـة، موظف علاقــات واستخبـارات بريطـانية (حسين تيمور) يصدر صحيفة (كلف طبعاً باصدارها ولهذه الفترة الصعيبة والقصيرة مع الأسف ليقوم فيها بواجبه القذر ثم ليطويها) ليقول هذا (المكشـوف) لاالمشبـوه حسب، وعلى حسـاب الانتـماء الى حزب وطني بكل جرأة وعلى رؤوس الأشهاد «أنني قبضت مبلغ ألف دينار عن دم الشهيد»، ثم أن لاترد عليه جهة من هذا الحزب بكلمة، على الرغم من أن وزارة الداخلية وبلسان رجلها الأول (جميـل المـدفعي) أعلنت رسميـاً انه لم يدفع للجواهري أي مبلغ . . . وعلى العكس من ذلك فقد عرض عليه مبلغ لتغطية نفقات الفواتح ورفض ذلك.

مثـل هذا وغـيره الكثـير من محاولـة اصطياد الانتهازيين في ثغرات الازمات ومتاجرات الوصوليين وبكل اولئك الذين تقحموا الصعاب وخنادق الرصاص بحثاً عن كرامة ووطن ومستقبل.

أفلا يكفي هذا كله وما قبله وما بعده ان يكون امثلة بليغة لانتكاسة الوثبة.

ولئن فاتني اقامة الدعوى القضائية على هذا العميل البريطاني بتهمة القذف والتشهير . فلم يفتني ما أحاول بالتعلة والتسلية والتبريرمن أنني شهرت بالمشهر الأول أي ليس صاحب الصحيفة نفسه ولكن حزب الاستقلال الذي كان يحتضن هذا العميل حتى بلغ الأمر بهذا الحزب وبعد كل تلك الضجة ان يكتفي بكلمة مبهمة يتبرأ من هذه الصحيفة وليس من صاحبها . .

ومع هذا فقد تشفيت كما قلت : مما اعرفه ويعرفه كل الناس من انه المسؤول الأول اي حزب الاستقلال نفسه وذلك بقصيدتي المدوية والمحرجة لا للحزب وحده ولكن لزعيمه بخاصة ـ الرجل الذي كان وما يزال لولا هذا الموقف المريب وغير اللائق به ممن احترمهم واحبهم .

لقد كانت حصته وانا اجده القرين الأول من هذا الحزب لي في هذه المبارزة ـ غير قليلة مع الأسف ـ لقد كانت قصيدة (عرت الخطوب) ومطلعها . . .

عرت الخطوب وكيف لا تعروا وطريق مثلك شائك وعر
عرت الخطوب فما خفضت لها من جانح وكذلك النسر

* * *

والتف من أطرافه همج مثل النعام يسودها الذعر
مثل اللصوص يلم شملهم خيط الدجى ويحله الفجر

كل هذا كنت اعتبره بداية لانتكاسة الوثبة . .

في غمار احداث الوثبة وتوق الجماهير إلى زعزعة الاستقرار من تحت ارجل الحاكمين والمأجورين والانتهازيين فإن دافع الابوة لدي وانا الذي طالما تقحمت الصعاب جعلني اطلب من سلطان كرماشه (معاون مدير شرطة بغداد ان يوقف ابني «فرات») استغرب الرجل هذا الطلب . . . وحين الححت عليه وقلت :

أن يحتجز لديك خير من ان يقتل أو يموت . . .

وافق الرجل وأوقفه ولربما كان هذا الموقف سبباً من أسباب بقاء فرات على قيد الحياة إلى الآن . .

ومن مفارقات الأحداث أيضاً ان والدة الشهيد جعفر وهي المتعبدة المؤمنة بالله والقدر المحبة كثيراً لابنها المدلل المجتهد الطموح ، المقاتل ، البائس ، اكتفت

بضربة او ضربتين على ركبتيها ليس إلا حين عرفت ان جعفر قد فارق الحياة ومن يومها وحتى يومها الأخير وهذه الوالدة الطاهرة ظلت تفترش الأرض وتنام على سجادة الصلاة وكأنها تريد ان ينطبق واقع حالها على الأمر الواقع أي تنام على الأرض التي يرقد قريباً من سطحها «جعفر» مهما يكن من أمر.

صدرت الارادة الملكية بحل المجلس النيابي «المزيف» كما أسلفنا، كما قبلت استقالة «صالح جبر» وفرحت الجماهير بما كان من نزول الارادة الملكية عند ارادتها وبدوري قصدت الوصي على عرش العراق لمجرد شكره في أنه أرسل ممثلاً عنه في تشييع الشهيد جعفر متناسياً موقعي السابق في المجلس النيابي وغير آبه لما سيكون عليه وضعي في المجلس اللاحق وإذا بالرجل يأخذني على حين غرة ويقول:

«إن مكانك محفوظ في المجلس النيابي كنائب عن كربلاء».

لم يكن يخطر على بالي اطلاقاً ان نتحدث بمثل هذا الموضوع او يعرض علي طلب كهذا ولم اكن اصلاً قد فكرت لا فيه ولا بالرد عليه... وللحال وجدتني ودون سابق دراسة لكلمات الموقف اجيب وبما يخرج عن اللياقة والاصول الرسمية في التعامل...

لا يا سيدي: انا اريد ان ينتخبني الشعب..

دهش الرجل من هذه الاجابة غير اللائقة وعلت وجهه مسحة من اصفرار ولم يجب على كلامي كما لم يزد على ذلك شيئاً...

وخرجت من مجلسه وانا اجرجر اذيال الخيبة واحاسب نفسي على هذه الخطيئة السلوكية..

وتساءلت بيني وبين ذاتي... ما الذي منعني من مباركة اقتراح هذا الرجل...

بل لماذا لم اسع شخصياً واخطط لأن اكون نائباً وفي تلك المرحلة الذات..

- إن لم يكن من أجل مستقبلي ومستقبل عائلتي فمن أجل شهداء الوثبة ومن أجل الشارع الثائر ومن أجل الجماهير المتعطشة للمواقف..

ولكن... ويا للأسف...

فقد وقعت في هذه المرة أيضاً ضحية لسوء التخطيط والحمق وضحية للغرور كذلك . .

في نهاية هذا الفصل استطيع التأكيد ان الوثبة كانت ضمير الشارع العراقي في تلك الفترة وان نجاحها كان يعني فقدان رجال الحكم والعملاء والمدسوسين والمأجورين لانتهازات ونفع ومواقع طالما خططوا لها عابرين فوق كل القيم . .

كما يمكنني القول :

لو ان تلك الوثبة سارت باتجاهها الصحيح ووجدت قادة وطنيين اكفاء شرفاء ينتمون إلى الشعب ومصالحه وهوية الوطن وعلم العراق لتغير تاريخ العراق باكمله . .

لقد كنت وحتى بعد الوثبة المحرِّض على الحفاظ على نتائجها والوفاء لدماء شهدائها والتنبيه من مخاطر انتكاستها مما يدفع بالوزير (نجيب الراوي) وزير المعارف وقتذاك للقول وهو يخاطب مؤتمر مدراء المعارف في المحافظات العراقية :

إن الأمور السياسية والأمنية والاجتماعية مستقرة في العراق ، ولا يوجد من يعكر هذا الهدوء وهذا الاستقرار إلا «الجواهري» وجريدته «الرأي العام» . .

ومع كل ذلك فليس كل طموح بمحقق . . ولا كل امنية مبتغاة . . .

مؤتمر المثقفين العالمي

السفرة التي سأتحدث عنها كانت طفرة وليست سفرة فالبلد الذي أروم زيارته كان في سجل المحرمات . . . وهاهو الجواهري صاحب جريدة «الرأي العام» المعارضة والتي تُعكّر صفو الأمن والاستقرار يعتزم السفر . . . وإلى اين . . . إلى «بولونيا» البلد الذي يعد في قاموس المتحكمين من البلدان الحرام . .

تلقيت رسالة من أحد الأصدقاء تحمل إليّ دعوةً شبه رسمية لم يكن ممكناً، بحكم الظروف الرهيبة والضارية ارسالها عن طريق البريد، وتنص الرسالة ان هناك مدعوين اثنين فقط من المنطقة العربية هما الدكتور (طه حسين) و(محمد مهدي الجواهري) إلى مؤتمر المثقفين العالمي . .

وتقول الرسالة : ان هناك صعوبة في تحويل العملات وترجو تدبير الأمر شخصياً، أي تدبير نفقات الطائرة، ومصاريف السفر مع وعد بتسديدها لاحقاً . . .

هي دعوة اذن لمؤتمر يحضره العمالقة من المثقفين الأوائل، وياها من دعوة ويا له من مؤتمر خطير . .

طويت الرسالة بأناة وحرص شديدين، من يصدق بأنني قادم من العراق وبما يشبه المعجزة وان يجتمع النقيض والنقيض في مؤتمر عالمي . . . وعلى مائدة حوار واحدة . .

نشرت في جريدتي وبكل جرأة وتحد مقالاً افتتاحياً ذكرت فيه الدعوة التي تلقيتها ونوهت بالمؤتمر وبالطليعة من مثقفي العالم الأوائل، وفي اليوم ذاته ذهبت والجريدة في جيبي إلى مكتب «بهجة العطية» رئيس دائرة التحقيقات الجنائية . . . تلقاني بكل حفاوة وترحاب وقال :

بماذا استطيع ان اخدمك . . .

قلت : يا «ابا غسان» هل قرأت الجريدة .

قال : اجل قرأتها . .

قلت : فهمت الدعوة .

قال : نعم . .

قلت : اذن اعطني التأشيرة وهذا جواز سفري معي . .

كانت تلك أول مرة اطلب فيها مثل هذا الطلب ، وسيأتي انني قدمت طلباً مماثلاً للمشاركة في تأبين العقيد «عدنان المالكي» الذي كان البلاط الملكي متهماً بالضلوع في مؤامرة اغتياله . .

علت الحيرة وجهه وقال لي : ماقاله في السفرة الثانية المشار اليها . .

إن امرك وامر من هم من طبقتك يعود إلى من هم أعلى مني . . أي وزير الداخلية ونصحني ان اتوجه إلى «جلال بابان» وزير الداخلية آنذاك ، الذي كان من القلائل الذين احترم نظافتهم إضافة إلى انه كان من اصدقائي المحببين وعلى الفور توجهت إليه وبصحبتي احد معاوني «بهجة عطية» استقبلني الوزير «جلال بابان» بأكثر مما استقبلني به بهجة من ترحاب ومع فنجان من القهوة ، وبعد حديث قصير زف إلي نبأ الموافقة على السفر . . . خرجت من مكتبه إلى مكتب «بهجة العطية» ثم ودعت هذا الأخير ومعي جواز سفري جاهزاً . .

بقي عليّ أن اتمم مطاليب هذه السفرة ، من نفقات وثمن تذكرة الطائرة . . . فارسلت إلى «مزاحم الباجة جي» رئيس الوزراء آنذاك وهو أيضاً ممن تربطني بهم علاقة وطيدة وقديمة لاستدين منه مائة دينار . . . وعلى الفور أرسلها الرجل مشفوعة بالتحية . .

كان اليوم التالي موعد الطائرة وكان عليّ ان احصل على التأشيرة الفرنسية حيث المحطة الأولى للسفر هي باريس وكان الوقت كما اتذكر قد تجاوز حدود الدوام الرسمي ، فاستنجدت بصديقي رئيس التشريفات الملكية «تحسين قدري» للحصول عليها . .

وكان ما توقعت لكنني ما زلت إلى الآن اتذكر ذلك التجهم الذي ران على وجه القنصل الفرنسي وهو يمنحني التأشيرة في ذلك الوقت المتأخر . . .

وتشاء الصدف ان تكون الطائرة التي ساستقلها هي الطائرة نفسها التي يسافر

عليها «الباجة جي» وهو في طريقه إلى القاهرة على رأس وفد رسمي . .

كما تشاء المصادفات النادرة والمفاجئة ان يكون «نوري السعيد» المعني الأول بالوثبة والشامت الأول بانتكاستها هو الخصم المقنع لـ «مزاحم الباجة جي» في سفرةٍ خاصةٍ على نفس الطائرة ولعله كان يقصد لندن في تلك الرحلة . .

توجهت صوب الباجة جي وصحبه وكان علي ان امر «بنوري السعيد» بحكم المكان الفاصل بينهما وإذا بنوري السعيد يفاجئني بحركة يصعب تصور صدورها منه، إذ يعرف عن هذا الرجل انه من الوزن الثقيل وانه يزن كل كلمة من كلماته ويعني بكل حركة من حركاته كما يعرف عنه قدرته على ضبط اعصابه . .

فاجأني «نوري السعيد» وقد خرج من دائرة مرافقيه بما يكفي كي يتلقاني وجهاً لوجه ويقول متحدياً أمام الجميع وبلهجة تطغى عليها السخرية: ماذا تريدون؟ .

وكلمة ماذا تريدون اشارة إلى هتافات الجماهير في الوثبة حيث كان يهتف مناد . . ماذا تريدون؟ فترد الجماهير: اعدام «صالح جبر و نوري السعيد» . .

أقول صراحة: لقد فاجأني «نوري السعيد» لأنني لم اعهده هكذا ولم أكن لاتوقع منه مثل هذا التصرف . .

ويعرف من يعرفني أنني في مثل هذه المواقف ابدي جرأة تصل حد التهور، غير انني الفيت نفسي هذه المرة وانا في لحظة الغضب المتقد والمكبوت مكتفياً بالسكوت وبنظرة استنكار غاضبة وبهزة رأس أشبه بحسن الانتقام .

ولست ادري هل كنت مصيباً أم مخطئاً بهذا الرد وما زلت اتساءل أكان عليّ ان اقول له ما يعرفه هو بالذات . . أكان يجب ان انطقها متحدياً . .

ألا تدري ماذا يريدون؟ . .

غير انني لم ألم نفسي كثيراً لأن تصرف «نوري السعيد» لم يكن عبثاً فقد كان مستعداً لعمل أي شيء بوساطة العصابة التي ترافقه مما لاأستطيع أن أخمن عواقبه فتجاوزته تاركاً إياه واقفا وحده في الفراغ الذي اراده لنفسه وقطعت الأمتار القليلة التي كانت بينه وبين «الباجة جي» الذي شاهد وسمع ما حصل فقال لي وهو يومىء بيده إلى «نوري السعيد» وباللهجة الدارجة: شْبِيهِ هذا . . شيريد؟ يعني ماذا دهاه وماذا يريد؟ . .

قلت: لا ادري ماذا يريد... سله يا ابا عدنان عن هذه اللعبة قال:

ـ اجل إنها لعبة حقاً..

لقد كان «عبد الإله» كما مرت الاشارة إليه يقول: (لا يكون ما لا يريد) وهذه «الماذا يريدون» عن نوري السعيد عرف هو بنفسه ومن معه بعد عقد من الزمن كيف يكون للشعب ما يريد وكيف ينال ما يبغي..

اخذت طريقي إلى القاهرة مع «الباجة جي» ومنها إلى باريس حيث كان هناك من يستقبلني بتوصية من المؤتمر ويرافقني إلى ان حان موعد الطائرة المغادرة إلى بولونيا... وكان هناك والحق يقال شخص آخر تفقدني عند وصولي وهو «باهر فائق» سكرتير السفارة العراقية في باريس..

اقلتنا الطائرة إلى فارصوفيا «وارسو» وبعد يومين خصصا للاستراحة كان موعد انعقاد المؤتمر وخلال يومي الاستراحة كنت اقضي اكثر ساعاتي في التجوال عبر شوارع وحدائق هذه العاصمة الجبارة «او ما تبقى منها» لأن فارصوفيا ويا للهول كانت خرائباً واطلالاً وبقايا قصور فخمة وما زلت اذكر تلك السقوف المتدلية المعلقة التي تأبى السقوط وكل قنابل «هتلر» وقذائفه لم تستطع ان تحني هاماتها وترميها أرضاً...

أما المرافق الذي خصص لي ولازمني طيلة هذين اليومين فقد كان شاباً بولونياً طليقاً نديماً وشاحباً حزيناً في وقت واحد. وتساءلت كيف تتجمع الأضداد في هذا الرجل؟ ومالبثت أن عرفت سر هذا التناقض إذ رأيت بعيني هاتين اللتين أحملهما معي وانا على ابواب العام التسعين بعد الألف وتسعمائة أي بعد اكثر من اربعين عاماً بالضبط ما كنت لا أصدقه بالسماع عن جرائم الحروب واهوالها رأيت ذلك بالبصر وبكل ما على وجهي وفي ضميري من ألم رأيت كيف ينقلب الانسان وحشاً ورأيت ما يسمى بالانسان وما تسمى بالانسانية وهما يسحقان ويسحقان وكيف يلتقيان عندما يريدان بناء حضارة ثم كيف يتعاونان وهما ينقلبان وحشاً ووحشية على تدميرها..

فهذه فارصوفيا العظيمة الضخمة الشهيرة بتاريخها وحضارتها وجمالها وجمال شعبها نساء ورجالاً شباباً وفتيات، ولم يبق مؤرخ في هذا العصر إلا واشار إلى مكتباتها ومخطوطاتها النادرة... فارصوفيا هذه رأيتها وقد لحق الدمار والخراب بهياكلها الجميلة... وتجولت مع مرافقي الشاب بين الاطلال والخرائب حتى

وصلنا إلى طلل من اطلالها وعلى تلة من الصخور والحجارة قال لي مرافقي هذا الفتى الحيوي الشاحب:

ـ هنا كان بيتنا . .

قلت: بيتك.

قال: اجل بيتي وهنا تحت هذه الأنقاض دفنت والدتي واخوتي واخواتي . .

قلت: هؤلاء كلهم.

قال: أجل وانتهى الحديث وكأن كل شيء لديه قد انتهى بهذه الجملة المصيرية . . .

وهنا اكتشفت عظمة هذا الرجل وعرفت لماذا يحوي النقيض ولا زلت مأخوذاً حتى الآن ببطولة هذا الصامت الحزين وتذكرت في تلك الساعة موقفاً سبق هذا الموقف بأكثر من سبعمائة عام حيث كتب «ابن خلدون» العظيم وهو يدون مذكراته في كتابه «التعريف بابن خلدون» وبكل اختصار (سافرت بسفينة كبيرة تحمل مكتبتي ومتاعي وكل من معي من أهل بيتي فهبت ريح صرصر فاغرقتها بكل من فيها وما فيها ونجوت انا بأعجوبة وعند الله احتسبهم).

عجيب كيف تلتقي رموز للبطولات في كل العصور والأزمنة . .

بدأت أعمال المؤتمر والحديث عن هذا المؤتمر يطول وقد كتب عنه الكثيرون.

اعتبرت عند انتهائه أحد المؤسسين لمجلس السلم العالمي المنبثق عنه وفي عام ١٩٨٦ كنت في براغ عندما دعيت إلى بولونيا لحضور ذكرى انعقاد هذا المؤتمر حيث صدرت مجلة المؤتمر حاملة صور أربعة من مؤسسيه وأنا بينهم على الصفحة الأولى . .

في المؤتمر كنت الوحيد الذي ينطق بالعربية إذ لم اجد الدكتور «طه حسين» وهو العربي الثاني الذي كنت اعلل نفسي لا بالالتقاء به من جديد، حيث التقيته في «مهرجان المعري» ولكن كي أجد عربياً يتكلم لغتي واتسامر بلغته ووجدت نفسي وحيداً دون رفيق يؤنس وحدتي وأنا لا احسن من اللغات الأجنبية إلا كلمات ومفردات قليلة قد لا يفهمها عند نطقها إلا من يكون بمستوى إلمامي بها . .

وهذا كانت وحدتي شاقة وقاسية وكم كانت فرحتي كبيرة حين عرفت ان من بجانبي جزائري ثم إذا به لا يحسن من العربية غير السلام عليكم . .

ورغم ذلك فقد اكتفيت ملء النفس بمن التقيتهم من العظماء ومن طلائع المثقفين في العالم كله واذكر منهم بصورة خاصة العبقري الفنان «بيكاسو» الذي لا

ادري لماذا اختارني من دون الجميع ونادى على المصور كي اقف واياه امام الكاميرا . .

وما اشد ما ماطلني هذا المصور وأنا أطالبه بهذه الصورة في باريس . .

ومن بين عظماء هذا الملتقى ايضاً كانت «مدام كوري» الحفيدة التي افتتحت المؤتمر على أرض محروقة مسواة ما لبثنا ان غادرناها إلى بناية شيدت من جديد . .

وفي الحفل الضخم الأخير الذي اقامته الدولة لضيوف المؤتمر شاهدت ما لا استطيع نسيانه شاهدت فتاة فاتنة ابدع الخلاق فيها ما شاء . . . شعرها على منكبيها ولا اذكر انه كان هناك بعد «مدام كوري» أي امرأة غيرها . .

واقول الحق انني خجلت من نفسي وانا بين هؤلاء العظماء من كثرة ما كانت عيناي تلتصقان بها وهي تهامس «بيكاسو» وتتدلل عليه و«وبيكاسو» حائر بينها وبين من إلى جانبه وهو يحاول ان يتحدث إليه ويرد عليها . .

بعد سنتين أو ثلاث وصلتني مجلة فرنسية وصورة غلافها تمثل بيكاسو حاملاً طفلاً جميلاً وتحتها كتب وبالحرف الواحد (اثنان وسبعون مع سبعة عشر) . .

حين أعد لنا القطار الخاص كي يقلنا إلى باريس وفي الردهة الفسيحة بين الجانبين منه كانت مقاعد قليلة معدة لمن يريد الاستراحة وفي الطرف الآخر منها كنت قد اتخذت مكاني فإذا بالسيد «بيكاسو» وصنمه يقصداني وللقارىء ان يتصور حراجتي بفقداني ما يسمى بنصف الانسان «أي اللسان» ومع هذا وبين طقطقة واخرى من كلمة وما يرادفها دار الحديث او ما يصح تسميته «بحوار الطرشان» بعدها قام «بيكاسو» يتمشى قليلاً ليقول لي صنمه «سكرتيرته» ان بيكاسو لديه لك رجاء .

قلت : رجاء من «بيكاسو» ! . .

قالت : اجل انه يخجل ان يقول لك ان مكانه وبخاصة محل نومه هو في الصف العالي من المقصورة الخاصة بكما وهنا ابتسمت - وأضافت : وهو قصير كما ترى ويصعب عليه تسلق السلم فهل لك ان تبدله بمكانك لأنه أكثر ملاءمة له .

قلت لها : سيدتي أنا فخور ان اخلي له المقصورة كلها إذا أراد .

وكان له ما طلب تسلقت السلم نمت مكانه ونام مكاني . .

في نهاية هذه الرحلة لا بد من ذكر هذه الحادثة إذ انني كنت الزائر الوحيد الذي انقذ «بولونيا» في هذه المرحلة بالذات وفي أيام المؤتمر الخطير وما بعده من

بيكاسو

مدام كوري

جاسوس رهيب شاء له سوء حظه وحظ من أرسله وبصدفة عجيبة ان التقى به وهو يجوب شارعاً من شوارعها المحطمة. . هذا الجاسوس الشهير ببغداد كلها بل في العراق بأسره والذي لاأدري كيف أمكن له أن يكون بين من يدرسون في الاتحاد السوفييتي مندساً فيه ومتخرجاً من مدرسته الحزبية ثم جاسوساً عليه. .

لقد كان كما يعرف كل من عاش هذه الفترة في العراق يوزع هو وزبانيته وفي الشوارع والمقاهي ودواوين الدولة نشرات اسبوعية يُشهر فيها بالاتحاد السوفيتي منذ توالي العشرينات وما بعدها. .

واستوفز الرجل مني وقد اكتشفته باكثر مما استوفزت وهويفاجئني وفهم كل واحد ما يريده الآخر. . . غير اني سرعان ما كنت في مكتب السفير المصري إذ لم تكن أية علاقة قائمة بين العراق وبولونيا دبلوماسياً لأقول له:

إن السفارة المصرية هي سفارة كل عربي هنا ومن حقي ان ارجع إليك بوصفك سفير محبة بيننا وبين هذا البلد المنكود وقصصت عليه قصة هذا الجاسوس.

وفي اليوم الثالث من وصولي إلى باريس جرى تنبيه المسؤولين البولونيين، وفعلاً وبسرعة خاطفة تخلصت بولونيا منه ورمته خارج حدودها. ومن يومها وهذا الجاسوس وبعد عودتي إلى بغداد يكاد يفترسني بعينيه عندما يراني، واني مازلت أتساءل كيف وصل هذا الرجل المريب؟. وعن أي سبيل. . . وكيف غفل عنه من هناك. . . وهل كان من القدر ان نلتقي معاً بين خرائب فارصوفيا؟.

اظن انها اسئلة في محلها. . .

وتعود بي الذاكرة الآن إلى عام ١٩٦٣/ حين شاهدت فارصوفيا وقد ارتدت كبرياءها ونهضت من تحت الرماد. . . وتساءلت:

اهذه هي فارصوفيا التي رأيتها مدمرة محطمة واطلالاً وخرائب؟. .

اتلك المدينة المنهارة سقوفها المدمرة ابنيتها، المخربة شوارعها، تتحول إلى هذه البدائع من الجنان؟. . وإلى كل هذه الحضارة العمرانية، وإلى كل هذا السحر حدائقاً وشوارعاً، ، وعمارات شاهقة شامخة.

وتصورت كم هوعظيم الانسان البولوني الذي استطاع خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة ان يحول الدمار جمالاً والخرائب حدائقاً والابنية المتهدمة ابراج

حضارةٍ.

وبين مقارنتي بفارصوفيا وهي في هذه الحلة البديعة من الجمال والزهو والحضارة وبينها وهي خرائب ودمار وسقوف متدلية قلت:

«فرصوفيا» والدم يستبقي مدى الهدر دما
والموت بالعزة يبني للحياة سلما
«فرصوفيا» امس رأيت الحجر المكوما
كان جبيناً، وفؤاداً، ويدا، ومعصما
جيل تأبّى ان يطاطي، فرموه، فرمى
لولا الرجولات اراح نفسه واستسلما
فرصوفيا ما ابدع الأمثالا
يستنهض الجيل بها اجيالا
حتى إذا غد تمطى فجره وابتسما
وابدل الايمان بالنهار ليلاً مظلما
حتى إذا البلطيق هدى موجه المحتدما
عاد الدم المطلول خدا ناعماً ومبسما
وصيغت الدمعة عقد لؤلؤ فانتظما
وعادت الضحكة في سمع حزين نغما
الف فم حلو قضى، لتنعش الكأس فما

حـــوّاء الثـــانيـة

من هذه السنوات المتشحة بالحزن والسواد اقتطعت وبمحض المصادفة قطعة استجمام وحيدة بين «أتعلم أو أنت لاتعلم» و«أنا حتفهم ألج البيوت عليهم».

هذه المصادفة التي قدرتها لي المقادير عزاء ورأفة . .

وعـدت هذه المـرة اليهـا ليس لليلة عابرة وانها لستة شهور عدت إلى باريس العظيمـة السـاحـرة الى ام الـدنيا وام الحضارة وكم شدتني باريس إليها شداً طوال هذه المدة وحتى الآن ولبعد الآن.

كان هذا في الأربعينـات اي بعـد تسـع عجـاف (ويـا الله كم كابـدت وكم لاقيت وكم خسـرت وكم ربحت في معـارك هذه الفـترة) . . . وتسـاءلت ابعد هذا الجو الرهيب الذي كان يلفني ومن معي ويلف الناس كلهم في العراق ابعد هذا كله اكون في باريس . . ولا مفر هنا من ان اتذكر واقارن واقايس بين سفرة كئيبة حزينة إلى لنـدن كنت خلالهـا أحسب السـاعـات والأيـام وبـين هذه السفـرة المعـاكسـة إلى باريس والتي ازحزح فيها بعض الشيء من ذلك الضنى والعذاب والتي من خلالها كنت وانـا بين يدي هذه السـاحـرة حيث يجب ان اكون، لقد طرقت باريس ابواب الحب في فؤادي طرقـاً لا أعنف منـه حتى يومي هذا وأنـا في التسعـين، وفي باريس فدون الخمسين . .

وبكـل الـدفء سقتني باريس كأس الحب الجنـوني طوال هذه الـرحلة برغم زحمـة الأحـداث ورغم كل تلك الآلام ورغم كل ذلـك التوتر والسهاد كنت غاية في السعادة . . حب مخيف في الديوان ما يغني عن تفصيله . . وحسبي ان اقول:

«اصطادتني حواء الثانية . . انيتا . .

ومن هذا الاصطياد كانت قصيدة انيتا «التي تقول مقدمتها :

«كان حباً عارماً . . لا يريد ولا يقدر له لو أراد . . أن يقف عند حد . .

وكان كأنه يتفجر عن ينبوع خفي ثجاج . .

وكان سر الخفاء في هذا الينبوع رغبات وآلام ومطامح . .

ظلت طوال ثلاثين عاماً . . . انها عصارة العمر الزاحف . . يسق بعضها بعضاً . .

حتى لو وجد هذا الينبوع المختنق منفذاً بديلاً عنه لما اختلف الأمر بكثير . .

لقد كان هذا الحب من الفورة والثورة بدرجة ان صاحبه كان لا يرى في ملامح المرأة التي احب الا ما يراه العازف المتجرد في انغام قيثارته من انها طريق للتعبير وشعار للانطلاق . .

خمسة شهور قضيتها من ستة وفيها عشت قصة وجيب قلبين يتصارعان معا في الخفوق، ففي الليلة الأولى التي امتدت سهرتها حتى الصباح كنت في محراب العابد المتصوف اتلذذ بغيابي عن العوالم جميعها بحضور من اعشق حتى العبادة . . اذكر ان الكأس كانت امامي وهي نائمة فلم امس طرف انملة واحدة من اناملها الذهبية وهي في غفوتها الحالمة . . غير انني مددت يدي إلى القلم لأغني لها على ورقة امامي . . وكأنني اغني فيها لمن يسمع . .

إن وجه الدجى «انيتا» تجلى
عن صباح من مقلتيك اطلا
وغياض المروج اهدتك طلا

❊ ❊ ❊

إن هذا الطير البليل الجناح
المدوي على متون الرياح
والذي ازعج الدجى بصباح
محب في الليل من ثغور الاقاح

❊ ❊ ❊

رشفة مع عطرها وتولى
حيث هذا الرأس الجميل تدلى
والفراض الذي به يتملى
وبحيث ارتدت هباء نثيرا
تملأ النفس والفضاء عبيرا
خصلات من شعرك الذهبي
كنت فيه الثرى اي ثرى

* * *

اسمعي اسمعي انيتا فهنا
وهنا صادح صبا فتغنى
والطريق المهجور عاد فرنّا
من جديد ببعثه يتهنى

* * *

اسمعي اسمعي انيتا صداه
تجدي عن صدى الزمان بديلاً
وترين الدنيا تجد رحيلا
بالاماني غدوة واصيلا

* * *

بعدها تأتي المرحلة العنيفة من الوجد ثم يأتي الهجر بكل مرارته ثم اللقاء والاياب . .

لقد دونت هذه الملحمة نفسها بنفسها والفضل في هذا لباريس التي مدت يديها لتضعني في لب ملحمة انشدها . . باريس التي اضاع علي هذا الحب المجنون فيها الكثير من الاندماج والانسجام معها بل والذوبان فيها . . من تذوق طعمها وتنشق عطرها وتلمس معالمها واستلهام وحيها . . ولعلي كنت بالوعي الباطني اريد ان اعوض باريس ما افقدني الوجد وما دفعني اليه الحب من اهمال وانشغال فكانت قصيدتي :

تعـــالـيـــت باريس ام الـنـضـــال
وام الجـــمال وام الـــنـغـــم
تذوب فوق الـــشــفــاه الألم
وســـال الــفؤاد على كل فم
تضـيــع الحـــرارة بين الـــوصـــال
وبـــين الـــثـنـــائي وبـــين المـــلال
كأنـــك شمـــســـك بين الجـــبـــال
تغـــازل حين . . تلوح الـــقـــمـــم
وتـــبـــدو الـــغـــيـــوم لها من امـــم
فتـــخـــفـى كما يتـخـفـى الـنـدم

* * *

على كل خصـــر تلاقـــت يدان
الأنـــا مثـــقـــفـــة فاســـتـــلان
وكـــل فم حشـــوه وردتـــان
هما الـشفتـــان . . هما الجمـــرتـــان
اراق الـــزمـــان دمـــاء الـــشـبـــاب
خفـــا فيـــهـــا وهما يلهـــثـــان

* * *

سحـــر باريس انصب عليّ كما انصب على كل المـوهـوبـين والملهمـين وكـل المفكرين والشعراء في العالم وقبل هؤلاء فعلى عباقرة فرنسا انفسهم . .

وللحقيقـة كانت باريس واحتي الجـديـدة في متـاهة هذه الصحراء التي كنت اجوبها بالآلام والدماء والأحداث الجسام . .

وبـــاريس هذه اعطتني فيـها اعطت ولأول مرة فرصـة ان ادخـل هيئـة الامم المتحدة ومجلس الأمن فيها بصورة خاصة والقصة تكاد تكون نادرة . .

فقـــد تحدثـت في (وثـبـــة كانـــون) عن «وزيـــر المعـــارف» في معـــرض موقف من جريـدتي الـرأي العـام وازعـاجهـا الحاكمين . . . أما في باريس وتصحيحاً منه

لذلك على سبيل «المعادلة» فقد أقام لي وليمة ولقاء في السفارة العراقية وأصر على ان كون معه في الوفد العراقي إلى هيئة الامم المتحدة دون ان تكون لي فيه صفة رسمية وانا اشد المناوئين للرسميات فحضرت ورأيت بعيني كيف يكون الفيتو. . . وذلك حين ابصرت خمسة اشخاص ضخام مخيفين يتخذون مقاعدهم في المنصة العليا ورأيت واحداً منهم وهو في الوسط يرفع سبابته إلى الأعلى . . سألت صاحبي وقتها ما معنى هذا قال: معناه ان القرار قد اسقط . . وكان الذي اسقط القرار اصبع «فيشنسكي» ممثل الاتحاد السوفيتي ان لم تخني الذاكرة.

ستة شهور قضيتها هناك وخلالها كنت القطب الأول للشباب العراقي وهم كثير ون ومن الرعيل الأول أدباء وفنانون ورسامون . . اذكر منهم عبد الرزاق الشيخ علي ـ صاحب كتاب اجراس السلام الذي فقد ولم يعرف اثره حتى اليوم و(اسماعيل الشيخلي) والعبقري جواد سليم ـ الذي قصدني الى المقهى قادماً من ايطاليا وهو يرتدي الشورت وكان يومذاك شاباً لا يزيد عمره عن اواسط العشرينات وعرفني بنفسه قائلاً:

(انا جواد سليم) ويومها لم اكن اعرف ان هذا الشاب البسيط سيصبح النابغة الأول في فنه وفي وطنه وخارج وطنه كذلك. .

واخيراً فقد ودعت الساحرة باريس وودعتني «ساحرتي انيتا» حتى المطار وحتى يوم التلاقي في عالم الأرواح. . .

أنا والمرأة

من يتصفح ديواني يجد طائفة من النساء بأسماء ومن دون اسماء في مكان ومن لا مكان، . يحملن لي واحمل لهن بعضاً من عشق، وبعضاً من هيام، وشيئاً من شغف وشيئاً من مودة، يخالطها عبث ومجون هنا، ووداعة وهناءة هناك . . .

ومـا كان لي إلا هذا ففي رحلة من ثمانين عاماً لاقيت ما لا قيت ورأيت ما رأيت، تغزلت بنساء ما رأيتهن، ورأيت نساء ما تغزلت بهن، وكانت لي مباذل، وكان لي عشق مقدس، صليت في محاريب نساء والها مغرماً دنفاً، وعزفت عن الصلاة في محاريب أخر، بكيت ورثيت احبة لي، زوجاً، واختاً وطفلات وفي هذا كله لم اكن إلا بشراً له جذوة في القلب، قلت:

يا فؤادي أأنت جذوة نار كلما هبت الرياح تشب

وقبل ان اوغل في الحديث يحفزني حافز لا قبل لي بعده، ان اذكر مثالين هما مثال غابر ومثال حاضر، مثال غابر من الغابرين اجدني ملزماً بالتذكير ببشار، هياماً ومباذلاً، ومثال حاضر وببابلونير ودا المتنقل بين النساء في حياته وسيرته.

كان الاثنان يسردان مباذلهما الأول فرحاً يخدش حياء مجتمع البصرة المعتزلي المتزمت، والثاني مغتبطاً بمسرات حياة مقبولة في تلك القارة البعيدة . .

في حضارة الأول الحديث عن المرأة رجس محظور وفي حضارة الثاني الكلام عنها شيء من طبيعة الأمور وبعد الف عام على بشار او ما يزيد ما زلنا نمسك عن الكلام المباح . .

ما هذه بدعوة للاسفاف فبين ان نصرح وان نسف ما بين السماء والأرض من مسافات اقول تحدثت في شعري عن مجالس ادب تكاد تكون مكشوفة فيها مخلوقات

من عالم الغواني وعالم العاشقات وفي كل الأحوال لم اخرج عن حدود الاحترام لهذا الكائن البديع الذي اسمه (المرأة)، وكنت ادفع بهذا ثمن جمال الأنوثة وفتنتها وروعتها . . . وادفع ايضاً ثمن الرجولة المتقدة .

وفي كل حالة من الاتقاد العميق او الاشتهاءة العابرة لم اكن إلا صادقاً وهذا سلوك طبيعي يتناسب مع تكويني . .

في أواخر العشرينات واوائل الثلاثينات اعطيت رجولتي حقها في ليال ماجنات عابرات ولم يكن جهري بها شعراً إلا برماً بقضبان القفص الذهبي في البلاد ليس إلا، اوكان جرياً عل سجيتي دون التفات للعواقب . . . ذلك كان شبابي العنيف ولكن كهولتي لم تكن أقل عنفاً بل كانت اعتى ضراوة ولكن ينبغي على المرء ان يتذكر اني من بيئة نجفية من بيئة هي التزمت مجسداً وهي التبتل المفروض قسراً وما كان لبيئة كهذه، بل لبيئة العراق ان ترتضي سماع «جربيني» او «هزي بنصفك» . . .

وكيف لهذا المجتمع ان يرتضي قولي وانا ازدري مقاييس الخلق وعقائده .

نهداك والصدر ثالوث اقدسه
لو كان يجمع تثليث وتوحيد

وقصة هذا البيت والقصيدة التي هو منها «وادي العرائش» مما مرت اللمحة منه في الجزء الأول من هذه الذكريات .

لقد اسمى البعض هذا المجون مجون شعر للتملح او الاستطراف حيناً ومجون شاعر بعينه حيناً آخر . .

وعن «ليلة معها»! وهي أقل عنفاً من جربيني ولكن أكثر صراحة وجمالاً قيل انها تقع على لون آخر من الاحساس يخلو من طابع المجابهة البارز في قصيدة (جربيني)

فعلام تجتهدين مرغمة ان تستري ما ليس يستتر

وفي قصيدة (سلمى) قيل انني كنت هادئاً، حزيناً، حليماً .

أنا أهواك لاأريد جزاء غير علمٍ بأنني أهواكِ

أما في (افروديت) فإن صيغة الجمال ناضجة متفردة هذا ما قيل واظنه في الأحوال كلها صادقاً . .

فلكل امرأة مقام . . . ولكل مقام مقال .

في مقابل اللهو والعبث والمجون كانت لي قصائد حانيات مكبرات للمرأة المقاتلة البطلة، وللزوج الحنون، وللأخت الرقيقة. وقد خصصتهن بقصائد مدح وثناء او بكاء ورثاء وكان فيها من العبادة اضعاف ما كان في غيرها..

لم تكن المرأة عندي جسداً وحسب ولم اوغل في وصف هذا الجسد إلا لماماً.

لقد كتبت الكثير عن المرأة في شعري واقول هنا النزر اليسير عنها تاركاً لديواني ان ينطق فله اكثر من لسان..

ومع هذا، وعلى افتراض ان يكون هناك من لا يعثر على ديواني، فلا أريده ان ينسى انني عشقت الفاتنة الحسناء «بنت هويدي» وأنا بين السادسة والسابعة من عمري «عشق مجنون بليلى» عشقاً أقضّ عليّ مضجعي وشرد عني نومي بانتظار أحر من الجمر في أن يُسفر الصباح لأهرع إلى حضن عشيقتي بنت العشرين عاماً.

وأخيراً وأنا بصدد نصف الرجل الأفضل، لأعجب كل العجب من أن يكون هناك من يجوز له أن يسألك: ما رأيك في ان تشرب الماء؟ ما رأيك في تناول الطعام؟ مارأيك في استنشاق الهواء؟ ومع هذا وفي مجتمعاتنا العربية، لا مَن يسألك مثل هذه الأسئلة حسب، بل ومَن يُلحّ عليك فيه وكأنه يريد أن يكتشف سرّاً من الأسرار.

مشانق .. وَفاقة

في جملة من المفاجآت التي تخالطت علي وانا في باريس كانت مفاجأة صدور الحكم بالاعدام أول مرة على سكرتير الحزب الشيوعي العراقي . . . حيث دوت ضجة في فرنسا وفي كل اقطار العالم لا التي فيها حزب شيوعي وحسب بل ومن كل الأحزاب الاشتراكية على اختلاف مناهجها، وكان لذلك اثر بليغ لحد اضطر معه الحاكمون المتجبرون «المنتصرون» بعد انتكاسة الوثبة ـ ان يبدلوا حكم الاعدام بالسجن المؤبد، ثم ليدبروا حكماً ثانياً عليه بالاعدام بحجة أنه ابتدأ يتراسل وهو في السجن ويثير وينظم الصفوف في العراق فكانت المحاكمة المفتعلة ثم تنفيذ حكم الاعدام .

من غريب المصادفات ان يكون يوم عودتي إلى بغداد يوماً خاصاً، وصلت إلى بغداد وانا في طريقي إلى البيت وكان الوقت صباحاً قال لي سائق التاكسي وكان رجلاً كهلاً جميل الشكل يتمازج البياض والسواد في لحيته وهو يقود سيارته بهدوء ورباطة جأش وصمت، وبدا عليه انه يعرفني :

«عمي ابو فرات . . . علكوهم ، شنقوهم» . .

لقد ارجعتني كلمات الرجل الكريم هذا إلى عهدي بالدم في بيتي وعلى «جسر الشهداء» .

وصلت إلى بيتنا البسيط المستأجر بالقرب من محطة الكهرباء التي تنير بغداد ومكانها (العيواضية) بينما كانت عتمة الاحزان توشح فؤادي ، وسآتي على الوقائع التي تلي كيف تفجرت هذه الأحزان غضباً مدوياً ليس له قرار، لكأنني في تلك الأيام لم تكن تكفيني ما كانت تحيط بي من مصائب فاودعتني حزناً جديداً هو ضيق ذات اليد . .

كنا نستدين الخبز من بائعة خبز كريمة والحليب من بائعة حليب مثلها معتمدين على كرم الفقراء . . .

وأمام هذا الوضع المحرج اضطررت ان الجأ ولأول مرة إلى ثلاثة من ابناء عمي لا يتوقعون ابداً انني سأطرق بابهم يوماً من الأيام، وان استدين منهم مبلغاً زهيداً لا يصعب عليهم دفعه. ومن المفارقات التي عشتها ان استداتني هذه وطرقي تلك الأبواب ذكرتني بالمثل القائل: «ما اشبه الليلة بالبارحة» ولكي تترافق مع مرحلة - بل وفي مراحل عديده - لم يكن في العراق خلاها من يطرق عليّ الباب ولا من سأل ولا من يقول ماهو عليه حال - فلان - أو أهل بيته أجاعا ناموا أم غير جياع؟.

ثم فكرت بمضض وألم شديدين وقد بلغت بنا الحال هذا الحد . . ببيع مطبعة جريدتي (الرأى العام) التي لم يبق لي من حطام الدنيا غيرها وكانت ذات مواصفات جيدة فهي كبيرة الحجم ومطلوبة على الرغم من قدمها ولم اجد مفراً من الاعلان عن بيعها في الصحف وبينما كنت ذات يوم جالساً في مقهى (حسن عجمي) في الحيدرخانة - مكاني المفضل انا واترابي منذ العشرينات - واذا بشاب يافع جميل الشكل مؤدب يجلس بمواجهتي وعرفت ان اسمه /حسن/ جلس وقال:

«صباح الخير استاذي» فأجبته بمثلها، قال:

يا ابا فرات انا فلان (وعرف نفسه بانه من اصحاب معامل الطابوق ببغداد) وانا واحد من محبيك الكثر في العراق وانت لا تعرفني، لقد المني واحزنني ان تباع مطبعة «الرأي العام» فهل لي ان اقدم خدمة افتخر بها وهي ان ادفع اذا سمحت لي - كل ما تحتاج لئلا تضطر إلى بيعها لأن اسمك عزيز على الناس وكذلك «الرأي العام» ومطبعتها . .

لقد فاجأني هذا الرجل وعرضه وتناؤد. فهاهو يقدم لي شيئاً غير مألوف لدي عدا قصة اخرى مشابهة من جهة وغريبة من جهة اخرى لأنها كانت اقرب إلى التكريم والتبرع بشراء هذه المطبعة نفسها من قبل شخص آخر لم تربطني به سابقاً رابطة او حتى نقطة التقاء واحدة، وهو السيد (صالح طعمة) من عائلة عريقة في «كربلاء» مشهورة بهذا اللقب، ويستمر الحديث مع المبادر الكريم (حسن) حيث قلت له: «هذا نبل منكم ولكني اتقبله شريطة أن أرهن المطبعة

عنـــدك إلـى مدة محدودة، فإذا تمكنت دفعت ما اقـــرضتني ايـــاه وإلا لك الحق ان تتصرف بها كما تشاء» . .

قال: «هذه رغبتك وليست رغبتي، وبذلك ستحوجني على القبول بهذا الشرط».

ثم ذهبنا إلى كاتب العدل، وسجلت المطبعة رهناً لديه وتسلمت المبلغ وكان (٧٠٠) دينار. . .

قصيدة هاشم الوتري

قبـل يوم كنت خاوي الـوفـاض واليـوم تحتشد في جيبي سبعمائة ورقة من فئة الدينار وهي ثروة كبيرة بمقاييسي بل وبمقاييس تلك الأيام . .

عنـدمـا تأتي الفـرص فإنها تكر متتاليات في الصبح اتصل بي هاتفياً الدكتور «اسماعيل ناجي» وهـو بمثـابـة سكـرتـير للدكتـور (هاشم الـوتـري) وقـال لي كمن يكتشف سراً من أسراري :

«اخـوك هاشم سيقـام له حفـل تكريمي لقبوله عضواً في الجمعية البريطانية الملكيـة للأطبـاء ـ والـدكتـور (الـوتـري) بحق استاذ هذا الجيل الصاعد من أطباء العراق حينئذ» ـ . .

وقال : ان هذا الحفل وكما تعلم لا يمكن ان يتم بغير مشاركتك ، والشباب لن يحضروه بدونك .

كان ذلك بالنسبة لي مطمحاً ما بعده من مطمح وعيداً سعيداً وفرصة سانحة كنت مستعداً ان اضحي بحياتي في سبيلها وانا في مثل هذه الظروف الصعبة وعلى مثل تلك الحال وفي صميم الوضع الرهيب والمتأزم في العراق . ولأجل ان أتثبت من صدق الخبر وابدد كل شك بصدقه ، اظهرت شيئاً مصطنعاً من التعزز والتمنع وقلت :

«انا تعب» .

قال : يا فلان أقبّل يديك . .

فقلت : ما دامت القضية بهذا الشكل ولمثل الدكتور (الوتري) فانا موافق» .

ـ أغلقت سماعـة الهـاتف وغـرقت في فرح طفـولي عارم بلغ حد الـرقص . إن

الفـرصـة التي انتظـرتها طويلاً اتتني طائعة منقادة (تجرّ اذيالها) وبشكل عفوي وفي وقتهـا المنـاسـب واعتقـد ان القنبلة المشحـونـة المنـزوعة الفتيل اقتربت من لحظات الانفجـار الأخـيرة ومـا أروع هذا الانفجـار المدوي في مثل هذه الساعة وهذا اليوم تحت الظـلال السـوداء من مجالس الحكم العرفي . . كنت على سطح الدار في تلك الليلة نفسها وأنا على حصيرة وفراش بسيط ممدود عليها وبجانبي زوجتي ويحيط بنا أطفالنـا ، عدا (فـرات) الـذي كان حينئـذ في سجن (الكوت)، ونحن على تلك الحال وإذا بصوتي المألوف في التغني وبالنغم البدوي الشجي :

«ايه عميد الدار» . .

والغريب انني لم ابتدىء كعادتي في اكثر قصائدي بالمقدمة المطلوبة فأنا الآن يهمني الموقف الثائر والمطلوب وحين وصلت إلى قولي :

«حشدوا عليّ المغريات . .

وإذا بزوجتي (ام نجـاح) تصـرخ بي «عـوافي ابوفرات» وهذا التعبير المنتزع من العامية يشير إلى صدره فهي تعلم ما وراء هذا القول من نتائج عليها وعلى من معها في مثل هذا الجو والمناخ المخيف . .

فقـد كانت الارهـاب مهيمنـاً على سماء الوطن كله ولا سيما العاصمة بغداد وعلى شوارعها ومقاهيها بل حتى على بيوتها وما يدور فيها من احاديث هامسه ، كما كانت احشـاب المشـانق الأربعـة واليـابسة على اطراف بغداد شاخصة وحزيانه في وقت واحد لا لمجرد انها حملت اوزار الانفاس الأخيرة لشهداء اربعة بل لأنها كانت تحمل الى ذلك رمزاً آخر. فواحد منهم كان شيعياً واخر سنياً وثالث مسيحياً ورابع يهودياً . .

وكانت زوجتي وهي تقول (عوافي) عارفه بعواقب قولي هذا وهذه عبارة تقولها النسـاء لعـريـا ـ في المعارك حتى عندما يجرح أو يقتل المحارب تقولها بلهجه (زغردة) «عوافي ابو فلان» . . اي بكل ما كان وبكل ما سيكون عليك وعلينا . .

تهيأت قبـــل ان يســافـــر من في البيت وذهبت إلى الخيـاط الأرمني الشهـير (الياس) وأوصيته ان يخيط لي بدلة جديدة ومتميزة تظهرني امامهم بمظهر اللائق لا بمظهـــر المحتـاج او المعـوز، ثم ودعت اهـلي واعطـتهم كل تلك الثـروة واحتفظت بـ /٦٠/ دينـار فقـط ، وقـد قدرت ان المبلغ الذي اعطيته لعائلتي يكفيهم بما يكفل لهم الكفـاف في العيش بكـرامـة وراحـة لأكثـر من ثلاثـة اعوام ، كانت هي اقل ما

توقعته من حكم محتوم، وشجعني اكثر فاكثر اطمئناناً عليهم انهم في بيتهم وفي رخاصة من كل مواد العيش في النجف.

احتشد الشباب في حديقة المسبح خارج بغداد وكان هذا في صيف تموز والليلة الأولى من رمضان وارسل الدكتور (الوتري) إلي سيارته الفخمة لتقلني إلى الحفل وكنت قبلها قد تلقيت بطاقة الدعوة المذهبة (قالوا فيها بعد ـ لجبنهم وخوفهم ـ اننا لم ندعه).

ولم يخجل هؤلاء من هذه البطاقة ولم يخافوا ان ارسلها إذا شئت إلى الصحف..

وسكتُ على ذلك صابراً وساخراً، وحين وصلت كانت الساحة ـ وهذا ما اريده ـ تجمع الطالب والمطلوب والظالم والمظلوم والحاكم والمحكوم، فإلى صفوف الشباب المحتشدة كانت صفوف لـ «بكوات و باشوات» بغداد يتوسطهم ممثل البلاط الملكي ورئيس ديوانه (احمد مختار بابان) ورؤساء ووزراء سابقين ووزراء واعيان، ووقفت وقفة المحتفل بعيد ميلاده وقلت ما شئت ان اقول:

إيه عميد الدار شكوى صاحب	طفحت لو اعجه فناجى صاحبا
نبئت أنك لست تبرح سائلا	عني تناشد ذاهباً أو آيبا
وتقول كيف يظل نجم ساطع	ملء العيون عن المحافل غائبا
الآن انبيك اليقين كما جلا	وضح الصباح عن العيون غياهبا
فلقد سكت مخاطباً إذ لم اجد	من يستحق صدى الشكاة مخاطبا
انبيك عن شر الطغام مفاجرا	ومفاخرا ومساعياً ومكاسبا
عن شاربين دم الشباب لأنه	لو نال من دمهم لكان الشاربا

وسيجدها القارىء هي وغيرها في الملحقات من هذه الذكريات..

وبينما انا اتوسط المعركة بهذه القطعة كان الممدوح يحدث من بجانبه بصوت مسموع وبطريقة مقصودة اراد ان يشهد بها الآخرين على انه غير راض عن هذا وذلك بقوله: «هاي شنو» ومعروف عن (الوتري) مع طيبة سمعته، تهافته على البلاط وعلى الاستيزار، وكان مرشحاً ان يكون وزيراً لذلك صنع ما صنع ولا سيما ان رئيس الديوان كان يتسمع إليّ ويرى الوتري بعينيه فهو اول واهم شاهد عليه. اني وانا انكر على الوتري ذلك، فلست بناكر حقه في موقفه المشرف إذ كان ضد معاهدة (بورتسموث) ووقف بوجه الشرطه وهم يقتحمون الكلية الطبية التي كان

عميـدهـا، بل اني ثبتّ هذا كله في المقـاطع الأولى من قصيدتي وتكريمه ـ عميد الدار ـ أما الآن فقد تغيرت الموازين والمقاييس والاشخاص والأهواء . .

وحـين انتهيت وقبـل نزولي من على المنـبر مزقت اوراق القصيـدة اربـاً اربا ورميتهـا امـام الحشـد الحـاشـد في الساحة الخضراء، ونزلت. والمفارقة العجيبة فقد اسـترعى انتبـاهي ان هؤلاء الشبـاب الـذين كانوا يقومون ويقعدون ويجنون فرحاً ونشوة حين اقول بعض ما قلته في قصائد اخرى هؤلاء الشباب انفسهم لم يتجرأوا ان يطلبوا اعادة بيت واحد مما قلت فضلاً عن ان يصفقوا او يهتفوا، حتى كأني بهم وهم يحبسـون انفـاسهم المكبوتة عاجزين عن أي تعبير على انجذابهم وانشدادهم بالقصيدة سوى بقرقعة الكراسي التي كانت وكأنها اللسان الناطق عنهم وكفى بهذا شاهداً على ما ذكرته عن الجو المحموم والمسموم والرهيب في العراق كله لا في بغداد وحدها . .

وبعـد انتهـائي من هذه الـوقفـة تقـدم إليّ شيـخ ممن يفتخرون بـ «المعارضة المزعومة» ليهمس لي همس النملة وكأنه خائف من ان يسمعه احد «احسنت» وكفى . . .

انتهى الحفـل وراح «السيـد الممـدوح» يستعجـل الأمـر لتوديع الحاضرين، وخـرجت مع المـدعوين وكأنني واحد من المجهولين عنده ولا اذكر انه نطق باكثر من عبـارة «مـع السـلامـة» لكل واحد من مودعيه وانا واحد منهم، وبالطبع فقد رفض هذه المـرة ان اعـود من حيث اتيت بسيـارتـه الفخمـة المعهـودة . . ووقفت انتظـر حافـلات المصلحـة لتنقلني وطبيعي ان القصيـدة قد دوت هادرة وانطلقت كإعصار مزمجـر والشبـاب تفـرقـوا، وكبـار القـوم تفـرقوا، وكل واحد منهم والقصيدة حديثه وحديث مجلسه وتناقلتها الشفاه للاذان . .

وخلال انتظاري قدوم الحافلة كنت اتوقع ان يلقى القبض عليّ كردة فعل لما كان مني ولكن ذلك لم يكن.

ورجعت إلى السطح في الدار المقفرة الخالية حتى من سياج يقي من السقوط ونمت ليلة لا اسعد منها في حياتي . .

واصبحت ولم يلق القبض عليّ بعد وامسيت ولا شيء وفي اليوم التالي وانا في الحافلة التي تقلني فإذا من فيها وكأنهم يفزون مدهوشين من انني ما زلت حياً ارزق بينهم . .

في اليوم الثالث وكان يوم السبت من تموز عام ١٩٤٩، وكان عندي رجل احترمه واعتبره واحداً من افراد العائلة وكنا نسميه «العم عبود» وقد لازمني سنوات عديدة. . قلت له:

«عمي عبود» ارجو ان تقف وراء النافذة واخبر كل من يسأل عني بأنني غير موجود تفاديا لوعد كنت قد قطعته لبعض الأصدقاء بمراجعة وزارة المعارف لأمر يخصهم. .

في الصباح الباكر وفي وقت غير متوقع بين السابعة والثامنة وانا اتناول الفطور وإذا «بعبود» يقول: عمي إجوّي (أي لقد جاؤوا).

جاؤوا اذن انتهى الأمر وهذا ما توقعت، فقلت وعلى خلاف ما كنت قد اوصيته به افتح لهم وكان ظهري إلى باب الغرفة وسمعت طرقاً خفيفاً على الباب فقلت: تفضلوا ودخل شابان بلباس مدني وكانا في غاية التهذيب. سلما، قلت لهما: تفضلوا معي اولادي على الفطور. . .

قالا: بالعافية لقد سبقناك وطلبت لهما القهوة. قالا: شكراً لا ضرورة فنحن مستعجلان ونرجو ان لا نكون قد ازعجناك، اننا من مديرية الأمن (اومن قبل المجلس العرفيّ، لم اعد اذكر) ونريد القصيدة. .

وكان كل متاع الدنيا عندي حينها صندوق حديدي فيه كل اوراقي وكل ما فيه شعر ورسائل واوراق عدا فراش النوم وبعض الكراسي وادوات المطبخ. .

قلت لهم: اولادي ـ القصيدة كما تعلمون ـ مزقت امام الحاضرين وكعادتي لا توجد عندي نسخة غيرها حيث كنت وما زلت حتى ايامي الأخيرة اعطي للجريدة او المطبعة النسخة الوحيدة لنشرها وتبقى في الجريدة حيث يحتفظ بها من يحتفظ، اما انا وإلى الآن فليس عندي أي مسودة من كل ما نظمت ولا جريدة من الجرائد. وبالمناسبة اتعجب كيف جمع ديواني من قبل جامعيه (عبد الكريم الدجيلي) و (رشيد بكداش) والمحامي المعروف (ضياء شكارة).

هكذا قلت لهما، فوجدتهما ينظران إلى الصندوق بريبة فقلت: كل ما عندي في البيت هو هذا الصندوق وإذا كان عندكما اي شك فبوسعكما ان تفتشاه. . .

قالا: أتأذن لنا؟. .

قلت: بكل سرور. . وكان مفتوحاً ففتشاه واخذا مافيه من اوراق متفرقة وكأن هذا هو المطلوب من قبلهم. .

ثم قالا: نحن مكلفان ان لم تكن القصيدة موجودة ان نصطحبك معنا. .

قلت: اعرف ذلك يا أولادي. .

وذهبا بي إلى دائرة في وزارة الدفاع لقد كان الأمر بحكم المجالس العرفية ان يسجل المقبوض عليهم قبل كل شيء لدى المسؤولين في تلك الوزارة، واصطحباني بعد ذلك إلى مديرية الأمن العامة وكانت تشرف على نهر (دجلة). ومن المفارقات ان يكون حاكم التحقيق هناك شخصاً بارزاً في اختصاصه وقد اصبح عضواً في محكمة التمييز فيما بعد. .

تلقاني الرجل بترحيب واعتزاز غير منتظرين. امر بفنجان قهوة وكوب ماء ليقول لي: «قبل كل شيء انا فلان وإذا لم تخني الذاكرة «وليد الأعظمي»، وقد تستغرب أن اكون من المعجبين بك وبشعرك واعتقد ان دليلي على ذلك ما هو موجود في درجي» ثم اخرج لي رزمة او رزمتين وكانت محجوزة لديه من قبل الشباب المقبوض عليهم. وفي الجملة من التهم التي يتهمون بها ان ديواني واشعاري كانت بحوزتهم حتى ليسمونها «دليل إثبات»، وكانت واحدة من الرزم، قصيدة (عالم الغد) كتبتها في الأربعينات:

عالم الغد يا رهين ضباب ودخان من نفثة وعذاب

قال: هذه شواهد وادلة على المتهمين بحيازتهم اياها، اما انا فقد ادخرتها لتكون معي. .

فقلت له: اشكرك كثيراً وهذا لطف منك.

فقال: انا مكلف أن اسألك بعض الأسئلة وارجو ان تجيبني بكل ما تحب ان تقوله وبصريح العبارة اسألك عن القصيدة ولك ان تختار. .

ـ انت فلان طبعاً. .

ـ نعم. . .

ـ القيت القصيدة. .

ـ نعم. .

ـ هل عندك نسخة منها. . .

ـ لا. . فقد مزقتها امام الجماهير ر الموجودة. .

ـ هل تحفظ شيئاً منها. .

ـ طبعاً احفظ مقاطع منها. .

ـ ما هي . . . فتلوت عليه وانا احفظها كلها حرفاً فحرفاً ـ القطعة الأولى مما هي في موزد التكريم لـ (الوتري) والاشادة بخدماته واورد بيتاً واحداً كنموذج لغيره من ذلك المقطع:

ومحشرج وقف الحمام ببابه   فدفعته عنه فزحزح خائبا

فقال: كفاية شكراً، ولم يزد شيئاً على ذلك. .

ثم رفع سماعة التلفون ووجدته يخاطب الحاكم العسكري قائلاً:

«الجواهري» عندي وانا شخصياً لم اجد عنده شيئاً يستوجب الحجز.

وعند سماعه الجواب بان على ملامحه وسم من الانزعاج ففهمت الأمر وبعد اغلاقه السماعة قال لي: مع الاسف يقولون لي ـ ومع ذلك ـ فخله عندك؛

فقلت: انا عندك بالطبع.

قال: هذه مديرية الأمن امامك وأي غرفة تعجبك منها فسأوصي بها، الطابق الأسفل مشغول كله بموظفي المديرية لانه بارد ونحن في تموز والطابق الثاني فمشمس. .

فلم اجد لي مقراً يعجبني لبر ودته وانعزاله إلا دهليزاً صغيراً قرب المدخل فقلت له هذا ما يعجبني. .

فأمر الرجل بوضع فراش على الدكتين الموجودتين فيه وقال:

بهذه المناسبة عندنا هذا الرجل الطيب «احمد الكردي» سيخدمك ويلبي كل طلباتك ولو كانت من الخارج، رسالة، شراء أو أية مراجعة كانت عندك.

لم يكن عندي احد في البيت ولا بيت شقيقتي الوحيدة في بغداد حيث كانوا قد انتقلوا منها إلى (بلدة الكوت) واكثر ما كنت اطلبه هو احضار الطعام من السوق، وكان عندي في مقر الجريدة صندوق خشبي يحفظ به الماء والمبردات ارسلت في طلبه، وطلبت مروحة، اي كنت هناك في غاية الدلال والتكريم ومع هذا ومن باب النقيض والنقيض فقد كنت ضيفاً ثقيلاً عليهم لأن المكان هو مكان تعذيب وهم لن يستطيعوا مواصلة التعذيب فيه خوفاً من ان اسمع الصراخ وخشية من ان أثور إذا ما سمعت أنة صوت من معذب.

كانوا يعدون الأيام والساعات ريثما اقدم للمحاكمة وأُبعد عنهم، والاعجب من ذلك ان يسمحوا لكل زائر من اصحابي واصدقائي بزيارتي وفيهم أكثر من واحد من الساسة وفعلاً فقد زارني العديد منهم دون ان يعترضهم احد وحدث ان

منع احدهم زائراً من زواري من الدخول فخرجت إليه وشتمته ولم ينبس بحرف . .

وكان الوحيد الذي تمتع بحق المواجهة الخاصة هو (كامل الجادرجي) رئيس الحزب الوطني الديمقراطي الذي تقابلنا معاً عند رئيس التحقيقات الجنائية (بهجة العطية) وفي مكتبه الرسمي . .

اثناء اعتقالي هناك ثلاث لقطات احب ان اوردها :

الأولى منها كانت في التحقيق حين جاءني رسول من «بهجة العطية» وقال : ان الباشا يطلبك، فذهبت ودخلت عليه فاستقبلني بكل ترحاب قائلاً : «يا جواهري» يعزّ عليّ ان تكون هنا واقول لك شيئاً لست مضطراً إلى قوله وهو انه لا دور لنا في اعتقالك بل تلقينا الأمر من المجلس العرفي . .

اللقطة الثانية وهي الأهم، فقد اخبرني حاكم التحقيق خلال احدى اللقاءات معه صباح ذات يوم قائلاً :

- يا استاذ انا مسرور بانك سلمت او ستسلم لا محالة من كل ما يسوؤك . .

قلت : عجيب أأنا سالم . .

قال : سالم وزيادة . . . فإن القضية كما يلي : ما دامت الحفلة كانت لـ (هاشم الوتري) وهو من طبقة الحاكمين تقريباً، والمدعوون اصدقاؤه ومعارفه وهم ليسوا ممن نخافهم، إذ لا صلة بينهم وبين الجماهير اومع هذا الحزب او ذاك ولم يخطر لنا ببال ان تكون انت بالذات احد المدعوين لذلك فلم نرسل احداً من الوكلاء المباشرين إلا ان ثلاثة من الوزراء كانوا هناك ممن يعملون لحسابنا، (ولا اريد ان اذكرهم ويمكن الرجوع إلى تاريخ الوزارات لشهر تموز من عام ١٩٤٩)، وهم لا يجرأون ان يأتوا فيشهدوا عليك ولذلك فقد سلمت . .

فقلت : عجيب . . . أوزراء ووكلاء . .

قال : نعم . . وكان هذا يسرني، فقد اكتشفت صورة اخرى من صور الحكم والحاكمين، والوزراء والمستوزرين، والمعارضة والمعارضين، بالاضافة إلى ما كانت وما تزال من صور خفية عن الآخرين . . .

اللقطة الثالثة : جاءني حاكم التحقيق الطيب هذا بعد خمسة عشر أوعشرين يوماً من الاعتقال ليقول لي :

يأبا فرات أأستطيع أن أطلب منك شيئاً؟

قلت : نعم بالتأكيد.

قال: نقوم بزيارة مهيأة لـ (نوري باشا) رئيس الوزراء لنشرب فنجان قهوة وينتهي كل شيء..

ضحكت وقلت: انا آسف إلا هذا... هل تضايقت مني وانا في ضيافتك..

قال: لا والله ولكني احبك..

قلت: لن اذهب وليكن ما يكون فذلك ما لا يهمني ابداً..

ومن المفارقات التي مرت عليّ في موقفي هذا ان يكون (احمد الكردي) المكلف بتلبية احتياجاتي هو الذي يقص عليّ ببساطة اسرار يأتمني عليها شبه مضحكة ومنها مثلاً انه قال ذات مرة وبلكنة كردية «انا يقولون لي راقب السفير السوفيتي ويعطوني دراجة وهو يركب المرسيدس ولا ادري كيف تستطيع الدراجة ان تلاحق المرسيدس»... وقال مرة ثانية «انا ارتاح عندما يقولون لنا راقبوا حفلة رسمية او مأدبة مثلها والتي تجري عند كبار القوم عادة فكنا نفرح لأننا سنشبع من الأكل والشرب من دون ان نعرف شيئاً عما يدور هناك غير الوجوه المألوفة لدينا»..

ـ وهكذا بقيت والناس في هذه الأثناء تتحدث عن حصتي فيما سيحكم به عليّ وبخاصة فيما سيكون منها من اعوام السجن بعضهم يقدرها بست سنوات وآخرون بخمس واكثرهم حباً وتفاؤلاً فبثلاث، حيث يفترض ان اقدم إلى الحاكم العرفي آنذاك ليقول كلمته الفاصلة بحقي وبكل يسر كما هو دأبه فيمن سبقني وأعقبني في مثل هذه المواقف وكنت اصابر واقاوم ولكني كنت املك وثيقة لا يعلم بها احد، وهي كلام حاكم التحقيق بأن ليس هنالك من يشهد من مديرية الأمن وكانت هذه ضمانة هامة على الرغم من كونها ليست كافية فلو شاء الحاكم لاصدر حكماً من دون الحاجة لشهادة احد بل ولاصدر حكمه عليّ وانا في التوقيف حتى وان لم احاكم...

بقيت مدة شهر بكامله رهن الاعتقال ـ واقترب شهر رمضان من ايامه الاخيرة واصبح عيد الفطر على الأبواب وقبيل العيد بيوم وقد اوشكت الدوائر الحكومية ان تغلق ابوابها بهذه المناسبة جاءني معاون (بهجة العطية) وقال الباشا يطلبك..

فذهبت إلى مكتبه واعرب عن اسفه العميق والمه الشديد لأنني سابقى قيد الاعتقال خلال عطلة العيد علاوة على ذلك فان (دائرة الامن) سوف تخلو إلا من

المناوبين وانه اوصى من يعمل هناك للاهتمام بي خلال العطلة واحبّ ان يعرف ما اذا كان لي طلب او حاجة في الخارج او مع البيت وقال:

«ان الهاتف بجانبك، إذا كنت تريد الاتصال مع احد ما»..

وهنا تذكرت والدتي الحبيبة الحنون وهي اهم ما عندي وتسكن في النجف قلت: «والله ذكرتني سأتصل - إذا سمحت - بوالدتي فيطمئن قلبها واعطيته الرقم المطلوب ولم يكن في بيتنا بالنجف هاتف، فاستدعيت والدتي إلى بيت احد جيراننا، وتحدثت معها وبدأت والدتي بخفيف من النشيج قلت لها: يا امي انا بخير وراحة وعيدك ومن معك سعيد ولا حاجة بك إلى القلق واسترحت كثيراً بعد هذا وشكرت العطية وعدت إلى غرفتي، وبعد مرور عشر دقائق استدعيت ثانية إلى مكتبه حيث قال لي: بشارة سارة... صدر الأمر باطلاق سراحك ولم يتبق سوى توثيقها برقياً وهذه احدى الشكليات المطلوبة لغرض التسجيل الرسمي فيها فاستعد للمغادرة لأنه يبدو ان هناك رغبة خفية بأن لا تبقى رهن الاعتقال خلال العيد..

قلت: طيب وهيأت نفسي للخروج وليس عندي سوى ملابسي التي ارتديها والمروحة العتيقة وصندوق الثلج القديم..

وبعد دقائق دخل معاونه الذي بادرني قائلاً:

«يا فلان وصلت البرقية وانتهى الأمر ولك ان تخرج حراً طليقاً، مع السلامة».

خرجت والناس لا تكاد تصدق أنني حيٌّ يُرزق ومطلق السراح فكان خروجي إلى الشارع وظهوري المفاجىء حديث الناس في العاصمة وبقيت محتاراً لا ادري اين اذهب فلا عائلتي ولا بيت اختي موجودون في بغداد. على أي حال فقد امضيت بضعة ايام عند صديق لي وابلغت عائلتي في (النجف • منذ اليوم الأول لخروجي بان يعودوا إلى بغداد وتعجلتهم كثيراً، ولحسن الحظ وجدت داراً ثانية في /الأعظمية/ ليست بمستوى دارنا العزيزة الجميلة في (الكرخ) التي لا تنسى ولكن والحق يقال كانت تماثلها بعض الشيء وكانت تقع على (دجلة) ايضاً...

ـ لقــد امضينـا في هذا العش الجـديـد في الأعظميـة وبعـد كل تلك الآلام والمكـابـرة خمس سنـوات بين جماهـير الأعظميـة وبيـوتها وشبابها معززين مكرمين لم نسمع خلالها ولا كلمة نابية، بل حباً ومودة متبادلين..

وبعد عقدٍ من الزمن في «الكرادة الشرقية» ـ وهنا المفارقة التي اريد ان اشدد عليها لم نكتف بأن نسمع ما لا يجوز ان يُسمع فحسب من البذاءات والمضايقات بل وأن أُرمى بسهـم نشَّـــاب باقٍ جرحـــه حتى الآن على جفني الأيمن ولا ادري كيف كان من حظي لو صحّ هذا التعبـير مع الـدم الـذي صبـغ ثيابي كيف تخطيء هذه النشَّابة مقلة عيني ولا اريد ان ازيد على هذه المفارقة لأن الأعظمية هي مقر الامام ابي حنيفة والكرّادة الشرقية مقر إمام هاشمي جعفري ومع هذا وحتى هذه الساعة وقد دخلنا العشرة الأخيرة لنكون في القرن الواحد والعشرين فما ينفك النابحون في العراق والمستغلون خارجه ينبحون بالنعرة الطائفية مستغلينها ومتاجرين بها.

وفي هذه الفـترة وعلى الجـانب الشرقي من دجلة تنبثق ومن جديد ذكرياتي التي اتيت عليهـا وأنـا على الجانب الغربي منها وبعبارة أوضح من جانب «الكرخ» وعلى جانبي الشـارع الطـويـل المستقيم حتى الكـاظميـة حيث البيـوتات العريقة كـ (آل المنـديـل) و(الـوسـواسي) و(الريس) و(البزاز). وإلى جانب هذه البيوتات الكريمة كلها فبيت السيد (الصـدر)..

وفي هذا الجانب الشرقي من دجلة وكما هو في ذلك الغربي منها فقد كان بيتنا محجاً لكل الزائرين وبخاصة فلأكثر من بيت عريق واحد في الأعظمية.

فلقــد كانت دارنـــا في (الحـارة) والتي تكـاد تكـون مضـرب مثـل مخيف في

الأعظميــة بحكم كونها مركـزا للتشـاجـر والتنـاحـر من دون كل ازقـة الأعظميـة وحـاراتهـا . . . لقد انطلقت الرصاصة الأولى وانا اواجه المقهى المقابل لمدخل هذه الحـارة على اقـرب مسـافـة من قدمي ولـربـما كف المتشـاجران او المتشاجرون عن الرصاصة الثانية لمجرد انني كنت العابر هذا السبيل وعلى اقل تقدير فلربما كان هذا ما تخيلته . .

وبعد مدة غير طويلة تعرفت على دار ستكون ذات شأن مرموق في ذكرياتي هذه وفي اكثر من موقف مشرف واحد، هي دار ـ وان اردت الحق في التصوير ـ فقبو متـواضـع عرفت فيـها بعد انها دار لعائلة الفريق الركن (صالح مهدي عماش) الذي امتدت فيها بيني وبينه بعد ذلك وحتى يوم وفاته قبل عام لا اكثر من كتابتي ذكرياتي هذه اواصر علاقاتنا الوطيدة والامينة والحب الخالص والعميق المتبادل . .

وفي هذه الـدار التي احتفـظ لها بمثـل ما احتفظت لغيـرها من ذكريات هي مجمـل حيـاتي كلهـا ، ألقيت على عاتقي مهمـة مايسمى بـ (أنصـار السـلام) في العـراق، السلام الذي كان وما يزال وكأنه موعد موقوت لاشتعال نيران الحروب اكثر فاكثر مما كانت قبـل ان يكـون، والغـريـب في ذلـك ان هذه المهمـة التي تناقل حملها اكثر من واحـد غيري في العـراق خلال فترات الـراحـة والاطمئنـان حتى لكأن ذلـك كان استجماماً واصطيافاً وحباً للمظاهر بل وجمعاً للمال، هذه المهمة نفسها وقع الاختيار في حملهـا عليّ في احلك الفـترات التي مر بها العـراق واشـدها رهبة واكثرها عنفاً بل واكثرها امتلاء بـ اللمواقف والسجون واستمرت اكثر من سبع سنوات بعد ذلك . .

وخـلال عهـد ما سمي بالجمهـوريـة الأولى في العـراق واعيادها المصطنعة و (هـوسـاتها) المفتعلة والوجه الأول (الأوحد) من بين كل سائر الوجوه الأخرى الذي كان يرى في (القمر).

اغتصبت هذه المهمـة مني غصبـاً لتلقى على عاتق رجـل آخـر ولأصبـح أنا واحداً من أتباعه . .

وعلى أي حال وبضـمانـة من استقلالي الذاتي وبعدي عما اسميه بالتعصب الحـزبي وهـو تسميـة حقة فمعنى كلمة (حزب) تعني تعصباً معناه التمزق والضياع ثم بضـمانـة من معـرفتي الحـاكمـين حتى من هو اشـدهم بطشاً بهذه الحقيقة وبهذه الضـمانـة فقـد تجاوزت الحـدود المألـوفـة في مثـل هذه الاجواء وفي كل بلاد المشرق العربي ذلك بان جعلت بيتي في (الحارة) ورقمه و(الأعظمية) نفسها عنواناً منشوراً

في أكثر من صحيفة واحدة في بغداد للوسائل المتواردة علي من كل الأطراف ومن كل المراسلين . .

ـ ولأول مرة في تاريخ حياتي كلها وفي قرابة الأربعين بيتاً التي ننتقل بينها وفي كل المواقف التي استوجب بعضها التوقيف او (السجن) مع كل هذا فلم يجرأ احد ان يدوس بيتاً واحداً من هذه الأربعين إلا هذا البيت . .

وبالرغم من هذا كله أيضاً، وبالرغم من هذه المرة الواحدة كذلك بل وللدلالة على كل ذلك فقد ديست هذه الدار الآمنة في غيابي أي في الفترة القصيرة التي كنت مع امثالي من طبقتي في معتقل (ابو غريب) . . .

لم يكن احد في كل اهل البيت موجوداً فيه إلا زوجتي واصغر اطفالي ابنتي «ظلال» والتي كانت رضيعة على صدرها، فلقد كان كل من معي بين هارب إلى النجف وبين موقوف في هذا الموقف او ذاك . . . وداهمت (شرطة التحقيقات الجنائية) حينئذ هذا البيت وحملت معها اكداساً مكدسة من الرسائل والبرقيات بل ومن الكتب التي لا تمت إليها بصلة وبعبارة أدق وأوضح فقد تغلبت عصابة حرب صغيرة وبأيسر الطرق وبدقائق معدودات على فرع هام من فروع أنصار السلام العالمي . .

ونسخة طبق الأصل من هذا ومن سبيل الواقع لا سبيل الافتراض فلا بد ان تكون في كل بلد عربي آخر في مشرقه ومغربه مثل هذه «العصابة» الصغيرة أي عصابة الحرب كما قلت قد اقتحمت هذا الفرع او ذاك وبمثل ذلك اليسر وتلك السهولة كل فروع هذا (السلام العالمي) . . .

وبعد فلا اجد من بأس وأنا بصدد اقتحام بيتنا هذا في الحارة ولأول مرة بل وبصدد الاستشهاد على مصداقية كلامي من ان اعود إلى لقطة ربما كنت قد نسيتها في الأربعينات من ذكرياتي هذه ولربما كانت الفريدة من نوعها ذلك ان (مختار) محلّة (الجعيفر) الشهم الكريم الذي تجاوز حدود وظيفته ليخبر ني بما يفترض ان يكون سراً من الأسرار لديهم هو ان دارنا في (الجعيفر) على وشك ان تداس ـ ومفهوم لدي ان ذلك سيكون بسبب تصرفات «فرات» (والمناشير المحرمة)! عنده، فلم يكن مني إلا أن اهتف إلى (بهجة العطية) رئيس التحقيقات الجنائية بذلك ولم يكن منه إلا ان قال لي بالحرف الواحد (لن يجرأ احد ان يفعل ذلك) . . .

ولا ادري ولا المنجم يدري عما إذا كان (المختار) الكريم هذا قد تلقى او لم

يتلقى عقاباً على اذاعته ذلك السر.

وفي هذه الدار نفسها (في الحارة) وتحت الظلال السوداء من ذلك الجو الرهيب كانت قصائدي الثلاث الشهيرات

نامي جياع الشعب نامي حرستك آلهة الطعام
نامي فإن لم تشبعي من يقظة فمن المنام
نامي على زبد الوعود يداف في عسل الكلام

* * *

٢٨/٣/١٩٥١

وقصيدة: (أطبق دجى):

أطبق دجى - اطبق ضباب اطبق جهاما يا سحاب
اطبق على متبلدين شكا خمولهم الذباب
لم يعرفوا لون السماء لفرط ما انحنت الرقاب
ولفرط ما ديست رؤوسهم كما ديس التراب
اطبق على المعزى يراد بها على الجوع احتلاب..

* * *

خريف ١٩٥١

وقصيدة (ماتشاؤون فاصنعوا):

ما تشاؤون فاصنعوا فرصة لا تُضيعوا
فرصة ان تحكَّموا وتحطوا وترفعوا
وتَدِلّوا على الرقاب وتعطوا وتمنعوا
ما تشاؤون فاصنعوا لكم الأرض أجمع
لكم الناس اكتع من ذويهم وأبصع
خول عندكم خذوا ما تشاؤون أودعوا
انتم الله واحداً وهو لا شك أربع

ويذكر التاريخ ومن عاشه ما كان لهذه القصائد الثلاث من زعزعة للنفوس واثارة للأعصاب بين الجماهير التي كانت بأمس الحاجة إلى ما يزعزعها ويثيرها من جديد..

فمن يصدق أن تنشر هذه القصائد الثلاث بمثل ماينشر من أمثالها في جو معاكس ومناقض ايضاً من اجواء الحرية والديمقراطية في سائر بلدان العالم الحر وان يمشي صاحبهن على امتداد قامته بل ومغموراً بالحب والتعاطف والتجاوب . .

حقاً وصدقاً لقد كان ذلك هو العهد الغابر وهو النظام الملكي الجائر كما كنا نتحدث عنه بل ونلطمه في وجهه . .

وفيها كانت قصيدتي في مؤتمر المحامين العرب :

سلام على حاقد ثائر ... على لا حب من دم سائر
يخبُّ ويعلم ان الطريق ... لا بدٍ مفضٍ إلى آخر
سلام على جاعلين الحتوف ... جسراً إلى الموكب العابر
على ناذرين كرام النفوس ... سلام على الواهب الناذر
وليس على غصن ناعم ... رشيق يميل مع الهاصر
سلام على مثقل بالحديد ... ويشمخ كالقائد الظافر
كأن القيود على معصميه ... مفاتيح مستقبل زاهر

* * *

٢٩/١١/١٩٥١

وفي هذه القصيدة كما هو الحال في أكثر من عشرين قصيدة تنال البرجوازية الرجراجة والمتهافتة بل المتهاوية والتي ابتليت بي وابتليت بها بحكم النشأة والفطرة والمزاج بل ومن منطلق الفقر المدقع والفاقة الموجعة أي من منطلق الفروق الشاسعة ، ولم يكن ولا هو بكائن حتى يومي هذا ـ وبالمثل وبالمقابلة ـ نصيبي انا بالذات وحصتي هي نفسها منهم ومن صحفهم ومجالسهم وتعاملهم هم واتباعهم واشياعهم باقل من ذلك كله ، فلا ابالغ إذا قلت ان لم يبق واحد من كل هؤلاء الاتباع والاشياع من لم يجرب قلمه وباكثر من مرة او مناسبة او موقف في شتمي والتعريض بي حتى إلى ما يتجاوز كل حدود الأدب واللياقة ، انها حرب سجال بين كل طبقة وطبقة وموقف وموقف وهدف وآخر في كل العالم وعلى امتداد الأزمنة فكيف إذا كان ذلك كله في عالم شبه متخلف على أخف تعبير .

لست مفاخراً بهذه الحرب الضروس ولا متباهياً بالانتصار في هذه المعركة او تلك ولا مبالياً بالانهزام فيها ، إنها كلها وما قد يعقبها ، بل واشد منها ضراوة وشراسة

حتى نفسي الأخير، إنها كلها قدر محتوم وحقيقة قائمة وضريبة مفروضة . .

وإذا كان القارىء بحاجة إلى التمثل او التمثيل وإلى الوضاحة والصراحة بأكثر من هذا فبحسبي وانا بصدد هذه القصيدة بالذات أي (في مؤتمر المحامين العرب) ان اجيء على حصة هؤلاء منها واعترف قبل ان يعترفوا هم انفسهم انها كانت مريرة وإلا فما عسى ان تكون المرارة اكثر من ان يقول القائل فيهم :

عتاب وليس على خائن بآلاء موطنه كافر
وليس على الشعب يعطي الدماء بايماءة القائد الآمر
ولكن على نفر واسط تجمد كاللبن الخاثر
قعيد ويكره سعي الجموع إلى الخير كالمرأة العاقر
فلا هو للشعب في كله ولا هو للجانب الآخر
ولكن كما شغلت نفسها بنحيين (اخت بني عامر)

* * *

وقصة اخت بني عامر هذه فظيعة والصبر عليها ـ والحق يقال اشد فظاعة بل والأشد من هذا وذاك وهو ما احيل اليه القارىء ان تكون مشروحة في موردها من دواوين اشعاري . .

وإذا كان هناك ما هو افظع من كل هذا وذاك فهو ما كان من أمر ما يشبه التآمر على ان تنشر ـ الجبهة الشعبية ـ والأكثرية الكاثرة منها هم المعنيون بهذه القطعة ان تنشرها وعلى الصفحة الأولى في جريدتها الرسمية وهذه حكايتها :

فمن خلال علاقتي بـ (عبد الرزاق الشيخلي) ـ وهو نائب في البرلمان آنذاك ـ التي نمت خلال مشاركتي واياه في هذا البرلمان مرحسلة سابقة، واشتدت بعد ذلك في معتقل (أبي غريب) وسنين طوال تلتها . وإلى جانب ذلك فمن خلال علاقتي الأبعد امتداداً بـ (صادق البصام) وهو حينئذ في مجلس الأعيان وكلاهما في الصميم مما كان يسمى بـ (الجبهة الشعبية) وهي في الواقع خليط عجيب من طلاب المناصب والوزارات وتأليف الوزارات ومن رئيس لهذا الحزب أوذاك يتفقون حيناً ويتصارعون فيما بينهم أحياناً . .

فمن هذين المنطلقين كان أمر نشر (ما لا يطاق نشره) من قصيدتي ـ المثقلة بالحديد ـ وفي أي صحيفة؟ . . في الصحيفة الناطقة بلسان هذه الجبهة نفسها أي

الناطقة باسم (النفر الواسط) والذي تجمد (كاللبن الخاثر) رحم الله البصام ما كان اعرفه وهو من ابرز الشخصيات في هذه الجبهة بها وبكل من فيها، وما كان اشده ولعاً بالوقيعة فيما بينهم وهذا ما حققه ودبره، لقد كان ذلك في الطليعة مما اثار دهشة الناس ولعلني اعبر الخطَّ بقفزة قصيرة عندما يشخص امامي حتى الآن وانا في الشهر الأول من عام ١٩٨٩ ومن تدويني هذه الكلمات من (ذكرياتي) أكثر من وجه حاقد واكثر من عين محمرة غاضبة وانا اشرف على تصحيحها تجهيزاً لطبعها في القاعة الكبرى من مقر هذه (الجبهة).

وعلى أي حال فقد كان ما يجب ان يكون وهو أن أُستدعى انا ومدير الجريدة المسؤول إلى التحقيق في مركز شرطة بغداد وان نمثل امام ضابط الشرطة فيها وان يستجوبنا كما هو المألوف وان نجيبه بما لا بد منه ثم ان يطلب الينا ما يكاد يكون نشازاً في مقاييس الأوزان ومعايير الأشخاص أي ما يسمى بـ (بصمة الاصابع) وما زال حتى هذه الساعة وببسمة خفيفة يمثل امامي تردد صديقي (الشيخلي) وهو في (الحصانة النيابية) بين القبول لهذا النشاز او الرفض.. ثم عندما تنفس الصعداء وأنا اسبقه بالرد على ضابط الشرطة «إننا نرفض ذلك ايها السيد، فليس هذا بالشيء اللائق، وعندما رد عليّ: بان هذا (قانون) كنت انا لا «الشيخلي» المحامي أولاً والنائب ثانياً من يرد على ضابط الشرطة وباسم القانون ايضاً: أجل هذا صحيح، ان يسجل علينا هذا الرفض ويعود الأمر إلى حاكم التحقيق ونزل الرجل على ارادتي هذه وخرجنا منه شبه منتصرين لنستدعى بعد يوم او يومين للمثول امام الحاكم والمحكمة وتطوع للدفاع عنا وجرياً على العادة المألوفة في مثل هذه المواقف ـ في عهد النظام الملكي لا (الجمهوري) أكثر من عشرين محامياً، وبطبيعة الحال فثلاثة او أربعة منهم ممن يمثلونهم في المحكمة، وابتدأ السؤال والجواب والأخذ والرد بين الحاكم والناشر والشاعر وكان احرج ما في ذلك كله هو سؤالي انا بالذات: اذن من هو المقصود يا سيد جواهري بقولك:

وفر «لـلـنـدن» شر الـلـصـوص	تقـمـص ثوب الـدجى الـعـاكـر
يحيـك على رغـم انـف الشعـوب	رداء الهـلاك لها الـدامـر

والحراجة الأشد والحصار الاضيق في هذا السؤال إنه كان في الأسبوع نفسه الذي كان الأمير (عبد الاله) وحاشيته المقربة وفي المقدمة منهم (نوري السعيد) قد سافروا إلى لندن وقد نشر واذيع هذا النبأ...

كنت بطبيعة الحال متوقعاً قبل كل شيء في هذه القصيدة هذا السؤال من الحاكم ومعداً وبما يشبه بالحرف بالحرف الجواب عليه :

«سيدي الحاكم إن اللصوص كثيرون والمسافرين إلى لندن أكثر فأكثر انني لا أقصد شخصاً معيناً منهم وهنا كان شيئاً نادراً مايكون هو أن المستمعين وهم غير قليل امتدت ايديهم المرتجلة بالتصفيق، ودق الحاكم بمطرقته الحديدية على المنصة، وبعد برهة صمت مطبق ابلغنا بالانتظار لاختلاء هيئة المحكمة، ولم يطل ذلك كثيراً ريثما عادت الهيئة لتبلغنا وبكل سرور ان القصيدة ستحال إلى المحكمين وطبيعي ان يكونوا من الأدباء والشعراء وشبه طبيعي ان لم يكن طبيعياً محضاً وبحكم سوابق عديدة من هذا القبيل ان يقف هذا الأديب او ذلك الشاعر إلى جانب زميله المتهم حتى وإن كانا متخاصمين، وكان الأمر كذلك . .

فقد برأ المحكمون القصيدة بكل ما لا يحتمل منها وبكل ما لا يبرأ.

شيء غريب فريد من نوعه كان في هذا التحكيم وهو ان اقرب الناس إليّ بل واكثرهم حباً متبادلاً أي من هو ابن عمتي المحببة وانا ابن خاله الذي تبناه رضيعاً ودفعه إلى الناس شاعراً واديباً من دون اخويه وكان لسوء حظي وحظه معاً ان يكون وزير دولة في وزارة (نوري السعيد) والتي أحاكم في عهدها، فقد اعلن اسمه وحيداً فريداً من المتغيبين عن كل اقرانه في هيئة التحكيم، وكان ذلك منه على غير هدى من امره فهو كما تخيل وتخوف كان حائراً بين أن يكون إلى جانب ابن خاله وفي معرض قصيدة تمس «نوري السعيد» وبين ان يكون ضده «أي ضدي» وهذا ما لا يمكن ان يكون ففضل ما كان يعتقده وسيطاً بين الموقفين وهو التغيب . .

قلت لسوء حظي وحظه والأول منهما ان يكون هو المتغيب، أما الثاني فهو ما كان يجهله من امر (نوري السعيد) ومزاجه وطبيعته، فكم كان هذا الرهيب (السعيد) يكره المتملقين ويحب المكشوفين على طبائعهم الخالصة حتى وان كانوا ممن يعارضونه . .

وأخيراً وبعد ذلك كله فقد خرجت والمدير المسؤول منتصرين على المحكمة والحاكم باكثر مما انتصرنا به على (ضابط التحقيق) وعلى (الجبهة اياها) . .

وفي هذه الفترة من هذا العقد البائس وفي ما بعد «مثقل بالحديد»، وعلى سبيل المثال، كانت لي في العراق (كفّارة وندم) ويا (أم عوف)، وفي مصر (خلي الدم الغالي يسيل) و(يا مصر تنتهض الدهور وتعثر)، وفي لبنان قصيدة (كرامي)، وفي

سوريا (خلفت غاشية الخنوع ورائي).

وفي هذه الفترة أيضاً تكشفت أكثر من أي فترة أخرى الهوة العميقة والسحيقة بين الحاكمين والمحكومين من جهة وبين طبقة البرجوازية وعناوينها ورموزها وشعاراتها من جهة أخرى..

فلم تتوال الأحكام العرفية الواحد بعد الآخر ولا امتلأت السجون والمواقف ولا انتصبت المشانق ولا افتضح أمر التدخل الأجنبي في شؤون العراق وحاضره ومستقبله عن طريق الأحلاف والمعاهدات السياسية منها والمصائرية الحاسمية بمثل ما افتضحت هذه الفترة وبمثل ما خلا به الجو للحاكمين وعلى المكشوف من استهانة بمصائر الجماهير والاستخفاف بكل الأصوات المتعالية وبكل آلام الشعب وأوجاعه. وعلى الجانب الآخر وبمثل هذا المستوى نفسه فقد تكشف أيضاً أمر ضياع القيادات الوطنية ومتاهاتها وتذبذبها بين الفينة والفينة، بل وتمزقها فيما بينها نفسها..

وكان من الفقيد (الجادرجي) وبعد يومين او ثلاثة ايام ان اقام لي حفل عشاء اقتصر على ثلة صغيرة ممن عندي وممن عنده..

وفي ما بين السمر والعشاء وجدته يهرول إلى مكتبته الفخمة ليجيء بكتاب صغير، صورة الغلاف منه من ابدع ما خلق الله من جمال وعذوبة ـ ثم ليقول لي:

اتعرف من تكون هذه الفاتنة... فتبسمت وقلت له:

ـ ليتني كنت من الحالمين بها حسب وليس ممن يعرفونها..

قال: فكيف بك إذا قلت لك انها تعبدك..

تعبدني انا... قال: اجل ثم فتح صفحة من الكتاب كان بطبيعة الحال مسيطراً عليه، لاجد فيه وبالمناسبة فقد كانت تتعاطى الادب والمراسلات ـ وهي تقول بمناسبة التحدث عني (انه ربي) وفي صفحة مقابلة (انه معبودي)..

فهل يجد القارىء كثيراً عليّ ان اتعرف على صنم جديد يعبدني بدلاً من أن اكون العابد.. وكان هذا التعرف وكان اللقاء... وكفى بهذا تعريفاً..

لقد نجوت اذن من سجن تعد سنينه لا شهوره ولا أيامه ولقد غنمت صيدا لا احلم به فماذا عسى ان يكون لي اكثر مما كان. ومع هذا ويا لمفارقات الزمن ـ فإن يكون بين هذا وذاك ـ ان استدعى للتوقيف «من جديد وفي هذه المرة فان يستدعى الموقوف بالهاتف وليس بالقاء القبض عليه.

فبعد هذا الاسبوع الأول من خروجي من التوقيف يكون من صديقي حاكم التحقيقات الجنائية «الأعظمي» أن يهتف اليّ وانا في مكتبي في جريدتي الرأي العام ليقول لي وبالحرف الواحد هل لك ان تتناول فنجاناً من القهوة عندي . .

ولبيت الطلب وكان فنجان القهوة هذا توقيفاً جديداً ـ فوجئت به بادىء الأمر ثم خفت علي وطأته عندما وجدت ان التهمة الجديدة هي ان قصيدة «هاشم الوتري» المثيرة تلك قد نشرت في الصحف اللبنانية وسرعان ما قلت لحاكم التحقيق:

وانك يا ابا خالد تعرفني قبل ان اتعرف اليك ـ وعرفتني وانا ضيف عليك، لقد كنت معك كما انا مع كل احد ـ الصادق الأمين بصدد القصيدة وظروفها وبخاصة فقصة تمزيقي اياها امام الحفل الحافل شيء واحد فاتني أن أخبرك به، ففي خلال مدة توقيفي وبمنطلق من سماحكم بزيارة الزائرين جاءني رهط من الشباب العراقي وقد جمعوا المتناثر من قطع القصيدة الممزقة ورتبوها اشطاراً وابياتاً ـ ولا بد ان يكونوا هم الذين ارسلوها إلى الصحف اللبنانية واتصل الرجل مرة ثانية بالحاكم العسكري وبقيت ومن جديد ضيفاً عليه ولكن لمدة اسبوع لا اكثر. .

فمن يصدق ان هذا الرجل وهو رهن التوقيف وعلى سطيحة التحقيقات الجنائية وعلى ضوء القمر من ليالي بغداد وهو يطل على ضفاف دجلة تنقلب به الحال ليصبح غزلاً شبه عاشق وقد شخص امامه العابد المعبود وليدمدم متغنياً بصوت لا اقل مما لا بد من ان يسمعه حراس التحقيقات الجنائية ويقول:

تهضمني قدك الاهيف ... والهبني حسنك المترف
وضايقني ان ذاك المشد ... يضيق به خصرك المرهف
فداء لعينيك كل العيون ... اخالط جفنيهما قرقف

* * *

ولا ادري هل مر على القارىء شيء من قبيل هذه المفارقة . . .

في الحقيقة انني عدت بذاكرتي الى أوائل العام ١٩٤٩ أي بعدما كان من أمر قصيدة هاشم الوتري وخروجي من التوقيف وعودتي اليه لمدة اسبوع لاأكثر، وفي أمر الحصانة الممنوحة لي وكأنها الاستثناء الوحيد لكل ماعداها في حرية الكلمة وفي مواجهة الحاكمين أو حتى بما يكاد اثارة للجماهير عاودني الحنين الى

الارتجاع بالزمن لأكون من جديد وفيما تبقى من حياتي في مثل تلك الظروف فشيء ليس بالقليل ابداً في أي نظام عربي من مشرقه حتى مغربه أن يكون لمراعاة المقاييس والموازين، وفي مدى قدرة الحاكمين على التمييز بين من يريد أن يستغل مواجهتهم انطلاقاً من مصلحته الشخصية أو الحزبية أو الانتهازية وبين البريء من كل ذلك ففي تلك الحقبة كانت قصائدي المشتعلة في جريدتي وانطلاقاتها والمحرجة في أكثر من مقال ومقال، قلت عاودني الحنين ويصح القول وعلى هذا المستوى نفسه أنه قد عاودني الأسف أيضاً على أن يكون البديل عن ذلك النظام الذي كنت أنا وغيري وهم كثيرون ممن كنا نوالي الضربة والضربة والهجمة والهجمة بل والشتمة والشتمة به وعليه، أن يكون البديل عن مثل هذا النظام على تخالط حسناته بسيئاته ـ هذه الأنظمة التي تعاقبت عليه حتى يومنا هذا، حيث اشتد الخناق على الكلمة وعلى الفكرة وعلى العقيدة وعلى الموقف، كل ذلك عندما غامر ضابط عسكري اسمه «عبد الكريم قاسم» في ليلة من ليالي تموز من عام ١٩٥٨ ليجيء بجمهورية لاسابقة لها ولا لاحقة. .

وبعد فان تكون هذه مقدمة لهذه الفترة التي لاأريد في حديثي عنها أن أتحدث عن نفسي ولكن عن التأريخ. فقد كنت أو أكاد أكون، وقصائدي وجريدتي ومقالاتها شاهداً على ذلك، الوحيد الذي سد فراغ العتمة المطبقة على العراق بعد انتكاسة وثبة كانون، لقد استغرقت هذه الفترة خمس سنوات بأكملها أي منذ عام ١٩٤٨ حتى أوائل عام ١٩٥٣.

وعلى كل حال فقد مرت الشواهد الشاخصة من القصائد التي لايمكن تصور نشر خمسة أبيات منها في كل هذه العهود التي أعقبت العهد الملكي من «هاشم الوتري» الى «سلام على مثقل بالحديد» وفيما بينهما فمثلها وأشد هذا من باب الشعر، وجريدة الرأي العام «وما كان منها وفيها»، فمن باب المقالات والنثر. والشيء الذي أريد أن لاتنقطع السلسلة بنسيانه هو ماكان بعد قصيدة «هاشم الوتري» وفي الصميم من تلك الاجواء المحمومة أن يطبع ديواني المثقل هو بالحديد وبالنار مباشرة وبعد أيام وأسابيع قليلة من هذه القصيدة ومن تلك الأجواء ـ لقد كانت له حكاية تستحق الاشارة وان بايجاز. .

فقد فكرت بعد بيع المطبعة وتسديد الدين الذي استحق عليّ أن أستثمر المتبقي من ثمنها لطبع طبعة جديدة لديواني وكان ذلك لدى السيد «موسى حبيب»

الرجل الذي انتقلت مطبعتي اليه وطبع الجزء الأول منه ولم أكن أصدق أبداً أنه سيسلم لاهو ولا المطبعة ولا أنا ولا صاحبها من المصادرة والاقتحام والمطاردة ومع هذا فقد مشى كل شيء في سبيله الآمن، وكان هناك شيئاً أكثر مما حسبناه هو أن نتقل ملازم هذا الديوان ذي الآلاف المؤلفة منه وهي مما كاد أن تتضايق به شاحنة كبيرة خوفاً عليها من المصادرة الى دار صديقي الكريم «السيد جميل كبه» ريثما يتم طبع الديوان بأكمله قبل أن ينزل الى الأسواق. ولم يكن شيء ابداً من ذلك الحساب فلقد استمرت المطبعة واستمر الطبع بكل هدوء واطمئنان وصدر الديوان لتتلقفه الأيدي في اليوم الثاني أو الثالث ان لم أقل الأول، وأكثر من هذا فان تكون النسخة من هذا الديوان لدى الحاكم الأول ورئيس الوزارة «نوري السعيد» نفسه الذي اعلم علم اليقين انه يحتفظ بكل طبعة من طبعات ديواني - هذا ماكان من أمر طبع ديواني -.

أما ماكان من أمر المقال ذي العمود الواحد «جنازة» فلا يقل غرابة بل وعجباً بما كان من بدايته حتى يوم صدور قرار من مجلس الوزراء باغلاق الجريدة التي نشرته وهي جريدة صوت الاحرار «للسيد لطفي بكر صدقي» الذي ستأتي الاشارة اليه في أكثر من موقف واحد. لقد كان ذلك على أثر مظاهرة طلب إليّ الاشتراك فيها ولبيت الطلب تواً لتشييع جنازة شهيد مات في السجن وشيعت جنازته وعليه الخلق من ثيابه شبه الممزقة وسرت في مايشبه المظاهرة لتشييعه الى مثواه الأخير بين صفين من صفوف الشرطة في أول الأمر وبين العصي والهراوات على المشيعين وهم يعودون وبما يشبه المظاهرة ايضاً ومع هذا وأنا الشخص اللامع بين الجموع فلم يجرؤ الشرطي الذي ضرب من حولي من على يساري ويميني أن يمد يده، الى أصبع من أصابعي واغلقت الجريدة كما قلت ومشيت على امتداد قامتي أنا صاحب المقال في حين كان أكثر من واحد من الشخصيات البارزة في تلك المظاهرة رهن التوقيف. .

الهَدِيَّة الأولى لحُكومَة العِراق إلى إسـرائيـل

أمـا أفظـع وأبشـع ماكـان من حصة العهد الملكي في هذه الخمسينات وبالضبط ففي عام ١٩٥٠ م والتي لم تكن تخصني، فحصتي منهـا وأنـا فخـور هو المقـال الذي كان واعياً على كل حروفه وكلماته وعنوانه: «مؤامرة». أي المؤامرة بما سمي تهجير اليهـود وبـما يسميـه التـاريخ الأسود بتسليم أكبر هدية وأثمنها، وأسمنهـا إلى دولـة إسـرائيـل وبعدما يقلّ على سنتين من عمرها من قبل العراق الذي كان وكأنه يريد أن يحوز قصب السبق قبل ماكان بعد ذلك من سباقٍ في العالم على تهجير اليهود.

أمـا الأفظـع من الأفظـع من هذه المؤامـرة نفسهـا فأن يكـون العـالم العربي من مشـارقـه إلى مغاربه قد تجاهلها وتغافل عنها، وطبيعي ألا يكون هذا التجاهل والتغافل، قد مرّ ببسـاطـة ويسـر فحسب على الاستخبـارات الأمـريكيـة. فضـلاً عن تعاون كل الغرب وكل سفاراته وكل عملائه في كل العالم العربي وكل الصحف، سفر الضمائر وكأنهـا «سلعٌ تباع وتشـترى وتعـار»، على اغتصاب فلسطين وأن تزداد الدولة اليهودية الجـديـدة قوةً، بحسب كل ذلـك وبكل الملايين التي لابد أن تكون قد وزعت على مايفترض أنه مساقط الأخبار ومواطن الإعلام، قد تكون هذه كلها كافيةً لإسكات هذا العـالم العـربي عن هذه الجـريمـة الكـبرى، ولا أدري وأنـا منفعل، وأكاد لا أتمـالـك نفسي من القلق والألم في تسجيـل هذه القضية من ذكرياتي لا أدري كيف أعـبر عما كان من أمـرهـا، ثم من أمـر ذلـك التغاضي والتجاهل والتعمية والتي تتجاوز جيل الخمسينات إلى أجيالٍ وأجيال.

وبحسبي ـ وقـد خانتني الذاكرة أن أضع هذه «المؤامرة» في موضعها الجدير بها ـ أي في عشـرة (الخمسينـات) وأن أستـدركها وقد أوشكت هذه الذكريات على نهايتها ـ أن أتسائل وأنا في عام ١٩٩١ م أي في العام الذي توطد فيه أمر استيطان

اليهـود المهجـرين من الاتحـاد السـوفيتي ومن (الحبشـة) الى اسـرائيـل، ماذا كان سيكـون لو أن دولـة عربيـة لم تكن قد تعـاونت معهم في تقـديم - بل - إهـداء كل ماعندها من اليهود إلى دولة اسرائيل وبما يسمونه «استيطان».

ومـع هذا فقـد كان ما لايجـوز، فلقـد حيكت المؤامرة على يد المتكفل بأمر تنفيـذهـا رئيسـاً للوزارة ووزيـراً لخارجيتهـا «توفيق السويدي» لاغيره، وكفى بهذا الاسم تعـريفـاً لكـل ما لايتـوقـع أن يكـون ولكل مايساوم عليه من طلب المحال، فكيف به و«صـالـح جبر» لاغـيره أيضـاً يتـولى في الصميم من هذه المؤامـرة وزارة الـداخليـة. فماذا عسى أن يتبقى من كل الصـلاحيـات التي يتطلبهـا هذا المخطط المشؤوم؟ أهو السفارة البريطانية؟ إنها اسرائيل نفسها.

وتفادياً لاطالة يستحقها هذا الحديث عن هذه المؤامرة فيكفيني القول إن كل البـلاد العـربية ماتزال تحتفظ بكل يهودي مواطن،وبكل مساواة وعدالة حرصاً منها ألا يكون أي فرد واحد منهم حصة أو نهزة ناهزة لدولة اسرائيل (العدو الأول).

فكيف بالبلد الوحيد الذي يحتضن بمائة وخمسين ألف يهودي يختلطون بتراب العـراق منـذ مايـزيد على ألفي وخمسمائة عام منذ أن شردهم (نبوخذ نصر) في عهد البابليين ليسيروا مسيرتهم الكبرى الى (بابل) ومنها فإلى كل أطراف العراق.

وبعد فها هي الحكاية مسلسلةً موثقة:

في يوم الثاني من آذار عام ١٩٥٠ م تقدمت هذه الوزارة السويدية إلى مجلس النـواب العـراقي بلائحـة (قـانـونيـة) هي أبعـد ماتكون عن كل قوانين العالم المألوفة في مثـل هذه المـواقف، تقول في المـادة الأولى منها أن لمجلس الوزراء أن يقرر (إسقاط الجنسية العراقية) عن اليهودي العراقي الذي يرغب باختيار منه ترك العراق نهائياً، ومن حق القاريء أن يعيد قراءة المادة لوحدها ماشاء وما استطاع أما الثانية فتسهيل أكثـر وتيسـير أشـد لتقـديم الهـديـة الكـبرى الى اسـرائيل وذلك بإسقاط الجنسية العراقية عن كل يهودي يغادر العراق بل مجرد أن يحاول مغادرتها أما اليهودي الذي سبق له أن هرب من العـراق بالهـديـة المهـداة إليـه ماتنص عليـه المـادة السـالفة هو مامعنـاه أن يبقى ملكـاً لاسرائيل لايجوز استرداده وذلك بإسقاط الجنسية عنه. وتمّ تنفيـذ مؤامـرة كبرى نُسبت بما يشبه السِفاح إلى القانون على يد «صالح جبر» كما قالت اللائحة.

أمـا (الأسبـاب المـوجبـة) كما سُمِّيت لسنّ هذا القـانون المزعوم فكم ينطبق

عليها القول المأثور: «العذر أقبح من الفعل» ، فبدلاً من أن يشدد تطبيق القانون وبالعقوبات المستحقة على كل يهودي عراقي يحاول ـ مجرد محاولة ـ الهرب الى اسرائيل فقد أصبحت، محاولة الهرب حسب، بل الهرب نفسه سفرة سعيدة الى اسرائيل لارجعة عنها أبداً. وذلك باسقاط الجنسية أيضاً وإذا كان هناك مايحتاجه القارىء مما يقرب تصديقه لما لايكاد يُصدق من هذه اللقطة فهاهو نص المادة يريحه من ذلك، إنها تقول بالحرف الواحد: (تأريخ الوزارات العراقية ٨/ ١٥٠).

«لوحظ أن بعض اليهود العراقيين أخذوا يتذرعون بكل الوسائل غير المشروعة لترك العراق نهائياً كما وأن البعض الآخر سبق أن غادر العراق بصورة غير مشروعة ومن حيث أن وجود رعايا من هذا القبيل مرغمين على البقاء في البلاد، ومكرهين على الاحتفاظ بالجنسية العراقية مما يؤدي حتماً الى نتائج لها تأثيرها على الأمن العام، والى خلق مشاكل اجتماعية واقتصادية، فقد وجد أن لامندوحة من عدم الحيلولة دون رغبة هؤلاء في مغادرة العراق نهائياً، وإسقاط الجنسية العراقية عنهم. وقد سنت هذه اللائحة لتأمين هذه الغاية».

«وعلى أي حال فقد كان الأمر الذي دبّر بليل على كل مافيه من فظاعة التاريخ الأسود قد انتهى في ظهيرة اليوم التالي عندما تقدمت الوزارة السويدية باللائحة الى المجلس النيابي لتُصبح بعد أقل من ساعة وبعد أن طُلب التصويت عليها حالاً وفوراً وبعد أن استجاب مجلس النواب ـ النواب عن الأمة طبعاً! هذا الطلب لتحال منه وفي الساعة نفسها فإلى مجلس الأعيان، ليصدق عليها وللتوّ وللفور أيضاً، لتُصبح هذه الكارثة وكما مرت الإشارة فبعد ساعة (قانوناً) نافذ المفعول ومن قبل «صالح جبر» وزير الداخلية.

وهدراً وطيّ أدراج الرياح ذهب صوت (علمانيٌّ) في مجلس الأعيان يطالب بشيء من التأني في أمر (لائحة القانون هذه) من قبل لجنة مختصة بذلك، وكان صاحب هذا الصوت وهذه المبادرة هو «مزاحم الباجه جي».

وقدم الى اسرائيل أكثر من مائة وخمسين ألف يهودي عراقي أصيل ومثقف وذوي اختصاص في شتى مجالات الحياة بأيسر وأسهل مما يقدم قطيع غنم.

أما لماذا تصنّعت الوزارة السويدية وعاموداها الفقريان «توفيق السويدي» و«صالح جبر» التغافل عن تجميد أموال وأملاك اليهود المهجرين الى اسرائيل هدية على أطباقٍ من ذهب، في حين أن هذا التجميد وكما يقال فوضع اليد على كل ما

يتملكه يهود العراق وبخاصة فمن الأموال المنقولة هو جزء لايتجزء من تلك العملية وهو ما لايصح أن يتغافل عنه حاكم تحقيق على سبيل المثال وليس جهاز دولة بأكمله، ثم لماذا يؤجل كل ذلك الى أكثر من سبعة شهور ريثما تجيء (الوزارة السعيدية وفي هذه المرة فبعامودها الفقري الأوحد «نوري السعيد») الذي جمع رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية، ليتكفل بذلك كله فهنا يكمن السرّ الرهيب، وما عسى أن يكون هذا السرّ سوى أن تسمح الفرصة خلال هذه الفترة القصيرة بشهورها والطويلة والعميقة بتوقيتها ومضمونها لتخليص هؤلاء اليهود وبخاصة فكبار تجارهم وصيارفتهم وإقطاعييهم كلما يملكون من ثرواتٍ وكنوز، ولكي لايتبقى من ذلك كله خلال سبعة أيام لاسبعة شهور إلا النزر اليسير لمن عسى أن يكون قد تبقى من هذا اليهودي أو ذاك في العراق.

ومن سخرية القدر ـ على بداهة هذه السخرية وعلى سلامة منطقها ـ أن يكون مني ومن جريدة «الرأي العام»، وفيما يتمثل كما يعرفه كل عراقيٍّ القطاع الأكبر من الشعب العراقي مأشرت اليه من مقالٍ جريء، يمثل موقفاً جريئاً في وجه هذه (المؤامرة) الكبرى وكل خلفياتها وكل المتسترين عليها، ثم أن يكون من حزب الاستقلال الذي هو الغطاء الأول على مَن يُسمّون القوميين العرب، أي مَن يفترض فيهم أن يكونوا هم في المقدمة من الثائرين بكل مايستطيعون وبكل مايدخرون من قواهم الحزبية، لا لشجب هذه المؤامرة حسب بل ولإثارة الجماهير لغرض إسقاطها، أن يكون منه وعلى حدٍّ سواء فيمن يمثله في مجلس النواب العراقي والذي زايد على «توفيق السويدي» و«صالح جبر» في الترحيب والتهليل بهذه اللائحة أولاً وبما كانته خلال دقائق معدودات من «قانون» بل وفيما افتتحت به جريدتهم (الاستقلال) الناطقة بلسانهم بأكثر من مقال واحد في المزايدة على المزايد منهم في كل ذلك، وأفظع منه ففي تزكية الحاكمين المتآمرين، وفي تهنئتهم على مؤامراتهم هذه.

لُعنت بغداد من بلدٍ كل مافيه أعاجيبٌ

سفرة لبنان

كان القصد من السفرة الثانية إلى لبنان هو المشاركة في تأبين «عبد الحميد كرامي» وسبق ان ذكرت للقارىء الكريم في الجزء الأول من المذكرات موقفي من اشخاص كثيرين اقتضى الأمر ان اشارك في تأبينهم . . . بصلة او بدون صلة . . واذكر الآن انني شاركت في تأبين اشخاص من المعاصرين لا اعرف عنهم شيئاً وإذا استدركت فشيئاً جدّ قليل . . . وقد لا اؤمن بأفكارهم . . . يدفعني إلى ذلك ان هذه المشاركة او تلك ستكون منبراً لطرح افكاري وستكون مناسبة حاشدة ليتسنى لي من خلالها ان اطرح تلك الأفكار على أوسع قطاع من الجمهور . .

و«عبد الحميد كرامي» لم اكن أعرف عنه شيئاً على الاطلاق وما هذا بانتقاص من الرجل فقد تكون بلاد الشام كلها تعرفه انما اردت من خلال هذه الدعوة ان ارمي صاروخاً شعرياً من على منبر تأبينه خصوصاً وإنني تلقيت الدعوة بالحاح من لجنة التأبين عبر برقية ورسالتين علماً انني كنت مشغولاً جداً في العراق وان جريدتي الرأي العام كانت تعيش عزها والجو كان رهيباً ويحتاج المتابعة . المهم انني استجبت للدعوة وسافرت إلى لبنان ودخلت اليه كما تكون عادة الدخول . . وهنا لا بد لي من التوقف عند نقطة هامة جداً افسدت عليّ متعة هذه الرحلة . .

فقد حشد الحزب الشيوعي اللبناني كل ما يستطيع حشده لاستقبالي . . . وتحول الفندق الذي نزلت فيه إلى قاعة تجمهر هؤلاء وكأني بهم يريدون القول : نحن لبنان كله . .

وطبيعي ان يكون ذلك محض سوء تصرف وانعدام مسؤولية فقد كانوا يريدون اثبات انني في الصميم من الشيوعية . . وما اشبه هذه الليلة بالبارحة .

حيث يحدث معي في دمشق الآن . . ومن طلائع الحزب الشيوعي العراقي وفي هذه الأيـام من كتـابـة هذه المـذكـرات الشيء نفسـه . . وليس هذا انتقـاصـاً أيضـاً من الحزبين، فكم أعدت القول انني شريك مع كل الطلائع الخيرة من أفرادٍ وجماعات في كل الاتجاهات وفي الصميم منهم وأنا المغامر المتياسر فالاحزاب الشيوعية العربية كلهـا فحتى في لبنـان نفسـه والى جانب أصـدقـاء عديـدين وعـديدة انتماءاتهم لي صديق من حزب «الكتائب» ما أعزه عليّ، وما أكرمه نخوةً وشهامةً وهو الشاعر المقل المبدع «سعيد عقل».

وعلى أي حال فقـد وجـد الحـاكمون المتغطرسون آنذاك انه لا بد من افساد حضوري . . ولا بد من افشال الحزب الشيوعي اللبناني في تظاهرته هذه وافساد ما اعتز به من قوة التأثير ومن نفاذ الكلمة والحرف والقافية على الجماهير كلها . . وكان لهم ما أرادوا . . .

في منتصف القصيـدة التي القيتهـا رأيت شخصـاً وفي يده قصـاصـة صغيرة يتقدم إليّ وطبيعـي أن يكـون من قبـل «رياض الصلح» رئيس الوزراء وقتذاك . . . الذي يتصدر القاعة تقول: ليتك تقف عند هذا الحد . .

أنا وليس هذا من باب التبجح لا اقف عند حد يريده لي الآخرون وهذا شأن كل صاحب كلمـة، ومـوقف يحترم نفسـه . . فاستمـررت بالالقاء . . وإذا بالأنوار تطفأ والقـاعـة يسودها (الهرج والارتباك) . . وأياً كانت تفسيرات هذا الموقف فانني اقولها صراحة: «لقد خرجت من القاعة انا وقصيدتي، مهزومين» . .

والحـاكم بأمـره خرج منتصـراً والحزب الشيوعي اللبناني خرج محرجاً ومخذولاً واراد ان يعـوضني عن ذلـك بمأدبـة عشـاء اقـامها علم بارز من اعلامه هو الدكتور «انطوان ثابت» وكان العشاء الأخير . . . والفرصة الأخيرة التي يسمح لي بها دخول لبنان . .

لم تكن قصيـدتي في «عبـد الحميـد كرامي» لتـزيد عن اقل قصيدة اواجه بها الحاكمين ببغداد . . لا تأثيراً ولا تعريضاً . . وجل ما فيها ـ وديواني لدى القارىء ـ هو البحر والبحار والاساطيل الأمريكية ببيروت . . . والطير والطيار وصحافة صفر الضمير . . ومـع ذلـك ووجهت هكـذا . . ومـع ذلـك أيضـاً فقـد اكتفى الحـزب الشيـوعي من ذلـك المـوقف ومـوقف طردي من لبنـان ـ بأن كتب الدكتور «انطوان ثابت» كلمـة موجـزة في جريـدة له . فلا مظـاهـرة لهذا الحزب بهذا الخصوص لا في

بيروت ولا في غيرها ولا في صيدا، ولا ضجة اعلامية تواجه خطأ الموقف وخطأ التصرف، بل حتى ولا من يودعني من أفراد وجماعات، لولا الرجلان الكريمان الآتي ذكرهما.

ولا أقول هذا كي اسيء إلى حزب او جماعة بل اقوله كي تكون مثل هذه المواقف درساً لمن يريدون ان يحموا افكارهم وقواهم ويكونوا روادا لقضايا مجتمعاتهم..

نهاية هذه المسرحية الفاشلة كانت على الشكل التالي:

فقد تلقيت ثاني يوم اطفئت الأنوار فيه على قصيدتي.. دعوة من اخوان كثيرين لي في جنوب لبنان ادباء، وشعراء من صيدا وصور والنبطية.. أي بما يسمى بجبل «عامل» وفعلاً قام هؤلاء الداعون بكل اصول واجب الضيافة والاكرام والاحترام.. وبينما كنت ذات ساعة في صالة العلامة الشيخ «احمد الرضا» عضو المجمع العلمي في دمشق، ومجلسه حاشد بالحضور قرأت ما خلف السطور حين رأيت شابا ينهض من بعيد ويتقدم باتجاه الشيخ الرضا «وحين وصل اليه همس بشيء مما لديه وبعدها تقرب هذا الشاب إليّ بعد اشارة من الشيخ الرضا» بوجوب تلبية طلبه رافقني هذا الشاب وهو يتصنع الادب واللطف.. إلى زاوية قصية ليقول: انا من متابعيك ومحبي شعرك وحفظته.. غير انه يملؤني الاسف وانا من رجال الامن ان أكون مضطراً لابلاغك مغادرة لبنان غداً صباحاً.. وبضحكة طبيعية خالصة قلت له: يا ولدي انا مغادر لبنان حتماً.. وغدا كما تريدون.. لكنني اريد ان تبلغ من امرك بهذه المواجهة وتقول له: انني موجود في كل بيت لبناني وفي كل مقهى وكل شارع وكل ذاكرة نقية ووطنية وشريفة ومع السلامة..

عزائي الكبير في هذه المرحلة التي عدت منها مطروداً هو ذلك الحفل الصغير بحجمه الكبير بمعناه الذي اقاماه لي «احمد عارف الزين» صاحب مجلة «العرفان» وسليمان الزين والذي غطى على تقصير المقصرين وخذلان الخاذلين، وكبر العزاء حين قام الرجلان الكريمان بمرافقتي إلى المطار صباحاً.

سبق لي وتحدثت في الجزء الأول من ذكرياتي هذه ان الاستعمار الفرنسي كان قد منعني من دخول لبنان لليلة واحدة وفي صباحها سمح لي بالدخول إلى بلاد الشام كلها بعد ان شتمته في حفل حاشد كبير.. وفي واحدة من أجمل قصائدي، قلت فيها:

قلت إذ حرتُ: أيُّ أرض لها الفضل على غيرها وحار صحابي!
أدخلوا «جنة» النعيم تُلاقوا ألف «رضوان» فاتحاً ألف باب
غير أني أنكرت في جنة الفر دوس «ربا» موكلاً بعذاب
إيه «لبنان» والحديث شجون هل يطيق البيان دفعاً لما بي؟
خلت أني فررت من «جور بغداد» وطُغيان «جوها» اللّهّاب
غانماً «سفرتي» وها أنا في حا ل أراها غنيمةً للإياب
أفيبقى «الأحرار» منّا ومنكم بين سوط «الغريب» والإرهاب؟

لكنني هذه المرة اتحدث وانا متألم حقاً فانا اضطهد في عهد وطني كل ذنبي فيه اني شتمت وعرضت بالتدخل الأجنبي وبعملائه في لبنان ليس إلا..

فالمهم هنا اني انبئت ان «حسين العويني» الذي تسلم الوزارة وهو الذي اصدر امر مغادرتي لبنان وعدم السماح بالدخول اليها.. فما كان مني وقد عدت إلى بغداد إلا ان انشر مقالاً افتتاحياً جريئاً في جريدتي «الرأي العام» عما كان من أمر العويني معي..

وتشاء المصادفة أن يكون «مصطفى العمري» وزير الداخلية في العراق وفي هذه الفترة بالذات في بيروت فيشكو اليه «العويني» امر هذا المقال ويعود «العمري» ليصدر امراً باغلاق الجريدة ساعة وصوله إلى بغداد..

واذكر هنا اني اتصلت بمدير الدعاية السيد «خليل ابراهيم» الذي كنت أقدر فيه صدقه ومحبته على الرغم من اختلاف وجهات النظر بيننا، لأسأله عن سبب الاغلاق المفاجىء هذا فقال لي: وبالحرف الواحد:

لقد اصدر إلي «مصطفى العمري» امره هذا وهو عريان في الحمام يستحم من وعثاء السفر.. فما عساني اصنع..

وبالرغم من مضي ذلك العهد... فقد حاولت جاهداً بعد اكثر من عشر سنوات ان ادخل إلى لبنان.

فانني ورغم جميع المحاولات لم احصل على تأشيرة دخول إلا لمدة شهر واحد، مددت لمدة اسبوعين بوساطة من صديقي المارّ الذكر الشاعر، والاديب، والعزيز «سعيد عقل» فتصوروا معي فظاعة القصة، وفظاعة (ما بين العهدين)!!

اعود إلى عام ١٩٥٢ فقد كانت جريدتي «الرأي العام» هي الأولى من بين كل صحف المعارضة في العراق ملاحقة، ومراقبة... وليس هذا بالأمر الغريب

والعـراق يعيش اجـواء رهيبـة بعد انتكاسة الوثبة، ويعيش تحت سيطرة المتحكمين والاجهـزة المـرتبطة بهم. . هذه الأجواء التي لاقى فيها العراق. . . ما يضيق به أي بلد عربي ذرعاً بما فرض عليه من حكم عسكري وبما عاش من ارهاب وبما سيطر عليه من طغاة. .

وبـالـرغم من انني استعـرت صحفاً من اصحابها وروقبت واغلقت الواحدة بعد الأخرى. . .

وبـالـرغم من انني قررت ان استمـر في معـركتي مع هذا الجو الخانق إلا انني وجـدت نفسي محاصـرا من جميـع الجهات وانني مقيد باقسى السلاسل. . . وانه لم يتبق امامي سوى السفر إلى الخارج فقررت مغادرة العراق. . .

الفصل الثاني

يومَ الشهيد! طريقُ كلِّ مناضلٍ
وَعْرٌ، ولا نُصُبٌ ولا أعلامُ
في كل مُنعطفٍ تلوحُ بليّةٌ
وبكُلِّ مُفترَقٍ يدِبُّ حِمام
وحياضُ مَوت تلتقي جَنَباتُها
وعلى الحياضِ من الوُفود زِحام
وقباحُ أشباحٍ لِمُرتعدي الحشا
برَمٌ بها، ولِمُحربين هُيام
بلك بعد مُحتَدِمِ النضالِ سينجلي
مما ابتدأتَ من النِضال ختام
سيُجازُ شَهرٌ بالعَناء وآخَرٌ
ويُخاضُ عامٌ بالدماء وعام
ستطيرُ في أفق الكفاح سَواعدٌ
وتَطيحُ في سُوحِ الكرامة هام
ستَثور من رَهَج اللُهاث عجاجةٌ
ويَهُبُّ من وَهج الشَّكاة قَتام
سيُعالَجُ الباغي بنَضْحٍ من دَمٍ
حتى تُسَكَّنَ شَهوةٌ وعُرام
لابُدَّ من نارٍ يروح وَقودُها
منّا ومنه غارِبٌ وسَنام

وتُنير منها الخابطينَ دُروبَهم
من بعدِ ذلك جَذوةٌ وضِرام
اذ ذاك يُصبحُ بعد طُولَ مَتاهةٍ
بيد الشَعوب مقادةٌ وزِمامُ

السفـرة الأولى إلى القاهرة

ومن الدار نفسها كانت سفرتي إلى القاهرة إلى مؤتمر المثقفين العرب الذي كان باشراف ورعاية الدكتور طه حسين وهو حينئذ وزير للمعارف . . .

كانت سفرتي هذه تلبية لدعوة تلقيتها من الدكتور طه وحضرت المؤتمر مع جمع غفير من المثقفين العرب ـ وبخاصة فمن المصريين الذين كانوا الأكثرية، شاركت والقيت قصيدتي وهي في الطليعة من قصائدي التي اعتز بها :

يا مصر تنتهض الدهور وتعثر — والنيل يزخر والمسلة تزهر
وبنوك والتأريخ في قصبيهما — يتسابقان فيصهرون ويصهرُ
يا مصر لم تبخس جماله ريشة — مرت عليه ولم يخنك مصور
الليل عندك غير ما عرف الدجى — في أرض غيرك والصباح المسفر
وكأنما من صنع جوك وحده — قمر على كبد السماء منور
وتمورت حبات رملك بينها — رفق الدهور وعنفها يتمور
يا «مصر» مصر الأكثرين ولم يزل — في الشرق يرضخ للأقل الأكثر
يا «مصر» مصر الشعب لا غاياته — تفنى ولا خطواته تتقهقر
جبروته الأعلى فلا «نيرونه» — شيء ولا «فرعونه» المتجبر

والقى الدكتور طه بعدها خطاباً عاطراً بالثناء والتقدير وبقيت بعد ذلك مدة غير قليلة ضيفاً عليه . واغتنمت هذه الفرصة فطلبت ان كان يسهل عليه ان يتكفل امر دراسة اولادي (اميرة وفرات وفلاح) . . . هؤلاء الثلاثة الذين كانوا مؤهلين لمثل هذا الطلب لأن البقية كانوا أطفالاً وهم (نجاح وكفاح وظلال وخيال) وان يتقبلهم كطلاب على نفقة وزارة المعارف في مصر ـ وفعلاً رحب الرجل بذلك وانتقلوا بعدها الى القاهرة .

في هده السفره قال لي وهو يشير إلى سفرة لندن عام ١٩٤٧ ، عندما زارني ودعاني إلى بيته ·

عجيب ان تذهب إلى لندن بالطائرة وتترك هذا السفر الجميل والدنيا عن جانبيك في الباخره . . فلما قلت له . انهم يعتذرون (أي المصريين) ويقولون انه لا توجد بواخر . قال يا اخي هولاء الانكليز هم اهل مصر واهل العراق ولا يصعب عليهم ان يعدوا لك باخرة . . جديدة . .

عجيب امر هذا الرجل إنه لا يرى ولكنه كان يحس الحياة بكل ما فيها . .

على كل حال في المرة الثانية قال لي : تلك المرة ضاعت وهذه المرة لا ادعك تذهب فحجز لي على «اسبيريا» وهي من أكبر البواخر في العالم وكانت قادمة ـ فسأل السكرتير عنده والذي كان كاتبا شهيراً هل وصلت اسبيريا؟ قال نعم سيدي قال له احجز فحجز لي على ارقى واجمل واعلى ما يكون من طوابق الباخرة ـ وكم كان أسعى أن تكون هذه الرحلة النادره من الاسكندرية إلى بيروت فالاسكندريه لبس بلا ، فقد كانت ليلة مقمرة بيضاء لاتنس ، كانت الدنيا ترقص كلها حتى البحر نفسه تحت أشعة القمر . .

فرجعت الى بغدا . وجهزت الأولاد بكل ما امكنني وتيسرت الأمور وذهبوا إلى الدراسة وبقوا مدة سنتين او ثلاثة ثم عادوا . . .

السفـرة الثانية إلى القـاهرة

قررت مغـادرة العـراق ثانيه إلى مصر مغتنما فرصـة أن الـدكتـور «طـه حسـين» لم يزل وزيـراً للمعـارف اضـافـة إلى ان القـاهـرة الجبارة مليئة بالكوادر الادبية والسياسية والصحافية وان لي فيها اصدقاء كثراً . .

وللحقيقـة والتـاريـخ أقـول : ان «بلاسم الياسين» وهو شيخ اقطاعي مر ذكره . . كان قد ارســل إليّ وانـا في تلك المحنــة / ٧٠٠/ دينــار وهي في ذلــك الــوقت تساوي . . . في وقت كان فيه ايجار الشقه الكبيرة الباذخة بكل ما فيها من اثاث وما كانوا يسمونها بالذهبيات ـ لأن كل ما فيها من ذهب وعلى النيل هو / ٣٠/ دينار لا اكثر. . . والغرفة الجميلة بـ /٣/ دنانير في الشهر لا اكثر.

حزمت حقـائبي وعـادرت بغـداد ـ حيث كان في وداعي زوجتي «ام نجـاح» وأولادي . . وشقيقتي الوحيدة والفقيدة «نبيهة» ومجموعة كبيرة من الأصدقاء والمعارف . .

غادرت بغــداد إلى دمشق بالطـائـرة وانـا حزين على وداع وفـراق والـدتي الطاعنة بالسن والتي فيها اقول قصيدتي :

تعــالـى المجــد يا قفص العظـــام وبــورك في سجــودك والــقــيـــام

وفي دمشق دفعت الثمن غالـياً هذه المرة وباكثر مما دفعته في لبنان . . أي كما يقولون باللهجة العراقية الجميلة «أكلته» .

فلقد دعيت إلى عشاء في دمشق اقامته لي شلة صغيرة كريمـة يعرفـونني ولا اعـرف احـداً منهم وخـلالهـا اهـدوني لوحات فنية لأحد المدرسين في كلية الفنون ، وبكل براءة وكل عفوية حملت هذه اللوحات دون ان انظر إلى محتواها فرحاً ولم اكن لأدري انهـا ستكـون حملاً ثقيـلاً وعبئاً كبيراً وانا متجه إلى القاهرة ومصيري وعقب

هذا المصير في يد وزير الداخلية الذي كان بمثابة من يحكم مصر باسم حزب الوفد الذي قلت فيه وانا اعقد عليه امل النضال والخلاص.

سر في جهـادك يحتـضـنـك لواء نشـرت عليـه دمـاءهـا الشهـداء . .

المهم انني غادرت دمشق وانا احمل حقائبي واللوحات الهدية . .

وتشـاء الصـدف ان انسى اللوحـات في مركـز الجـمارك الذي هومركز الامن المصـري ووصلت إلى فنـدق «شبرد» الشهير يومها وقبل ان استريح وبلهفة عارمة هتفت إلى اولادي الثـلاثـة «فـرات وفـلاح وامـيرة» وسـرعـان ما كانـوا معي . . . وسرعان ما اشتعل الدفء في اضلاعي وسرعان ما جمعنا الحب حول مائدة بجلسة لطيفة، ولقاء مؤنس . .

وفي غمرة هذا الاحتفال العاطفي لبيت نداء يقول:

الاستاذ الجواهري . .

قلت نعم:

قال: انا من قبل السفارة العراقية «يسلم عليكم السيد السفير ويحب ان يراكم . . »

قلت: من اين تتكلم . . وكنت حقيقة مرتاباً . . لأن بيني وبين هذا السفير صلة وعلاقة لا تحتاج إلى وسيط واضفت:

أين أنت؟.

قال: انا تحت في قاعة الاستقبال بالفندق.

قلت طيب . . انـا قادم . . وكـانت البهتة والريبة ظاهرتين عليّ خصوصاً وانا امام اولادي الذين لم يمض على لقائي الحميم بهم أكثر من نصف ساعة . .

نزلت واذ بي اجد ضابطاً برتبة عسكرية مرموقة يلقي عليّ التحية . .

قلت: أي سفير . . واين هذا الرجل . .

قال: «والله ياحضـرة السيـد الأمـور عنـدنا «كده» نحن نريدك لبعض الوقت اذ يوجـد خطأ في جواز سفـرك . . وعلينـا ان نصحح هذا الخطأ . . . دقائق وتعود إلى فندقك بكل طمأنينة وأمان» . .

أي خطأ وأي تصحيـح . . وبـدا لي انني حزرت ماتحت الستـار غير ان الحقيقـة افهمها إ بعد ذلك

ركبت السيارة معه ووصلنا إلى المطار، وإذا به يصحبني إلى مدير المباحث،

وكان رجلاً لئيماً، لايحترم الآخرين ولا المقاييس والموازين، واذكر انني حين دخلت اليه وسلمت لم يرد السلام. . ولم يسألني ان كنت أريد فنجاناً من القهوة أو الشاي، ولم يقدم لي سيكارة، كما هو المألوف في أصول المقابلات. . وبعد فترة سادها الصمت والترقب أتى ضابط سمين منتفخ وغليظ من المباحث وبيده سجل كبير، هو السجل الرسمي للقادمين والمسافرين ومالبثت ان قرأت بين السطور جملة موعد مغادرتي المطار معاداً إلى بغداد. .

يشاء حسن الحظ وحسن ارادة القدر ان تكون نوبة هذا الضابط الوقح قد انتهت ليأتي بعده ضابط كريم، لطيف لعله كان من الضباط الأحرار. . . وكانت ساعة حاسمة:

وأول ماكان من آمر هذا الضابط الجديد ومازال السجل المشار اليه وحامله واقفاً امامه بعد ان ادى التحية، لم يكن منه إلا ان نهره وامره ان يغلق السجل ويولي الأدبار قائلاً:

المكتبة المركزية

مرحباً. . . استاذ جواهري. .

قلت: وبك أكثر من مرحبا «أيها الأخ الكريم». . . .

قال: هل تناولت فنجاناً من القهوة. . قلت: لا. . .

دق الجرس. . وطلب لي فنجاناً من القهوة، وقدم لي سيكارة اشعلها بيده واعتذر كثيراً لأنه يعرف ان من كان قبله قد اساء الأدب إليّ. .

قلت له: على اي حال. . . انت نعم الخلف. .

التفت إليّ وقال: اعرف ان اولادك هنا. . واعرف انك مفارقهم. . هل تريد ان تخابرهم. .

قلت: والله اريد ذلك. . . لأني تركتهم في حالة قلق. . فقدم لي الهاتف وقال: تفضل. .

تكلمت مع فرات ـ ودسست له كلمة عابرة رمزية لم اكن لأظن ان الرجل يعارض في قولها صراحة. . قلت له (طه ـ طه) ففهم فرات «ان المقصود هو الدكتور طه حسين» وبعد دقائق معدودات رن الهاتف وإذا بي اسمع الرجل يقول:

نعم باشا. . نعم باشا. . تنفست الصعداء لأنني احسست ان هذا الهاتف جاء من اجلي. .

التفت إليّ الرجل وقال: يسرني كثيراً ان المتكلم هو الدكتور «طه حسين»

وهـو يوصيني بك خيراً . وأنـا الآن انتظـر هـاتف آخر من «فؤاد سراج الدين باشا» وزير الداخلية . .

وبعـد دقـائق معـدودات ايضـاً رن الهـاتف ورد الـرجـل بنعم باشا . نعم باشا . . وكتب على ورقة امامه ما كان يأمره به (الباشا) . . واغلق السماعة وقال لي :

يسـرني أن السيد «فؤاد سراج الدين» يقول : انك مطلق السراح . . وانك تتمتع بكل حريتك ، شريطة ان لا تتدخل في السياسة وان لا تخطب بالجماهير . . قلت :

انـا هنـا لمجـرد اني متعب ومثقـل بالهمـوم في العراق وقدمت اليكم لاستجم واسـتريـح واتمتـع بجـمال ومتـارف ومشـارب القـاهـرة . . وآخذ حصتي من الحياة واسـتريـح قليـلاً من السـاسـة والسيـاسـة . قال هذا هو المطلوب ، واعتبر كلامك هذا تعهـداً من صادق ، وامـين . . . ودعتـه بكـل احـترام وتقـديـر وعدت إلى اولادي لأجـدهم بتلك اللهفـة المعهـودة ولحسن الحـظ ان ابني فرات عثر على الـدكتـور «طـه حسـين» وهـو وزيـر للمعـارف ولـديـه مالديه من المشاغل والاهتمامات والدعوات فلولم يعثر عليه لكنت الآن مبعداً وفي طريق العودة إلى بغداد . .

عرفت فيما بعد ان اللوحات التي اتيت بها من دمشق ونسيتها في مركز الجمارك المصـريـة هي لوحات تمثل شعارات للسـلام العالمي المحظور نشاطه في القاهرة وكل العالم العربي . .

واكثـر من ذلـك فقـد علمت ان مديـريـة الأمن في العـراق فوجئت بسفري وارسلت برقيـة وانـا على متن الطـائرة في الجو بوجوب اعادتي إلى العراق ولا بد ان تكـون هذه الـبرقية إلى السفارة العراقية قبل ان تكون إلى الاستخبارات المشتركة بين التحقيقـات الجنـائيـة في العـراق وبـين المبـاحث المصرية وهنا اكتشفت صدق الضابط الذي صحبني إلى المطار من أنه يتكلم باسم السفير العراقي أيضاً ، وذلك ماسبب في استـدعـائي إلى المبـاحث بسبب الفن والهـدايـا والعسف المخـابـراتي العـراقي ، بعـد يوم أو يومـين وبينما كنت أنـزل درجـات سلم الفنـدق إلى قاعة الاستقبال وإذا بضابط أمن جديد يتقدم إليّ ويطلب مني مقابلة السيد «سراج الدين» . .

فوجئت بالأمـر . . ونسيت ان «فـراتاً» وهو ابن الثانية والعشرين كان منخرطا في الحزب الشيوعي المصري ونسيت ايضاً اني ذهبت إلى السينما معه ومع زميل له . .

فذهبت إلى «سراج الدين باشا» الرجل الأول والقوي في مصر. . وابتدرني قائلاً:

نحن رحبنا بك في القاهرة شريطة ان لا تتدخل في السياسة فما بالك خرجت عن هذا الشرط. . قلت: انا لم اتدخل في السياسة وانا حديث عهد في مصر. . ولا اذكر انني غادرت غرفتي او ذهبت إلى اكثر من المقهى. . قال لي: لا انت ذهبت إلى السينما. . . وبصحبة فلان وتحدثتم بالسياسة. .

وكان يجب علي أن أعلم علم اليقين أنني وضعت تحت المراقبة منذ ساعة دخولي المطار.

قلت له: أقسم أنني كنت قد ذهبت وبكل عفوية دون تناول أي حديث سياسي، لمجرد أن ولدي قد رغبني بالفيلم المعروض.

قال: على كل حال، هذه أمور غير مرغوب فيها، وأنا أحذرك من تكرارها. . وانتهى. . !

استأجرت فيلا على النيل، وهي ماكان يسميه المصريون وقتذاك «بالذهبية». . وعشت أياماً جميلة، هادئة، أرحت فيها نفسي من هموم السياسة، وعناء الصحافة، ومكر العلاقات، ومضايقات القصائد. . الى أن أخطأت وزرت السفير العراقي في مصر. وكانت هذه الزيارة واجباً وتعبيراً عن علاقتي الوطيدة به، والتي سبقت الاشارة إليها وإليه أثناء وجودي في باريس.

ردّ الزيارة وبدون موعد سابق، وبصحبته «روفائيل بطي» المستشار الصحفي في السفارة. واستضفتهما على السطيحة الجميلة من «الذهبية» التي كانت أشبه ماتكون بصالة رقص فسيحة. وشاهدت على وجهيهما علائم الدهشة مما أنا أعيش فيه من رغد، ورفاه.

وفي اليوم الثاني، زرت هذا السفير ردّاً على زيارته، وعرجت على روفائيل بطي. . وإذا بهذا الأخير يسلّمني رسالة مسجّلة، «مفتوحة» ومقصوصة باتقان، جاءت إليّ من صديقي السيد «صادق البصام» عضو مجلس الأعيان في بغداد، مع اعتذار تافه مرفوض. . . أن الرسالة فُتحت سهواً. . ! الرسالة تحمل لي أشواقاً، وخبراً بأن السيد البصام سلّم زوجتي «أم نجاح» مبلغاً جديداً «٥٠٠» دينار أخرى من قبل بلاسم الياسين نفسه. بعده بيوم، جاءني «أحمد بن كاشف الغطاء» وهو سكرتير في السفارة العراقية برتبة محقق جنائي ـ كما أحب أن أسميه ـ، وهو إضافة

إلى مايربط بيننا من علاقة وقرابة خَتَة، فجدتانا شقيقتان فإنه في عمر ولد من أولادي، جاءني ليسأل: من أين لك هذا؟!

أي من أين تنفق على هذه العيشة المرفهة.. وهل تأتي بنفقاتك من مصدر أم ماذا..

اجبته.. مصدر رزقي هو ما انبأتكم به الرسالة التي فتحتموها وسرقتم قدسيتها واسرارها... مصدر عيشي هو ذلك الرجل الذي قرأتم اسمه على صدر مغلفها.. ولا اظنكم تغفلون ما قرأتم فاطرق الرجل خجلاً وانصرف..

غريبة هي مجريات الحياة وغريبة كذلك وقائع التاريخ..

فانا يحقق معي من قبل موظف هو في الصميم من عائلتي وكما هو المفترض فان يكون أول العارفين بي وبمكانتي، ثم ان اتعامل مع رئيسه السفير العراقي كصديق بينما يتعقبني هو ويرسل تقارير عني إلى الأمن العراقي.

وبرغم هذا فقد كان يحيط بي اصدقاء من مصر والعراق على حد سواء استطاعوا بلطفهم وكرمهم وحسن معشرهم ان يجمّلوا الحياة في نظري وانا استمتع معهم بجلسات لا تنسى ومنهم على سبيل المثال من العراقيين الدكتور العلامة «المخزومي» ومن المصريين السيد «كامل الشناوي» رئيس تحرير جريدة الاهرام الذي لبيت دعوته إلى العشاء ذات يوم ورأيت جميلات يتحلقن حوله بدل ان يحدث العكس..

أي نمط من حياة الادباء والكتاب في مصر..

لقد صدق (الفاطميون) عندما سموا عاصمتهم هذه بـ (القاهرة) انها لقاهرة حقاً.. فلئن كان «ابن خلدون» العظيم قبل اكثر من /٧٠٠/ عام قد قال عنها وهو يدخلها لأول مرة:

«لقد دخلت القاهرة... ومن لم يرها لم ير عز الاسلام»..

أما الرحالة الشهير والموثق (ناصر خسرو) فقد قال وقبل ابن خلدون باكثر من ثلاثمائة عام في كتابه (السفرنامه) وهو وثيقة من وثائق التاريخ ومترجم لأكثر من لغة من لغات العالم:

«وكانت فيها العمارات الشاهقة ذات الطوابق العليا ـ فاحصيت عمارة منها فكانت مائتين وكذا شخصاً ـ ورأيت الغواني الحسان يتجولن في سوق المكتبات».

بهذه الجملة الصغيرة كان «خسروا» يرسم بدقة وامانة جمال القاهرة وفخامتها وجمال الحياة فيها . . .

إذا كانت القاهرة قبل الف وثلاثمائة عام وفي عهد الفاطميين وفي الاطار الضيق منهم كأسماء وأشخاص وفي الاطار الأوسع والأجمل ففي قوة الشخصية ومعزة النظام وعظمة الحاكم - وأعني به الخليفة (المعز) هذه القاهرة التي امتدت سلطتها وعزها ومجدها من المغرب الاقصى إلى المغرب الأدنى وإلى بوابة المشرق العربي كله . .

إذا كان ذلك كله وفي تلك العهود الغابرة فبوسع القارىء ان يتخيلها من جديد وفي القرن العشرين وهي تلتقط من حضارات العالم كله من حولها . .

لقطات تشتد روعتها واهميتها قدر ما تلتقي بالحبات المتناثرة من هنا وهناك من تقاليدها وأعرافها وبقدر مايمتزج الجديد الموحي وبقدر ما أسلفه القديم الموروث . .

انني وانا احاول ما استطعت ان ارسم هذه الصورة لماضي القاهرة وحاضرها أريد في المقدمة مما أريده رسم الصورة الصادقة والامينة للشعب المصري الجميل والكريم والصابر والصامد والذي كان وهو على ماصوره الاقدمون ومايزال حتى في نهاية هذا القرن لا تصرفه همومه ولا اثقال الحياة وأهوائها ولا حتى ما اختلفت عليه انظمة الحكم من حسن واحسن ومن سيء واسوأ ان يلطف من ذلك كله بحكم الفطرة وجمال الطبيعة وعمق الاحاسيس ان يلطف من كل هذا وذاك بحب الحياة وان يهدم بكل ماستطاع من أسوارها بضربات المرح والسهر والسمر والنكتة المازحة والجلسة الناعمة والجنس الناعم وإلى جانب هذا كله وبحكم عناصر القوة والقدرة على التكيف فهو من هو حين تحين الوثبة وحين تحين الثورة وحين يطرح على المحك مدى قدرة الشعوب على الدفاع عن نفسها وكرامتها وتفجرها وانتفاضاتها .

أجل انا شاهد عادل وفي هذه الفترة ذات الشهور الستة التي عشتها وما أزال اجر من اذيال ذكرياتها شاهد عدل على جمال المفارقات وروعة التناقضات . .

فهذا الجو العابث - وإن شئت فشبه العابث - كانت ومازالت تختفي تحت رماده وتحت الغطاء الشفاف فيه جمرة (ثورة القناة) وبور سعيد ، وثورة يوليو ، وجمرة الاطاحة بنظام عريق قام ونظام جديد ثائر - وبعد ذلك وبعقدين من الزمن وقريباً من يومنا هذا وتحت ذلك الغطاء الشفاف نفسه كانت جمرة عبور القناة وتحطيم

خط «بارليف». بل وتحطيم دولة اسرائيل كلها لو لم ينعكس القدر، ولو لم يقف العالم وهو بين القوتين العظميين على ابواب حرب عالمية ثالثة..

هذا هو الشعب المصري بحقيقته وجوهره لا بانظمته ولا بحاكمه..

على أي حال ففي المقابلة الأولى للدكتور «طه حسين» وانا قاصد اياه للشكر على موقفه الكريم الذي كان منه تجاهي قال لي: «مامضمونه»: هل من الممكن يا استاذ ان نعهد إليك في دار الكتب المصرية بمراجعة بعض الكتب المطلوبة ادبياً وتاريخياً ـ الكتب النادرة والتي يراد تجهيزها للطبع ان تراجعها وان تدقق فيها، وتعلق عليها ما تشاء او تقدم لها ما تشاء فقلت له: والله يا دكتور طه انا سعيد بهذه المهمة وهي ستسد فراغاً كبيراً أنا بحاجة إلى مايسدّه ويمضي الأسبوع ويمضي الشهر والشهران ولا شيء من هذا..

في مقابلة ثانية معه قال لي: هل لنا يا فلان ان نتجهز بما لا يقل عن الف نسخة من الطبعة الأخيرة لديوانك..

فبالرغم من نفاذ كل النسخ من الطبعة المذكورة مما تقدم ذكره في فصل سابق من هذا الجزء من ذكرياتي هذه ولمسيس حاجتي إلى حفنة جديدة من دنانير كنت قد انفقت اكثر منها فقد عنت لي حيلة مبتكرة، ذلك ان الألف نسخة المطلوبة من جديد كانت قد ادخرت لوزارة المعارف ببغداد مقابل منحة مالية منها، فكتبت إلى صديقي القديم الفقيد (عبود زلزلة) وكان مديراً عاماً لوزارة المعارف آنذاك. أسأله عما اذا كان بوسعه ان يؤجل هذه (الألف) المطلوبة للطبعة التالية من ديواني فكان جوابه مشكوراً بالموافقة وشحنت النسخ بأكملها إلى القاهرة..

وحتى هذه الألف النادرة فقد استمرت المماطلة في دفع ثمنها وهو خمسمائة جنيه مصري أكثر من ستة شهور..

وبعد مدة غير يسيرة كان الثمن المطلوب قد استلمه ولدي (فرات) الذي كان يدرس في القاهرة وحوله إليّ بعد ان اقتطع (اللعين) حصته منه..

وخلال سفرتي هذه كانت مفاجأة أخرى وجديدة ـ هي أن يزورني (عبد الرحمن عزام) رئيس الجامعة العربية آنذاك بنفسه على غير موعد ولا غير سابقة وهذا الشيء نادراً ما يكون ولحسن الحظ كان مجلسي فارغاً ولم يكن فيه ما يخرج عن المألوف. وجلس وكانت أحاديث عابرة ففهمت أنه ربما يرغب بتعييني في الجامعة

باسم العراق وهذا مالن يكون لأنه سيعترض عليه «نوري السعيد» وعرفت أن الدكتور طه قد حاول جاهداً شيئاً من هذا القبيل معه . .

بقيت هذه المدة كلها وبهذه الأثناء ابتدأت الرسائل تتوارد عليّ وقد حملت إحداها تواقيع مايقارب مئة من الشخصيات الأدبية والسياسية والصحفية ـ ومن قبل الطبقات الأخرى ـ وكانت تلح عليّ بالرجوع . .

واذكر ان السيد /خيري الهنداوي/ رحمه الله وهو شاعر طيب لطيف، من جماعة الرصافي المختصين به ـ أرسل إليّ «صورة من قصيدة جميلة» رفعها إلى «نوري السعيد» رئيس الوزراء حينئذ يعاتبه فيها على ان يكون فلان بعيدا عن الوطن . .

وفي نهاية المطاف بالقاهرة وصلتني الدعوة لحضور مؤتمر السلام العالمي في «فيينا» ومنه عرجت إلى بغداد واوصيت بما عندي من حاجيات إلى فرات واميرة وفلاح . .

جاءت الدعوة إلى فيينا ومعها الدعوات المتواردة إلى بغداد ورأيت أن الظروف حكمت كلها ان ارجع فذهبت مودعاً الدكتور طه حيث قال لي :

«يا استاذ جواهري» كم نحن بحاجة إلى طول اقامتك في القاهرة وان عن طريق اللجوء السياسي . قلت له : مع الاسف جئتك مودعاً وأنا غير محتاج لهذا ـ وأضفت : هل أغضبك يا أيها الدكتور العزيز عليّ الجليل القدر، إذا قلت لك انني نادم على زيارتي هذه لأن نوري السعيد نفسه ماكان ليجرأ على مضايقتي في بغداد بما ضويقت به هنا عندكم، قال : أنا آسف على هذا والشيء الذي أتمناه وهو ان لا يكون قد جرى على لسانك هذه الخواطر الاليمة قلت :

لا والله لقد جرى لي شيء من هذا فلقد قلت :

مالك يامصر والاذلال تعويد   يسومك الخسف كافور واخشيد
مقاله كبرت الحب شافعها   حب المسودين لو شاؤ وا لما سيدوا

* * *

قال : لا يا فلان هذا شيء كثير ـ قلت والله يا دكتور طفحت على لساني ولأجل عينيك الكريمتين ساحتفظ بها ـ والواقع فقد احتفظت بها إلى ما بعد ذلك بمدة طويلة ريثما طبع الديوان من جديد ونشرتا فيه . .

وسافرت فعلاً وودعت من قبل نخبة من الشباب المصري والعراقي

واستقللت الطائرة إلى روما ثم منها استقلينا القطار السريع الجميل الذي يكشف الأرض الخضراء الجميلة والينابيع والشلالات المنحدرة . .

في روما كانت لي قصة جميلة نادرة ومفارقة عجيبة أذكرها للمقارنة بين الحضارة والتخلف أو مايشبه التخلف في المجتمعات المختلفة وهو أنه لما وصلنا إلى روما تذكرنا اننا لم نعط اشعاراً بموعد قدومنا إلى المسؤولين عن المؤتمر - وهذا ضروري - فجئنا إلى محطة البريد الكبرى في روما وكتب صاحبي وهو ملم «بالانكليزية» البرقية عن موعد وصولنا: وكان عندي قلم حبر مذهب - هدية من السيد (صادق البصام) ومنقوش عليه اسمه فكان هناك رجل يقف بقربنا فطلب القلم وبزحمة من الانشغال وتزاحم الناس نسينا القلم وصاحبه الذي اخذه وخرجنا إلى مسافة غير قريبة واذا بنا نتذكر القلم النادر العزيز الجميل، فنرجع بلهفة إلى حيث ارسلنا البرقية وحيث كان الرجل المسؤول نفسه موجوداً فقال صاحبي له : بالانكليزية : يا سيد نحن آسفان على نسيان القلم قال: انا رأيت بعيني هذا الذي تقولونه والرجل الذي أخذه منكما . . ودهشنا من أن يشخص هذا المسؤول ذلك الرجل من بين مئات الناس وإذا به يقول: هل لكما ان تنتظرا قليلاً . . قلنا: نعم . واذا به يصعد إلى الطابق الثاني وينزل، قال: انتظرا برهة قليلة ايضاً، فلقد استدعيت المسؤول الأمني هنا على أي حال . . ويبدو أن صاحبنا المسؤول قد أتعب نفسه للحصول على البرقية المسجلة من هذا الرجل الذي كان معنا وحصل على عنوانه واستدعى الضابط، قال الضابط: هل ممكن ان تستريحا لمدة خمسة أو عشر دقائق - فجلسنا ولم تمض ربع ساعة وإذا به يأتي إلينا والقلم معه . .

ولا ادري كيف عرف الضابط من كل ما في روما وبيوتها بيت ذلك الرجل . .

اني اتذكر هذه الحادثة لاجيء على حادثة نقيضة ولهذا القلم نفسه - وانا عائد من سفرتي من لندن، إلى القاهرة - نزلت في فندق لطيف صغير وكنت متعباً فاسترحت قليلاً وخرجت للتنزه واذا بي ارى ثلة من باعة اليانصيب تتجمع حولي وكنت اطردهم وانتهرهم لشدة ما يضايقونني وارجع مرة ثانية لأراهم جالسين بنفس المكان واذا بهم يلتفون حولي مرة أخرى - في المرة الثالثة رجعت فلم أجد منهم أحد - فمددت يدي واذا بالقلم غير موجود، كان كل ذلك مدبراً لانتشاله . .

تلك الحادثة في البلد المتحضر وهذه في القاهرة وذهب القلم إلى يومنا هذا . .

كان مؤتمر السلام في فيينا لطيفاً وجميلاً والتقيت خلاله برهط من الشخصيات الادبية والسياسية العالمية وكانت الضيافة جميلة وكريمة ورجعت لأن جواز سفري كان منتهيا ، وفي الوقت نفسه كان عليه ختم وتأريخ دخول النمسا المتزامن مع تاريخ مؤتمر السلام العالمي الذي يعد لدى المسؤولين في العراق مؤتمر حرب وبخاصة في هذا العهد (عهد نوري السعيد) فضلاً عن قصة سفري إلى القاهرة بكل ماكان فيها ومنها . .

أخفيت جواز السفر وقصدت الوزير العراقي المفوض وكان رجلاً طيباً وكريماً قال : يافلان هذه المسألة تحتاج إلى مراجعة واكتفيت منه بجواز سفر مؤقت .
ووصلت إلى دمشق وكان بانتظاري صديقي المحامي المعروف السيد (نصوح الغفري) وكان بمثابة مرافق لي لايفارقني حتى لكأنه المسؤول عني ، كنت حتى عندما أنزل صباحاً بشكل متأخر أجده ينتظرني في مكتب الاستقبال في الفندق .

اودعت جواز سفري القديم عنده ودخلت العراق بالجواز المؤقت اياه وظل «صديقي الغفري» محتفظاً بالجواز لمجرد انه امتداد للذكريات الجميلة . .

ولن يفوتني وانا في ختام حديثي عن سفرتي إلى القاهرة اني غنمت فيها إلى جانب كل تلك المضايقات وعواقبها مشاركتي مصر في معركة السويس الشهيرة حيث وجدتني خلالها وبين دمدمات الكأس والنغم ادمدم وعلى طريقتي البدوية بواحدة من قصائدي التي أعتز بها كثيراً . وبموقفي الثائر فيها والمستوحى من موقف شباب مصر الباسل والمقاتل ايضاً واعني بها قصيدتي (خلي الدم الغالي) . . .

خلي الدم الغالي يسيل ... ان المسيل هو القتيل
هذا الدم المطلول يخـ ... ـتصر الطريق به الطويل
هذا الدم المطلول ان ... عز الكفيل هو الكفيل
ان يسترد به الاسيـ ... ـر وان يعز به الذليل
من هنا فجر يطل ... ومن هنا ليل يزول
وكأن مخضبة الدماء ... فويقها الشفق الظليل

* * *

ويجدها القارىء في الملحقات من هذا الديوان . .

وهـذه من مفـارقات الحياة الحلوة عندي فما اشبه الليلة بالبارحة أي بليالي في الأربعينـات وانـا أنتقـل فيـها بين (أتعلم أم أنت لاتعلم) و(انـا حتفهـم الج البيوت عليهم) وبين ماكان من أمر (انيتا) و(باريس) . .

ولشـد ما ارتبطت هذه المفـارقـة وبحكم القـدر بمفارقة غير حلوة هي انني لم اتعـظ بها فرطت به قبيـل قدومي إلى مصـر من ان احمـل معي اليها اعز هدية بوسع المرء ان يقدمها وهي قصيدتي في الوفد المصري : . .

سر في جهـادك يحتـضـنـك لواء نثـرت عليـه دمـاءهـا الشهـداء

* * *

فلربـما كانت تلك الهـديـة تبـدل من اسـوأ حال إلى أحسن حال . . لم أتعـظ بذلك كله ولم اتقدم بها إلى جريدة الاهرام ورئيس تحريرها صديقي «الشناوي» نفسه . .

أياً كان الحال فقد حرمت من ذاك وحرمت الأهرام وحرم الناس في مصر وقبل ذلـك كله واهم منـه بكثـير فقـد حرم الثـوار البـواسـل ثوار قنـاة السويس من هذه القصيدة .

انتفــاضة تشــريـن

عدت من القـاهـرة إلى بغداد . . وعادت جريدتي الرأي العام إلى الصدور وهي الجـريـدة التي كانت الأقـرب إلى الجـماهـير والأكثر شعبية وقتذاك . . وبعد شهور قليلة حدثت ثورة /٢٣/ تموز يوليـو١٩٥٢/ في مصـر وقـد استقبلت هذه الثـورة بمقـال افتتـاحي مشوب بالحذر والقلق والخوف . . . ولست ادري حتى الآن فيما لو كنت مخطئاً ام مصيباً أم كليهما معاً لأنني وحتى نهاية عمري لا أومن واتشاءم من كل انقلاب عسكري مفاجىء تحت أي شعار كان وتحت أية واجهة جاء . .

وهـذا ما كان يشكـل خلافـاً بيني وبـين صديقي (البصـام) الـذي يؤمن بالانقـلابـات العسكـريـة والثورات التي تقوم على العسكر . . ومن هذا المنطلق خالفني الرأي في ثورة مصر . . .

كان ذلـك هو الحـدث الأول عندي فيما يخص مصر أما في العراق فقد كانت انتفاضة تشرين .

وإنني ما أزال حتى الآن أرى هذه التسميـة فضفـاضـة على ذلـك الحدث وأرى في تسميتها ارتجالاً وارتخاصاً من قيم المسميات . . .

فالانتفاضة اكبر من حدث عابر . . او تمرد بسيط او اضراب مطلبي . . . الانتفاضة بحق وحقيقة هي ما ينطبق فعلها على مضمونها وهي ما اعيشه الآن وفي اوائل الشهر الثاني من عام ١٩٨٩ . .

الانتفـاضـة هي ما يحدث الآن في بقـاع فلسطـين العـربيـة والتي فيها يقاوم المـواطنـون الـرصاص بالحجارة والرشاشات بالزجاجات الحارقة وهدم البيوت بسد الطرق رغم كل قسوة اسرائيل في قمعها . .

يصير الحجر حجرين والصامد صامدين والشهيد شهيدين والمعتقل معتقلين وتهتز الأرض من تحت اقدام المقاومين ويدخل الهلع إلى قلوب الطغاة والقساة ويستمر الشعب بكل افراده واعمار بنيه وبنسائه وكهوله بالزحف إلى المواجهة والتصدي بالصدور للدبابات «هذه هي الانتفاضة» . . .

أما ان نسمي تمرداً ينطلق من رغبة في التسيب والتهرب من نظام دراسي . . . انتفاضة . . . فذلك ما لا يجوز في قواميس اللغة ولا في قواميس النضال كذلك . .

وانتفاضة تشرين هذه كانت لمجرد تمرد طلاب كلية الصيدلة والكيمياء لكي يعدل نظام الاعادة . . أي من أجل ان يتخلص الطالب من اعادة كافة المواد المطلوبة والمقررة في السنة الدراسية التالية إذا رسب بإحدى المواد . . .

وانتقل هذا التمرد او ما اسموه «بالانتفاضة» إلى اكثر من معهد واكثر من كلية ولم يكتف قائد هذا الحزب او ذاك بالحياد بل انتقلوا إلى موقف التشجيع . .

وللمقارنة الفاضحة لا بد من التذكير ان تلك الانتفاضة لم تدم اكثر من شهر وانتهت نهاية بائسة هي وكل قادة الأحزاب لتفتح بعدها ابواب السجون والمعتقلات والتعذيب على مصاريعها . .

الحقيقة انني هنا لا انتقص من ايمان الجماهير العراقية ولا من ارادة الشباب العراقي الذي عانى ما عانى من الاضطهاد والكبت ومحاولتهم تفريج كربهم بل أعجب من أمر بعض الساسة الذين ينصبون انفسهم دعاة مصالح الجماهير وينصبون انفسهم مسؤولين عن مصائر الشعب وتراهم يصطادون السمكة من الماء العكر ولا أفرق هنا بين يمين ويسار في أكثر من مرحلة . .

أيا كان الحال فقد كان نتيجة هذا التمرد وما رافقه من اضطرابات وقلاقل واحداث إن عادت الأحكام العرفية وانتهى التمرد . .

فقد عاد زعماء الأحزاب وقبيل صبيحة يوم النهاية ليصدروا بياناً يطالبون فيه باعلان الاضراب العام لعمال المطابع والاكثر ايلاماً في هذا القرار او هذه الدعوة ان يصدر هذا الاعلان في الوقت الذي تجري فيه مظاهرات عارمة في الشوارع وان يصدر الصباح التالي بدون أية صحيفة تستطيع ان تعكس ما يجري .

لقد نجحت مديرية الامن العام (التحقيقات الجنائية) وأجهزتها القمعية في تمرير ما بيتته وبخاصة فيما استغفلت به القوى الوطنية على يد مدسوسين منها وهم

كثير ون من عمال المطابع وبصورة اخص فمن منضدي الحروف . .

قررت ان اتمرد على هذا البيان وان اصدر جريدتي «الرأي العام» لتكون الوحيدة التي ستوزع على المتظاهرين يدفعني إلى ذلك انني اعي ما يدور خلف الكواليس وانني احترم استقلاليتي واحترم جريدتي واعرف خلفيات هذا البيان وانعكاساته كما اعرف الكثير من سوابق عمال المطابع .

قررت اذن ان تصدر الجريدة وفيما بعد الغروب من ذلك اليوم جاء حشد كبير من عمال المطابع هؤلاء الذين كانوا قد مروا على جميع الصحف الوطنية كي يتأكدوا من تلبية بقية العمال نداءهم ولحسن حظي وحسن حظ الناس ان يكون عمال المطبعة عندي في الطابق الثاني وقفت على باب الدرج الأعلى من السلم وهم في اسفله وصرخت بهم وبالحرف الواحد . . : «والله العظيم ساركل بقدمي هاتين كل صاعد منكم» . . ثم قررت ان اجمع في صفحتين فقط كل محتويات الجريدة الهامة . . . واتممت مهمتي بسرور . ستكون صحيفتي هي الصحيفة الوحيدة التي تصدر في اليوم الثاني وكأنها بيان ثان مناقض . . . وعلى الصفحة الأولى منه ذلك المقال الافتتاحي الكبير ، كبر تلك الليلة . . . وصباحها وهو بعنوان (الراقصون على القبور) .

وكم يملؤني الأسف والأسى وانا بعيد عن الوطن ان لا يكون هذا المقال في مستدركات هذه الذكريات . .

وأجدها مناسبة لأقول : ان هذا الموقف موقف اصدار جريدتي في ذلك اليوم هو من المواقف التي اعتز بها . . وانا لست متعصباً او معجباً بكل مواقفي .

عودة إلى نهاية امر التمرد او سمه ماشئت ، حيث بدأ يوم ١٩ / ١٠ / ٥٢ وانتهى ليلة ٢٣ / ١١ / ١٩٥٢ . . في تلك الليلة صدر بيان الحاكم العسكري باعلان الاحكام العرفية واغلاق كل الصحف ومنها بطبيعة الحال جريدتي . . وفي تلك الليلة ايضاً غاب «فلاح» عن البيت وبوسع المرء ان يتخيل مدى قلق بيت يغيب عنه واحد من أعز مافيه . . صحيح انهم كلهم أولادنا أكبادنا ، إلا أن «فلاحاً» كان اكثرهم قرباً من قلوبنا بحكم طبيعته وبراءته ونخوته .

وحين عاد «فلاح» بعد منتصف تلك الليلة غمرت الفرحة البيت بكل من فيه ونمت مطمئن البال فرح الجوارح سعيداً . .

نمت وكانت تنام معي وفي صميم دمي شخصية منفصمة كل الانفصام هي

إلى البيت الثـاني وكـان هذا البيت هوبيت صديقي «فـائق السـامـرائي» وهـومن اقطاب حزب الاستقلال. . طرق الضابط باب البيت، واتى بالرجل ليذهب إلى بيت ثالث ويستقـدم منـه المحـامي والحـاكم «اسـماعيـل غانم» الذي كان من ابرز شخصيـات حزب الاستقـلال ايضـاً. . . وحسبت ان الأمـر انتهى بنـا الثـلاثة في الأعظمية وإذا به يطرق باباً رابعاً هوبيت المحامي «قاسم حسن» من الحزب الوطني الديمقراطي.

انطلقت بنـا السيـارة بين غبش الفجـر وانطـلاقـة الصبـاح وكل واحد منا لا يعرف اين يتجه وما سيؤول اليه مصيره. .

فجأة توقفت السيـارة بعـد ان عبرنـا «جسـر الصـرافيـة» إلى الكـرخ خلف مديـريـة السكك الحديدية وفي منطقة تخلومن المعتقلات والسجون، منطقة جرداء لا خلق فيها ولا حسيس وامرنا الضابط بالنزول. . . نزول مباغت وفي هذا الجو. . وتحت مظلة الحكم العرفي ماذا يعني كل هذا. . .

الحقيقـة اننـا نحن الأربعة احسسنا بالرعب واقتحم الخوف قلوبنا وتساءلنا: هل سيطلقون علينا النار هنا. . . وتنفسنا الصعداء حين علمنا ان هذا النزول كان لمجـرد تفتيشنـا والتأكـد من اننا لا نحمل سلاحاً، ومع ان ذلك من واجبات ضابط الشرطة هذا فيبدو انه لم يخطر له ببال انه ولا واحد منا يعرف كيف تنطلق الرصاصة من هذا المسـدس اوذاك. . . مسـح الـرجل بيديه على اطرافنا واعادنا إلى السيارة لتنطلق بنا تخب طريقاً مجهولاً سرعان ما كشفته لنا من بعيد أشعة اضواء قوية طويلة الامتداد.

على ابواب احد مداخل هذا المكان الذي يبدو انه اعد خصيصاً لنا انتهت رحلة الليل لندخل إلى مكان جديد وجميل مظلل بالاشجار الوارفة. .

عجيب امر المفارقات. .

طرقات مرعبة على ابواب النائمين في عزنومهم. . وضابط عسكري وطريق مجهـول ومصـير مثله وتفتيش عن سلاح لأنـاس هم الأبعـد عن حمله ليكـون بعـده هذا المغنى وإلى ما يشبه بلاطاً ملكياً. .

تلقـانـا نحن الأربعـة الضيوف، بكل ترحيب ضابط عسكري اديب وشاعر صـديق ايضـاً هو «نعـمان ماهـر الكنعـاني» نائب آمر المعتقل ـ والذي اتذكر اسمه وانسى رتبته ـ أي السيد (وائل) وهوشهم وكريم ايضاً وبدا الكنعاني وكأنه موظف

شخصيـة القلق المـترقب لما سيحـدث في الصباح وما ستؤول اليه الاحكام العرنية وكيف سيكون الشارع بلا صحف . .

واعـترف الآن وبهـذا الصـدد بحقيقة ربما كانت مفاجئة للكثرين هي انني لم انم يوماً في حياتي لا عصراً ولا ليلاً وحتى يومي هذا إلا وكنت مصحوباً بالكوابيس والأحلام والأطياف . .

وانني في كل مرة كنت اعيش خيـالات واحـداثـاً لم اعـرف حتى الآن طبيعـة منعكساتها (واترك هنا لذوي الاختصاص امر السر في ذلك كله) غير انني يمكن ان اؤكد ان هناك طبقة من الناس تبتلى بالاحاسيس المرهفة وانا واحد منها يظل لديها العقل الباطن في توثب ومنه تتوالد تلك الأخيلة والرؤى والكوابيس . .

المهم انني حلمت في تلك الليلة ان طيفاً طائراً يحملني من دارنا هذه في الحارة إلى سوق «السراي» كما يسمى ببغـداد . . وانني التقيت هنـاك بصـديقي المتفضل «البصّـام» وهـو كما مر ذكـره معجب بالقـوة العسكـريـة ليقول لي ونحن في معرض الخصـومـة وبـاللهجـة الـدارجـة (والآن يا جواهـري كيف انت وهـذا الانقـلاب الجديد) . . وارد عليه : فيما بين الغضب والعتاب : يا ابا جعفر «لعنة الله عليكم فإن لم يكتفوا بايديهم فليمدوا ارجلهم» . .

اقولها بامانة وصدق كان هذا حلماً ايقظني وعلى شفتي بسمة لطيفة . .

وأنا كذلك وإذا بدقة خفية على الباب تنغص عذوبة السحر لتوقظني وتوقظ شريكتي بالحياة . . . .

وقبـل ان انطلق لفتـح البـاب وبكـل ما في من قوة الانـدفـاع الـذاتي وتحفز الاحـاسيس قلت لزوجتي «لملمي حوائجي فانــا اقــرأ تحت السطــور ومـا خلف البـاب . . وهـاهم يمـدون أيـديهم كما رأيت في الحلم» . فتحت البـاب وإذا بمعـاون شرطـة الأعظميّــة يصبحني بالخـير ليقـول لي بعـدهـا : «ان الحـاكم العسكـري يود مقـابلتـك» قلت له : انـا اعـرف يا اخي وحاضر أيضاً . . ولأنني اخشى عليك من البرد ارجوك التفضل إلى الداخل ريثما ابدل ثيابي اجابني الرجل : انني افضل ان انتظرك هنا . . وما هي إلا دقائق حتى كانت حقيبة صغيرة معي ، واعتليت مقدمة سيارة «البيك آب» الواقفة امام الباب وقد قادها الضابط بنفسه . .

وصلت بنـا السيـارة إلى مركز شرطة «الأعظمية» حيث الاضواء تكاد تخطف البصـر لقـوة مصابيحهـا «ذات الألف شمعة» اخذ الضابط بعض الأوراق وانطلق

تشريفات ملكية، ورافقنا إلى غرفة واسعة انيقة هي في الواقع والحقيقة اكثر فخامة وأبهة من دائرة التشريفات التي كنت أعيشها.

لقد توالى بعد سيارتنا الأولى رتل طويل من السيارات تقل جميع الشخصيات البارزة في العاصمة ومن جميع الاحزاب فيما عدا (الحزب الشيوعي) فقد كانت كل طلائعه والأكثرية الساحقة من شبابه في السجون أوفي المعتقلات النائية، وفي المقدمة منهم رؤ ساؤ ها كما توالت ارتال طويلة من الشاحنات اوما يسمونها بالعراق «اللوريات» وهي تقل هذه المرة الجماهير الغفيرة والاصيلة وغير المدللة . . . لتفترش الأرض الباردة والرطبة وكان فرات وفلاح في الصميم من هذه الجموع . .

لم يطل الانتظار في غرفة التشريفات هذه حيث نقلنا إلى معتقلنا الأنيق الموعود وفي هذه الفترة القصيرة كان بيني وبين (فائق السامرائي) علاقة عتاب ودودة تصدق قول ابن الرومي العظيم «ويبقى الود ما بقي العتاب»، وابتدرني السامرائي قائلاً: أهذا هو الرقص على القبور مشيراً إلى مقالي السالف الذكر. .

قلت له:

يا عزيزي وهل يعوزنا في هذا الجو اللطيف إلا ان يعد لنا مرقص جميل وإلا ان نقوم الآن معاً فنرقص. .

كان هذا المعتقل بغرفه واسرته ومفارشه اللطيفة النظيفة وساحته الخضراء الواسعة باشجارها الممتدة وما حواه من حشد كبير اشبه ما يكون بمجمع ثقافي لأن معظم هذا الحشد كان ينتمي إلى الثقافة بشكل أو بآخر. .

وكم كان يتمنى كل مثقف ان يختص بغرفة لمفرده غير ان عدم طاقة هذا المعتقل للاستيعاب فرضت ان يكون كل شخصين بغرفة واحدة وعلى كل واحد ان يختار شريكه الذي ينسجم واياه. . فكيف يكون الدلال؟!.

لقد اخترت رفيقاً وصديقاً انسجم معه كل الانسجام لا بمزاجينا وحسب بل بانتمائنا إلى طبقة الفقراء التي من خلالها عشنا الفاقة والعوز الا وهو «عبد الرزاق الشيخلي» الذي مرت إليه الاشارة بكل تفصيل فيما كان من امر قصيدتي في «مؤتمر المحامين العرب». . .

لقد شخصت امامي ومن جديد المفارقات الطبقية التي عشت مرارتها في الطفولة والشباب وفي مختلف مراحل حياتي «وقد ذكرت امثالاً من هذه المفارقات في

الجزء الأول من ذكرياتي » والمعاناة التي كنت اجدها او اتعامل معها من جراء علاقتي ببعض الطبقات الاقطاعية والبرجوازية . . لقد ولدت عقداً ورواسب يعيش فيها الحقد والكراهية . . بعد ان خبرت العلاقات البرجوازية المنزوعة القيم والمبادىء . . وبعد ان تعاملت مع رموز هذه الطبقة وعناوينها من السياسيين وبعد ان حسبت ان لي اصدقاء من هؤلاء، كانت تربطني ببعضهم علاقات وظروف . .

لقد كانت تلك الكراهية وذلك الحقد ينتظران أية مناسبة ليتفجرا غضباً في وجه هذه الطبقة وما اكثر المواقف الشعرية والمواقف الشخصية والمواقف العملية والمواقف السياسية التي كنت اجد نفسي متفجراً في وجهها غير نادم بعد ذلك وغير محاول ان انزع فتيل هذا التفجر من اعماقي . .

اقول هذا:

لأنني . . . وتصوروا اعيش مع رموز هذه الطبقة في معتقل واحد . . سرير بجنب سرير . . وصالة قرب صالة . . ووجدت ان افكاري القديمة تملك مصداقيتها . . وتفجري يملك انسانيته وان عقائدي منسجمة والطبيعة البشرية التي تملك كرامتها . .

وهاهي الصورة تكتمل وتوزع شهادات تقديرها على افكاري واحاديثي وشعري وحقدي وتفجري التي تنظم قناعاتي حول هذه الطبقة . .

وليسمح لي القارىء ان انقل صوراً مخجلة مبتذلة ناقصة الشعور والمشاعر عن تصرفات رموز هذه الطبقة ومثقفيها . . في معتقل سياسي . . وفي أشد لحظات العراق مصيرية . .

فقد كان هؤلاء يفصلون موائد طعامهم عن موائد العامة . . وكانت تمتد موائدهم من اول الصالة الواسعة حتى آخرها . . وعليها كل ما لذ وطاب وندر من الأطعمة والاشربة والفواكه والحلويات وما تشتهي الانفس . .

وكانت السيارات . . تأتي الواحدة بعد الأخرى وعلى مرأى المسؤولين لتفرغ حمولتها من الفواكه والألبان والهدايا على اختلاف أنواعها لمعظم الشخصيات «الوطنية» و«المعارضة» و«المعتقلة» وللقارىء ان يتصور مدى ما كنا انا وصديقي «الشيخلي» نتألم من هذا كله والأكثر والأشد فيما كنا نسخر منه ونحن في جناح واحد مفروض علينا مع هؤلاء . . كل هذا ونحن نرى في الجناح الثاني وعلى امتداد جناحنا المترف . . طليعة الشباب العراقي المناضل الصابر الثائر بوجدان . . وما

كان اصدق هؤلاء المنبوذين المرميين باهمال في الساحات العارية وبحشد كبير في تسميتهم جناحنا. بـ «فندق بغداد» وهو ما يعادل هنا في دمشق فندق «شيراتون».

اما نحن البرجوازيين الفقيرين فامر الواحد منا كان اكثر غرابة من امر الثاني إذ كان بيتي ذو السبعة اشخاص.. فارغاً إلا من امرأة تحمل طفلة صغيرة على صدرها هي زوجتي وصغرى بناتي «ظلال».. حيث انا في المعتقل وفرات في آخر.. وفلاح في ثالث.. وكبرى بناتي «أميرة» تقفز من سطح إلى سطح إلى زقاق.. لتفر إلى النجف وتختبىء عند جدتها.. بل بلغ الأمر ان اعتقلت في هذا البيت متعبدة، زاهدة.. لا تقرأ إلا القرآن هي شقيقة زوجتي، وخالة اطفالي، «طليعة» والتي كانت حاجّة ايضاً..

وربما كان هذا البيت سيخلو من أي شبح.. لولم يخجل المتطفلون عليه من شدة ما انتهرتهم امرأة تحمل رضيعاً على صدرها..

أما صديقي «البرجوازي الفقير الشيخلي» فقد كان مثلي في الفاقة واسعد مني في البيت إذ كان بيته فارغاً تماماً..

لقد كنت وصديقي، ننظر بكل احتقار وبكل ما لكلمة احتقار من معنى إلى تلك الموائد المترفة.

أما المقابلات التي كانت تتم للنماذج الشاخصة من هذه الطبقة فقد كانت اكثر مدعاة للاستخفاف.. إذ كنّا نرى شخصيات بارزة تأتي لتتفقد هذه الشخصيات «المناضلة» وبكل احترام تفتح لهم الأبواب.. وبكل دلال. تتنزل صناديق الهدايا.. وبكل «وقاحة» يفاخر هؤلاء بالثراء..

المهم ان وجهاء هذه الطبقة كانوا يتفقدون بعضهم بعض فهم «مناضلون»...

وانا كل يوم اقرأ قائمة هؤلاء المتزاورين، وادمدم من الأمثال الشعرية ما يناسب المقام متألماً من ان تفقد المروءة وان يبتذل التعاطف.

واتذكر كل رموز هذه الطبقة التي كانت تربطني بهم علاقات.. وما من احد منها خطر له على بال ان يتفقدني.. حتى ابن ذلك الذي قلت في ابيه «ابو التمّن»:

قسماً بيومك والفرات الجاري والثورة الحمراء والثوار.

وعزائي كان وانا اقلب قائمة الزوار كل يوم قولي:

ولــكــن على نفــر واســط تجمــد كالــلبــن الخــاثــر
فلا هو للشــعــب في كله ولا هو للجــانــب الآخــر

والمهم ايضــاً ولكي تتـوضح الصورة اكثر فاكثر هو انني سأنقل بعض المشاهد مما كان يحدث في ذلك المعتقل . .

فقد تم تعيين مدير تموين مسؤول . . . مسؤوليته تنحصر في توزيع الفائض من بقـايـا أطعمـة المترفين وفاكهتهم على حشود المعتقلين في جناح الفقراء . . كان هذا الـرجـل هو السيـد «قـاسم حسن» من الحـزب الـوطني الديمقراطي . . واذكر انني تجولت معه في تفقد هذه البقايا . . فكانت واحدة منها تحوي ما يعبىء نصف غرفة صغـيرة من الفـواكه . . وكنا ننقل ما هو اقرب إلى التلف منها لأولئلك التعساء من الشباب العراقي في الجناح الثاني . .

واذكـر ان احـد «المنـاضلين» من تلك الطبقـة . . لا اريد ان اذكر اسمه لأن علاقـة من الحب ما زالت تربطني به كان قد طلب مكتبـة وآلـة تصوير (كاميرا) إلى غرفته . . فجيء بهما إليه ونزلت ادارة المعتقل عند رغبته . .

ـ ومن المصـادفـات ذات الـدلالـة . . انـه جيء الينـا ذات يوم بأكلة شعبية ملفـوفـة بعـدد من اعـداد جريـدة «الأهـالي» وفيـه المقـال الافتتـاحي الذي يمهد للمصـالحـة بين الحـزب الـوطني الديمقراطي برئاسة «الجادرجي» وبين حزب الأمة برئاسة «صالح جبر» وكان قد سبق لي ان عرّضت بغضب واحتجاج شديدين على هذا المقال وعلى هذا «التصالح» العجيب الغريب في جريدتي . .

وقـد كنت مجتمعـاً حول هذه الأكلة أنا والجادرجي . . ومكي الشكري ، وهو من اتباع «صالح جبر» المقربين فقلت:

والآن يا «أبـا رفعت» ما رأيـك بهذه المصادفة الغريبة . . وهل ما يزال قائماً ما نقرأه في هذه السطور . . وهل هي مستمرة العلاقة . . والمحاولات؟

قال:

من قال لك اننا ننكر او نخفي ذلك . .

(سيأتي الحديث ان هذه المصالحة ادت إلى تحالف قصير مؤقت) .

كانت حصتي من «اللطف والـدلال» في هذا المعتقـل ان ينقـل «فـرات» من احد المعتقلات ليكون إلى جانبي . . . وضيفاً غريباً وجديداً على هذه الطبقة . . .

ومن الطرائف ذات الدلالات السياسية ايضاً ما فعله «غازي العلي» وهو شاب لطيف وخبيث في الوقت نفسه.. وقد كان نائباً في المجلس النيابي، برجل كان احد اترابي ايام مقهى «حسن العجمي» في «الحيدرخانة»، حيث اصبح هذا الرجل في الأربعينات ممسوساً يضع وفي الحرّ القائط من شهر تموز شالاً من الصوف على رقبته ويلوح بعصاه في الهواء.. وحين اكتشف «غازي» ذلك المسّ من هذا الممسوس لم يكن منه إلا أن ينتهز فرصة جلب أخشاب هي أوتاد خيمة تنصب خلف المعتقل ليدق «غازي» بيديه على قدميه وربما فعلى رأسه دلالة على ان تلك الأوتاد هي أوتاد المشانق التي بدأت تنصب لنا نحن المعتقلين، فما يكون من الرجل إلا أن يقفز في الهواء صارخاً وجلا وحتفه شاخص امامه ليأتي اخوه الأكبر ويتشاجر مع غازي هذا إلى درجة الشتائم المتبادلة..

هذا الرجل ويا لسخريات القدر يصبح بعد سنتين او ثلاث وزيراً للاقتصاد.. فمن يصدق هذا غير من عاش العراق وأطواره..

وبوسع القارىء ان يرجع إلى الوزارة الايوبية الثانية في الخمسينات ليقرأ اسم وزير الاقتصاد هذا ويتوثق من هذه الذكريات..

آخر سخريات هذا المعتقل انني كنت اول من يطلق سراحه من بين كل من فيه ومن كلا جناحيه «فندق بغداد» وجناحه الثاني «خان المساكين».. ونودي على اسمي من بين كلّ تلك الأسماء لاعلان الحرية، وكان ذلك في جو من استغراب الجميع وانا في الصميم منهم..

وفي اليوم التالي علمت علم اليقين ان شفيعي في هذا الاستثناء الطريف كان هو الشاب «سعدي جلال» صهر رئيس الوزراء آنذاك «نوري الدين محمود».

عدت إلى بيتي لاجد «زوجتي وظلال» التي كانت قد اصيبت بمرض «الحصبة» واخطر ما في هذا المرض انه قد يذهب بالعينين.. وهذا ما خشيناه..

بعد يومين في ليلة قلقة مزعجة وبينما طبيب العيون يشرف على عيني «ظلال» وكان الوقت صباحاً دق الباب من جديد لأجد ضابط شرطة آخر يطلب مني العودة إلى المعتقل.. عجيب.. ماذا عساي فعلت خلال هذين اليومين.. وما الأمر الذي يستوجب عودتي إلى المعتقل..

حاولت جاهداً أن أتذكر وأنا في طريقي ثانية إلى المعتقل.. وكان ان تذكرت انني ولأقضي على الفراغ ذهبت إلى مكتب جريدتي المغلقة الفارغة إلا من حارس

عليهـا وإذا بالملحق الصحفي السـوفيتي الاعـرج والـداهيـة معاً يقتحم عليّ الباب المـوارب «شبـه المغلق» وفي مثـل ذلـك الجـو الـرهيب عامـة والـذي أنـا فيـه خاصة فقلت: إذن انا معتقل الآن بتهمة الاتصال بسفارة اجنبية عظمى ومبغوضة . .

صببت على هذا الملحق كل اللعنات والشتائم.

كان المفـترض منـه وهـو سيـد العارفين . . بمعتقل «ابو غريب» وبالمعتقلين وبـاني في الصميم منهم ان لا يأتي إليّ في مثـل تلك الظـروف وبخـاصة فان يكون المكتب بمواجهة مقر متصرفية لواء بغداد تماماً، وإلى جانبها فمديرية الشرطة العامة . .

هل هنـاك من يستطيـع ان يؤاخـذني على هذا القلق وعلى تلك الشتائم، وعلى ذلـك الارتيـاب وحتى يومي هذا وانـا اشـك في ان زيـارة هذا الـرجل او قل «تطفله» لم يكن خافيـاً على من في تلك المتصـرفيـة، أو من في ذلـك المقـر المخيف للشـرطـة . . بكـل ما لديـه من جواسيس وعيـون واظن ان تحويـل هذا الاتهـام المفـترض . . إلى اتهـام سهـل، ويسـير وغير مخيف . . هو ذلك الجو اللطيف الذي اشـاعتـه وزارة «نـوري الـدين محمـود» العسكـرية ويخفف الوطأة عن الناس وعلى المعتقلين منهم بوجه اخص . .

لقد كان هذا الرجل حقاً يحترم نفسه ويحافظ ما استطاع على سمعته وهو ما كان السبب في استقالته او قل . . اقالته . .

أيـاً كان الأمـر وايـاً كان تفسـيره وأيـاً كان تأويله . . فقد اصابت الدهشة وجوه رفاقي امس . . وانا اعود اليهم من جديد وقالوا:

ما الخبر يا «أبا فرات» . .

قلت:

(ما المسؤول يا اخواني . . باعلم من السائل) . .

ولشـد ما كانت دهشتنـا نحن جميعـاً حين رأينـا «عبد الرحمن السامرائي» آمر شعبة التحقيقات الجنائية في بغداد . . المخيف . . يقوم بزيارتنا بغية التحقيق معي . .

قلت: لقـد «أكلتهـا» ومن المستحيـل ان تكـون التهم باقـل من التعامل مع سفارة اجنبية . .

ولشـد ما كانت دهشـة «السامرائي» ودهشة الآخرين . . حين انفجر الخوف

المكبوت في داخلي ليستحيل غضباً، وغلظة . . حين علمت ان التهمة هي وجود تلك الرسائل التي ديس بيتي من أجلها وفي غيابي ، ولأول مرة مما سبق ذكره . . أي أكداس رسائل (أنصار السلام العالمي) . .

ارتدّ «السامرائي» امامي معتذرا . . ومهدئاً . . ومطمئناً . . وما اشبه الليلة بالبارحة فقد حدثت المفارقة نفسها قبل خمسة عشر عاماً من ذلك التاريخ ، حين انفجرت في وجه معاون شرطة بغداد والمخيف ايضاً وهو «محيي الأعور» عام ١٩٣٧ وهو مامرت الإشارة الأليمة إليه في الجزء الأول من ذكرياتي ورفضت الاجابة عن أسئلته .

المهم انني بقيت في معتقل «ابوغريب» وهذا المعتقل يودع فوجاً بعد الآخر حتى من الذين افترشوا الأرض وما كان من أول الخارجين . . إلا ان يبقى وحيداً ليكون آخر الخارجين وليدمدم من خلال الوحدة والوحشة ، والظلمة ، والقهر الداخلي . قصيدة بل قل : «ملحمة ظلام» :

ظلام يفور . . ونجم يغور
وزنجي ليل يخيف الدهور
حمول لثقل الدياجي صبور
كأن ثناياه عش النسور
كأن المجرة فيها بثور

* * *

غفا الحقد ياليل والحاقد
ولفهما نعشك البارد
غفا نفس عفن حارد
يفيق به قفص الاضلع
وناب وبيء من المضجع
ويطفو على القفز والبلقع

* * *

هنـا في هذه الفـترة وتعـويضـاً لما تفـردت به من تقشف أنـا وصديقي «الشيخلي» بين المـترفـين فقد تضاعف عطف ضباط المعتقل عليّ وبدأ «تدليلهم» لي يتزايد يوماً بعـد الآخـر بل ساعـة بعـد ساعة إذ كانوا يدعونني على الغذاء معهم نهاراً والعشاء ليـلاً ونـمارس رياضة السباق في اصابة هذا الهدف او ذاك ومع ذلك فقد اتتني هدية جميلة وثمينـة في صنـدوق غير صغير يحوي على اجمل واهم ما في المكتبات العراقية ببغـداد من كتب . . وكـانت مهداة إليّ من (صديق شنشل) ـ والذي تلقيت بأسف بالـغ نعيـه قبيـل ساعـات من كتـابـة هذه الحـروف في اليوم التاسع من نيسان عام ١٩٩١ ، وهو احد اقطاب حزب الاستقلال الذي كان وكما اشرت يمثل حالة وسط بين التقشف والترفّ . . في جملة ذلك الرهط المدلل منا نحن المعتقلين . .

وكـما تفـردت بان اكـون الوحيد في هذا المعتقل والأخير فيه ايضاً ، فقد كنت الـوحيـد من بين جميع نزلاء الجنـاح الأول ممن يقـدمـون إلى المحاكمة . . وبتهمة «السلام العالمي !» .

وبالرغم من حضور اكثر من محام للدفاع عني . . فقد اكتفيت بان ادافع عن نفسي وبكل ايجاز . .

«اجل يا سيدي الحاكم . . وما العيب في ان أكون داعياً للسلام . . » .

اكان عليّ ان اكون داعياً للحرب . .) . .

وإذا لم تخني الـذاكـرة وانـا اكتب هذه الـذكـريات في الغربة ـ وبعد اكثر من خمس وثلاثين عاماً فقد صدر الحكم عليّ بالحبس لمدة شهر او شهرين مع وقف التنفيذ . .

وكـالعـادة فقـد احتجت مديرية التحقيقات الجنائية واستأنفت الدعوى . . وبـرغم ذلـك فقـد ردت عليهم المحكمـة رداً مشـرفـاً وذلـك بقولها : . . . لقد كان الحكم الأول اكثر من كاف . . ورفض الاحتجاج . .

وعودة إلى بيتنا في الحارة والمشحون بالذكريات .

في هذا البيت نفسـه بالأعظميـة ، من تلك الحـارة نفسهـا ، فمن بحبحـة في السعـة من طبعتي هذا الـديـوان ، أو تلك الهـديـة المشفوعة بتقبيل يدي من الشيخ الاقطاعي صديقي الحميم آنذاك وعدوي اللدود الصميم بعدئذٍ (بلاسم الياسين) وفيـما بين ذلـك الأدقـاع وهذه البحبحة ، كُنّا نعود من جديد وقد بذّرنا كل التبذير ،

لنقتر كل التقتير حتى لقد صبر صاحب الدار الكريم طويلاً على دفع بدلات الايجار المتراكمة، ومن القطع التي أتغنى بها، وأنا استشهد بها على ليلة دق فيها هذا الشيخ بنفسه باب الدار في غيابي، لأعود من المقهى وأجد فيه ظرفاً بخمسمائة دينار عراقي، إنني لأتذكر وكأنني الآن في صبيحة تلك الليلة، وقد أتممت القطعة المذكورة، وعنوانها دليل عليها، فهي بحق (قصة):

قال طفلي وقد رُميت بقاع | وتلاقت عليّ شتى البقاع
لزّني في العذاب حاكم بغدا | د بأمر من أجنبي مطاع
واجتواني حكام (مصر) و(لبنا | ن) يخافون مِقْولي ويراع
أبتي كيف يستجيب ذلك الرز | ق وقد جانبتك شتى الدواعي

وفي هذه الفترة، وفي هذه الدار، كانت حصتي وبالاضافة إلى الحمل الثقيل من مسؤوليتي عن حركة أنصار السلام، هوما كان من ابتلائي بأمر (فرات وفلاح)، فلا أحد ـ لا والله ـ لا فرات، ولا فلاح، نفساهما، يعرفان ويدركان ما عانيت في سبيلهما، فمن يصدق أن يعبر (السيد فرات)، وبيده (زنبيل) مثقل بالمناشير الشيوعية، وفي أعنف فترة من فترات الأحكام العرفية، ليعبر بها شارع الحيدرخانة أي الشارع الرئيس للعاصمة كلها من الجانب إلى الجانب الآخر، وكأنه يحمل (زنبيل فواكه أو خضروات) ثم وبالطبع فان يقبض عليه وهو يحمل هذه الجريمة التي يعرف المتهمون بها وبأمثالها مدى العقوبات التي تستحقها، وعلى أي حال فبعد هذه الوساطة أو تلك إلى الحاكم «برهان الدين الكيلاني» الذي فوجىء بها لا يخطر له على بال، أن يجاء بفرات و(بزنبيله) المفعم محمولاً على يد جلاوزة الأمن، ومن يصدق أن تكون العقوبة السجن لسنة واحدة مع وقف التنفيذ بحجة عدم وجود سوابق له، ومفروغ من أن يثور جهاز الأمن لهذا الحكم وأن يستأنفه، وباختصار ايضاً فان يكون اعتراض هذا الجهاز و(زنبيل) فريستهم المطلوب أمام السيد الكريم والفقيد، وإن شئت فقل (الشهيد)، رئيس محكمة البداية والاستئناف (عبد الجليل برتو)، ثم أن يرفض هذا الاستئناف، ويقر الحكم الأول، ثم ان يخرج (الأفندي فرات) ليقطع شارع الحيدرخانة شاخصاً بقامته المديدة!!!

هذه مفارقات لا تنسى . . .

أما موقفي من أمر (السيد فلاح) وهو الآن الدكتور الناجح، الاختصاصي في الأشعة في العراق، والذي لا يكتف برفض الأجور من الفقراء أو ضعيفي الحال،

بل أن يدفع وصفاتهم الطبية من حسابه الخاص، أما أمري من هذا (الفلاح!) فلا يقل عن أمري مع شقيقه الأكبر، بل انه ليزيد عليه بكثير، وباختصار لقصته أيضاً.

ففي المرة الأولى، وفي انتفاضة تشرين ١٩٥٢، قبض عليه وهو يعتلي السلم الرفيع في شارع الرشيد ليثير الجماهير وطبعاً فان يقبض عليه، ليبقى برهة من الزمن في التوقيف، ثم ان يقدم إلى المحكمة، وبشفاعةٍ وأخرى مني يطلق سراحه.

أما المرة الثانية فان يقبض عليه وهو يحمل في جيبه رسالة سرية (هدّامة في عرف الحاكمين) فيكون منه أن يرميها في حلقه ليعتلكها فيحاول ضابط الشرطة أن يخرجها من فمه فيعض إصبعه عضة كادت أن تقطعها، وطبيعي أن يجاء به إلى الحاكم وقد ضمدت إصبع الضابط، وابتُلعت الرسالة، ثم ليحكم عليه بالتوقيف ريثما يحين موعد محاكمته ـ وطالت مدة توقيفه، وذات يوم يبلغني من مصدر شبه مسؤول انه محموم، ولا أنا ولا المنجم يدري، ماهو مصير محمومين في مثل هذه الحالات الرهيبة، ولأول مرة في حياتي، وأقولها بحق، وجدتني خارجاً عن صوابي بأكثر مما خرجت به قبل ذلك أو بعد ذلك، فاندفعت اندفاعة لا أعرف كيف اخترقت فيها وزارة الدفاع وحراسها ليلاً (بعيد الغروب) لأقتحم غرفة السكرتير (ولعله صالح السامرائي)، لأصيح بوجهه وبصوت عال وبمعنى أو بدون معنى:

«والله والله لئن مات فلاح وبعد موت جعفر، سأفعل ما أفعل، حتى لكأنني سأقلب في اليوم الثاني النظام القائم برمته»!!

ومن يصدق أن الرجل (سكرتير وزارة الدفاع الرهيبة لا غيرها) تلقاني وتلقى اندفاعتي هذه بكل تهدئة وتلطيف، وبفنجان قهوة وكأس ماء، ثم ان يرفع الهاتف ليتصل بالمسؤولين، وليجاء بفلاح وانا عنده، وفعلاً فقد كان محموماً. وهنا وللتاريخ أتذكر كما يتذكر الحالم شبح رجل اقتحم الغرفة على صدى صياحي، ليلطف الجو أكثر فأكثر، كان وجه رجل عرفته بعد سنين وقد مرّ ذكره، وهو الفريق الركن صالح مهدي عماش، وتأكدت منه بالذات من أن هذا الشبح كان هو، فقال لي أجل أنا الذي كنت ذلك الرجل يوم ذاك وفي مديرية الأركان العامة في وزارة الدفاع. وذكرني بهذه المناسبة بما أشرت إليه من أنه يعرفني وأنا جار لبيته تقريباً، وإن كنت لا أعرفه بالذات.

ومع هذا فلم تنته (قصة فلاح)، فلئن تخلص وهو محموم من التوقيف، فلم

يتخلص بعـد من يوم المحـاكمة، فماذا عسى أن يكون منّي، وأنا أكاد أقرأ المجهول من أمـر العـاقبـة، وفي ليلة لم أنم فيهـا حتى الصبـاح حيث كان يومها موعد الحكم عليـه، تنـزل الـوحي على الشـاعـر، ففي الصبـاح البـاكـر، قصـدت دار (جميل المـدفعي) وهـو مَن هو في الحكم ولـدى الحـاكمـين، لأسلم الحارس، وعندي علم اليقـين أن الـرجـل نائم ـ رسـالة مختصرة بهذا الصدد، ثم لأعود إلى البيت لأتلقى بعد قليل نداءاً هاتفياً من وزارة الدفاع، وهرعت إلى الوزارة، وشاء فرات أن يكون معي، وتشـاء الصـدف أن أتلقى وأنا اقترب من مكتب نوري السعيد، أن أجدني بمـواجهـة ضابـط مثقـل بالأوسمـة، ليقـول لي وكـانت السـاعة تقترب من جلسة المحاكمة بالحرف الواحد وباللغة الدارجة:

«تاليها يا أستاذ جواهري مع فلاح»؟

وفهمت مبـاشـرة من هذه الـوقفـه أنـه الفريق (عبد المطلب الأمين) الحـاكم العسكري آنذاك وأنه مسرع ليتدارك الأمر مع المحكمة والحاكم.

وبعـد لقـاء قصـير مع نوري السـعيـد، وجـزى الله المدفعي خيراً، كان قد سُوّي الأمر.

أمـا ما كان بعـد ذلك بقليل من أمر السيد (عبد المطلب) مع المحكمة، فقد كان أن تلقت المحكمة تدخله هذا، أمراً مثيراً قائلة:

«لقد كانت تبرئته في المرة الأولى غير واردة. وهاهي المرة الثانية».

وطبيعي أن تخضع كل محكمة في العراق آنذاك لحاكم عسكري موفد من قبل نوري السعيد لا غير.

الهـــاويـــة

في اوج العز واوج الشموخ . . ومرحلة التفاف الجماهير حول قادتهم . . وفي مرحلة تهيب الحاكمين ـ وحتى الطغاة منهم . . . من مس أي مواطن . .

في هذا الجـو وفي فترة لم يمـر عليّ اعـز منها منذ بداية الاربعينات تراني انحدر انحـداراً لم انحـدر مثله طيلة حيـاتي والأكثـر ايـلامـاً في ذلـك الانحدار انني اردتها بمحض ارادتي وبدون اية ظروف ضاغطة وبدون اية مساومة وبدون اي مقابل .

إنها زلة العمر التي ظلت عالقة بي طيلة فترات طويلة حتى بعد أن (كفّرت) عنهـا وبعـد أن نهضت من كبـوتهـا وأنا أخلف (غاشية الخنوع) ورائي ومع هذا فقد أوقعت نفسي في عذاب الضمـير ، ولاحقت نومي بالكـوابيس ، وهـوت بارادتي إلى ما لا اشاء لها . . الا وهي «قصيدة التتويج» التي قلتها في مديح (فيصل الثاني) . . .

اقولها زلة واكثر من زلة ولا اتراجع ولا أحاول ان اخفف من وطأة الموقف ولن استعمل التبرير الذي اعتاده رهط كبير من الكتاب ممن يخطئون ويزلون في المجتمع العربي . .

ـ ذلك لأنني بمحض ارادتي هرولت مسرعاً إلى تلك الهاوية ولأنني كنت من أول العـارفـين ان هذا الممـدوح ربيب مدرسـة الاستعـمار الانكليـزي بعيـد الـرضاعة والطفولة بقليل وانه الوريث الوحيد لأبيه . . غباوة ورعونة . . وقد اضاف إليهما قماره وسكـره . . كما كان امـره قبيل عيد تتويجه بقليل وهو يزور لواء كركوك . . حيث حمل مخموراً من احضان ارباب شركة النفط الانجليزية . .

لقـد اغتصبت في تلك الـزلـة ضميري وما اصعب ان يجد المرء ذو الحساسية ضميره مغتصباً ومن . من ذاته . .

١٠

وما اصعب ايضاً ان يجد المرء ذاته على نقيض قيمه ومبادئه . . . ما اصعب لحظات تأنيب الضمير وهو ينقض بلا رحمة على نومي وصحوي ويعذبني باشد انواع التعذيب الذي لايمكن لي أن أسرد تفاصيله . .

ـ وما اصعب ان يرمي المرء ـ مختاراً ـ نفسه إلى ذلك العذاب وإلى محاكمة النفس وتقريعها . .

واجدها مناسبة ان التمس عذر القارىء وانا اطيل عليه بمضاعفات هذه الحادثة. ذلك لأنني احاول حتى هذه اللحظة ان انفسّ بالبوح ما هو محتقن في صدري من الم وندم . .

وكي اطرد بعضاً من تلك الكوابيس التي لاحقتني . . . ولكي اعطيه درساً في كيفية الاستفادة من اخطاء الآخرين وتجنبها . .

المهم انني نظمت قصيدة «التتويج» . الزلة . . وقررت ان القيها رغم تحذير بعض الاصدقاء والذين لم يكن تحذيرهم بمستوى الردع المنشود . .

وانني لا زلت اتساءل لماذا لم اتهرب من القاء هذه القصيدة . .

ولماذا تملقت من كان يتملقني . . وانا احد رجالات معتقل «أبو غريب» ولماذا لم استطع حتى هذه اللحظات ان انهض ـ ضميرياً ـ من تلك الزلة ، النكسة ، النكبة ، الهاوية . .

سمها ما شئت . .

وهنا يخطر لي ببال . . . وانا اشد واقسى من حاكم نفسه «ما كتبه الاديب المصري» «غالي شكري» وهو يهاجمني بظلم وقساوة في اوائل السبعينات . . بمقال يدل عليه عنوانه «سقوط آخر العمالقة» . . .

يتناول فيه زيارتي الخاطفة للمغرب ، وموقفاً لايستوجب من المعاقبة شيئاً على شاعر يُكرم غاية التكريم من قبل أعلى مقام في الدولة بأغلى وأعلى وأرفع وسام فيجازيه بأربعة أبيات شعرية أو خمسة ، فما كان أجدر به وبمقاله وبعنوانه لو كان ذلك منه وأنا في هذه الهاوية . .

وعودة إلى قصيدة «التتويج» او المعركة الخاسرة مع الحياة كما احب ان اسميها . .

فلقد وجدت نفسي ضمن حشود متناقضة متجمعة في قصر الرحاب واكثر تلك الحشود من البرجوازيين والرجعيين والحاكمين . . . وجميع هؤلاء ممن يتربصون بي . . ومن حقهم الطبيعي ذلك لأنني طالما نلت منهم وعرضت بهم بقصائدي ومقالاتي ، ومواقفي ، وتربصت بهم . .

ومع ذلك ولكي اكون اميناً مع التاريخ فقد كان من بين تلك الحشود البغيضة رجل قريب مني صديق لي، ألا وهو السيد «ناظم الزهاوي» الذي قال وهو يستمع إليّ، لا ياجواهري . . وكانت تلك، اللا، وأنا في ذروة الصراع مع الذات قد اشعلت الفتيل المزروع في جسدي والذي احاول عبثاً ان اغطيه بحفنة من رماد المغالطة وتراب التبرير ودارت الأرض بي . . وفقدت المقدرة على الموازنة بين ما هو كائن وبين ما يجب ان يكون وفي هذه اللحظة وانا ذاهل بـ «لا» الزهاوية . . لست أدري لماذا فقدت قوة المغامرة الجريئة والمشرفة التي أتميز بها . . فلولم أفقدها لكان عليّ أن أغادر ذلك الحفل في تلك اللحظة تماماً . وليكن بعده ما يكون وماذا عساه يكون . . . ستغضب العائلة المالكة عليّ . . سيغضب سيدها الأول الرهيب غير المتوج . . ليكن وإلى جهنم وبئس المصير . . فمتى كنت احسب حساباً لهذا وامثاله حساب الصيارفة والمتاجرين . . .

لقد كان مني مثل هذا الموقف قبل هذا اليوم بثلاثين عاماً وكان مني مثل هذا الموقف بعده في اوائل السبعينات حين تزاحمت الجماهير على ابواب جامعة البصرة وغادرت الحفل الرهيب هذا لأنني تحسست من كلام عريف الحفل الرجعي . .

صحيح ان المفارقة بعيدة بين موقف وموقف وبين زمان وزمان ومكان ومكان غير ان الحجج كانت في متناول اليد وحقاً اقول . . .

لقد دارت بي الأرض من جديد وانا اسمع صديقي «الزهاوي» وهو يردعني لا بمجرد سمعي بل بدمي وضميري وهممت بمغادرة هذا الحفل بحجة انني نسيت القصيدة في بيتي . .

ولكنني استدركت وقلت: ان مجرد خروجي وانا محط الابصار الشاخصة امر غريب وحجة النسيان امرها أغرب . . .

ربما وأنا أعيش هذه اللحظات القلقة وجدت عزائي بشاعر ثان سيشاركني هذه المناسبة واسم هذا الشاعر ليس بقليل ألا وهو «بدوي الجبل» غير ان الفرق بيني وبينه انه كان منشرح الصدر متهلل الاسارير خلي البال تحسبه وهو يلقي انه يغني في أهل بيته . . بينما كنت مصفر الوجه مرتجفاً متعثراً في القائي الذي يضرب به المثل وبانسجامه مع اشارات اصابعي التي تكاد تكون صوراً توضيحية لمن تعثر عليه الفهم حتى لمن لايتقن اللغة العربية وهو مايسمونه «فن الاصابع» . . .

وفي هذه المقارنة لا اريد ان انتقص من صاحبي الذي قدم من دولة اخرى ولا أن أنال من موقفه إذ كانت له مشاركات عديدة مع العائلة الهاشمية أفراحاً . . واحزاناً . . وهو يقول عن نفسه «انه هاشمي الهوى» .

وبالرغم من موقفه ذاك وموقفي هذا فبوسع القارىء أن يقارن بين قصيدتي المغتصبة وقصيدته المنبعثة من صدقه وضميره ، ليجد الفارق بينهما صوراً وصياغة وإن شئت ففصاحة وبلاغة ولا اريد ان ازيد لأن القصيدتين موجودتان وبامكان القارىء ان يقارن . .

المهم اني القيت القصيدة . . وعدت إلى البيت واهن القوى لاهث الانفاس لأنام اول ليلة من تلك الليالي (ذوات الكوابيس) ثم لاعود بعد ايام معدودات وبحكم ذيول ما تبقى من علاقة شبه مصطنعة إلى «عبد الإله» الرجل الذي كانت القصيدة في حقيقتها من اجله وكان ان ابتدرني قائلاً :

انك يا جواهري كنت على غير المعهود منك في القائك . وطبيعي وهو الداهية اللعين انه كان يتذكر وعلى سبيل المقارنة بين ما كان مني في القائي أثناء تكريم ضيفه الرئيس «بشارة الخوري» وبين تلعثمي وتعثري في قصيدتي هذه . .

ولو لاتصنع الادب والمجاملة لقلت له : لأن الفرق كبير بين قصيدة مغتصبة وقصيدة نابعة من الوجدان غير اني ارجعت سبب التلعثم إلى سوء تنظيم الحفل وإلى الانوار الباهرة والاضواء الزائدة ناسياً ان التبعة ستقع على رأس صديقي «تحسين قدري» رئيس الديوان الملكي بالنيابة وقتذاك والذي كان من حيث لا ادري مسؤولاً عن تلك الحفلة . .

وزاد الطين بلة ان ما قلته كان يعتمل في صدر الامير «عبد الاله» حيث قال : أجل ياجواهري الأمر كما قلت .

ثم سرعان ما كان منه «وكأنه يتشفى من تحسين قدري» ان نقل اليه كلمتي

هذه والتي تتفاعل مع دم تحسين قدري واعصابه على صورة وأخرى . . .

لقد استطاع تحسين قدري ان يبدل صورتي لدى عبد الاله من حسنة إلى سيئة ومن خير إلى ضير حتى نهاية العائلة . . . تلك النهاية التعيسة . .

اعود إلى الأمير عبد الاله . . .

ففي احدى زياراتي له بعد القصيدة مد الرجل يده إلى جيبه وعرفت بمحض الفطرة والموقف لماذا امتدت تلك اليد فقلت له :

لا يا سيدي ثق انني لو احتجت لمددت يدي إلى جيبك ورفضت الهدية .

بعد فترة وجيزة علمت ان الأمير عبد الإله وفي اول جلسة ترأس فيها مجلس الوزراء قال : وبما يشبه الحرف الواحد (انني يا جماعة مدين للجواهري) . . . وقد رفض مني سداد دينه فعلى كل واحد منكم وبقدر ما يستطيع ان يعوضني عن ذلك . .

وكان من مصداقية هذا الكلام وهذا التوجيه هو أنني ـ وقد مرت الاشارة إلى ماكان من أمر ولدي «فلاح» ومغامراته ـ وجدت نفسي في إحدى الحفلات وجهاً لوجه أمام «خليل كنّه» ـ الذي كان وزيراً للمعارف وقتذاك ـ وكنت ألتقيه لأول مرة فتشجعت وطلبت منه كلمة إلى مدير الثانوية التي كان «فلاح» من طلابها ، عسى أن يتدارك أمر رسوبه . . ولشدّ ماكانت دهشتي وهو لا يكتف بالاستجابة لطلبي هذا ، بل ويضيف إلى ذلك وبما يشبه التصريح : «ان كل طلب منك بعد اليوم مستجاب . . وقد أمرت بذلك من مقام أعلى» . . وسيأتي الحديث عما كان منه معي ومن هذا المنطلق أيضاً عندما أصبح وزيراً للمالية .

وبعد أيام قلائل اتصل بي مدير الثانوية ولا زلت اذكر اسمه بعد أكثر من ثلاثين سنة من هذه الحادثة «علاء الريس» ليبلغني وبما يشبه البشارة ان فلاحاً قد نجح . .

وبعد فترة من الزمن كانت قصيدتي التي تعبر عن نفسها بمجرد عنوانها «كفارة وندم» والتي منها :

حنانيك نفسي لا يضيق منك جانب إذا ضاق من رحب النفوس جناب
ولا يتهضمــك انخفــاض فطالما تخفض نســر صاعــد وعــقــاب
وشــامخــة الإلــواح يلوى عنــانهـا مع الـريـح والمحض الصريح يراب
ومـالـك من عتب على الـدهـر انما عليـك لما هونــت منــه عتــاب
تقــحـمتــه حتى كأنـك فوقـه وانــك إذا طم العبــاب عبـاب . .

ومن جديـد عدت منسجـماً مع ذاتي ونفسي وضميري ويقظتي ومنامي . . . واستمـرت جريـدتي بالصدور حتى عهد الوزارة السعيدية عام ١٩٥٤ حيث صدر مرسوم مفتعل بتعطيل الصحف كلها . .

وحتى بعـد قصيـدتي «كفـارة ونـدم» فقد استمر «عبد الاله» على موقفه مني . .

وبعـد تعطيـل الجـريـدة جاءت منه دلالة على لسان الدكتور «ضياء جعفر» الـوزيـر القـوي في الـوزارة السعيـديـة والتي منهـا سأكون ومما سيأتي ذكره «ويا للغرابة» مزارعاً فاشلاً واقطاعياً من الدرجة العاشرة . .

في هذه الأثناء كان موقفي واضحاً من ذلك الحلف العجيب والغريب الذي كان سيتم بين الحزب الوطني الديمقراطي ورئيسه «كامل الجادرجي» وبين ما سمي بغير حق باسم «حزب الامـة» وكـان رئيسـه «صـالـح جبر» لا غيره . . وقد مرت الاشارة إلى ما كان بيني وبين الجادرجي من حديث في معتقل «ابو غريب» . .

وحيـن دخـل هذا الحلف مرحلة الاعلان كان مني ان هدمت هذا التحالف بمقـالـين افتتـاحيـين في جريـدتي «الـرأي العـام» ودفعت ثمن ذلـك وأنـا فخور بما هو مألـوف لدي ومــا أنــا معتـاد عليــه من شتــائـم مبتــذلـة . . انحـدرت اليهــا ويــا للأسف «جـريـدة الأهـالي» وأكثـر من شخصية لها وزنها وكان أن اكتشفت فيها الأعداء الـذين ارتـدوا لبوس الصداقة ومن بينهم واذكره بالم صديقي القديم الذي كنت وما ازال احبه واحترمه ألا وهو «حسين جميل» ومنهم ايضاً «عبد الكريم الدجيلي» الذي كان يعـد الـراويـة الأول لشعـري في العـراق وصـاحب كتـابه الضخم عني «شاعر الـعـروبـة» بعـنـوانـه والمـلـيء بالـضـرر في حقــيــقــتـه وهــنـاك شخـص ثالـث كان أكـثـر المـتـكـالـبـين على الـذم والـقـدح والـشـتـيـمـة لا اريد ان اسميه لمجرد ان الحديث عنه يطول ويطول اكثر بكثير من الاخرين . وهذا الشخص الـذي تربـع بشفـاعـة الاجنبي وبعبارة اوضح من السفارة البريطانية في بغـداد منصبـاً هو أكثـر بكثير من ان يستحقـه وكـان يتذبذب في مواقفه تجاهي بحسب

قوتي وضعفي، إذ كان أكثـر المتملقـين لي وأنـا أستبق الأحـداث وأنـا رئيس اتحـاد الأدباء في العراق فيما بعد وافظع الشاتمين لي فيما بين هذا وذاك غاصباً نفسه وضميره ليلطف من فظاعته وليعترف وهو يدس السم في الدسم انني «الملك الظليل». وهو كما يعرفه القارىء (امرؤ القيس).

وحسبي ان اقـول انـه واحـد ممن ضمتهم وبعد ما لا يزيد عن أربع او خمس سنوات الوثيقة التاريخية الفريدة من نوعها والتي طال الأخذ والـرد بين عبد الكريم قاسم «وبهجـة العطيـة» رئيس دائـرة التحقيقـات الجنـائية ـ مديرية الامن العامة ـ من أجـل الحصـول عليها قبل اعدامه. إلا وهي قائمة الشخصيات البارزة والعميلة للسفارة البـر يطـانيـة والتي يقسم على كتـمانها بكلمة الشرف والتي لوح لي بها «عبد الكريم قاسم» بيده اليمنى قائلاً وبالحرف الواحد: لو تعلم يا «استاذ الجواهري» من هم هؤلاء..

لقـد كنت واعيـاً على نفسي هذه المـرة وعلى خطـورة هذا التلويح وخطورة الـرجـل (الملوّح)، فلم ارد ان اتجـاوز حدودي حتى وقـد افـترضت لنفسي انه هو بنفسه يريد ان اصل إلى تلك الحدود. فلم يكن مني وانا اقوم بواجب الرد على هذا الاستفهـام الخطـير «لـو تعلم» إلا ان اكتفي بما يرتفـع على وجـه التقريب إلى مستوى تلك الخطورة لأقول له: اجل يا سيادة الزعيم اكاد اعرف اكثر من واحد منهم.. ومع هذا فاسمح لي وانا كما تعلم «ابن النجف» ان اقول لك لا بد ان تكون فيها ـ «عمامتان» من النجف وإن بدلت واحدة منهما زيّها وواحدة من بغداد.

غريب أمـر هذا الـرجـل فطبيعي أو مايشبـه الطبيعي وعنده هذا السر الدفين أن لا يرد عليّ بالحـرف ولكن مما يكـاد يكـون أقـوى منه، أي بهزة من رأسه وبوقدة من عينيـه وكأن وميضـاً من البـرق مشى فيهما وكأنه يقول لي: (لله درك يا جواهري كم انت ذكي)...

صاحبي هذا أصبـح بقـدرة قادر وبمحض علمـه بسـره الدفين وفي الشهر الأول من ثورة «تموز» ممن يساعدون الشغالين في اتحاد الأدباء بتناول صينية الشاي من ايديهم...

وعودة من جديد فقد صدرت قصيدتي الغاضبة الحارقة «كما يستكلب الذيب».

عدا عليّ كما يستكلب الذيب	خلق ببغداد انماط اعاجيب
خلق ببغداد منفوخ ومطرح	والطبل للناس منفوخ ومطلوب
خلق ببغداد ممسوخ يفيض به	تأريخ بغداد لا عرب ولا نوب
لا الاريحي الذي ضمت ملاعبها	ولا التقي الذي ضمت محاريب
ولا الكريم يميناً جوده رفة	ولا الكريم ضميراً جوده طيب
لو شئت مزقت استاراً مهلهلة	فراح سيان مهتوك ومحجوب
تسعون كلباً عوى خلفي وخلفهم	ضوء من القمر المنبوح مسكوب
وقبل الف عوى الف فما انتقصت	(أبا محمد) بالشتم الاعاريب

* * *

قصة الأرض الخراب

إذا كانت قصيدة الهاوية وانعكاساتها وملابساتها وبما تركت على حياتي من بصمات الم وقلق حدثاً فريداً في مسيرتي الحياتية والشعرية فإن ذيول هذه القصيدة ستوصلني إلى ما هو اكثر فرادة واكثر غرابة . . وقد كنت اتوقع ان توصلني انعكاساتها إلى أي شيء آخر إلا أن أصبح مزارعاً بل ومزارعاً فاشلاً. وهاكم القصة :

فقد استقالت وزارة «المدفعي» التي اعيد تأليفها بعد تتويج الملك الجديد بحكم التقاليد المألوفة وبحكم التقاليد الطائفية هذه المرة جاءت وزارة «الجمالي» لمدة شهور قلائل ثم شكلها ثانية ولمدة شهر واحد . . وكذلك جيء بـ «ارشد العمري» ليؤلف وزارة دامت شهرين . . .

وبعد هذه الوزارات المتلاحقة المفتعلة جيء بالرجل الأول والمنشود (نوري السعيد) وكانت اول اجراءات نوري السعيد وفاتحة اعماله هي غلق النقابات والجمعيات التي كانت تمثل الأكثرية الساحقة من الجماهير الكادحة ثم اغلق جميع الصحف بحجة التمهيد لسن قانون جديد للمطبوعات وبعدها سحب اجازات الاحزاب الوطنية جميعها وبالتالي واضافة إلى كل ذلك حل المجلس النيابي .

كانت جريدتي في الصميم من تلك الصحف المعطلة ولم اكن ادري او اتوقع ان تنسحب ذيول علاقتي بالأمير «عبد الاله» والتي مر انسحابها على اكثر من وزير واحد من الحاكمين إلى نوري السعيد نفسه . .

حيث كان منه ومن ساعده الأيمن الدكتور «ضياء جعفر» وزير الاقتصاد بل ومن ساعده الأيسر «خليل كنه» وزير المالية ان اتصلوا بي كل بطريقته الخاصة وبما يشبه المفاجأة حيث قرروا وقد تعطلت جريدتي «الرأي العام» المورد الوحيد لي

ولعائلتي ان يعوضوا لي عن تعطيلها وذلك بأن أصبح مزارعاً . . . وأن أحرث الأرض بدلاً من الحرف والكلمات وان اتخاطب مع الأرض لا مع الذين يمشون عليها . .

لقد راقتني الفكرة ووجدت فيها قتلاً للفراغ ورأيت فيها حرفة جديدة بل وجميلة ايضاً . . .

كان بامكاني في ذلك الوقت ان اختار الأرض التي اريدها وكان عليّ وانا ما أزال المدلل ان انفذ ذلك الاختيار خاصة وانا استطيع طلب ما اريد من الأمير «عبد الإله» او من نوري السعيد أقوى رجلين في الدولة آنذاك . . .

وكان عليّ أن ألح بطلب مزرعة صغيرة بحجمها قريبة بمكانها درارة بخيراتها كما فعل اكثر من واحد ممن هم ليسوا بحاجة ماسة كحاجتي اليها أي بقطعة من مزارع «ابي غريب» اللاصقة ببغداد التي أخذت حصتي الاسيفة منها قبل ذلك في (المعتقل) المسمى باسمها . .

ولم يكن الأمر ليكلفني أكثر من مقابلة صغيرة انتزع بها القطعة التي اريدها . .

غير ان رواسب الفاقة حالت بيني وبين مغل هذا الطلب وما كان مني إلا ان اراجع وزير المالية لاستعجله في اقتطاع ما يريد من الأرض .

ولم يكن بوسعه إلا ان يعطيني ارضاً تكاد لا تستحق هذا الاسم . . .
أرضاً جرداء كانت قد زرعت واستهلكت من سنوات عديدة خلت كان اجمل ما فيها انها تقع على الجانب الغربي من نهر دجلة الذي كنت احلم دوماً بان يكون لي عش على ضفافه . . لقد كانت هذه القطعة بل المدينة «الخراب» بسعتها وفقرها واقعة بما يسمى «علي الغربي» أي انها تحمل اسم موقعها معها . .

كانت مساحة هذه الأرض تزيد عن ثلاثة آلاف دونم ، لكنها كما ذكرت جرداء وسقيها صعب ومع ذلك قررت ان اكون عنيداً في مواجهة صعوبتها كما قررت ان اخصب الأرض المجدبة لأنني والحق يقال كنت وقتها في ضيق شديد وكان عليّ ان ابحث عن أي مصدر رزق عاجل . . .

طلبت من وزير المالية أكثر من مضخة واحدة من الطراز الحديث لسقاية الأرض ، واستجاب الرجل لذلك وشاءت تلك الأرض الجرداء ام ابت فقد زرعت مساحة صغيرة منها . .

وفي خطواتي الأولى فقد اصبحت اقطاعياً وعندما تفجرت لدي وبوحي من أرضي الجديدة «أم عوف» والتي ستبقى خالدة حتى بعد هذه الاقطاعية أصبحت وبفضل منها مزارعا خالدا بل حتى بعد (مزارع ابوغريب) الذهبية كلها، لوقدر لي أن امتلكها . . .

يا ام عوف عجيبات ليالينا ... يدنين اهواءنا القصوى ويقصينا
يا ام عوف بريئات جرائرنا ... كانت وآمنة العقبى مهاوينا
نستلهم الأمر عفواً لا نخرجه ... من الفحاوي ولا ندري المضامينا
نأتي المآتي من تلقاء أنفسنا ... فيما تصرفنا عنها وتثنينا
ان نندفع فبعفو من نوازعنا ... او نرتدع فبمحض من نواهينا
ما ان يرين علينا خوف منقلب ... ولا نراقب ما تجزى جوازينا

وكذلك وعلى نمط قريب منها فإن قصيدة «الراعي» التي جاءت من وحي هذه الاقطاعية لا تقل اهمية وخلوداً من قصيدة يا أم عوف . . .

لف العباءة واستقلا ... بقطيعه عجلاً . . . ومهلا
وانصاع يسحب خلفه ... ركباً يعرس حيث حلا
يرمي بها جبلاً فتتـ ... ـبع خطوه ويحط سهلا
يصلى كما تصلى الهجير ... ويستقي ثمراً وضحلا
يومي فتفهم ما يريـ ... ـد ويرتمي فتهب عجلى
وارتد يحمل ما يصو ... ن ذما . . . وما اغنى وقلا
نايا يذود بها الونى ... ويلون النسق المملا
وعصا يهش بها وير ... قى ويقيم ظلا

* * *

يا راعي الأغنام: انت ... اعز مملكة واعلى
يسقيك من رشفاته ... قمر السماء إذا اطلا
وتلم في الاسحار عنـ ... قود إذا تدلى

* * *

خلال سنتين من عمر هذه المزرعة كنت مثالاً للحيوية والنشاط ومثالاً للكفاح والعناء من اجل اخصاب الأرض.

ومن لفتة اخرى: فكم كنت فرحاً وانا أرى المضختين الحلوتين تنتصبان وترتلان اناشيدهما وتوقعان الضربات الموسيقية وانغامها وهما تسحبان الماء مرغمة اياه كل الارغام متجاهلة ابتعاده عنها. .

كم كنت فرحاً وانا أرى خيوط الاضاءة تمتد على هذه الرقعة المطوية من حساب الزمان والمكان لأول مرة وآخرها. . واراها وهي على الجانب الغربي من «دجلة» تنير الجانب الشرقي منه. .

وأقولها حقيقة ويعرف ذلك حتى اعدائي. . . انني كنت خلال هاتين السنتين من عمري الزراعي اولنسمها لعبة الزرع والأرض والضرع. . . ان هذه اللعبة لم تشغلني دقيقة واحدة عما كان يشغل العراق اوعما يلاقيه الشعب العراقي من جور متعاقب وديكتاتوريات متلاحقة وما يلاقيه ايضاً من تجبر الحاكمين ومن استهتارهم لا بالجماهير وحسب بل حتى بمن كانوا يسمون انفسهم طلائع هذه الجماهير اوزعماءها اوموجهيها. . . أولابسي لبوس المعارضة هؤلاء الذين احملهم ويحملهم المحكومون بأكثر مما يحملوا الحاكمين ومن منطلق مزايداتهم على المكاسب والمغانم والشهوات الحزبية وزر الاذلال ووزر السجون التي انفتحت أبوابها بكل مصاريعها ووزر الأحكام العرفية ووزر المحاكم العسكرية تلوالمحاكم بل حتى وزر الاحلاف ونموذجها «حلف بغداد» ووزر المشانق وزنزانات التعذيب. . .

وبحكم عودة جريدتي «الرأي العام» فقد كنت محاطاً بالرقابة والجواسيس الذين بلغوا حد مضايقة البيت المكشوف في «الأعظمية» وامام العائلة وامام زوجتي المريضة في قصة لا اريد ان اطيل الحديث عنها. . .

المهم وعودة إلى تلك الاقطاعية ـ هو انني كنت استسهل الديون وكان يهونها عليّ وزير المالية المكلف وقتذاك. . اما ثمن تلك الديون الفائضة والمتراكمة فقد دفعتها أضعافاً مضاعفة. . وعلى صورة لا أغالي إذا قلت: انني لم أجد مثيلاً لها في التاريخ العربي بما رافقها من اذلال ومهانة. . بعد ذلك بما يقل عن أربع سنوات وعلى يد رفيقي «عبد الكريم قاسم» أول رئيس للجمهورية العراقية الجديدة مما سيأتي ويطول الحديث عنه. . .

قصة «غاشية الخنوع»

في مثل تلك الظروف . . . ظروف مهزلة الأرض والاستدانة والبيع والشراء والرهن . . .

والظروف التي اشتد فيها الخصام بين سورية والعراق، اخبرتني زوجتي ان السفير السوري اتصل بك علماً بأن هاتفي وبيتي مراقبان . . . كان ذلك مقلقاً بقدر ما كان بادرة فرح بالنسبة لي اذ حدثني العقل الباطن ان سفرة إلى سورية في طريقها إليّ . .

ومع معرفتي بان العراق متهم بقتل «عدنان المالكي» وقتها ومعروف ان عدنان المالكي كان رئيس الشعبة الثالثة في الأركان السورية . . . كما كان رئيس تنظيم الضباط البعثيين في الجيش . . . ومعروف أيضاً ما كان يحاك في العراق ضد سورية وضد توجهاتها وما كان يجري من خلافات عراقية سورية حول الاحلاف والمعاهدات وما كان يخطط له «نوري السعيد» من انقلابات تجيء باشخاص موالين له لتولي السلطة في دمشق كما هو الأمر في المؤامرة التي حاكها لقتل «الشيشكلي» . .

مع معرفتي بكل ذلك وتقديري الوضع الدقيق والظرف الحرج ومغامرة السفر فقد كانت الحالة التي اعيشها والضيق الذي احياه ومعاناتي مع الزراعة وبحثي عن اللقمة الحلال كان ذلك كله كافياً لكي يدفعني إلى ايجاد أي مخلص او مخرج فكيف الحال وانا اعاني ذلك الجو السياسي المحموم بكل احكامه العرفية وكل معاهداته واحلافه . .

اتصلت بالسفارة السورية وإذا بالسفير على الخط مباشرة يقول لي :

أنا مكلف بابلاغك انك مدعو من قبل قيادة اركان الجيش السوري للمشاركة في ذكرى تأبين «عدنان المالكي» . . .

وبعد ان استمهلني دقائق . . . تلا عليّ البرقية التي تقول : وربما يشبه الحرف الواحد «نطلب إليك الاتصال بالسيد الجواهري ـ لحمله على المشاركة في تأبين الشهيد عدنان المالكي» . . .

وفات السفير كما فاتني ان الخط مراقب في تلك الظروف الصعبة ومع ذلك قلت له : اخي العزيز انا مبدئياً موافق وساسعى وان مشياً على الاقدام كي البي هذه الدعوة ولكن عليك ان تصبر عليّ يوماً او يومين كي اتدبر امري وانت تعرف الظروف . .

قال : انا ممتن جداً يا استاذ جواهري وامامك اكثر من هذه المدة فما زال هناك متسع من الوقت . . .

انهيت هذه الكلمة بفرح وارتياح خاصة وانا اعرف ان مصيري ومصير هذه الرحلة هو بيد مديرية التحقيقات الجنائية وبالأخص فبيد «بهجة العطية» الذي سبق وتحدثت عنه وعن حاكم التحقيق وعن موقفه الايجابي تجاهي في مثل ذلك الموقف وغيره . .

في اليوم الثاني اتصلت بـ «بهجة العطية» طالباً منه تحديد موعد لزيارته فقال : ارحب بك كثيراً وإذا اردت فهذه الساعة . .

ذهبت إليه وصارحته بامر السفرة إلى سورية وغرضها وقلت له :

ـ يا ابا غسان . . انا لا اريد التحايل ولا اللف والدوران وما اشبه الليلة بالبارحة ـ هذه السفرة مشابهة لتلك التي كاشفتك بها عام ١٩٤٨ ، والتي كانت تخص سفري إلى بولونيا . . إنها الان سفرة إلى سورية وللمشاركة في ذكرى «المالكي» ولو كان غيري في مثل هذا الموقف لقال انا ذاهب للاستجمام او الاصطياف . . . لكنني لست ذلك الرجل الذي يحتال ولست عندي بالرجل الذي يحتال عليه . . .

واعيدها ثانية يا ابا غسان . . . انا ذاهب لتأبين المالكي واكرر هذا امامك كي اكون مسؤولاً عن نفسي فما قولك؟ . . . فقال لي :

يا ابا فرات : تعلم ان قضيتك وقضايا من هم من طبقتك بيد «وزير الداخلية» وانت تعرف «سعيد قزاز» وتعرف كم هو يحبك لذلك ارجو ان تمهلني إلى الغد، قلت : بكل امتنان . . .

كان «سعيد قزاز» وزيراً للداخلية حينئذ . . . وهو صاحب العلاقة حين

اصبحت مزارعاً وقبلها فصاحب مقال خطير عن مديرية الأمن وجواسيسها وتجسسهم عليّ وعلى بيتي، ومسؤوليته هو بالذات عن كل ذلك. .

وسعيد قزاز معروف بنزاهته وقوته وقد دفع عن ذلك وبعد ثلاث سنوات تقريباً وفي عهد «عبد الكريم قاسم» أغلى ثمن يدفعه المرء ألا وهو حياته كما ستأتي الاشارة. .

في اليوم الثاني وكعادتي في اكثر الاحيان مررت على «مراد الشاوي» مدير امور العشائر وكان مكتبه يطل على مجلس الوزراء ونقلت له امر السفر وموقف بهجة العطية فقال:

لقد صدق الرجل في وعده و«سعيد قزاز» موجود الآن في اجتماع لمجلس الوزراء. .

بعد ساعة تقريباً وقد عرفت ان مجلس الوزراء قد فرغ من اجتماعه اتصلت بـ «بهجة العطية» فدعاني وعلى عجلة من امره، إليه وابلغني ان «سعيد قزاز» لا يرد لك طلباً. . لا جواز سفر ولا غيره ولكنه كصديق لك قال: لو سألني الجواهري رأيي لقلت له: ان لا يذهب أما إذا أصر وأحب فجواز سفره جاهز. . سلموه اياه فماذا تقول؟ أجبت:

يا ابا غسان انا راغب كل الرغبة في هذه السفرة بل استطيع القول انني مصر عليها. .

وبصراحة اقول: ان في هذه السفرة مصلحة للقطرين، مصلحة لبلدنا ووطننا العراق ومصلحة لسورية وانت سيد العارفين بالتهم والاقاويل التي توجه إلى العراق باغتيال المالكي واضفت:

انت تعلم أيضاً مدى اهمية مشاركتي في تأبين هذا الرجل وكم هو لطيف سياسياً ومعنوياً أن يشارك العراق بشاعره في هذه المرحلة. . «طرق الرجل الجرس وسلمني الجواز». . .

عدت إلى البيت مبتهجاً فرحاً. . . وسرعان ما اتصلت بالسفير السوري لأقول له:

أنا جاهز للسفر. . .

يالبشارة ـ قالها السفير ـ وكم نحن شاكرون، ولكن ياللأسف فان موعد الطائرة هو غداً. .

قلت:
أعرف ذلك ولكنني أعرف أيضاً أن موعد سيارة «نيرن» الذاهبة الى دمشق هو اليوم . . .
قال:
- صحيح ولكنه بعد ساعة من الآن فقط . .
قلت:
- هذا يكفي فانا جاهز وحقيبتي الصغيرة جاهزة والمهم لديّ ان اسافر اليوم . .

خلفت ورائي الزرع والضرع كما يقولون . . . والأرض والماكينات، والحنطة والشعير، بيد الناهبين وخلفت غاشية الخنوع كلّها - خنوعي وخنوع الآخرين وخنوع البلد ورائي وذهبت «اقبس جمرة الشهداء» . . .

مساء اليوم نفسه في دمشق وفي فندق «الاندلس» في المرجة حططت رحالي، وهو غير المكان المخصص لي حيث كان مقرراً ان اقيم في فندق «امية الشهير» وطبيعي ان اصل إلى دمشق وانا بتلك اللهفة والعجالة قبل ان تصل البرقية المرسلة من قبل السفارة السورية في العراق إلى المسؤولين في دمشق . . .

وبعد ساعة تقريباً من وصولي إلى دمشق كان فريق من ضباط هيئة الاركان في الجيش السوري وعددهم ثلاثة او اربعة . . . عندي . . . واحد منهم لم يزل صديقي حتى هذه اللحظات . . . وبعد اكثر من ثلاثين سنة على ذلك الاستقبال وهو العقيد «هشام العظم» الرجل الأديب والناقد والذواق . . . قوبلت من هذا الوفد بالترحيب الكريم وسئلت ان كنت أريد الانتقال إلى فندق امية فقلت: انا مرتاح هنا . . . لأنني قريب من منتصف المدينة حيث الحركة والحيوية والمقاهي الشعبية ولا أريد تبديل مكاني هذا . . . فاستجابوا لرغبتي . . .

حين كنت في العراق وحين خرجت من بغداد لم يكن لديّ سوى بيت واحد من قصيدة التأبين كنت اعتبره المطلع . .

إن كنت تسأل عن نجوم سمائي تهوي فتلك مصارع الشهداء . .

وحين اقيمت لي حفلة تكريمية من قبل رئاسة الأركان بحضور مجموعة من الضباط الكبار في «كازينو المطار» ثاني يوم وصولي . . . وكانت الجلسة لطيفة وجميلة، بادرني خلالها السيد «العظم» بالسؤال عما اذا كان لدي شيء مما أعددته

لحفلة التأبين، اخبرتهم بواقع الحال وقلت لهم ليس لدي سوى هذا البيت فأطروا عليه ولست أدري إن كان ذلك الاطراء من قبيل المجاملة اومن قبيل الواقع ثم قلت لهم:

ان هناك كفاية من الوقت.

كان «هشام العظم» مسؤولاً عن القوة الضاربة في الشام او «الشرطة العسكرية» وكان على اتصال دائم بي بوصفه مسؤولاً عني من قبل رئاسة اركان الجيش إضافة إلى ما يجمعنا من رباط بالشعر والأدب.

فمرة يبعث لي سيارته ومرة نلتقي في الفندق ومرة نذهب إلى هذا المقهى او ذاك..

وذات مرة سألني.. هل من جديد في القصيدة..

قلت: لا والله يا ابا عزة إنما ساسألك هل انت راض بحق عن مطلع القصيدة..

قال: إنه بديع جداً..

قلت: لو شئت ان ابدل هذا المطلع بثان غيره يقول: خلفت غاشية الخنوع ورائي... فماذا سيكون رأيك...

قال: وباللهجة الشامية الدارجة وشبه الكافرة والرجل صائم «يلعن دينك».

ماذا تقول اين هذه المعجزة الشعرية واين تلك النجمة اوتلك الشعلة، أن هذه لصاعقة مدوية ومزلزلة..

وكما كان لي مع قصيدة ابي العلاء التي مر الحديث عنها في الجزء الأول من هذه الذكريات حيث امسكت بالخيط الأول واكملت القصيدة كذلك كان شأني مع هذه القصيدة.

في اليوم الموعود وكان عدد الحضور على مدرج جامعة دمشق لا يقدر بعدد ولحسن حظي وسوء حظهم انني كنت اخر من سيعتلي المنبر ولست ادري كم من اللعنات انصبت على مسؤولي التنظيم وعلى الذين اطالوا خطاباتهم اوعليّ وانا اعيد مقاطع قصيدتي، لأن معظم الحضور كان صائماً... ويريد ان يعود مهرولاً إلى بيته..

المهم انني اعتليت درجات سلم المنصة بكل ما فيّ من قوة الشاعر المعجب بنفسه وبكل ثقة الواثق من حضوره الشعري لتكون المفاجأة . .

ذلك أنني مددت يدي بكل يسر وسهولة واعتزاز إلى جيب سترتي الأيسر والعيون شاخصة مترقبة منتظرة فرج الخلاص لأجد ان القصيدة غير موجودة في هذا الجيب الذي اعتدت ان اضع فيه قصائدي في جميع مواقفي . .

سرت الرعشة الأولى في كل اوصالي فمددت اليد اليسرى إلى الجيب الأيمن فوجدته فارغاً أيضاً وهنا صارت الرعشة رعدة بل قل انهياراً وماذا عساي افعل . . وكل هذه الجموع انتظرت ساعات طوالاً لتسمعني . .

وسرعان ما سمعت صديقي العقيد هشام العظم وكأنه هاتف من السماء يصيح بأعلى صوته «هون هون» مشيراً إلى الجيب الصغير من سترتي والذي لا يتسع إلا لوضع نظارة العيون مددت يدي وانا شبه مستيقظ من سكتة قلبية لأجد الورقات الأربع لقصيدتي ذات التسعين بيتاً مكورة في هذا العش الجميل واللعين معاً من اعشاش بدلتي وكان هذا بحد ذاته اجمل قصيدة للحاضرين واروع تخفيف لانتظارهم وجوعهم . . .

استعدت اعصابي واستعاد جسدي دورته الدموية وعلت الفرحة أسارير وجهي وبخاصة بعد أن كان عريف الحفل هشام العظم نفسه قد اعتلى المنبر ليشد من عزيمتي اكثر فاكثر بابلغ تقديم واشد اختصار : ـ والآن فـ «صناجة العرب» .

وكانت المفاجأة الثانية : انني ولأول مرة في تاريخي الشعري اجد القاعة تضج بهتاف وتصفيق كبيرين مطالبة باعادة الشطر الأول من مطلع القصيدة قبل اتمام البيت (واتيت أقبس جمرة الشهداء) . . .

هذا الشطر السائر على كل شفة سورية سريان الأمثال المضروبة .

ومضت القصيدة شاقة طريقها إلى قلوب هذا الحشد الكبير حتى وصلت إلى المورد المتوهج منها :

حاسبت نفسي والأناة تردها ... في معرض التصريح للايماء
بيني لعنت فلست منك وقد مشى ... فيك الخمول ولست من خلطائي
ماذا يميزك والسكون قسيمة ... عن خانع ومخادع ومرائي
أباضعف الايمان يخدع نفسه ... من سن حب الموت للضعفاء

خلي النقاط على الحروف واوغلي | في الجهر ما وسعت حروف هجاء
ما انت إذ لا تصدعين فواحشا | إلا كراضية عن الفحشاء

* * *

وصاح الجمهور الحاشد برمته وبكلمة حلوة وباللهجة السورية الدارجة «ما بيرجع ما بيرجع» أي لا يمكن ان يعود إلى العراق، فتدبروا امره . .

وفعلاً فقد كان الأمر مدبراً من قبل وكل شيء كان عندي محسوباً وكذلك عند الداعين وكيف سأعود وقد وقعت هذه القصيدة على اسماع الحاكمين في بغداد بل وعلى اشباههم في سورية وقع الصاعقة . .

واذكر انه في اليوم السابق من القاء هذه القصيدة كان «بدوي الجبل» قد دعاني لتناول الغداء وكان وزيراً للدعاية كما يسمونها يومذاك وفوجئت ان اجدني لوحدي معه، غير انني سرعان ما ادركت السر وهو يطلب مني ان يطلع على القصيدة . .

استجبت إلى هذا الصديق «الرقيب» وابتدأت تلاوة القصيدة وحين وصلت إلى المقطع الذي ينال من الاحلاف البرجوازية وتصيدها المواقف كي تتصدر هذه الواجهة السياسية أو تلك، «المقطع» الذي اعتبره من أروع وأبدع ما في هذه القصيدة والذي يقول:

قدما دمشق لسنة عودتها | في الحمد من عود على ابداء
افرعت من محل الخطوب سياسة | بناءة ونتجت عن عشراء
سلمت يداك لقد قسوت عليهما | في عصر رأس الحية الرقطاء
لم يبق منها غير سؤر رحشباشة | يلوى بها ذنب وغير ذماء
انهي فديتك امرها وتخلصي | منها ومن قشر لها ملساء

* * *

وما أن فرغت من هذه الأبيات حتى رأيت «بدوي الجبل» يبادرني بالقول: هذا كثير يا ابا فرات وهذه الأبيات شديدة القسوة وقد تثير عليك ضجة غير محببة قلت له:

أنــا كما ترى لا أتقصــد شخصــا بعينـه بل قصدت كل انتهازي ومنتفع وهذه هي طريقتي كما تعلم في كل قصائدي هنا وهناك وفي كل موقف كهذا ولعلك قبل عامين من الـــزمن اطلعت أوعلى الأقـــل سمعت عن قصيـدتي في مؤتمـر المحامـين العـرب وقصتها والتي اعيد عليك قولي فيها :

فلا هي للشــعــب في كله ... ولا هي للجــانـــب الآخـــر
ولـكـن كما شغـلت نفسهـــا ... بنـحـيـــين اخـت بني عامـــر
فكـف تهدد غيــظ الجمـــوع ... وكـف على منـصب شاغـــر

* * *

فما عسى ان تكـون هذه القطعـة من تلك ، وفـارقت الوزير الرقيب وهو غير رابح في ما كان بيننا في طبخته من زاد وملح كما يقول المثل العربي . .

وكان من جراء هذه الدعوة المفتعلة ان اجد نفسي في اليوم التالي بين بدوي الجبـل بحكم وظيفتـه وبين القائم باعمال السفارة العراقية وقد استغلا نفوذهما لدى الصحف المأجورة منها والمتحزبة كي تبدأ حملة تشهير بلغت في معظمها درجة الشتم . .

ولم يكن لأقلام هذه الصحف اكثر من ان تعيد قصيدة «ته يا ربيع» من قبيل المـزايـدة مستغلين ورقة عتيقة بائسة طالما حاسبت نفسي عليها قبل ان يحاسبني أي احد وهل اكثر من ان اسميها «الهاوية» .

وبـــرغم كل ذلـــك فلم يقـدروا أن يهزوا شعـرة واحـدة من رأسي وظـل بيتي في «السبـــع بحـرات» ، وقـد التحقت عائلتي بي ، محجـاً للطليعـة من الشبـاب السـوري والعـراقي وكنـا كل ليلة نتحلق حول المـوقد نشعل فيه الخشب الجزل . . . نعد لهم «سماور الشاي» وكانت زوجتي ام نجاح تتصدر هذا السماور وتوزع كؤوس الشاي على ضوء ذلـك المـوقـد الجميـل الذي اقول فيه عنها وعنه هذه اللقطة الملهمة «من وحي الموقد» بعد أن صبت كثيراً من الزيت على الخشب وأوقدت النار فيه ووجهي مطلّ عليه فكاد أن يتلقفه قد ما تلقف شعر رأسي فأطار ما أطار منه :

هتــفـــت : بئس مغـــامـــرة ... يا بن خمســين أأنــت صبـي
او ما تنــفــك محـتـضــنـــاً ... لعـــبـــة من هذه الـــلعـــب

قلت يا هذي لو اخترمت مفرقي شفين لم اتب
انا ذا من (أربعين) خلت اطعم النيران باللهب

* * *

في اليوم الثاني من وصولي إلى دمشق جاءني صديقي هشام العظم وبتكليف من قبل رئاسة هيئة الأركان ليخبرني ان كل شيء قد رتب بشكل جيد لاستضافتي بدءاً من الشقة المريحة وانتهاء بالراتب المقرر . .

الشيء الوحيد الذي لم يكن محسوباً ومرتباً هو انني بعد ان قدمت الشكر والامتنان قلت له : انني غير معتاد ان ابقى بدون عمل . .

قال : عجيب نحن نطلب اليك المزيد من الراحة وانت تطلب المزيد من العمل . . وكان لي ما اردت . .

فقد اختاروا لي مكاناً يليق بي وباهتماماتي وهو العمل في محيط الفرع السابع «مجلة الجندي» حيث لم يكن هناك منبر ادبي وثقافي اهم منها في القطاع العسكري وقتذاك . .

كان هذا الاختيار المناسب والجميل وكأنه تعويض عن عالم الصحافة الذي كنت اعيشه وكنت متألقاً فيه منسجماً معه حيث اوكل إليّ بمشاركة الصديق والاديب والكاتب «نخله كلاس» ادارة القسم الأدبي والثقافي في المجلة المذكورة . .

ومما زاد هذا العمل جمالاً أن يكون رئيس الفرع السابع ، و«مجلة الجندي» تابعة له ، رجلاً شهماً وكريماً من شباب اللاذقية اللامعين هو «كاظم زيتونة» الذي أطلق يدي في هذا الفرع وكأنني المسؤول الأول فيه . .

كنت والصديق نخلة كلاس نقوم باختيار المواد الأدبية والثقافية الصالحة للنشر وكان معنا وقتها شلة هي الطليعة الأولى من الشباب التقدمي امثال حنا مينه ، وشوقي بغدادي وسعيد حورانية ، ومحمد الحريري وسواهم اضافة إلى شلة من اصدقاء المرحوم «خليل مردم» رئيس المجمع العلمي وقتذاك . .

فيما بعد كان لي الشرف الكبير في ان ازور المنطقة العسكرية المحرمة «الجولان» وكنا ثلاثة قائد المنطقة اللواء بهجت وأنا والعقيد هشام وليتني لم أر الجولان الجميل كما قلت عن فلسطين ايضاً ليتني لم أر فلسطين ، ليتني لم ار تلك الجنان الخضر . .

لقد كانت دمشق ملتقى الاحبة وجامعة للشمل وفي كل يوم كان يجتمع هذا الشمل من سوريين وعراقيين في هذا المقهى او ذاك . .

وما اشبه الليلة بالبارحة بل ما اشبه سورية بنفسها حيث كانت وما زالت صدراً مفتوحاً لكل طليعي هارب من الظلم من العراق او من غيره كما انها ما زالت صدراً حنوناً لكل الطلائع الخيرة من الشباب الغاضب والثائر والمشرد واللاجيء واللائذ . .

اقول هذا وأنا الآن اراها ايضاً وكما كانت قبل اكثر من ثلاثين عاماً أي العام الذي خلفت فيه غاشية الخنوع ورائي موئلاً لكل الاحرار . . . ومنبراً لجميع الثوار . .

وعودة من جديد . .

فقد مر العام الأول عليّ في دمشق وعنوانه/ الرعاية، واللطف، والتقدير، والتفقد . . في المقر، والمرتب، والتموين، في كل اشكال حسن الضيافة والاهتمام . . .

قصـــتي مع البُحـــتري

وإذا كان هناك وإلى جانب تلك اللقاءات الحلوة خلال مدة اقامتي في دمشق فمزيد من ثقافة وتثقيف فقد كادت مكتبة الفرع السابع ومجلته ان تفرغ بما كان من أمر نقلها إلى شقتنا الجميلة في السبع بحرات مضافاً إليها ما نقلته من مكتبة المركز الثقافي . .

وا أسفـاه . . . واعـدتهـا كلها كتاباً فكتاباً قبيل عودتي إلى العراق فوا اسفاه على ما اضعته من حصيلة كل ما في هذه المكتبة الضخمة المستعارة من دواوين شعر وكتب تاريخ ودراسات ادبية ، فهمي الأول من ذلك كله كان تحقيق الفكرة الجميلة والفريدة من نوعها لو انها تحققت وهي ان اضيف إلى المكتبات العربية كتاباً جديداً لم يسبقني به احد ولم يلحقني به احد حتى الآن وبعد الآن هو ان اعيد تصنيف ديوان (البحـتر ي) والأصـح ان انظم سلاسله الـذهبيـة لتنطبق على مراحـل حيـاتـه وتصـاعـدهـا ومفارقاتها بدلاً مما هو عليه حتى الآن من ترتيب لا طائل فيه ولا دلالة على تصوير حياة البحتر ي نفسه ولا على تطورها ولا على مدى معاناته فيها كما هو الأمر الاصح والأجمل في ما كان من امر تصنيف ديوان المتنبي على سبيل المثال . .

لقـد كنت مدركـاً ، وأنـا أكاد أفرغ القسـم الأدبي من كل تلك الكتب ، ثقل هذه المهمـة ومـاتقتضيـه من اعـادة للتـاريـخ زمـانـاً ومكـاناً وموقفاً ومع ذلك كله فقد كانت الـرغبـة الملحـة في ان أجيء بهذا الشيء الجديد تعادل ان لم تزد على ثقل تلك المهمة . فلربـما كان من السهـل على القـارىء ، وفيـما يختص بمـدائـح البحتر ي ومراثيه وتهانيه ومضطـرب احـاسيسـه وهمومـه ، ان يتعرف على ان هذه القصيدة اوتلك كانت في هذا الخليفة المتوكل مثلاً او المنتصر، ابنه او في من توارث الخلافة بعدهما . . . ومثل ذلك ففيما كان له من قصائد ومقطوعات في هذا الأمير او ذاك وفي عهد هذا الخليفة

او من بعده ولكن الأمر العسير هو ان يتعرف القارىء او الباحث على البرهة فضلاً من الشهر او السنة التي تؤرخ تلك القصيدة او غيرها وهذه القطعة او تلك..

واكثر من ذلك عسراً فان يتعرف على هذه المرحلة او تلك من حياة البحتري نفسه وهو يجيء بهذه القصيدة او تلك المقطوعة وفي أي سنة كانت من حياته وفي أية حالة من حالاته التي كان عليها، ان كل ذلك ونظائر كثيرة اخرى مما ادركه المعنيون بحياة (المتنبي) واللذين تصاعدت هممهم إلى ادراك الحقيقة الساطعة وهو ان يقدموا الشاعر الذي سوف يشغل الناس ويملأ الدنيا وكأنه شاخص امامهم وامامها في مطاوي قصائده ومواقفه وحالاته..

ولئن كان (البحتري) اقل اشغالاً للناس واملاء للدنيا من «المتنبي» للبون الشاسع بين الشخصين والموقفين والحياتين والمزاجين فهو ومن مدخل آخر الأكثر اشغالاً واملاءاً للطبقات الخاصة المعنية والمتفردة بعنايتها بامر الشاعر الفنان والشاعر الرسام وبخاصة بالشاعر الذي يحتل المكانة الأولى والعليا في ذلك كله..

لقد كنت وما أزال وبما يشبه جمع المتناقضين وانا الأقرب إلى المتنبي، في كل خصائصه ومفارقاته ومغامراته لا احرص على كل دواوين شعراء دنيا العرب من يوم حفظت الشعر وفهمته بمثل ما احرص وعلى مدى اكثر من خمسين عاماً على ان يكون «ديوان البحتري» معي في أي رحلة من رحلات العمر مهما قصرت لأيام وأسابيع أو طالت لشهور أو سنين بل وعليّ أن أعيد وأعيد البيت والبيت والقطعة والقطعة والقصيدة والقصيدة وكأنني أتعرف عليها من جديد. وما تزال محفوظة عندي النسخة النادرة بمراجعة العلامة «الشدياق»، التي عنيت فيها بما قد لا يخطر على بال حتى المعنيين بـ (البحتري) نفسه وذلك بأن أجمع فيها من فرائد البحتري ماهو مضرب من مضارب الأمثال السائرة والتي يفترض أن تبقى على أفواه الناس في كل مايعنّ لهم من حال أوحال وموقف أو آخر بأكثر بكثير مما هو على أفواههم من أمثال (المتنبي) لو لم تتغلب على البحتري بل أن تظلمه سبيكة الذهب من روعة الحرف وبساطته وعمقه..

لقد اشرت على الكثرة الكاثرة من ذلك وبهذه النسخة التي بقيت عندي لحسن الحظ من كل طبعات ديوان البحتري، وعلى كل صفحة منه على وجه التقريب وفي حاشية منها حرف (م) اشارة إلى المثل السارد خلالها وكأنه مجرد مفردة من مفردات البحتري الرائعة ـ ولو اردت الاستشهاد على ذلك لاقتضاني كراسة

غير صغيرة ولو اردت الاستشهاد لما تلقفه المتنبي العظيم من هذه الأمثال وطورها واحسن استغلالها لطال الحديث ايضاً.

ومن باب الاستطراد وعلى سبيل المثال، فعندما يقول البحتري في (سينيته) الخالدة والمعلقة:

وإذا ما جفيت كنت حرياً ... ان ارى غير مصبح حيث امسى

يلتقطه المتنبي ويطوره ويضيف إليه فيقول:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... ان لا تفارقهم فالراحلون هم

وعلى ذكر القصيدة نفسها فكم هي الصور الجميلة فيها مما يصح ان يكون كل واحد منها مثلاً:

وتماسكت حين زعزعني الدهر ... التماساً منه لتعس ونكس
بلغ من صبابة العيش عندي ... طففتها الأيام تطفيف بخس
ولقد رابني نبو ابن عمي ... بعد لين من جانبيه وانس
ذاك عندي وليست الدار داري ... باقترابي منها ولا الجنس جنسي
وأواني من بعد اكلف بالاشـ ... ـراف طرا من كل سنخ وأس

ويحسب القارىء المعني بالبحتري ان يخمن او يفترض ما عسى ان يكون مثل هذا او ما يقاربه من مثل سائر فيها لا يقل ان لم يزد عن خمسة وعشرين الف بيت من سلاسل الذهب.

وعودة إلى تلك المهمة الشاقة واللذيذة التي تحدثت عنها فلقد قطعت مرحلة اعتز بها من مسيرتي هذه وذلك وعلى سبيل المثال ايضاً - فبأن ارجع إلى هذه القصيدة او تلك من ديوانه - فاستدل منها ومن ذكر الممدوح فيها وبمراجعة اكثر من كتاب من كتب التاريخ لأتعرف وان باشارة عابرة إلى عهد هذا الخليفة او الامير او قائد جيوشه لأجد الواقعة الكبرى في أي عام ان لم اقل في أي شهر كانت..

واحدة من هذه الشواهد التي قلت واعيد القول انني معتز بالعثور عليها هي قصيدته القافية الرائعة بل من الفرائد في روعتها والتي يقول في مطلعها وهو يمدح ان لم تخني الذاكرة «محمد بن يوسف الثغري» قائد جيش المعتصم...

أأفاق صبّ من هوى فأفيقا ... او خان عهداً ام اطاع شفيقا
ان السّلو كما تقول لراحة ... لو راح قلبي للسلو مطيقاً

وهذا البيت وبكلمة عابرة مثل من الأمثال..

لقد كنت قبل ذلك بسنين وسنين قد عثرت كما عثر الآخرون مثلي من قبلي او ممن معي على القصة التي تنفرد هي بروعتها وبدلالاتها والتي كانت اللقطة الأولى االتي يتعرف من خلالها البحتري بسلفه وشيخه ابي تمام، والذي يقول فيها بعدها (اني والله ما اكلت الخبز إلا به ، ان صده يفوق صدي ورديئي يفوق رديئه).

والقصة هذه تقول وبكل ايجاز. . ان البحتري دخل على مجلس قائد جيش المعتصم وهو يمدحه بقصيدته هذه ويهنيه بظفره بخصمه الفارس العنيد «محمد بن عمرو الخارجي» فيكون من ابي تمام وهو إلى يمين القائد وهذه لقطة اخرى ذات دلالة على مدى رعاية المقاييس الادبية في ذلك العصر الذهبي فيكون منه وقد وصل البحتري إلى قوله فيها بصدد الفارس الخارجي :

طرحوا عباءته والقوا فوقها ثوب الخلافة مشرباً راووقا

ان يقطع عليه ما بعده ليقول له وما اروع ما قال وما افظعه - ايها الفتى ما اشد جرأتك عليّ اني ابو تمام وهذه قصيدتي وانت تسرقها وتنشدها وها انا معيد عليك ابياتها، ويبدأ أبو تمام فيعيد منها مايعيد ويكاد الفتى ينهار وسرعان مايستدرك ابو تمام ذلك فيقول له هون عليك ايها الشاعر المجيد انها لك ولاعجابي بها وشدة اصغائي اليها اعدت عليك ما حفظت منها وحسبي من اعجابي هذا بك ان اقول لك لقد نعيت إليّ نفسي فلم ينبغ نابغتان من قبيلة واحدة، قاصداً بذلك قبيلة طيء التي تجمعهما. .

طيب. . . ان ابا تمام باجماع كل المؤرخين قد توغل ذروة القمم بعبقريته وانتهى امره عليها وهو في الأربعين من عمره - ارجع يا فلان إلى التدقيق في تاريخ تمرد الفارس الخارجي البطل وفي التفاف جند المعتصم عليه وهو:

فاجتاز دجلة خائضاً وكأنها قعب على باب (الكحيل) اريقا

والكحيل قرية تحت الموصل على شاطىء دجلة الغربي بين الزابين

ثم إلى السنة التي توفي فيها ابو تمام بعد قصيدة البحتري هذه ورجعت إلى ذلك فوجدته في عام كذا وفي شهر كذا.

ومهما كان الأمر فالشيء الذي انتهيت إليه بكل فخر واعتزاز وبعد تعب غير قليل للمقارنة بين العام الذي ولد فيه البحتري وبين العام الذي «خرج» فيه الفارس العربي البطل الذي ركل فرسه ليجتاز به دجلة من هذا الجانب إلى الآخر

هوان البحتري الفنان الرسام كان وهويلقي معلقته تلك ابن الخامسة والعشرين من عمره ليس إلا . .

ولربما كانت هذه اللقطة بحد ذاتها خير تعزية لي عما فقدته من تسلسل اشعار البحتري المتصاعد والمتصاعدة معه بعد ذلك من حياته التي تجاوزت الثمانين . .

أما قصة تنبؤ الطبيب العبقري مثله (الكندي) بقرب أجل «أبي تمام» وبصدق نعيه نفسه تجاه البحتري وهو يلقي قصيدته السينية بعد ذلك بقليل .

ما في وقوفك ساعة من باس نقضي ذمام الاربع الادراس

والتي يصل فيها إلى قوله وهو يمدح الخليفة :

اقدام «عمرو» في سماحة «حاتم» في حلم «أحنف» في ذكاء «اياس»

وعندها وكأن الكندي العظيم يريد بذلك ان يقطع انفاسه الأخيرة لا نفسه الشعري حسب حين يفاجئه بقوله :

يا ابا تمام اتشبه الخليفة باجلاف العرب . .

فيستنزل العبقري الشاعر الوحي الموحى بقدرة قادر عجيب ليقول للكندي :

«دعني اكمل» اي ان يدعه يكمل ما لم يكن عنده شيء منه إلا باللحظة البارقة والقتالة :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وينتهي ابو تمام ليهمس الكندي إلى الخليفة المعتصم بقوله : «اعط هذا الرجل كل مايطلب فهو لن يعيش طويلاً ، لقد رأيت دماغه يبرق في عينيه وهو يستنزل البيتين من قصيدته فيقول له الخليفة ما اراده الكندي - فيطلب ابو تمام الولاية على «بريد الموصل» وليس كما ذكر كثيرون من المؤرخين الولاية على الموصل ، ولن يكون بعد ذلك إلا ان يموت الفتى ابو تمام ابن الاربعين في العام نفسه ، وهل هناك شاهد حق وصدق على هذه النهاية من قبره الشاخص حتى اليوم في الموصل . .

ومهما كان الأمر وختاماً لهذه اللقطات الأدبية التي عشتها في هذه الفترة في دمشق فقد اعدت ، كما أشرت قبل هذا ، كل هذه المراجع التي سهرت عليها اياماً وليالي طويلة وقطعت من مهمتي مرحلة غير قصيرة ، اعدتها كتاباً فكتاباً وكل

مجموعة منها إلى مرجعه. أما أوراقي التي كنت أعتز بكل سطر منها فقد ذهبت ادراج الرياح، وظل البحتري حتى يومنا هذا غير شاخص في كل مراحل حياته وفي كل ديوانه الضخم فهل سيكون هذا التعب الضائع حافزاً لمن معي من طبقتي او لمن بعدي ان يستدركه ويبعثه من جديد. . وانا اطمئنه بانه سيكون خالداً بسفره المترقب خلود البحتري نفسه. .

العــودة إلى العــراق

وخلال هذا العام الأول كتبت قصائد اعتز بها منها قصيدة «الجزائر» وقصيدة «فلسطين» وقصيدة «الناقدون» وقصيدة «غيداء» وقصيدة «النباشون» . .

أمـا في السنـة الثـانية فقد كانت سورية مغلوبة على امرها إذ بدأ جو الوحدة المـزعـزع يسيطـر على الشـارع وعلى من بيـدهم مقـاليـد الأمـور وفي هذا الجـو فقـد اصبـح كل عراقي في دمشق وكأنه «نوري السعيد» حتى طفلتاي الصغيرتان ظلال وخيـال لم تنجيـا من تعليقات زميلاتها في المدرسة بهذا الصدد في الوقت الذي كنت اعيش الغربة والقهر هرباً من جحيم «نوري السعيد» .

في هذا الجـو كانت مفـاتيـح دمشق جاهـزة كي تسلم للرئيس «جمـال عبـد النـاصـر» وقد سلمه اياها الرئيس «شكري القوتلي» فيما بعد مكتفياً أن يحظى بلقب «المواطن الأول» ثم كان ما كان وانتهى أمر الارتجال في أول وحدة عربية إلى ما هو معروف . .

في هذا الجـو احسست انني رجـل شبـه ثقيل على من بيدهم امور القيادة وكـانت ظلال تلك الثقـالـة ترفـرف فوقي واحسهـا اينـما ذهبت لأنني مبتـل برهافة الحساسية كما يعرف القارىء وذلك لمجرد انني عراقي وابي عراقي . .

وبلغت المضايقات حدها عند لحظة تكاد تكون حاسمة وذلك فيما كان بيني وبين صديق صديقي «هشام» وهو «احمد الجنيدي» الذي سيصبح بعد ذلك وزيراً في حكـومـة الـوحـدة المؤقتـة مع الأسف والمحدودة، فقد كان منه وأنا في شبه نزاع عابر معـه، أن شهـر مسـدسـه عليّ ويـده على الـزنـاد وكـان ذلك خلال زيارة إلى طرابلس وفي احد الأديرة التي كانت محطتنا الأولى . . . ولولا تدخل الصديق «نخلة كلاس»

وهـو يفصـل فيـما بيننـا بأن يضـع صدره مكـان صدري لكنت أنـا في الأبدية . . . والحنيدي في السجن على أقل تقدير. . .

والمفـارقـة العجيبة في هذا الموقف انني كنت في صميم نفسي ومنذ اللحظات الأولى التي تعـرفت فيهـا على «الحنيـدي» من المعجبـين به وبقـوة شخصيتـه فإن تكـون هذه النهاية بعد تلك البداية فذلك من سخريات القدر ليس إلا . .

من هذه الظـروف ومن هذا الـواقـع . . . ومن منطلق انني الـرجـل الذي لا يسـاوم على المـواقف وبخاصة فيما يتعلق منها بالكرامة . . فقد بدأ العد التنازلي فيما بين هذه السنـة الثـانيـة وتلك الأولى يأخذ مجراه بسرعة وبحدة ، حتى حانت ساعة انفجـار الغضب المكبـوت في يوم الـذكـرى الثانية لاستشهاد «عدنان المالكي» وفيه كانت قصيدتي الثانية والأخيرة . . .

ترنحت من شكـاة بعـدك الـدار ... وهـب بالـغضب الخـلاق اعصـار
دمـشـق لم يأت بي عيش اضيـق به ... فضـرع دجـلة لو مسـحـت درار
وثـم لولا ضمـير عاصـم حفـر ... للمـغـريـات ولـلبـتـر ول آبـار
يا سادتـي إن بعض الـعتب منبهـة ... لغـافـلين وبعض الشعـر أشعـار
أنـا الـعـراق لسـاني قلبـه ودمي ... فراتـه وكـيـاني منـه اشطـار
لو شئـت وازن مثـقـالاً أقطّـره ... شعـراً من الـذهـب الابريز قنطار .

* * *

هذه القصيدة التي ما زالت تتردد على اكثر من لسان واكثر من شفة وبخاصة مقطعها . .

(دمشق لم يأت بي عيش اضيق به)

وعلى كل فقـد قررت داخليـاً وبعـد ان لملمت اشتـات نفسي ان اعـود إلى العـراق ، وبعـد ان القيت هذه القصيدة بأيام تشاء الصدف وانا اتسمع إلى المذياع ان حكـومـة «نـوري السعيـد» قد استقـالت وان وزارة جديـدة برئـاسة «علي جودة الايـوبي» قد شكلت على انقـاضهـا ، وسمعت من بين اسماء الوزراء اثنين او ثلاثة من اصـدقـائي القـدامى ـ أيام مقهـى حسن عجمي ـ وكـان منهم «عبـد الوهاب مرجـان» وزيـر الاقتصـاد «وعبـد الـرسـول الخـالصي» وزيـر العـدليـة وبعـد اقل من دقيقة

قلت لزوجتي «ام نجاح» وكانت معتادة على مواقفي المفاجئة والمغامره (شدّي حقيبة الرحيل) . . . انتم ستبقون هنا . . . وانا سأذهب إلى العراق . .

في اليوم الثاني ذهبت إلى الصديق «زيتونة» كي احصل على تأشيرة رسمية تسهل عليّ أمور السفر . .

وتقحمت المخاطرة الأولى الفاشلة ولغرض تمديد جواز سفري من عدوي السفارة العراقية ففشلت ولم احصل فعلاً على ذلك .

وخلصت منها لاقع في مخاطرة اشد ، ومع هذا فناجحة ـ وهي ان ادخل العراق وليكن ما يكون . .

ادخل العراق بعد كل ما كان مني سواء فيما كان من «خلفت غاشية الخنوع ورائي» أو من كوني كنت ضيفاً على أثقل مضيف لدى الحاكمين في العراق . . . ألا وهو الجيش السوري؟! . .

وحملت الخطر على اكتافي وفي أول قافلة تنطلق إلى العراق . .

المرحلة الأولى من هذه الرحلة الخطرة قد بدأت حين وقفت السيارة عند نقطة الحدود العراقية بين سوريا والعراق ، إذ علت الدهشة «دهشة الفرح» وجهي وجواز سفري «شبه المزيف» يتخلص من هذه الأكمة لأنتقل الى الأكمة الأخطر . المرحلة الثانية من هذه الرحلة .

فقد وصلنا الى الرطبة حيث يتم تفتيش الحقائب (الجمارك) وتدقيق جوازات السفر وختمها بختم الدخول الى العراق . ولشد ماكانت دهشة الشباب المسؤولين هناك وأنا أقتحم الدائرة الخاصة بهم وكأني طائر حط عليهم من السماء .

وفي غمرة الترحيب والتكريم . . . ومابين فنجان قهوة وكوب ماء وفي غمرة مراجعاتهم لجوازات السفر . . . خطرت لي فكرة ذكية وأنا على أبواب طريق بغداد . . . وقريباً من أهل بيتي . . . هي أن أتغافل عن أمر انتظار تسلم الجواز المعطل . . . مستغلاً بحق أم بباطل لطف ضيافة الشباب وفرط بشاشتهم لأطلب منهم سيارة أجرة . . . سرعان ماكانت تقف إلى جانبي وسرعان ماتبادلت معهم قبلات الوداع لتنطلق بي السيارة حتى لكأنني جئت هؤلاء الشباب زائراً لا أكثر . . . وتركت جوازي لديهم ودخلت بغداد . .

قلت : قريباً من أهل بيتي . . . ولم أقل قريباً من بيتي . . أو داري وقد يكون من باب المفارقات التي مرت أكثر من إشارة سابقة إليها هي انني وأنا في توالي

الخمسينات بل وحتى السبعين لم يكن لي في العراق كلها سقف يأويني أو يأوي عائلتي . .

توجهت إلى بيت شقيقتي «ام كاظم» وزوجها السيد «جواد الحصاني» المرحومين . . . وبينما كنت اتناول فطوري ولم يمض على ذلك اكثر من نصف ساعة وإذا بجرس الباب يدق . . . نهض صاحب البيت وفتح الباب وعاد وعلى وجهه بسمة مفتعلة ذات دلالات وقال :

لا تنزعج هناك شاب مؤدب من عائلة «الشكري» النجفية ينتظرك المدة التي ترغبها وبعدها تذهب معه إلى مديرية التحقيقات الجنائية . .

ولم يكن ذلك مفاجأة لي . . . ولم استغرب ان تعرف مديرية التحقيقات الجنائية خبر وصولي بهذه السرعة بل وعلى العكس من ذلك وكما ذكرت فقد كانت مثل هذه المفاجأة متوقعة لديّ في كل مدارج خطواتي ، ولم يكن مستغرباً في صباح اليوم التالي ان تطلع جريدة «الشعب» وهي من اشهر صحف العراق وقتها ـ وكان صاحبها المحامي المعروف «يحيى قاسم» لتعلن وعلى أبرز صفحاتها نبأ وصولي إلى بغداد وكأنها بذلك تنبه على انه «طرق المدينة شر عظيم» . .

لقد مهدت لهذه المجازفة ـ مجازفة الرجوع إلى بغداد ـ بكوني اعتمدت حصتي من هذه الوزارة الجديدة ، اما ورسول التحقيقات الجنائية على الباب ـ الآن ـ فقد استثمرت كل ما املك من بداهة وسرعة خاطر . . . ومباشرة اتصلت بالسيد «عبد الوهاب مرجان» وزير الاقتصاد ، دهش الرجل أشد الاندهاش حين سمع صوتي وقال :

ـ من اين تتكلم . .

قلت : من بغداد . .

قال : على الرحب والسعة انا قادم اليك فوراً . .

قلت : ومن باب المجاملة : لا . . . انا القادم اليك . .

واحكمت الموضوع بالقول لأهل بيتي . . . أنا ذاهب إلى مديرية التحقيقات الجنائية .فإذا تأخرت اكثر من نصف ساعة اتصلوا بالسيد «مرجان» ثانية وقولوا له :

«لقد استدعيت إلى مديرية التحقيقات وأنا في طريقي إليه» . . .

وصلت إلى مديرية التحقيقات الجنائية . . . ووجدت نفسي محاصراً أشد

حصار. . ومما لم اشهده في أي موقف من مواقفي السابقة مع هذه المديرية. . . إذ أحاط بي مجموعة من الضباط وبيدهم محضر تحقيق مفتوح على مصراعيه، الأمر الذي بدا لي وكأن التحقيق سيطول ويطول. .

ابتدرني الضابط الأول قائلاً:

قبل كل شيء يا سيد «جواهري» كيف وصلت إلى العراق. .

قلت: وصلت بالطريقة المعتادة والمألوفة. . عراقي بجواز سفر عراقي. . .

قال: واين جواز سفرك. .

قلت: إنه لدى مركز الجوازات في الرطبة. .

وهنا تبادل الضباط نظرات حائرة ذاهلة مغفلة. . . فقطعت حيرتهم متسائلاً:

وماذا بعد. .

قالوا: وبعد. . انت متهم بانك ومجموعة من الضباط السوريين ومعكم «خالد بكداش» كنتم تعدون للإطاحة بالنظام وقتل الملك والوصي على العرش و«نوري السعيد». . . .

الحقيقة انني كنت انتظر أية تهمة إلا هذه وكنت اتوقع كل سوء لهذه المديرية إلا هذا. .

كنت اتوقع وقبل كل شيء ان المشاركة بتأبين «عدنان المالكي» هي سبب استدعائي او تكون «غاشية الخنوع» المتروكة ورائي هي كبيرة الكبائر او يكون وجودي ضيفاً على الجيش السوري هو الجريمة المستدعى عليها. .

اما ان تكون التهمة هكذا فالحقيقة انني لم اجد بداً من الضحك والاستهزاء الذين كانا بحاجة إلى عدسة مصور لا إلى كاتب محضر. .

ومهما كانت هذه المسرحية غريبة الفصول وشديدة الوقع فقد كانت لدي مضحكة ولطيفة وباعثة على الاطمئنان لمجرد تفاهتها. .

قلت: عجيبة اموركم ايها السادة وعجيبة كذلك هذه التهمة وكذلك فامر المتهم بها. . . هل يعني انني لمجرد كوني ضيفاً على الجيش السوري ان اكون متآمراً وأكثر من هذا فهل لديكم مايثبت ذلك. . وأضفت وأنا أحاصر هؤلاء الضباط الذين يبغون محاصرتي:

انكم تعلمون حق العلم وبمحض اختصاصاتكم «الأمنية» وبخاصة

ملاحقـاتكم لتحـركـاتي، انني كشـاعـر وكـاتب وصحفي أكـاد أتميـز عن كل أمثـالي بمقـاومتي التـآمـر والمتـآمـرين وكل سوابقي التي تعرفونها بل التي هي مدونة عندكم ليست فيهـا سابقـة واحـدة من هذا القبيل في كل ما تعاطيت به السياسة وفي كل ما تعاملت به مع الساسة، فما معنى هذا الاتهام . . .

واضفت ايضـاً ونـا استمـد قوتي من ضعفهم : . . . انـا اتمـرد حقـاً واثـور واغضب لكنني اتمرد بالكلمة واثور بالقصيدة واغضب بهذا الموقف أو ذاك، وفي كل ثورة، في كل تمرد، في كل موقف غاضب اوقّع على انفعالاتي باسمي الصريح ولا أخاف او اتستر على ذلك.

ثم من قال لكم انني التقيت «بخـالـد بكـداش» . . . وهـو الذي اعتز بقدم صلتي معه . . «حقيقة» وقد تكون هذه الحقيقة من باب المفارقات انني لم التق هذا الـرجـل ولا مرة طيلة عامـين كاملين في سوريـة إلا مرة واحـدة لو صحت ان تكون لقـاء ـ فقـد كنـا في محفـل حاشد في ركن من القاعة وأنا في ركن آخر، إلا انه ذكرني يومها في خطابه ورحب بي اجمل ترحيب.

وخـرس المؤتمنـون على حيـاة النـاس ومصـائرهـم بعد كل الذي قلت . . . واقفلوا محضرهم ومع ذلك وجدتني شبه موقوف لما يزيد عن ساعة ـ خلالها ـ سألني احد المسؤولين منهم :

ماذا تحب ان تتناول من الغذاء يا سيد «جواهري» . .

وكأنه بذلك يشعرني اكثر فاكثر بحقيقة توقيفي وبطول عهده . .

فأجبته بمرح يشبه السخرية . . . سوف اتناول الغداء في بيتي . .

وبعـد هذا الجـواب بدقـائق جاء إليَّ نفس الـرجـل الذي سألني عن الغداء ليقول لي : يا «جواهري» انت مطلق السراح . .

قلت له : والغذاء . .

قال، وكأنـه صيـاد ماهـر أفلت من شبـاكـه طير جميل : إذا كنت أنت ممن لا تتدخل الحكومة في أمرهـم فمن عسى أن يكون؟! . .

عدت إلى البيت وعـرفت بعـدهـا ان فكـرتي اتت ثمـرها، فقد اتصل احد افـراد العـائلة بالسيد «مرجان» وبدوره اتصل بصديقي وصديقه السيد «الخالصي» فكان ما كان . .

وبعد هذا وجدت من الضروري ان اقوم بزيارة السيد «مرجان» التي وعدته

بها صباحاً زائداً واجب الشكر على موقفه مني . . .

ومن باب التأكد من موقع منزله توجهت إلى صيدلية في الحي كي يدلني تحديداً على المنزل وإذا بي اقع في مفاجأة ثانية لم اكن أتوقع حدوثها اطلاقاً . .

فما إن خطوت الخطوة الأولى باتجاه الصيدلية الا وبسيارة يترجل منها شاب وبيده هويته التي تشير إلى انه من التحقيقات الجنائية قالاً :

تفضل معنا استاذ «جواهري» . .

قلت لهذا الشاب بكل هدوء ووداعة :

- هل تستطيع انتظاري ريثما اقوم بواجب هذه الزيارة وبعدها لك ما تشاء .

قال : تعرف اني عبد مأمور ولا استطيع ان البي طلبك وارجوك ان تتفضل معي . .

«وتفضلت» معه وأنا غاضب أشد الغضب متناسياً براءة هذا الرجل وصدق نيته في تأدية الواجب وتنفيذه للأوامر . . .

اوصلني هذا الشاب إلى الضابط المسؤول في مديرية التحقيقات الجنائية ، فدهش الرجل وتلقاني بكل ترحيب وبشاشة واستغراب ايضاً ، وتساءل : . . . لماذا انت هنا؟

وبكل سعة صدر تلقى غضبي واستوعب انفعالاتي الموجهة إلى ذلك الشاب ، وبعد ان افرغت كل ما في صدري ، قال لي «وقد أمر الشاب بالخروج» : يا أستاذ «جواهري» . . . ليس العتب على هذا الشاب المأمور بل علينا ، فقد كنا ابلغنا كل الأطراف المسؤولة في بغداد وجوب تعقب وصولك وساعة قدومك والقبض عليك . . . ثم ما لبثنا ان اصدرنا أمراً آخر بعدم التعقب والملاحقة ، ونسينا ان نبلغ هذه الأوامر لمنطقة «كرادة مريم» التي شاءت الصدف ان تكون فيها والأمر غير ملغي لدى هذا الشاب فاعذرنا . . . وودعني الرجل بكل لطف . . . وندمت على شتمي ذلك الشاب ، واعتذرت اليه . .

«ثم قمت بالزيارة المطلوبة» . . .

مـــزارع من جـــديد

للقــارىء حق السخـريـة من وضعي السابق كمزارع فاشل. . لأنني والحق يقــال لم اخلق لعمـل كهـذا ولـه الحق ان يسخـر ايضـاً وانـا اخلف هذه المـزرعـة بمضخاتها وفلاحيها ورائي نهبة الناهبين دونها تفكير وبلا مبالاة . .

ولـه حق السخـريـة كذلك وهويراني الآن عائداً إلى هذه الأرض الجرداء في محاولة لاخصابها من جديد وفي محاولة للعيش من ورائها . .

ويـذكـر القـارىء انني حصلت على قرضـين لشـراء مضختين الأول تكفله «نـوري السعيـد» والـوزيـر بلا وزارة لديه ابن عمتي (علي الشرقي) والثاني بوساطة «خليل كنه» وزير المالية وكنت آخذ من كليهما مصروف الجيب والبيت واترك الباقي لمصاريف المضختين.

أما الآن وقد عدت من «غاشية الخنوع» إلى «غاشية الأرض» فقد خطرت لي فكـرة استغـلال هذه الأرض بالتحـايـل ـ ومن خلال الحصـول على قرض زراعي ثالث وقد ساعدني حظ الزمان والمكان في هذا . . . المكان ان ارض مزرعتي جرداء والزمان ان «علي ممتاز» هو وزير للمالية وكان ما كان من علاقتي بهذا الرجل وما ذكرته عنه في الجزء الأول من ذكرياتي وكيف انه قلما تشكلت وزارة إلّا وكان فيها . .

أما الآن وقد وجدتني مزارعاً واقطاعياً صغيراً فإن الأمر هنا مختلف وقلت ما عليّ إلا ان ازور هذا الرجل . .

توجهت اليـه وبحـديث دقيق ومكثف ومختصـر كان مني وبعـد أقـل من أسبـوع واحـد تسلمت سلفـة زراعيـة بألفي دينـار وهي بالعملة العـراقيـة مايـزيـد على ستـة آلاف دولار (في تلك الأيام).

واتصلت بالرجل لاشكره فاستكثر شكري هذا وقال:

ـ لماذا تشكرني كدت أقدم استقالتي لأنني طلبت لك مبلغ أربعة آلاف دينار.. ولأول مرة في حياتي لم يستجب لطلبي..

وسيأتي الحديث الأليم عن العهد الجديد الذي اسموه بالحكم الجمهوري «المرتجل» والكاذب والفاقد هويته منذ اسبوعه الأول، وعما كابدته خلاله انا ومن معي وفي الصميم من ذلك وأنا أطالب بهذه السلفة وبغيرها..

ومهما كان الأمر فقد عدت إلى الأرض أياماً معدودات تفقدتها قليلاً ثم غادرتها إلى دمشق لأودع جميع اصدقائي ورفاقي في المجلة وعلى رأسهم الصديق «زيتونة» ولأعود وجميع افراد عائلتي إلى بغداد..

في بغداد استأجرت بيتاً جديداً كما هو المألوف والعادة وفي الأعظمية أيضاً..

وفي هذا البيت وبعد شهور معدودات كان اول زعيم جمهورية ولأول مرة في تاريخ العراق يزور هذا البيت. من هو هذا الزعيم الذي يتوقعه القارىء؟ ذلك مما سيأتي تفصيله في فصول لاحقة..

الفصل الثالث

أنا صنو يومك في كفاحك محرب
شاكي العزيمة، أعزل، متقحمُ
آب الهضيمة واستباح هضيمتي
فيما استباحك أحمق متجرم
ألوى بمن عندي وعندي صفوة
هي من أبيه، ومن ذويه، أكرم
ورمى بهم خلف الحدود كأنهم
بُرُدٌ إلى الأمصار عجلى ترزم
واشاع لحمي للذئاب ولحمهم
وحمى لحوماً بالنتانة تزخم
ودعى الجباة إلى حطام حويشة
لتباع ملحفة ويشرى محزم
وتفرج المتفيقهون فلا دم
يغلي، ولا قلم يذود، ولا فم

أنا والتاريخ

قبل ان ادخل في سرد تفاصيل ثورة ١٩٥٨ ، وقبل ان اتعرض لمجريات احداثها ودلائل تصرفاتها ومعاناتي معها . . ومنها . . . وقبل ان اصل بالقارىء الكريم إلى جرائرها على البلاد ، وعليّ ، وعلى حياة الكثيرين ممن ظنوا انهم الأقدرون على التكيف مع الاجواء الانقلابية . .

أود أن أوضح . . . أنني لست متعصباً لشخص ولست مؤيداً لمرحلة ولا يهمني الآن وانا في عام ١٩٩٠ . . ان ذلك الشخص قد احسن إليّ ، أو ان ذاك أساء . . .

ولا يهمني كذلك انني كنت قريباً من ذلك الملك والأمير أو هذا الزعيم أو ذاك المسؤول أو غيره ام بعيداً عن هذه الشخصية التاريخية او تلك . .

ما يهمني هو ان اكون صادقاً مع الأحداث ـ كما عهدت نفسي ، وان اكون اميناً للوقائع كما علمني التاريخ الذي لا يغفر للمحرفين زلاتهم . . . وببساطة يطردهم من سجله . .

ومن هذه النقطة تحديداً استطيع القول : . . . إن الكثيرين كانوا قد كتبوا عن هذا الانقلاب «الثورة» وان كل واحد من هؤلاء كان انما يكتب وفق اهوائه ومواقفه ومصالحه من هذه الثورة وزعيمها . . !!

ولأنني واحد من شهود العيان فيها ، والقلّة في هذا المجال لاسيما وانني عشت وشاركت وتفاعلت مع احداثها وبخاصة فمع زعيمها ابان الثورة وقبلها بعشر سنوات واكثر من ذلك فقد كنت الوحيد الذي قرأ الفاتحة عليها وانا اسمع اسماء الوزراء في وزارتها لأعود بعد قليل واكون احد المهوسّين والمهووسين لها . .

لقد وجدت لزاماً عليّ ان ارتب الأحداث بحسب تواريخها وان احللها بحسب دوافعها وان انظر اليها بعين الحياد واكتبها بامانة لمن فاته ان يصل إلى الحقيقة الكاملة ولاجيال قادمة لا شك انها ستكون متعطشة لحقائق تاريخها الغابر . .

صحيح انني لا اكتب هنا بمنهجية المؤرخ ولكنني اكتب برؤية من وعى الاحداث وقناعة من شارك فيها . . ، وتحليل من خبر خلفياتها . . ومن اجل هذه الخاصية وجدتني ايها القارىء الكريم اجهد نفسي كثيراً وانا صاحب الذاكرة القوية جداً حتى هذه اللحظات لأدقق في التفاصيل والتواريخ وقراءة المتناقضات مما كتبه الكثيرون وبخاصة اولئك الذين يسمون انفسهم «بالضباط الأحرار» .

وبين هذا وذاك رحت انقّب وابحث واراجع واتابع من خلال من قدموا خدماتهم لي مشكورين في هذا المجال لأنني ويعرف القارىء ممنوع عن القراءة الآن ، حتى وصلت إلى قناعة تؤكد ان عليّ ان اعيد كتابة التاريخ بوقائعه وحقائقه لا بشخصيات كاتبيه وتطلعاتهم ومصالحهم واهوائهم ولذلك آثرت ان اكتب هذا الفصل عن الظروف والعوامل التي توافرت لقيام هذه الثورة ملقياً بعض الضوء على الواقع الذي كان يعيشه العراق في هذه الفترة وقبلها مؤجلاً الحديث عما يخصني في صميم هذه المرحلة إلى فصل لاحق . . .

عِـــراق ماقبـــل الثـــورة

يعرف القارىء الكريم ان العراق يتكـون من عدة شعوب وعدة ديانات . . كما يعـرف وقـد مر ذكـر ذلك . . ان الصراعات السياسية وحتى الطائفية لم تهدأ يوماً منـذ ان اقـام العـراق دولتـه عام ١٩٢١ . . وقد تحدثت عن الاضطرابات الحزبية والسياسية والصراعات النيابية واخبار الانقلابات فيما سبق من هذه الذكريات غير اني استطيع ان أضيف هنا . . . أن هذا الشعب الطيب الذي يعيش على أرض العراق لم يرزق عبر تاريخـه المعـاصـر من يستطيـع انتشـالـه من واقع التخلف والصراعات المريرة التي تعود في معظمها إلى حب الظهور واستلام المناصب . .

وحتى انه لم يوفق باحزاب تستطيع رغم شعاراتها البراقة ان تطوي الزمن في سبيـل رقيـه وحضـارتـه حيث كانت تلك الأحـزاب معنيـة بمصـالحهـا وبالحفاظ على مكاسبها تاركة هذا الشعب لقناعاته المتوارثة وحياته اليومية الصعبة واستطيع القول هنا :

ان السنوات السبعة والعشرين التي اعقبت الاستقلال الرسمي بل الاسمي للعراق يوم دخوله عصبة الأمم عام ١٩٣٠ / والتي سبقت ثورة ١٩٥٨ / لم تحقق له إلا النـزر اليسـير من تطـور اجتماعي اوتكوين وحدة سياسية ووطنية او خط واضح لمفاهيم الوحدة الوطنية بكل قومياتها وبمثل ذلك فبمفاهيم القومية العربية كما انها لم تقدر ان تستل منه خيوط ولاء الحاكمين للاجنبي ولا دفائن الأحقاد فيما بينه وبين جيرانه . .

ان الفـترات الحـرجـة التي سبقت الثورة ـ كان نوري السعيد خلالها يهيمن على حياة البلاد السياسية بشكل غير مسبوق حتى في الفترات القليلة التي كان لا يؤلف فيهـا هذه الـوزارة اوتلك . . . انـه خلق تلك اللعنة الموروثة ، التي اعجزت

خلفاءه عن اتباع سياسة خاصة بهم . وكان حكم «نوري» استبدادياً قضى خلاله على كل نشاط سياسي وهو يعتمد على دعم الجيش وعلى كفاءة اجراءات الأمن مقللاً من شأن السخط الشعبي . .

ومع ان تلك الفترات كانت فترة نشاط اقتصادي متعاظم والفضل فيه يعود إلى بداية تدفق عائدات النفط ، فلم يكن هناك تقدم يذكر في مجال الاصلاح الاجتماعي واتخذت السياسة الخارجية منحى بريطانيا اشد يدفعها في ذلك الخوف من تغلغل الاتحاد السوفيتي . وتوترت العلاقات مع مصر . غير انها كانت علاقات ذات طبيعة اعتبارية اكثر من كونها اعتدائية . . وغدا الاحساس بفساد «البيروقراطية» اكثر حدة . .

لقد عزيت ميول «نوري» الاستبدادية تلك إلى أسباب شتى ، إلى طبعه ومزاجه وتدريبه العسكري في مرحلة الرجولة المبكرة وإلى تجاربه في سياسة العشرينات العراقية ، أو ربما إلى اعتقاده بأن تصوره لعراق مستقر مرفه ذي نفوذ منحاز للغرب لن يصبح حقيقة واقعة إلا بحكم رجل قوي ، وهكذا ومروراً بكل المراحل المتعاقبة ، ففي منتصف العام ١٩٥٤ وبعد عودته إلى الحكم على اثر فترة من الاضرابات وضع هذه الاعتبارات في صيغة اشبه بغطرسة المخطط الأول إذ اشترط لعودته ان تطلق يده للتصدي للصراعات الحزبية ، وفقاً لطريقته الخاصة . ووجد البلاط الملكي والسادة المخضرمون هذا الشرط أسهل قبولاً من السكوت على معارضة خاطفة شبه حقيقية حتى وان كان ذلك في أعقاب مجلس نيابي نادر من نوعه يسمى بالمجلس ذي اليوم الواحد . فجاء بمجلس آخر بانتخابات روعي فيها اشد رقابة عرفتها البلاد في أية انتخابات اخرى . .

وهنا يحق ان اثبت ما عشته شخصياً وفي هذه الفترة بالذات بما جاء به السيد «مجيد خدوري» في كتابه «العراق المستقل» الصادر في لندن :

«لقد تم القضاء على حرية التعبير فأسكت السياسيون والكتاب والمواطنون الواعون باجراءات تعسفية لم يسبق لها مثيل ، وغصت السجون ومعسكرات الاعتقال باناس مختلفي الاتجاهات . . . من شيوعيين إلى ليبراليين إلى اشتراكيين إلى ناصريين إلى كرد قوميين إلى ساخطين على الوضع بصورة عامة ووضع جانب منهم تحت الرقابة بابعادهم عن مسقط رأسهم وشمل القمع كل قطاع . .

وفي هذا الكتاب نقاط هامة مشتركة بين ماذكرته عقب انتكاس الوثبة، يلتقي بها الخدوري معي.

إن أي سياسي آخر ليس في مستوى نوري وقوته وخبرته لايسعه أن يتوقع أن هذه الأحزاب المعارضة ما تلبث أن تتبخر وتتلاشى لمجرد قرار باهدار شرعيتها. ولهذا فقد كان امتحان نوري السعيد لهذه الاحزاب واختباراته العديدة لها. وأخيرا فاستهانته بها كان أمراً واضحاً. . ووجودها سراً لم يكن ليزعجه بعد أن خلص مما كان يعتبره تدخلا منهم يعرقل تقدم البلاد. هذا المزيج من التشدد مع المعارضة العلنية وعدم تحملها، وما يقرب من التغاضي عن المعارضة السرية، بالإضافة إلى الشكوى من سياسته، . شجعت اعداءه في العراق على تشكيل جبهة ائتلاف وكان تحريم النشاط الحزبي عوناً للمؤتلفين على تناسي الانقسامات والنزاعات . . باعتبارهم جبهة معارضة قانونية . . وقد امن لهم سلطان «نوري» المطلق نشاطهم وضمن الديمومة لهم إلى حد ما . .

وعلى هذا شعر الجمهور بولادة جبهة الاتحاد الوطني في العام ١٩٥٧ عن طريق النشرات التي توزع خفية وتكونت من أحزاب أربعة معارضة هي «الحزب الوطني الديمقراطي والحزب الشيوعي العراقي وحزب البعث وحزب الاستقلال». وإذا كان الحزب الديمقراطي الكردستاني لم ينضم إليها إلا بعد ثورة ١٩٥٨، فقد كان ناشطاً فيها أيضاً من خلال تحالفه مع الحزب الشيوعي. هذه الجبهة مثلت الأحزاب الخمسة التي ساعدت في تكوين عراق «قاسم».

كانت حركة (الضباط الأحرار) وهنا استشهد بما جاء في كتاب «اوريل دان» لأن ماجاء في هذا الكتاب بخصوص هذه المرحلة، أي مرحلة قبيل الرابع عشر من تموز. ينطبق أشد الانطباق على الواقع، وهو مارأيته موافقاً كل الموافقة لما عشته بكل معنى المعايشة لما بعد يوم الرابع عشر من تموز. . إذ جاء في هذا الكتاب في الصفحة /٣٢/.

(كانت حركة الضباط الأحرار في قيد الحياة منذ العام ١٩٥٢/ على اقل تقدير وبعد ان زودت مصر جيش العراق كما زودت غيره بالفكرة القائلة. . أن أي نظام فاسد يمكن ازالته بسهولة نسبية وبمساندة جماهيرية ضخمة. .

وعلى اي حال كان بوسع الحركة في مصر ان تتغلغل في صفوف طبقة ضباط بسطاء لا خبرة لهم في السياسة وبفضل شخصية زعيم واحد لا غير بقوة استمرارية

دافعة وعبقرية فذة في كسب الولاء لنفسه لكن الحال كان مختلفاً في العراق فقد وجدت عدة مجموعات بصورة مستقلة بعيدة بعضها عن بعض استقطبت في عين الوقت داخل وحدة عسكرية معينة وتكاثرت في جو من الوعكة الصحية بميل الضباط العراقيين إلى النشاط التآمري وتجربتهم فيه . . شد ما بينهم رباط وثيق سداه ولحمته التهديد الدائم بافتضاح أمرهم وما سيصيبهم من خزي جراء ذلك . . . وضرورة تحقيق صلة مع الساسة المعارضين المقتنعين باستخدام الجيش في هذه المهمة . .

هذه المجموعات التي تأثرت بتطورات المنطقة الهامة او ربما لأنها بلغت درجة كافية من النضوج السياسي ما لبثت ان انتظمت مبدئياً وبالتدريج في مجموعات ثلاث ثم باثنتين واخيراً بحركة الضباط الاحرار الموحدة . . .) .

وهنا اكتفي من هذا الكتاب بما انا في غنى عنه من تعداد مجموعات الضباط الذين تآلفوا واختلفوا مع عبد الكريم قاسم في التمهيد ليوم الرابع عشر من تموز بالرغم من انني قد تعرفت بشكل اوبآخر إلى الكثير منهم تحاشياً مني لما كتبه كثيرون عن ذلك مكتفياً منه بما جاء من اللحظات الحاسمة حيث يقول :

(وفي ساعات الرابع عشر من تموز الأولى وبعيد منتصف الليل بلغ رتل اللواء «كاسل بوست» وهي محطة قطار فرعية تقع بحدود ثلثي المسافة بين جلولاء وبغداد . . واستبق العميد «حقي» متوجهاً إلى الفلوجة بقوة المقدمة في حين ترك بقية اللواء ليلحق به على مهل وقد تأكد بعدها ان العميد انطلق في طراد لا مبرر له زينه له ضباط ركنه وسهل غيابه الشروع في العملية التي تم التهيؤ لها بالتفصيل أثناء ما كان المقر العام في بغداد منهمكاً في تعيين مواعيد الانتقال إلى الاردن . . . في حدود الساعة الثالثة فجراً من / ١٤ / تموز اعلن العقيد عبد السلام عارف آمر الفوج الثالث توليه قيادة اللواء العشرين باسم الضباط الأحرار يعاونه في ذلك العقيد «عبد اللطيف الدراجي» امر الفوج الأول واحد المتقدمين في حركة الضباط الاحرار وجرى اعتقال آمر الفوج الثاني الذي رفض التعاون معهما . . . في الوقت عينه وصل «كاسل بوست» ضابط ارتباط من خلية الضباط الاحرار قادماً من بغداد لم يكن هذا إلا المرافق الاقدم «لنوري السعيد» المقدم «وصفي طاهر» وباشر العقيد عارف في اصدار الأوامر وتوزيع الواجبات وما ازفت الساعة الرابعة حتى كان اللواء في طريقه إلى قلب العاصمة الهاجعة وما احتوته بغداد حتى انتشر وفقاً للخطة . .

فاحتــل الفــوج الأول الضفــة اليســرى من دجلة وفيهـا بغـداد الكـبرى وبمسـاعـدة الضبـاط الأحـرار في حامية بغـداد تم احتـلال مقـرات وزارة الدفاع وبضمنها مقر رئاسة اركان الجيش، ودائرة البريد والبرق المركزية وغيرها من المراكز الحسـاسـة بسرعة . . وتمت السيطرة بسهولة ايضاً على معسكر «الرشيد» الذي يقع على الطـرف الجنـوبي الشـرقي من بغداد والمطار العسكري المجاور والقي القبض على الفـريق «رفيق عارف» رئيس اركـان الجيش الـذي كان يغـط في نومه في منزله داخل معسكر «الرشيد» . .

إلا ان الأهـداف الـرئيسيـة كانت في الضفـة اليمنى وقـد احتفـظ عارف لنفسـه ولفوجه بمهمة تصفيتها اولاً وفي المقدمة كان «قصر الرحاب» وهو بناء متواضع بعيد عن الفخـامـة يقوم على رقعة من الأرض تجاور الطريق العمومية إلى الغرب وعلى مسافة قصيرة من ملتقى الطرق حيث كان مقرراً ان يواصل اللواء العشرون اتجاهه نحـو الاردن بعـد دورانـه حول المـدينة . . هذا القصر فضله الملك «ولي العهد عبد الالـه» للاقـامـة على قصـر الـزهـور «البلاط الملكي» وكان المؤتمرون يعلمون انهما يقضيان ليلة ١٣ ـ ١٤ تموز في ذلك القصر قبل رحيلهما إلى تركيا صباح ذلك اليوم المبكر بصحبة رئيس الوزراء لحضور اجتماعات تتعلق «بحلف بغداد» .

من اهداف عارف «الأخرى منزل نوري السعيد» الذي يقع على ضفة النهر جنــوب جسـر الملكـة عاليـة ثم دار الاذاعـة ومقـر قوة الشـرطـة السيـارة ومعسكـر «الـوشـاش» المجـاور لقصـر الرحاب حيث مدرستا المشاة والمدفعية ومخازن السلاح والاعتدة الرئيسية ومقر وحدات الدروع الرئيسية ومطار بغداد . .

قبـل السـاعـة الخـامسة بقليل عبر الفوج الثالث جسر الملك فيصل الذي لم يكن محروساً اطلق عليه فيما بعد «جسر الاحرار» تيمنا بالحادث .

بعد ذلك تفرقت و حدات الفوج للقيام بالواجبات المنوطة بها واستسلم المقر العام لقوة الشرطة السيارة مرغماً بعد التهديد وارسل رجاله في اجازة .

ولم يكن صعباً السيطرة على معسكر «الوشاش» فقد كان رئيس الخفر آنذاك النقيب «عبد الستار سبع» من الضالعين في المؤامرة واختار عارف دار الاذاعة مؤقتاً بمثابة مقر له وهيأها لاعلان «الثورة» للشعب وللعالم . .

لم يكن في الدار حرس ينتظر منهم مقاومة والمدنيون . . إما مطيعون خانعون واما متعاونون متحمسون وتم احتلال مطار بغداد دون مقاومة .

كان ما كان بعدها من احتلال قصر الرحاب وقتل جميع من فيه وانتحار «نوري السعيد» . . .

(وما أن حل وقت الظهيرة حتى راحت الموصل تردد هتافات بغداد لمناصرة الجمهورية ولم تسجل حادثة معارضة مدنية او عسكرية واحدة . .

وفي آخر ساعات الصباح دخل الزعيم (العميد) الركن «عبد الكريم قاسم» العاصمة بوصفه القائد غير المنازع فيه للثورة ورئيس الحكومة واتخذ وزارة الدفاع مقراً له .

ها قد انهارت الملكية بكل من له عين فيرى . هوت وكأنها بيت من ورق) .

هذا ماأحببت أن أقدم فيه فصل ثورة ١٩٥٨ للقارىء الكريم لأدلل على ان ما حدث يشبه الانقلاب . . وليس له اية علاقة بتسمية «الثورة» التي ارى انها لم تحن بعد . .

واني لأستغرب كيف يمكن أن تسمى الأشياء بغير مسمياتها . . . واستغرب كذلك ان هذه الخاصية موجودة في الوطن العربي اكثر بكثير مما هي موجودة في اقطار وبلدان اخرى . .

وستأتي التفاصيل التي بمجريات احداثها تشير . على ان ماحدث كان نتيجة انقلابات فردية وهو في كليته لا ينتسب باية علاقة للاصالة الثورية وتجذرها في الفكر الاجتماعي ولا يرتبط بالمصير الاجتماعي والطموح البشري . .

آملاً ان اكون غير متطرف في آرائي الثورية وقناعاتي برجال الانقلابات . .

الهـــاويـة الثـــانيـة

قبل ان اصل بالقارىء الكريم إلى معترك الصراع مع الاحداث والقرارات والمواقف التي توالـدت من خلال هذه المسـيرة القصيرة في تاريخ العراق، لا بد لي من الاعتراف . .

إنني انسـاق ببراءة وراء كل ظاهـرة او ثورة او انقـلاب او حركة او انتفاضة، تحمل في ظاهرها شعارات الولاء والانتماء إلى الشعب وهذا ما لا اريده لأي شاب محكوم بمحاسبة ذاته على الأخطاء ولا لأي رجل يخاف من الضمير ويخشى محاكمة التاريخ .

كنت انسـاق بعفـويـة وبـراءة مع كل من يملك نفساً ثائرة مندفعة، وفي كل وثبـة او انقـلاب او انتفـاضـة كنت اتخيل نفسي في مقدمة الجموع الزاحفة إلى مجد الجماهير ليدفعني هذا التخيل إلى تجسيده موقفاً متسرعاً «عملياً وشعرياً وسياسياً» وهـذا ما حدث مع حركـة «رشيـد عالي الكيـلاني» وانقـلاب «بكر صدقي» وتبعاته والاثمان الباهظة التي دفعتها وقد مر ذكر ذلك في الجزء الأول من هذه الذكريات . وأحداث متشابهة وقعت في العراق وخارج حدود العراق أيضاً .

وحتى هذه اللحظة لا املك ارادة الحياد تجاه احداث كهذه! وكنت وما أزال ابارك بكل عفوية كل حركة تحمل في شعاراتها واحدة من الآمال التي تعتمل في صدري .

لم استفـد من تجاربي وخيبـات امـلي ولم اتعظ من ذاتي وقد حاسبتها بأشد ما استطيع وبأشد مما تستطيع من وسائل على سقطاتها واندفعاتها وتهورها وسرعة اتخاذ قراراتها . . وإلى ذلك فلم استفد حتى من «الندم» الذي عانيت منه الكثير ولا من

«الكفارات» التي كنت ادفع ثمنها غالياً من اعصابي . . ولا من العذابات النفسية التي كنت اتصارع معها في لحظات ارق لا اشد ولا اقسى منها .

وها أنذا اعيد الكرّة والخطأ وارمي بنفسي مختاراً إلى التهلكة . . واناديي إلى التيار كي يأخذني إلى حيث لا ادري . . . وأمضي بذاتي إلى مواقع اجهل مستقبلها ولا اعرف خصائص ضمائر اصحابها، وبكل عاطفية المحروم من معايشة عوالم الحضارة والمجتمعات الراقية .

رحت ابارك ما كنت اعتقده خلاصاً . . وما كنت احسبه انتهاءاً تحررياً . . وما كنت اظنه القيم التي قدمت لأجلها دماء اخي «جعفر» وحريتي وحرية «فلاح» و «فرات» و«كفاح» وها نحن الآن ومن جديد مع المئات والألوف من شباب وشيوخ العراق ندخل معتقلات لا ينتمي جلادوها إلى شيء من عوالم الثقافة والوعي والحرية ولم يتعلموا ابجدية الوفاء للأرض والتفكير بحاضرها ومستقبلها ولا لمن عليها .

لقد كان ما كان من محض اعتقاد عابر ولكن هل يمكن ان ينقذ الاعتقاد والتكهن موقفاً؟ .

وهل تخلّص القناعة غير المرتكزة على يقين ضميراً من عذابه . . ؟ أفلا يستطيع المرء ان يتعلم من اخطائه؟ . .

حقيقة انا اضع نفسي هنا في موضع لا احسد عليه والاصح انه وضع يرثى له وحسبي من ذلك انني حتى الآن لم استطع الاجابة على كل تلك الأسئلة، وكل ما استطيع قوله هو انني لا اريد لغيري ان يكون مثلي في النكسات والخيبات والنكوص .

ما اريده ان تكون هذه الأحداث درساً لمن اراد لنفسه ان تكون ذات شأن .

فالاندفاع والتهور وبراءة الموقف في القضايا الكبرى والعاطفية والتسرع والارتجال كلها صفات تودي بالمرء إلى المرارة في مجتمعات تتشابك فيها قبل اي شيء الاحقاد والحزازات والمصالح والعلاقات المتشابكة الغامضة .

وهو ما لا اريده لأي قارىء مهما بعدت المسافة بيني وبينه . . ومهما طال الزمن بين كتابة هذه المذكرات وقراءتها .

تـــاريـخ وموقفـــ

ليتني بقيت في «علي الغربي» وأجوائها المشحونة بالمتاعب لكنت بقيت في منجاة من محاكمة الضمير التي عاودتني بعنف بعد هذه المرحلة وانا الذي لم يخلص بعد من الهاوية الأولى وتبعاتها النفسية . .

قبل هذه المرحلة كنت احد الرجال القلائل الذين يحاكمون انفسهم ويلجأون إلى اشرف واعدل محكمة ألا وهي «محكمة الضمير» . . .

وكنت دائماً اتساءل . . هل يمكن للشعراء «وهم قلائل حتماً» الذين ابتلوا مثلي بحمل أعباء الناس وأثقالهم وأفراحهم وأتراحهم . . وممن عاشوا في العراق لا غيره بكل رواسبه ومخلفاته ومفارقاته ، هل يمكن لهؤلاء ان يكونوا بلا اخطاء ، وجرائر . . قد تحصى وقد لا تحصى . . .

أما الآن وفي (العهد الجمهوري) لا غيره ويا للعجب والأسف معاً فقد وجدتني وفي اقل من عامين ونصف محكوماً بأكثر من تهمة ومساقاً إلى اكثر من جريرة ومداناً باكثر من واقعة . .

صحيح ان الذي كان يجمعني بعبد الكريم قاسم «الزعيم» وما فيه من رباط شخصي قوي يمتد إلى عشر سنوات خلت وما كان بيننا في لندن من وطادة علاقة عميقة الدلالة رغم قصر فترة المعرفة . .

وصحيح ايضاً ان الرجل نفسه كان صادقاً معي كل الصدق واميناً كل الامانة ونظيفاً كل النظافة في حفاظه على تلك العلاقة وصحيح كذلك انه لم يصل مدني واحد في العراق إلى هذه الدرجة من الثقة والوطادة والعلاقة واستثني هنا العسكريين بعلاقاتهم الغامضة وظروف تكتيكاتهم الانقلابية . . وحرفتهم المرتبطة

بالمغـامـرات والمطامح الشخصية والانقلابات حتى وصل الحد به إلى انه اعلن وهو يفعل ما يقول: انني لا ارد طلباً «لفلان» . .

اضافة إلى انه كان يتتبع مواقفي الوطنية والاجتماعية وبخاصة الشعرية منها وكنت الوحيد الذي يناديني «بالاستاذ» امام اتباعه وغيرهم وفي اكثر من موقف . .

اقول صحيح ان مثل هذه العلاقة وبمثل تلك الظروف قد تشفع بها كان مني من مغامرات وفضوليات واخطاء إلا ان ذلك لا يكفي لتبرئة من عارك الزمن وسبر أغوار الرجال ومعايشة الأحداث، وأقسم أن لا يودي بقناعاته وأفكاره إلى التهلكة . .

الحقيقـة ان طلبـاتي كثـرت من اجـل النـاس إلى هذا الرجل وان كل تلك الطلبات كانت تلبى وسآتي على ذكر بعضها . .

ولا أجـد هنـا بداً من الاعتراف بان ذلك ربما كان مدعاة فخر واعتزاز ولكن ومع هذا فقد كان هناك مدعاة اسف لي ومدعاة ندم مني على سوء تصرفي إذ لم افكر يوماً ان اطلب من هذا الرجل طلباً شخصياً لي . . . وأي طلب لي سيكون مستجاباً حتماً ممن لا يرد له طلباً . .

على سبيل المثال لم اطلب منه وظيفة تخلصني من واقعي كصحفي فاشل حقاً ولم اطلب منصباً ينسيني واقعي السابق كمزارع فاشل . . ولم أطلـب منه أي طلب يرتقي بمكانتي عند نفسي او يرتفع بمستواها لديه .

واتسـاءل لماذا لم اطلب منـه بيتـاً وانا اعيش في بيت مستأجر . لماذا لم اطلب لأولادي أن يكونوا شيئاً يليق بمكانتهم ويساعدهم على مستقبلهم وهم في ريعان الشباب . . ولماذا ولماذا . .

، وقـد كان بميسـوري أن أطلب شيئـاً من هذا ان لم يكن كل هذا وكيف لا والطلب من زعيم لم يزر في بغداد سوى بيتي . .

كيف لا وابنتي «ظـلال» وهي اصغـر بنـاتي ولم يكن عمرها قد تجاوز التاسعة كانت تستـدعي على الهاتـف «عبد الكريم قاسم» في اكثر من مناسبة فيهرع إليها ملبياً كل طلبـاتهـا . . كيف لا . . ومعـرفـة هذه الـوطادة في العلاقة تجاوزت حدود العـراق لتقـول جريـدة «اللومـوند» الفرنسية العالمية والشهيرة في احد اعدادها وفي الأسبوع الأول او الثاني من قيام الجمهورية ما يكاد يكون بالحرف الواحد ان اقوى

شخصية لها الكلمة المسموعة لدى الزعيم «عبد الكريم قاسم» هو «الجـواهـري» . . وبمثل ذلك وبما لايقل عنه دلالة، ماكان من أمر الصحفي المبر ز والألمعي أنيس منصور وهو يقصد بغداد في عام ١٩٥٩م . حيث كانت معه المقابلة المنشـودة والثريـة بكـل ما سأل، وبكل ما أجبت، وليجعل من عنوانها وبالمانشيت العـريض : «قيـل لي لم ترَ العـراق مالم تر الجـواهري» وما أشبه الليلة بالقادمة عندما يلتقي بي الصحفي الكـريم السيـد أمين الأعـور في جريـدتـه النـداء في ١٩٦٣م وقد نجوت من مذبحة (شباط) مما ستأتي الإشارة إليه .

ولكن هل كانت النتائج بمستوى المقدمات . . وهل اثمرت هذه البداية من العـلاقـات بما يتـلاقى والنهاية وهل كان لي من كل ذلك ما يجنبني الاخطاء . . وهل جرت الرياح كما تشتهي السفن . . هذا ما سيجري تفصيله في فصول لاحقة . .

مَن هو عبد الكريم قاسم

وعـودة إلى حيـاة عبـد الكريم قاسم الخاصة ومدى مفارقاتها، وانفعالاتها، فلربـما أكـون قد أتيت بالشيء الجـديـد الذي لاأتذكر ان أحداً قد تطرق إليه فضلاً عما ينبغي من أن يُشـدد عليـه لما له من خطـورة وأهميـة، ألا وهو المرض شبه العضال الذي شاءت الصـدف أن اكـون اول الشـاهدين عليه في لقاءاتي معه بلندن قبل اكثر من عشر سنوات من ثورته حين كان يستعرض امامي فحوص الأطباء وكشوفاتهم وهو في معرض التشكي من وزارة الدفاع التي لا ترد ان تتحمل نفقاتها. . . واكثر من هذا وبعد اكثر من عشر سنين من ذلك فقد كنت من الشهود النادرة على عقابيل مرضه هذا وذلـك عنـدما قام وفد من الأطباء الكبار الذين استحضروا له من الاتحاد السوفييتي وطبعـاً فبكـل سريـة وتحفـظ بزيـارة خاصـة لي في بيتي بالأعظميـة بحكم الصلة الوثيقة بيني وبينهم حتى انني استثمرت وجودهم لاجراء فحص دقيق على ما كانت تشكو منـه زوجتي، كان هذا المـرض نفسـه حتى بعـد ان شفي منـه كما هو المفـترض ظل ينعكس على طباعه المتقلبة الغامضة احياناً وهذا ما غفل عن ذكره الكثيرون. وان هذا الـرجـل كان مؤمنـاً ويصوم عن قناعة ويترفع عن مظاهر البذخ إضافة إلى أنه كان احـد القـلائـل الـذين يستعملون الخطـط الـذكيـة لتصفيـة معـارضيـه. . وبـاستطـاعتي ان اسميـه الـرجـل المزدوج والمتناقض فهو السمح احياناً. . القاسي اخرى، الصدوق مرة، الغادر في غيرها، العنيد تارة المسالم والمتسامح تارة اخرى.

ما اعـرفـه عن «عبـد الكـريم قاسم» ناتـج عن احتكـاكي بهذا الرجل وعن خبرتي بالاشخاص ومواقفهم وعن تجربة معه في الحياة اليومية وفي العمل السياسي

واظن ان مثل هذه المعرفة ليست بحاجة إلى كتب ومؤرخين ومراجع لأن المعرفة عن قرب هي غير المعرفة عن سبل اخرى.

حقيقة كان «عبد الكريم قاسم» من اكثر اقرانه نظافة ومن اكثرهم وطنية ومن أشدهم انتماءاً للفقراء وهو من بيئة فقيرة انسحبت جرائر بؤسها على كل مراحل حياته.. كما انه عدو الاستعمار بكافة اشكاله والبريطاني منه بخاصة.. وكان متوقد الذكاء اضافة إلى انه يتمتع بشخصية قوية يتستر خلفها دهاء يعتمد في باطنه على تصفية الخصوم وتحطيم مراكز القوى بهدوء وذكاء واحتيال ايضاً.

أما عبد الكريم قاسم قبل هذا كله وقبل بداية تعرفي عليه حتى يوم نهايته واعني بذلك بداية حياته، فلا بد لي وانا في سبيل مدّ الماضي بالحاضر من الاستشهاد بمن لا تقل معرفتهم به وبخصائصه عن معرفتي به بعد ذلك وفي المقدمة منهم استاذه وصديقي الطيب القديم «شيث نعمان» الذي يقول عنه: ان عبد الكريم قاسم كان وهو تلميذ يتميز بانعزاله وانطوائيته وفقره وثيابه المهلهلة اضافة إلى أن هذا الواقع لطفولة هذا الرجل مشابه لما قال عنه مدير مدرسته الثانوية المركزية وآخرون ممن كانوا من اترابه في عهد صباه وفتوته.

فقد شدد كل هؤلاء على خاصية الفقر التي كان يعيشها.. هذا الفقر الذي يكاد يكون كفراً بل قل هو الكفر بعينه.. سينطلق عفريته من قمقمه المسحور بعد خمسة عشر عاماً من سني الدراسة ـ وقد اصبح هذا الفقير المعدم ذو الثياب المهلهلة حاكماً مطلقاً.. ليزحف زحف الذين كفروا على الأكواخ «والصرائف» وعلى كل ما فيها من التعساء وليحيلها شققاً وعمارات وبيوتاً ترى لأول مرة النور والكهرباء والحدائق والشوارع منتقماً بذلك من فقره وماضيه ثائراً على مرارة واقع البؤساء..

كذلك أرى ان ما ورد في كتاب «اوريل دان» المار ذكره، «العراق في عهد قاسم» من وصف لشخصية هذا الزعيم يتقارب كثيراً مما خبرته وعرفته حيث جاء في الصفحة /٣٦/ منه (كان معارف قاسم قبل ثورة ١٩٥٨/ بزمن طويل يصفونه بأنه عصبي المزاج سريع الاثارة، انطوائيّ، يصعب التكهن بما يبطن إلا انه يملك القدرة على ان يبدو ساحر الشخصية إلى درجة كبيرة).

(وترك «كفر قاسم» في معارك فلسطين ومعه سمعة الاداري الحازم والمكد، المثابر، المستقيم السريع الغضب...).

الزعيم الركن عبد الكريم قاسم

استطيع ان اضيف في هذا المجال ان واقع حال هذا الرجل وهو يعاني ازمات الفاقة وجرائر الفقر كان مشابهاً لواقع حالي شخصياً وهو ما ينسحب على كافة مراحل الحياة وعلى كافة المواقف وعلى كل القرارات التي تتخذ من قبل هذا الشخص او ذاك، غير انني استطيع التأكيد ثانية ان «عبد الكريم قاسم» كان يملك ضميراً حياً ونزاهة نادرة، وبساطة في اللباس والحياة والمأكل، مما جعله يضاف إلى قائمة المترفعين عن المظاهر والمكاسب وجاه الثروة وهو ما اغفله الكثيرون من الكتاب والصحفيين والمؤرخين. . . وأرا ها مناسبة للقول ان الكثيرين من هؤلاء لم يتعاملوا بنزاهة مع التاريخ ولا بامانة مع واقع حال هذا الرجل وكثيرون منهم كتبوا إما بدوافع سياسية او بدوافع شخصية او بدوافع مصلحية. . . الاسباب التي جعلت اكثرهم يبتعد عن الحقيقة. . . ولذلك لم اعتمد أحداً منهم وانا اكتب عن تاريخ هذا الرجل إلا القلة النادرة والموثقة. . . وكيف اثق او اعتمد على امثال هؤلاء وانا الذي خبرت هذا الرجل شخصياً وتعاملت معه على الصعيد السياسي حيث اصبحت في عهده نقيباً للصحفيين ورئيساً لاتحاد ادباء العراق. كما سيأتي ذكره. .

كذلك كيف أثق بهؤلاء العسكريين الذين كتبوا مذاكراتهم وبخاصة من سموا أنفسهم بالضباط الأحرار حيث ترى كل واحد منهم يؤرخ للأحداث ويكتبها بما يتناسب ومجده الشخصي. . إذ ترى بعضهم يفاخر انه العامل الرئيسي في انجاحها وآخر يكتب انه كان الرأس المدبر لافكارها وبين مذكرات هذا وهذا يضيع التاريخ وتختلط الحقائق وتنتفي الحقيقة أقول هذا علماً مني بأن الاستثناء يثبت القاعدة وكما (تستل الشعرة من العجين) كما يقول المثل، يحق لي ان استل من هؤلاء العابثين والمتهافتين زمرة قليلة نادرة ممن كانوا على طيبتهم ونزاهتهم وحبهم لعبد الكريم قاسم لحد المغالاة يكادون يضيعون. في جملة اضدادهم ممن مرت الاشارة إليهم وعلى سبيل المثال لا الحصر ومن العسكريين بالذات «عبد الكريم الجدة»، عبد الوهاب الأمين، وصفي طاهر، «ماجد أمين»، بل حتى العقيد «الشواف» نفسه في بادىء أمره. .

وعودة إلى المنافقين والمستغلين والعابثين بالتاريخ فليسمح لي القارىء ان اورد مثلاً عن واحد من هؤلاء ولن اذكر اسمه وبخاصة بعد ان لاقى ربه والمتابع لا بد سيتعرف عليه.

إذ كان هذا الرجال الذي اخذ حصته من حركة عبد الكريم قاسم أكثر بكثير مما يستحق رجعياً ويمينياً متطرفا ومدللا أيام العهد الملكي وقد تفاخر بمناصبه العليا إبان ذلك العهد ومعروف انه كان يتقرب بالنفاق والزلفى لرئيس اركان الجيش العراقي وقتذاك.

ليصبح بعد كل هذا وهو المعروف «بذي الوزارتين» سفيراً في احب بلد لديه على يد الذين قتلوا زعيمه.. وبعد كل هذا تراه يتوسل، وقد طرد من منصبه خلال السبعينات لدى المسؤولين العراقيين، الى الطلبة في هذا البلد الذي كان سفيراً فيه كي يساعدوه ويعاد تلميذاً ويكمل دراسته وما ذلك إلا إرضاء لشهواته وانعدام قيمه.

مثل آخر سأستشهد به للقارىء الكريم وارجو عذره من الاطالة في هذا المجال لأنني والحق يقال اكون في اشد الضيق وانا ارى من يشوه التاريخ ويكذب في رواية الأحداث و«عينك عينك» كما يقولون.

المثل الآخر مناهض ومناقض لذلك هو صديقي والضابط العسكري «نعمان ماهر الكنعاني» الذي فوجئت وانا اقرأ في غربتي ما يصل إليّ من كتاب وكتاب وصحيفة وصحيفة فوجئت أنه كان في الصميم من أولئك المخططين لما سمي بالثورة!.

لا لأن «نعمان» لا يستحق ان يكون في ذلك الصميم فهو من القلائل الذين احترم نزاهتهم واعرف خلوص نياتهم بل لأنني اعرف انه كان مرتبطاً ارتباطاً مطلقاً بالبلاط الملكي... فنعمان هذا والذي اصبح مستشاراً صحفياً لعبد الكريم قاسم كما سيأتي ذكره يتحدث في ذكرياته هذه بكل امانة ودقة ليخلص بلقطة فريدة هي بحد ذاتها بحكم مصداقيتها ومدى انطباق ما كان على ما سيكون اصح واوثق من كل ما كتب الآخرون حيث قال بالحرف الواحد. «اجتمعت الهيئة الجديدة في دار الرئيس الأول «حسن النقيب» وتداولت في الأمر ووزعت الواجبات في يوم ٨ ـ ٩ ـ ١٠ حزيران ١٩٥٨م وكان واجبي ان اعد البلاغات وعددها سبعة وقد اعددتها فعلاً وقدمتها إلى بقية اعضاء الهيئة.. وقد جاء في البلاغ الأول:

بالنظر لما آلت اليه البلاد من فساد الحكم في الداخل وابتعاد العراق عن سياسته القومية العربية واستهتار المسؤولين من رجال الدولة ـ فقد اخذ الجيش على

عاتقه انهاء هذه الحالة وعرض الأمر على جلالة الملك فتفضل جلالته وأمر بما يلي:
(أي ان تقرأ البلاغات الستة الباقية . . . وقد جرت مناقشات حول وجوب ابداء مشاعر الاحترام للملك).

ولهذين الاستشهادين حديث آخر ذو علاقة صميمة بأهواء عبد الكريم قاسم.

وكذلك اري لزاماً عليّ ان انقل اراء غيري في شخصية هذا الزعيم وما اكثر الذين كتبوا عنه في مذكراتهم وما أكثر ما تناوله الكتاب والمؤرخون والدارسون تحليلاً ووصفاً.

فلقد ذكر «جاسم العزاوي» سكرتيره الشخصي ان عبد الكريم قاسم كان حذراً ويشك حتى في نفسه وطالما نقل فنجان القهوة الذي يضعه الخادم امامه من مكانه إلى امام احد الضيوف خوفاً من ان يكون الخادم قد دسّ له السم.

ان ثقافته ـ ويضيف «الغزاوي» ـ محدودة ولذلك كان يشطح أحياناً في خطاباته وتعليقاته وكان يسد هذا النقص من ذكائه وتحمله المشاق، وهو شخص كتوم وحذر جداً لايختلط بأحد قبل الثورة. لا يدخن لا يشرب الخمر ولا توجد عنده جوانب خلقية سيئة كما يدعي البعض. وكان زاهداً في المال فلم يستغل منصبه لاقتناء الأموال والعقارات وانما جاء بملابسه العسكرية ومات بها ولم توجد له عقارات او اموال في البنوك سواء داخل العراق او خارجه سوى دينار ومائتي فلس في مصرف الرافدين.

كذلك كان نموذجاً للعناد وعدم المنهجية وانعدام العقيدة وكراهية روح النقد والمناقشة والادعاء بمعرفة كل شيء وهذا المزاج هو الذي أدى به إلى جانب عوامل موضوعية اخرى إلى التخلص من جميع المعارضين وخاصة العقائديين وتقريب التافهين والمصفقين والامعات والانتهازيين.

ومثل ذلك وبعيداً عن التحيز ماكتبه «نعمان ماهر الكنعاني» سكرتير عبد الكريم لشؤون الصحافة حين كتب يقول:

«عبد الكريم قاسم كان يحقد على القومية العربية منذ البداية، وان ما قيل ان اذاعات القاهرة ودمشق اثارت فيه هذه النزعة قول مردود فانه لا يميل حتى إلى سماع اسم العروبة.

وكان يصرح حول اخطر الأمور من دون تدقيق . . . واذكر انه في اول مؤتمر صحفي عقده في وزارة الدفاع يوم ٢٤ تموز ١٩٥٨ وكنت حاضراً فيه انه قال: «منذ تخرجي من الكلية العسكرية لاحظت ان الأوضاع تسير من سيء إلى اسوأ وصممت من ذلك الوقت على قلب هذه الأوضاع رأساً على عقب».

كما ان العقيد «عبد الوهاب الشواف»، يضيف نعمان ماهر ـ ويا لفظاعة ما يضيف ـ عندما جاء إلى بغداد واجتمع به في وزارة الدفاع فقد طلب اليه تأجيل عقد مؤتمر انصار السلم في الموصل لتجنب اراقة الدماء لكن عبد الكريم قاسم ومن باب الاستهانة بهذه الدماء الموعودة قطع عليه ـ على الشواف ـ نصيحته هذه وانذاره الخطير بذلك وفتح درج مكتبه ثم اخرج علبة صغيرة فيها ميدالية العودة إلى فلسطين وقال للشواف: لقد انشأت ميدالية وزعتها فعلاً وكتبت عليها «عائدون» وهذه الميدالية التي سوف نوزعها وعليها «عدنا» . . .

وعاد العقيد الشواف إلى الموصل دون نتيجة حتى لكأنه يعود إلى فلسطين.

كذلك كان يلجأ الى الدس وتفتيت القوى وتحريض البعض على الآخر وعدم التورع حتى عن افتراء والقاء التهم جزافاً ضد خصومه.

كان عبد الكريم قاسم يعرف الانكليزية وشيئاً من التركية والكردية وقد وصفه احد المراسلين الصحفيين الامريكيين الذي عرفوه فقال: انه زعيم غريب في البلاد العربية فهو لا يمتلك شخصية قوية تفرض نفسها فرضاً وهو خطيب غير لامع صوته رفيع ووقوفه على المنبر قلق، لكنه رجل حالم مترفع في سلوكه ويحاول ان يحصل على ثقة الناس جميعاً.

حكم العراق اربع سنوات ونصف السنة وقد تجاذبته التيارات المختلفة ذات اليمين وذات اليسار من وطنية وقومية وناصرية وبعثية وانتهازية فحافظ على توازنه بصعوبة بالغة ومهارة عجيبة كالسالك على الحبل الممدود في الهواء حتى اطاح به نفس الرجال الذين حاولوا قبل ذلك تنحيته وقتله فعفا عنهم واطلق سراحهم . . .

كان عبد الكريم قاسم مزيجاً من الجندي والراهب فهو رجل عزم وكتمان لا تنفذ العيون إلى قرارة نفسه يقرر الأمر ويسره في صدره حتى ينفذه يوماً من الايام.

أخيراً لابد من التأكيد على أن شخصية الزعيم «عبد الكريم قاسم» شخصية وطنية وكفاحية واخلاقية وشخصية متناقضة مزدوجة. . وهو كذلك شخصية لا تخلو من الرواسب والعقد ولا من «الميكافيلية» ولولا كل هذه الصفات وكل هذه التناقضات لما رأينا كل هذه المؤلفات التي لا يمكن ان يحصى حجمها والتي صدرت في العراق والوطن العربي والعالم. . . ولما رأينا كل هذا السباق لتحليل هذه الشخصية والاهتمام بجزئياتها. . ومن ثم تحليل الثورة التي قام بها.

واخيراً وفي ما عدا ما لم اكن شاهداً عليه من مراحل حياة عبد الكريم قاسم، منذ ولادته حتى يوم تعرفي عليه وانا وهو في لندن في عام ١٩٤٧ حتى يوم فراقي اياه عام ١٩٦١ - لم اكن بحاجة إلى كل الشهادات التي اوردتها عن خصائصه وطباعه وتقلبات مزاجه ومفارقاتها كي لا أكون وكأنني المتحدث الوحيد عنه بحكم علاقتي الخاصة وشبه المتميزة.

شيء واحد شدني إليه اكثر فأكثر هي الفقرة الواردة في شهادة سكرتيره الشخصي «جاسم العزاوي» والتي يقول فيها وبالحرف الواحد (كما كان عبد الكريم قاسم نموذجاً للتأثر بالعلاقات الشخصية والاهواء القروية وكانت مقاييسه في التعيين وإصدار القرارات متأثرة بهذه العلاقات كزمالة طفولة أو زمالة مدرسة أو علاقة قرب أو صداقة معينة أو عداوة معينة أو زمالة في الجيش أو فضل شخص عليه. وذلك لا لمجرد أن هذه الفقرة بحد ذاتها تكاد تكون المعول الهدام على حد سواء لعبد الكريم قاسم نفسه ولمراحل الثورة كما سميت، وأكثر من ذلك فلما لها من تأثير على مصائر الناس أفراداً وجماعات.

بقي ان اقدم للقارىء وقد اوغلت في تحليل شخصية «عبد الكريم قاسم» لمحة موجزة عن حياته بشهادات موثقة من امثال هؤلاء الذين مر ذكرهم. .

(ولد عبد الكريم قاسم في محلة «المهدية» ببغداد جانب الرصافة بالدار المرقمة ١٢ / ١٥٩٩ في ٢١ / تشرين الثاني عام ١٩١٤. . والده قاسم بن محمد البكر الزبيدي، والدته كيفية حسن اليعقوبي. . . وله اخوان هما حامد وعبد اللطيف، وشقيقتان هما امينة ونجيبة.

في الخامسة من عمره أدخل إلى الكتاب وهناك تعلم الحروف الأبجدية وحفظ بعض قصارى الصور انتقل مع عائلته إلى الصويرة عام ١٩٢١ وفيها كان،

بعد ذلك بيما يزيد على عشرين عاماً، (باقر الدجيلي) قائمقام لها حيث عمل أبوه أعمالاً بسيطة لكسب العيش فدخل إلى مدرسة الصويرة الابتدائية حتى وصل فيها حتى الصف الرابع.

عاد إلى بغداد مع والده وسكن محلة «قنبر علي» في عام **١٩٢٦**.

أكمل دراسته في الثانوية المركزية الفرع الأدبي وحصل عليها عام **١٩٣١**.

في **٢٢**/تشرين اول عام **١٩٣١** عين معلماً في مدرسة الشامية الابتدائية.

في عام **١٩٣٢** ترك التعليم ودخل الكلية العسكرية وتخرج منها برتبة ملازم ثان عام **١٩٣٤**.

في اوائل عام **١٩٤٠** دخل كلية الاركان وشارك مع طلبة الكلية في «ثورة **٢** أيار **١٩٤١**».

في عام **١٩٤٨** شارك في حرب فلسطين وهو برتبة مقدم ركن.

في **٢** أيار **١٩٥٥** اصبح قاسم برتبة زعيم «عميد ركن».

في اوائل عام **١٩٥٦** طلبه نوري السعيد والتقى به وعاتبه على مسألة تآمره على السلطة.

وفي عام **١٩٥٦** ايضا علمت اللجنة العليا ان هناك كتلة للضباط الاحرار وهي «كتلة المنصورية» ويرأسها عبد الكريم قاسم ومن أجل الهدف الواحد تم الاتصال بعبد الكريم ليصبح عدد اللجنة العليا (١١) عضواً بالرغم من انه لم يعط أية معلومات عن كتلة المنصورية واكتفى باعطاء الضمانة عن لوائه.

عام **١٩٥٧** وفي نيسان تحديدا طرح موضوع قيادة اللجنة العليا وكان هناك اقتراحان الأول يقول بقيادة جماعية والثاني بالقيادة الرياسية وبعد المناقشة اعتمد الأخير.. ورشحت القيادة ثلاثة اسماء للقيادة هم:

الزعيم عبد الكريم قاسم.

العقيد الكرن محي الدين عبد الحميد.

العقيد الركن ناجي طالب.

وباجراء التصويت انتخب عبد الكريم قاسم لرئاسة اللجنة العليا للضباط الاحرار باعتباره اقدم ضابط باللجنة واعلاهم رتبة... ولفرض مراعاة الانضباط العسكري في هذه اللجنة.

في ١٤ تموز عام ١٩٥٨ قام ومجموعة الضباط الاحرار بانقلابهم الذي اطاح بالنظام الملكي وسيطروا على مقاليد الحكم والسلطة . .

بعد هذا الانقلاب «الثورة» تدرج عبد الكريم بالرتب بشكل نظامي فرفع في ٦ / كانون الثاني إلى رتبة لواء ركن ورفض أن يدعى به في وسائل الاعلام كلها وكان السرّ في ذلك واضحاً للجميع وهو أن يبقى «زعيماً» عسكرياً ومدنياً في وقت واحد وهذه بحد ذاتها من خصائص عبد الكريم قاسم ومفارقاته .

في ٩ شباط ١٩٦٣ اغتيل على يد زملائه وبخاصة صديقه «عبد السلام عارف» وعرضت جثته مرمياً بالرصاص على شاشة التلفزيون .

انني لم اجيء بهذه الامثلة والنبذ المختصرة من حياة عبد الكريم قاسم إلا ما وجدته منطبقاً فيما بعد ذلك كل الانطباق على ما استخلصته من خصائصه عبر صلاتي به منذ ان كان ضابطاً مغروراً وحتى كونه الزعيم الأوحد .

وأخيراً وأنا بصدد الانتهاء من هذا الفصل الذي لا يصح بدونه التحدث عن يوم الرابع عشر من تموز وما لابسه من مرادفات ومفارقات وتناقضات ثم إلى ما انتهى اليه من مصير بائس دفع الشعب العراقي كله الثمن الغالي عنه ، لاأجد مندوحة من ان اجيء بلقطات ثلاث هي بالدرجة الأولى وعلى مدى ما قد يبدو من تباعد بين الواحدة والأخرى تصب في مصب واحد انا في الصميم منه وشاهد عدل عليه .

واحدة : ما زور وحرف به المتطفلون عن هذه المرحلة والمشاركون بهذه الحجة او تلك فيها على حد سواء . . ان «عبد الكريم قاسم» قبل أي أحد لم يكن شجاعاً لحد التمجيد ولا جباناً لحد الاستهانة لقد كان فيهما كما هو في كل مفارقاته وتضارب نزعاته واهوائه ومواقفه خليطاً عجيباً ومزيجاً غريباً من كل ما هو الشيء ونقيضه .

ولربما هانت هذه الغرابة او العجابة فيما يعدد التاريخ في كثير من الأزمنة والامكنة رجالاً من هذا الطراز من المتسلطين والحاكمين والمغامرين .

الشيء الذي هو اكثر اهمية من ان يكون شجاعاً دون شاهد واحد شاخص على ذلك أو أن يكون جباناً وبأكثر من شاهد واحد ، هو المفارقات الأخرى التي تتجاوز اهميتها وتأثيراتها حدود ما يجبل عليه هذا الحاكم او المتسلط من مزاج يتخبط

ويتعثر ليكون بعدها وكأنه مجمع امزجة تتجاوزها لتصبح اهمية مصير شعب كما قلت ومصير مرحلة ومصير موقف، ومثل ذلك وتصاعداً في الأهميات فيما امتدت به هذه المرحلة وهذا التاريخ إلى ما بعدهما من اكثر من جيل واحد حتى يومنا هذا وإلى مابعده بكثير. فلقد مزق يوم ١٤ / تموز من عام ١٩٥٨ / الستار الوحيد الذي ظل قرابة الأربعين عاما يغطي على تاريخ العراق كله وهو العهد الملكي الذي عرف الناس فيه ولأول مرة وإلى جانب كل سيئاته شيئاً جديداً عليهم من حرية في الصحافة وفي الاجتماعات وفي تأليف الهيئات والنقابات وتعدد الاحزاب وتحمل الحاكمين الكثير والشديد من الجرأة عليهم والتنديد بهم والنيل من كراماتهم وكل ذلك وبجملة مختصرة كان من منطلق خوف الحاكمين من الناس ومثله فشيء من رعاية للمقاييس وحفظ الكرامات وادراك للمفاهيم وإلمام بمدى التعامل مع الفرد والجماعات وفي الصميم من هذا وذاك كان في هذا النظام ما يستحق ان يسمى برجال دولة، كانوا على قلة عددهم اعمدة لهذا النظام وسياجاً للحكم.

وطبيعي ان تكون هناك كما هو كائن على مدى التاريخ وسواء في هذا النظام او غيره وبخاصة ففي المناطق المتخلفة ان تكون اهواء وشهوات وفتن وانتفاضات وسجون ومعتقلات ومحاكم عسكرية واحكام عرفية وحالات طوارىء وان تكون إلى جانب كل سجن او معتقل او محكمة عسكرية اكثر من محكمة مدنية واحدة (بدائياً ثم استئنافياً) ثم تمييزاً واكثر من بناية في هذه المدينة او تلك للمحامين لمن يحامون عن هذا المتهم وذاك المعتقل او ذاك السجين..

هذا الستار الذي مزقه عبد الكريم قاسم وقاتله بكل قساوة ومرارة كان ينسدل على البداية من تاريخ العراق حتى إلى ما بعد اربعة عشر قرناً من الزمن، خمسة قرون منها تحت سيطرة اجنبي عثماني واكثر من خمسة ففي عهد المماليك والمتبقي من عهد الحجاج إلى بداية عهد المماليك وحتى في عهود المماليك تلك فلم يكنْ من نصيب للعراق واحد مثل كافور - وهو واحد من ثلاثة يختصون بوصف الاستاذ، قبل أن تبتذل هذه الكلمة وترخص، أي بعد الصاحب بن عباد وابن العميد - ولا مملوك آخر في سورية مثل (الظاهر بيبرس) وقبره المتواضع وبعد سبعمائة عام يلتصق بمكتبته الخالدة والمقرونة باسمه (المكتبة الظاهرية).

وعلى الوجه المفارق والعجيب والغريب ان تصل هذه الحصة للعراق من تلك العهود إلى عهد دولتي (الخروفين الاسود والأبيض).

الشراكة الخاسرة أو القاتل والمقتول
(عبد السلام عارف وعبد الكريم قاسم)

اللقطة الثانية وهدفي من هذه اللقطة ان تكون مقدمة لكل ما سينتهي إليه الحديث عن ذكرياتي لما بعدها . .

فقبل كل شيء وانا افكر في كل كلمة اقولها واحسب لكل واحدة منها حساباً لم يكن بل ولا يجوز ان يكون هذا الضابط الطيب والمريض هو الذي يغامر ويخاطر بنفسه وبالعراق كله وبمصائر الناس فيه، ولربما كانت هذه المفارقات نفسها هي التي ساعدت فيما حيك حوله من اساطير على حد سواء في ايامه الأولى من عهده وحكمه بداية من أسطورة (القمر) ووجهه المطبوع عليه ومروراً بما خالط هذا العهد القصير بسنينه الأربعة وشهوره الخمسة او الستة والممتدة كما قلت إلى نهايات يبدو انها ستطول وتطول ومهما كان الأمر وكما يقول المثل : فالحبل على الجرار . .

اجل لم يكن عبد الكريم شجاعاً وللشجاعة مفاهيمها ومرادفاتها وكل ما اجمع عليه المتحدثون عن هذه الشجاعة انه كان واحداً من ضباط الجيش العراقي في فلسطين وفي الجملة من ضباط الجيوش العربية كلها في عام ١٩٤٨ وكل من ارخ لهذه الجيوش في تلك المعركة وعلى الرغم من كل الاختلافات بينهم فإنهم يجمعون كل الاجماع على بسالة الجيوش العربية وبخاصة فالعراقي منها قبيل ساعة التآمر عليهم وبتخطيط مدبر بامر القيادة العليا والقائد الأول بايقاف زحفهم شبه المظفر وحتى الساعة بل وحتى يوم قيام الساعة ستظل الكلمة المأثورة (ماكو أوامر) على شفة كل ضابط عراقي أو سوري، فما عسى أن يكون لعبد الكريم قاسم من بطولة خاصة به دون أن يجيء احد على تفاصيلها.

أما الذي يقوله هو بنفسه ويقوله التاريخ ليلة تموز وصباحها فهو ما كان من امر زحفه بلوائه التاسع عشر على بغداد وتأخير موعده حتى ظهيرة يوم ١٤ تموز بعد ان يكون قد اتضح كل شيء فاما ان يكون الزاحف الأول «عبد السلام عارف» قد اتم المهمة الشاقة والحمل الثقيل الملقى على عاتقه واما ان يكون قد فشل وعلقت له ومن معه المشانق، فاين هي الشجاعة المفترضة . .

ولولا ان كل حديث عن المقارنات والمفارقات لا بد ان ينجرّ إلى الأشباه والاضداد، لكنت في غنى عن القول ان الرجل كان جباناً، ومن هذا المنطلق نفسه أي منطلق الشيء ونقيضه فهل معنى هذا كله ان يكون الرجل المهووس باجماع كل من يعرفه ويعرف حياته العامة والخاصة هو الشجاع . . فلو استقامت المفارقات لكان هذا وارداً وعلى سطحية الأمور فواقعه.

فهذا المهووس نفسه هو الزاحف الأول على بغداد وهو الذي اباد العائلة المالكة ومهد بكل معنى هذه الكلمة لنظامه الجمهوري المزعوم بوصفه صاحب البيان الأول، ولكن للطبيعة موازينها ومعادلاتها والجبن عاهة والعاهة نقص والطبيعة قادرة كل القدرة احياناً في تحايلها على عقد النقص وفيها تهب الانسان من قدرة على الصمود وقوة على المقاومة حتى لكأنه الشريك الأول لها في ذلك قدر ما هي عاجزة أحياناً وبخاصة عندما تتراكم هذه العقد ليس عن حلها فحسب بل حتى عن الوقوف في وجهها وهي تتصاعد لضعف الانسان الآخر وانهياره امامها حتى لكأنه وهو يجهد ليغطي هذا النقص وعلى الأقل ليعالجه فيريده انكشافا ويضيف بذلك علة اخرى إلى علله . . . وبعد فهذا ما لم اجد في بدا منه وبما يشبه الفلسفة العابرة لكي أضع القارىء في صميم صورة أنا بصددها لعاهة جبن عند «عبد الكريم قاسم» ومدى قدرته على التحايل عليها بشيء غير قليل من القدرة على المكر والخداع بل وعلى ازاحة الكثير من الغشاوات التي كانت تعتصر نفسه وضميره وسلوكه وهو يجرر رواسب الفقر والحاجة إلى الناس بل حتى ما يعده كل ذي نفس كريمة مكبوتة مهانة واذلالاً .

وهذا ما كان من «عبد الكريم» قبل الثورة وخلال اعوامها القصيرة حتى يوم نهايته .

لقد وجد نفسه شاء ام ابى وهو يواجه ردود الفعل السريعة لكل تلك الرواسب وجهاً لوجه وان يرتفع إلى مستوى التفاعل والتعامل معها ومن منطلق القوة والقدرة وهو الحاكم الأول والقادر الأول بحكم منصبه الجديد ومن جهة مفارقة فمن منطلق محاولة التغلب على ما يشبه المفاجأة من المدى القصير فيما بين يوم «ثورته» وتعاقب الاحداث وتسابق الازمات وهو يجرر اذيالها وتبعاتها وبعدها بقليل وهو يرتفع إلى مستوى ردود الفعل منها وإلى مستوى القدرة وان على طريق المحاولة لا للتخلص مما يقدر على التخلص منها فحسب بل وإلى الانتقام منها والثورة عليها .

الليلة الأولى والبيان الأول

عدت إلى بغداد واستقرت عائلتي في دار الأعظمية وذهبت إلى الأرض كي اجاهد واصابر من اجل العيش وكان العراق كله يجاهد ويصابر من اجل الحياة الأفضل والكرامة الامثل . .

وفيما أنا اقلب في وحدتي وخلوي مع نفسي بما كان لشعب العراق الطيب من انتكاسات وانتكاسات وبما كان عليه من حيف وجور على يد الذين تسلموا مقاليد أمره ومستقبله ولقمة خبزه . . . واقلب الصفحات والصفحات وفي كل منها ارى ساسة فرديين ورجال حكم شخصانيين وجموع غفيرة من الشعب تزحف وراء هذا وذاك باحثة عن خلاصها ، وهذا وذاك انما يراهن على دمائها ليبني ثروة ويتاجر بمحنها ليعقد صفقة ويراهن على تجييشها ليحتل كرسياً من كراسي المناصب .

كذلك كنت اقلب اوراقي الشخصية والقمر يحنو علي في تلك الأرض شبه المعشبة على الجانب الغربي من دجلة والمنسوبة إلى «علي الغربي» اقرأ انتكاساتي وهزائمي ووثباتي ووقفات عزي ومواقفي . واذا بي وانا التقط من خفقات النسيم العذب والاثير العابر وعلى صورة مباغتة حتى لقد كاد سمعي لا يصدق بيتاً من اشعاري هو من اعز ما عندي منها . .

ودم الشهيد مخضباً ثيابه تطوى وفي يوم الحساب ستنشر .

ودهشت دهشة هي مزيج من اعتزاز وفرح واستغراب وتوقع لشيء جديد هو بين الغياب والحضور هو ما يشبه مخاضاً لولادة جديدة . .

لم يطل انتظاري كثيراً بفارق واحد هو خيبتي من هذا المولود المنتظر ففي اليوم التالي وانا في غرفتي والاصح والاصدق ففي كوخي ، التقطت من المذياع الصغير امامي الخيط الذي شدني بذلك الخيط العابر ورهفت حاسة السمع لدي فشددت

قبضة يدي على المذياع وقربته اكثر فاكثر من اذني لاسمع ان جمهورية جديدة ولدت في العراق وان حكومة وطنية قد شكلت. . . طيب. . نغم مرقص ومفرح ومطرب في فجر يفز عليه الحالمون وقد انتهى عهد وابتدأ عهد وتبدّل نظام وراثي ابن عن اب واب عن جد بنظام يفترض انه مشدود كل الشد بـ «الجمهور» عهد جمهوري ولكن ما هذا النشاز في ضربات ذلك النغم وفي ايقاعات الرقص والراقصين. . .

كان ذلك مني وانا اسمع اعضاء الحكم الجديد. .

لقد كان الشعب العراقي يفتش عن خلاصه وعن تحرره من الحكم الملكي والتبعية والاحلاف والمعاهدات. . . وطبيعي ان يكون العراق غير مستقر لا داخلياً ولا خارجياً ولا اجتماعياً ولا سياسياً ولا اقتصادياً.

ولكن الحقيقة انني شخصياً حين سمعت اسماء الحكومة والوزارة وزعماء الجمهورية وقادة الثورة. . . وأستطيع ان اقسم على ذلك. . . قرأت الفاتحة على هذه الجمهورية وبقيت مستمراً في تلاوتها اياماً ولياليا.

ومضى أكثر من أسبوع وأنا حزين على مصيرها الذي أقرأ غيبه وأعرف ماتخبىء له الأيام لأنني وبحكم خبرتي الطويلة ومعاركي مع الحياة أكاد اعرف النتائج من مقدماتها واقرأ التاريخ من صانعيه والثورات من ابطالها والحكمة من شيوخها. . . لذلك صبرت وكابرت وبقيت مكاني في المزرعة وانا الذي من المفروض ان اكون اول مهلل ومكبر «لجمهورية العراق» وقد عانيت ما عانيت من النظام الملكي بل ويعرف العامة أن على «الجواهري» ان يكون اول قادم لتبريك هذه الجمهوية ولو كان في الصين.

وكنت اعرف تبعة هذا الابتعاد عن هذه الجمهورية واعرف ان هذه المرحلة مرحلة الخلاص من العهد الملكي والتي كانت هدف وأمل الجماهير تحتاج «الجواهري» وهو في الصميم منها ومع ذلك كابرت إلى أن وصلتني فيها وصلتني قبل ذلك من رسالة ورسالة ـ برقية من اقرب الناس إلى قلبي وقد استشهد فيها وفي معرض شتمي على هذا التخلف وعدم القدوم لمباركة الجمهورية باقسى بيت قالته العرب في الهجاء وهو من قصيدتي «المقصورة» التي من خلالها اشتم اعدائي. . . وهنا نزعت رداء الصبر ولبست لبوس المغرر بهم معللاً نفسي ومسلياً اياها ومصابرها بالبيت الشعري القائل:

وهل انا إلا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد. .

قررت وفي داخلي غصة الذاهبين إلى شهادة الزور ان احتشد مع الجماهير الزاحفة المباركة لهذه الثورة وإلا سأكون خارجاً عن الارادة التي طالما ضحيت من اجلها ولكنني اعرف الآن ان التضحية ستكون في خيانة الضمير ، ومع ذلك ولانتمائي لمشاعر هذه الجماهير وحبي لعفوية ثوريتها ومباركاتها قلت: ساكون مع هذه الثورة وارسلت برقية إلى البيت تقول:

اني قادم غداً، بل زايدت عليهم وعلى نفسي وقلت: «سأذهب إلى الاذاعة اولاً . .

خلال فترة المصابرة التي قضيتها بعد اعلان الجمهورية كانت تصل إليّ اعداد من الصحف العراقية ناشرة على صفحاتها الأولى صورة الرجل الأول غير أن تلك الصور لم تكن واضحة المعالم ولم استطع تبيين شكل وملامح هذا الرجل «الزعيم».

وبينما انا مغادر «علي الغربي» متوجهاً إلى بغداد وكان في وداعي رهط كبير من المعارف والاصدقاء واذا بي ارى على واجهة السيارة المعدة لنقلي صورة ضابط عسكري مكتوب تحتها الزعيم الركن «عبد الكريم قاسم» امعنت النظر بكل دقة في هذه الصورة وكدت لا اصدق نفسي وعلت الدهشة وجهي وانعكست في عيون الأخرين وحين تساءلوا قلت لهم:

شيء عجيب هذا هو صديقي القديم ـ وبالمناسبة فحتى هذا اليوم وانا يصعب علي تطبيق الاسماء على الاشخاص ـ انه الصديق الذي التقيته في لندن وكان الذي كتبته عن ذلك اللقاء في الجزء الأول من هذه المذكرات . .

ـ طبيعي ان اكون قد فرحت حين علمت ان الزعيم «صديق قديم» غير ان هذا الفرح لم يدم طويلاً حيث ان هذه الجمهورية ومن خلال بياناتها وتناقضاتها وتخبطها وتوزيع مناصبها قد تحدثت عن نفسها وترجمت قناعاتي بفعلها.

غير ان ماتحدثت به عنها استطيع أن أترجمه الآن وبعد ثلاثين سنة على قيام تلك الجمهورية وملخصه «ان علاقتي بتلك الجمهورية كانت منذ ولادتها ولادة بائسة فاشلة مقهورة بل ومسحوقة كولادة زعيمها.

وكم تمنيت لو بقيت شامخاً مترفعاً صابراً في «علي الغربي» فقد حولتني الساعة التي اقلتني بها السيارة من علي الغربي في ٢٤ تموز حتى عام ١٩٦١ إلى شخص جديد مازلت أحمل وزره حتى هذه اللحظات.

المهم اني وفي طريقي إلى بغداد كنت اتمتم :

جيش العــراق ولم ازل بك مؤمنــاً وبــانــك الأمــل المــرجــى والمــنــى

وصلت إلى بغــداد عصــر ٢٤ تموز، وكــانت الاذاعــة العــراقيــة قد سبقتني بالاعلان عن ان الجواهري لديه ما يقوله هذا اليوم ، ولأنني كنت متعباً فقد اتصلت بالاذاعة معتذراً وطالباً تأجيل اللقاء إلى الغد فاخبرني المسؤول عن الاذاعة وقتها «ان الزعيم كان بانتظارك» .

وكــان من مصــداقية هذا الرجل اني تلقيت هاتفاً من وزارة الدفاع ليخبرني بان سيارة عسكرية قادمة إليك من قبل الزعيم فهو بانتظارك في وزارة الدفاع .

وصلت السيــارة وكــان برفقــة السائق شاب لطيف مهذب عرفني بنفسه وقال «أنــا حافـظ علـوان» زميــل وصــديق ولــدك «فــرات» . . . شاء الحــظ والقــدر لهذا الرجل ان ينال ما يستحق ، إذ نجا من الموت المحقق وهو المرافق الأول لعبد الكريم قاسم في مذبحة شباط التي مات فيها كل من كان مع عبد الكريم قاسم تقريباً .

دخلت وزارة الـدفـاع لأجد في القاعة الأوسع والافخم منها صاحبي القديم «الزعيم» الذي تلقاني بكل ترحاب وطوقني بذراعيه واصعدني إلى المنصة واجلسني بجانبه لأرى القاعة مليئة بصور متلاحمة كأنها اشباح ناعسة او تماثيل محنطة . . بعد لحظـة عرفت ان هذه الصـور هي صور اعضــاء مجلس الـوزراء وانها مؤشر لما عرفته بعد ذلك بل وما عرفه كل الناس على وجه التقريب .

وبينـما انــا وعبـد الكـريم على المنصــة تقـدم إلينا رجل قصير القامة بلباسه العسكـري ذي الســروال القصــير وبكل لهفة وترحيب قال لي وبالحرف الواحد والله يا استــاذ جواهــري لقد كنا ونحن نقطع مراحل مسيرتنا نتغنى باشعارك . . ولم اكن بحاجة لذكاء كبير كي اعرف ان هذا الرجل هو . . عبد السلام عارف .

واستأذنني عبـد الكـريم قاسم ليختــلي بعبد السلام عارف ، في غرفة صغيرة مجاورة للقــاعــة تاركــاً امــامي حفنة من الرسائل والبرقيات المتواردة عليه لاتسلى بها ريثما يعود . . ولم يطل الرجل حتى عاد إليّ واستأذنت منه هذه المرة تاركاً إياه ومهامه الكثيرة .

وعنـد التـوديـع اخـبرني ان سيارة عسكرية سوف ترسل غداً صباحاً إليّ كي اشاهد وارى المعالم الأولية للثورة . .

زيارة قصر الرّحاب

وفعلاً قدمت السيارة في اليوم الثاني وبها السيد «علوان» . . وذهبت الى قصر العائلة المالكة المبادة ولم يكن بامكاني أن أرى أحداً من أفراد هذه العائلة حيث كانت جثثهم قد سحلت بالشوارع وعلقت بالحبال وقصبت كذلك . .

ما رأيته وأنا أزور هذا القصر وبعد مرور / ١١ / يوماً على إبادة الملك واتباعه وخدمه وطباخه أن ضابطاً وسيماً يتمدد على كرسي حول بركة المسبح الجافة والتي قيل لي أنها كانت المحطة الأولى لجثث القتلى - وهو شبه متهتك المنظر وقد رفع سرواله القصير الى أعلى ما استطاع وكأني به يدلل على جسده أو يحاول أن يمارس اغراءاً سوقياً أو يستعرض عضلاته . متناسياً أن فعلته هذه لاتقل قذارة عن فعلته وهو يرش نساء العائلة المالكة وخدمهن والطباخ الوحيد المسكين برشاشه خاصة وأن هؤلاء وفي مقدمتهم الملك والوصي على العرش كانوا يحملون الرايات البيضاء والمصاحف .

وأنني لاستغرب حتى هذه اللحظة كيف يمكن لقادة ثورة أو زعيم ثورة وقد عملوا كل ماعملوا من شناعة وفظاعة في مقتل العائلة المالكة كيف لهؤلاء أن يدعوا العامة لاقتحام هذا القصر متجاهلين أن هذه العامة في اللحظات الغريزية للهياج الاجتماعي تعمل تخريباً وعبثاً في كل ما يقع بين يديها .

وهذا ماكان لهؤلاء وهم يقتحمون قصر الرحاب . . لقد سرقوا وحطموا وشوهوا ونهبوا وأحرقوا أشياء كان من الممكن أن تكون في سجل محتويات القصور التاريخية التي تحافظ عليها الأمم كافة كما أنني مازلت استغرب وليس هذا دفاعاً عن العائلة المالكة ، بل لنبل الشعور والانسانية لماذا لم يسمح قادة الثورة للعائلة المالكة والوصي على العرش بمحاكمة حقيقية عادلة وماذنب الخادم البسيط والطباخ التعيس ليذبحا .

إن الشيء الوحيد الذي كان يجب أن يكون من الحاكمين الجدد في ١٤ تموز هو الخلاص من نوري السعيد ليس إلا فهو الخطر الداهم في كل ماضي العراق وحاضره قبيل الثورة غير أن الرجل سبقهم الى ذلك ولم يحملهم هذا العبء وقتل نفسه بيده وكاذب كل من يقول أو يدعي أن نوري السعيد قتل ولم ينتحر علماً بأن استمرار نوري السعيد في الحياة ولن أبالغ هنا، كان يعني الفشل المكتوب على هذا الانقلاب العسكري «الثورة» وكانت سترتد هذه الثورة على صدور أصحابها بأقل من أسبوع . .

المهم أنني تجولت في قصر الرحاب وشاهدت قصراً متواضعاً بل وأكثر من متواضع بعدد غرفه ومساحته وآثاره مما يدفعني الى القول: أن هذا القصر لا يعدو كونه قصر ضابط كبير في يديه مقاليد بعض الأمور . . وان أى تاجر مهم في بغداد لا يرتضيه داراً لسكنه . . ولم أر أو أشاهد فيه أي أسطورة من أساطير قصور الملوك عبر التاريخ . . كل ما أذكره أنني همست وأنا أتجول بين ردهاته بأذن زوجتي لأسألها دون أن يسمع أحداً «أهذا هو قصر الرحاب؟» .

كذلك أذكر أيضاً أن أيادي عابثة تركت بصماتها على جدران غرف هذا القصر وأن هناك أعمدة مكسوة بسواد الدخان وأن محتويات هذا القصر الثمينة والبسيطة كانت قد نهبت وتراني أعود لأسأل: أهكذا تعامل الثورات تاريخها؟ . .

أبهذه الطريقة تعبث الانقلابات بما يمكن أن يكون تراثاً في سجلات الشعب الذي قامت من أجله؟

ولماذا لم تتعامل هذه «الثورة» مع هذا القصر على بساطة وتواضع محتوياته كما يتعامل المتحضر مع بيوت وقصور ملوكه ويجعل منها شاهدة عصر، وسجل أحداث ودلائل تاريخ . ونحن في وطننا العربي نرى مثل هذه الظاهرة والتي لم تزل شواهدها قائمة حتى الآن مثل الحفاظ على القصور «الخديوية» الساحرة بمتنزهاتها الفسيحة وكذلك الحفاظ على آثار الفراعنة واهراماتهم وقبورهم وبقاياهم المحنطة وحتى نعاضم المذهبة التي كانوا يرتدونها . . وأقرب من هذا عهدا فما أبقت الثورة الايرانية، على كنوز الامبراطور والامبراطورية وقصورها التي تفوق بنفاستها وندرتها كل ماخلفته الأسر الحاكمة في العالم كله . .

كل هذا الاحساس بالتاريخ ووجدان الشعب لم يكن له أثر وأنا أتجول في

قصر الرحاب الذي يشكل بواقعه وقتذاك أحد أهم منجزات ثورة تموز بعرف قادتها .

لقد امتدت أيدي السارقين الى هذا الخاتم الذهبي وتلك البدلة وامتدت الى ذلك الاناء وتلك الخابية حتى لم يتبق لقادة الثورة الا علبة سكائر مذهبة فيها ما فيها من اشارات للدعابة تليق بمقامهم .

الأكثر غرابة . . أن قادة هذه الثورة يجاهرون بأن مستمسكاتهم على سكان القصر وما يشير الى مدى استهتارهم بمصالح الشعب هي صورة ملونة لبركة صغيرة أولنسمها مسبحاً صغيراً والملك الصغير فيصل الثاني يسبح فيها مع أتراب له . . أطفال . . من عوائل بغداد الرفيعة والى جانب هؤلاء الأطفال مجلس عامر بامهاتهم الى جانب أم الملك . . فتصوروا من مستمسكات قادة الثورة على هذه العائلة أيضاً صورة للحفلة التي أقيمت في السفارة التركية للوفد الذي كان من المفترض أن يسافر في ذلك اليوم المشؤوم لتوقيع معاهدة «حلف بغداد» وفي هذه الصورة وهي صورة فرح تقليدية وليسمها المزاودون «رقصة» تتم في مناسبات كهذه تقليدها أن يضع الواحد يده على كتف الأخر وحسب المقامات ليقوموا بدورة أو دورتين يعبرون من خلالها عن بهجتهم .

ولا أذكر اطلاقاً وأنا المقرب المحتفى به من قبل قائد الثورة وأتباعه المقربين أن المسؤولين عن ذلك القصر استطاعوا أن يجعلوني أشاهد أكثر من ذلك . . فهم لم يحتفظوا بسجلات هذه العائلة ولم أشاهد مذكرات من المفترض أن تكون موجودة لرئيس العائلة الأول «فيصل الأول» ولا ماشابهها فيما يخص الوصي على عرش العراق وحتى لو كان ذلك موجوداً فلربما كان في الجملة مما سمح للعابثين والناهبين أن يحرقوه أو أن ينهبوه ولم يجدوا لادفاتر شيكات ولا دلائل أرصدة أو ما يضيف الى التاريخ جديداً أو يشكل مبررات الانتفاض والقتل وسحل الجثث وجرها بالحبال وتقصيبها . .

غير أن هؤلاء المسؤولين يبدو أنهم عثروا على وثيقة تكرم الثورة وتعلي من شأنها . . حيث أن الملك الصغير ملك العراق كله ـ يحتفظ في المصرف الفلاني ـ في أمريكا بمبلغ خمسة آلاف دينار . . وأذكر وقتها أن سيارة المرسيدس الشهيرة كان ثمنها يتجاوز هذا المبلغ . . . فيا للهول . . ويا للمستمسكات . . ويا للغوغائية .

ان هؤلاء جميعهم لم يفكروا بالحفاظ على تراث «نوري السعيد» ولا على

الـوثـائق الخطـيرة والملفـات ذات الـدلالات التي من المفـترض أن تكـون في قصـره الـضـخم الكئيب. . . لانهم أطلقـوا يد العبث في كل هذا بل وفي أكثـر من هذا استطـالت تلك الأيـدي لتطيـح بأجمـل تمثال عربي وأعمقه دلالة وأفخره معنى وهو تمثال أول رمز للحكم الوطني في العراق وأول رمز للفترة الذهبية التي عاشتها سورية قبل أن يزحف عليها الفرنسيون، ذلك التمثال الذي صنع من قبل فنان عالمي ماهر استقـدم الى العـراق لينصبـه على مدخـل الجـانب الغـربي من دجلة في جانب «الكـرخ» من العـاصمـة بغداد وهو يجسد الملك فيصل الأول، متطلعاً بنظراته الى البـوابـة الغـربيـة أي الى سورية نفسها وللقارىء أن يفهم عمق دلالة هذا التمثال خاصـة وأنـه أقيم قرابـة سبعـين عامـاً من الآن. . . وأن يقـارن بين تلك الـرؤيـة الوحدوية وبين مايتشدق به الوحدويون الآن وقبل الآن.

حتى أنني وأنا أعيش على الذاكرة - استطيع التأكيد أن هذا التمثال كان قد حطم على تلك الأيدي العابثة بتوجيه من محركيها - قبل أن تلتف الحبال على رمز الاحتلال البريطاني «الجنرال مود» المنتصب على أبواب المدينة الصغيرة «السفارة البريطانية». . .

ووصـل حد العبث والعبقـريـة الثـورية «أن تمتد تلك الأيدي الى الاحجار المنتصبة على قبور العائلة المالكة والى الشواهد المكتوب عليها «والثوري الأكبر» هو الذي يحطم أكبر عدد من تلك الشواهد وتلك الاحجار.

إن من سخـريـة الاقـدار أن يسف التـاريـخ ويسخـر منه الى حد التلاعب بالحروف والألفاظ وذلك بأن تبدل الاسماء أو العناوين أو الشعارات. . فان يصبح وعلى سبيل المثال - قصر الرحاب - قصر النهاية. . . حتى وكأن ذلك لوحده كاف كل الكفاية أن يكون قد انتهى بين ليلة وضحاها وفي يوم من أيام تموز. . كل شيء وكـل أثـر. . وكـل بقيـة من بقـايا العهد الملكي وآثاره ومخلفاته ثم أن يستحيل بعد ثلاث أو أربع سنوات قصر النهاية هذا، لا النهاية التي أريدت ولكن رمزاً لما يراد من نهايـة للعشـرات والمئات من شباب العراق وشيوخه وبناته وأولاده مايكون لهم قبيل تلك النهاية أو بعيدها من أساليب التعذيب والترويع والتنكيل. . .

فالحقيقة الساطعة هو أنه من اختصاص الأرقام وحدها أن تطفر الى الألوف فلقـد أصبـح هذا القصـر السعيـد قبيل يوم / ١٤ / تموز ١٩٥٨ بمن فيه وبالأخضر

المعشوشب برحابه الممتدة حوله بحدائقه الفسيحة، عمارة تعيسة بطوابقها العديدة والرهيبة تعيسة بكل من فيها على حد سواء من جلاوزتها المدربين والمأجورين عديمي الضمائر أو بهؤلاء المجلودين بسياطهم والمأخوذين أخذ الذين كفروا بوسائل التعذيب وأدواته المخيفة لا المألوف والدارج منها من عهود وعهود ولكن بالحديث المبتكر المستورد من بلدان العالم الذي ينتسب الى الحضارة وهو بها يخرج من مفاهيمها وبها يدوس على قيمها بريء منها.

أما آخر السخريات وبعد أكثر من عقد من الزمن فان يجيء من يحاول تصحيح التاريخ ليكتب عن محاسن هذا القصر ومن كان فيه وأن يحنّ الكثير ون منهم كي تعود أيام ذلك القصر وذلك العهد بل لقد عاد الكثير ون فعلاً وبايعاز من الحاكمين الجدد وهم يطالبون بالكتابة والتأليف عن تلك المحاسن وصدرت الى الأسواق وكأنها زحف جديد ـ القصة بعد القصة والأطروحة بعد الأطروحة والكتاب بعد الكتاب، عن الملك المحطم بتمثاله وقبره، والأمير المسحوبة جثته في الشوارع والمشرح لحمه على يد القصابين.. وعن نوري السعيد المنتحر (بيده لا بيد عمرو).

كان ذلك في صحوة من هؤلاء على أن السيرة بما لها وما عليها هي ملك للتاريخ وهي ملك للشعب وأنها تشكل في مجموعها جزءاً من التاريخ العراقي شاء العابثون أم أبوا وشاء الانقلابيون أم لم يشاؤ وا...

والآن وبعد هذا كله فعودة من جديد الى زيارتي قصر الرحاب هذه... فهي لم تكن بحق في كليّتها وانطباعاتي عنها ومشاهداتي لمكونات صورها بالشيء الجدير بالاهتمام أو بالمكسب الذي يمكن أن تفاخر به أية ثورة.. أو يعتز به أي انقلاب...

وأياً كان الحال فقد فتح الرجل المسؤول عن البدالة الخاصة بالقصر الملكي أمامي السجل الضخم الخاص بالهاتفين والهواتف وبالأيام والساعات والدقائق وكان آخرهم وبالحروف العريضة (توفيق السويدي) الذي يبدو أنه أحس قبل كل أحد من المسؤولين بشيء ماجديد في بغداد بتلك الليلة فها هو يتصل بقصر الرحاب ليسأل أين هو نوري السعيد.. أليس عندكم؟ «وعندكم» كانت هي آخر كلمة انقطع الخط بعدها، وحدثنا الرجل الأمين أنه أطبق السجل بعد ذلك بدهشة

وذهـول وأنـه أسـرع من لحظتهـا الى المرافق الأول ولمزيد من التدقيق ليدخل على الأمـير المحتضـر بحكم القـدر وهو يغط في نومه نشواناً في تلك الليلة السعيدة قبيل ساعـات من سفـرتـه والتعيسـة الشقيـة بعدها بقليل ليفزه من نومته وليقول له أن القصر محاصر، ثم ليسأله وهو مرعوب وماذا يريدون؟ . . ليرد عليه المرافق أو الآمر والحديث مايزال للرجل الأمين «ومن يدري ماذا يريدون ياسيدي».

عبد الكريم قاسم ، بداية وأزمات

لم يمض شهر على قيام هذه الثورة حتى بدأت الطموحات الشخصية والانقسامات تطفو على واجهة أحداثها . . . وهاهو «عبد السلام عارف» يفاخر بصياغته لبيان الثورة الأول وتخطيطه لانجاح الجمهورية وهاهو ايضاً يجاهر في خطبه وزياراته ولقاءاته بأهمية الاندماج الوحدوي الفوري مع الجمهورية العربية المتحدة وفي خطبه الكثيرة يتجاهل «عبد الكريم قاسم» . . وهاهو نزاع الشريكين «قاسم وعارف» ينتقل الى الشارع وتدخل أسراره الى البيوت حتى اضطر قاسم الى اصدار بيان من الاذاعة العراقية باعفاء عارف من جميع مناصبه . . ثم مالبث أن عينه سفيراً لبلاده في «بون» . .

وكان ماكان من «عارف» ومخالفته لتعليمات «قاسم» ورجوعه الى البلاد بدون رأيه وكان أيضاً أن شهر «عارف» مسدسه على «عبد الكريم قاسم» في أحد اللقاءات ويكون من «قاسم» أن يرى ذلك في المرآة الكبيرة على الجدار والفاصلة بينهما ليقدم بعدها الى محكمة «المهداوي» التي وجهت اليه تهمتين . . الأولى : أنه ترأس أو شارك في تنظيم جماعة من الضباط الناقمين القائمين على رأس بعض وحدات الجيش لتدبير انقلاب في / ٤ أو/ ٥ / من شهر تشرين الثاني عام ١٩٥٨ م أي أن كل هذا قد كان بعد ثلاثة شهور وأيام معدودات من قيام ماسمي بـ «الثورة» . أما التهمة الثانية : أنه حاول اغتيال زعيم البلاد . . .

وعقوبة الأولى في عرف القانون هي الاعدام وعقوبة الثانية هي الاعمال الشاقة المؤبدة . . وحكم على عارف بالاعدام الذي مالبث عبد الكريم قاسم أن عفا عنه بالالتماس المقدم من والده الشيخ المتديّن .

ولم تمض أسابيع على حركة عارف حتى كان ماسمي بثورة العقيد

الشـواف في المـوصل، وكذلك المحاولة الانقلابية التي قادها «رشيد عالي الكيلاني» وكان قد سمح له بالعودة الى بغداد بعد /١٧/ عاماً من الغربة.

وكـــذلــك لم تمض أيـام على قيـام هذا الانقـلاب حتى امتلأت الشـوارع بالمتظاهرين تأييداً واحتجاجاً وشغباً مما أوقع عشرات الضحايا.

وعبـــد الكـــريم قاسم في كل هذا بل وبـالـرغم من كل هذا يحاول أن يثبت قدميـه في الحكم من خلال تصفيـة خصومه الواحد تلو الآخر الى درجة احتار معها المحللون والمؤرخـــون والكتـــاب وأنـــا واحــــد منهم «في ماذا عسى أن يكــون هذا الرجل» . . هل هو شيوعي أم قومي . . هل هو اشتراكي أم ديمقراطي . . هل هو ارهـابي . . هل هو من الغـرب . . هل هو مع امـريكا . . هل هو عدوهما اللدود . . وكـانت تتـوالى الاسئلة مع الحـيرة لانـه كان تارة يتقرب من الشيوعيين وتارة يقـرر تصفيتهم، ولانه تارة يصرح بالاخاء العربي والتعاون العربي وتارة يأمر باعدام القوميين . .

وللحقيقـة والتـاريـخ أقـول: أنني وكـل من شاركني في معـايشة هذه المرحلة والكتابة عنها بأمانة وبمراجعة ضمير وموضوعية اكتشفنا ان «عبد الكريم قاسم» لم يكن إلا عبد الكريم وحسب الرجل الذي قاده واقعه المر الى السيطرة، ومن على كرسي الحكم استطاع أن يفجر حقده المر سواء في الثأر من اعدائه أو في الوقوف الى جانب أبناء طبقته من الفقراء . . ونظافة هذا الرجل غير المشكوك فيها وطنياً دفعته لاجراءات وطنية واصلاحية كبيرتين وبخاصة فيما بدّل من حياة الطبقة الفقيرة ورد اعتبـارهـا وكـرامتها في العراق كله وبالأخص في العاصمة نفسها ذات «الخصـاص والأكـواخ» هذه الطبقـة التي بلغ حبهـا ووفاؤ ها له درجة رفضت معها تصديق خبر موت عبد الكريم قاسم . .

لقد تجاوز في هذا كله والى جانب كل تناقضاته حدود الحاكم العادل في كل تاريخ العراق حتى يومنا هذا . .

ولكنني استغـــرب كيف كان هذا الـــرجـل الـزعيم يعتمـد على أنـاس غير مؤهلين ليكـونـوا في عداد السـاسـة فضـلاً عن أن يكـونوا واجهة للثورة أو رمزاً من رمـوزهـا أو شعـاراً من شعـائـر جمهورية جديدة فما سُمّي بمحكمة الشعب أودعت لضـابـط شبـه صغـير مغمور لمجرد أنه ابن خالته كما يقولون والمحكمة العسكرية بيد رجل مخمور لمجرد أنه رضيع لبانه، وقائمقام مدينة الصويرة المرشح في العهد الملكي

للطـرد لإسـرافـه في الارتشـاء، وزيـراً في عهد الثورة لمجرد أنه كان يُلبي طلباته الملحّة، أما رئيس هذا القائمقام ومرجعه الأعلى وهو «سعيد قزاز» متصرف لواء الكوت ثاني أقـوى رجـلٍ في الـدولـة وأعفّهم وأشـدهم محاسبة للمقصرين فهو محكوم بالإعدام ومعدومٍ فعلاً لمجرد أنه كان يكره تنفيذ طلبات «عبد الكريم قاسم» الشخصية تلك في أيامه السالفة.

والـذين مايـزالـون أحياءاً من رفاق كريم قاسم ومعاصريه بوسعهم يحق أن يكونوا وثيقة دامغة فيما كان من أمر عبد الكريم قاسم مع سعيد قزاز.

ولعلني لاأحتـاج الى هذه الشهـادة، فقـد كـانت كلمـة سعيد قزاز نفسـه، وعلى رؤوس الأشهـاد وهـو يتلقى حكـماً عابـراً من «المهـداوي» طالمـا بُدّل الكثير والكثـير من أمثـالـه لدى القـائـد الأعلى «من أنه سيصعد المشنقة وتحت قدميه من لايستحق الحياة». ومن عسى أن يكون المطلوب بهذا الذي تحت قدميه غير «عبد الكـريم قاسم»، هذه نماذج معـدودات لما يخص ولايُعـد من أمثالها ومع هذا وعلى فظـاعـة هذه النـماذج فقد كانت محكمة الشعب المزعومة أوسعهنّ نطاقاً في الفظاعة بحكم شمـوليتهـا وبحكم أن مصائر الناس ومقاديرهم وكراماتهم على حد سواء في المتهم أو البريء كانت شبه لعبة يتناوبها الرجل وابن خالته.

أقول هذا لأن تفاصيل ما سيأتي مريرة لاعلى تلك الفترة من تاريخ العراق وحسب بل لأن مرارة الأحـداث تلك انسحبت على التـاريـخ المستقبـلي والعـراق مايزال يعاني من تبعاتها حتى هذه اللحظة.

وحسبي أن أكـون في ذلـك أميناً للوقـائـع صادقـاً مع التـاريخ، قادراً على الحياد، والرؤية الحقة لما جرى وما سيجري من أحداث على أرض العراق الطيب خلال تلك المرحلة...

الفقر والعقد والقرارات

قبل أن أنتقل الى أحداث دامية موجعة لتاريخ العراق في عهد الثورة وقبل أن أصل بالقاريء الى معاناتي والشدائد التي عشتها وعاشها العراق جراء الارتجال والتخبط والمزاجية لابد لي من الاشارة الى نقطة أراها في منتهى الأهمية وأنا أحاول أن أربط الحدث بأسبابه والشخصية بمكوناتها، ولعلني من هذه النقطة استطيع أن أقدم جديداً للذين يحاولون أن يربطوا الأحداث في محاولة لتحليلها وقراءتها من جديد . .

النقطة هنا تتعلق بالتكوين النفسي «لعبد الكريم قاسم» هذا التكوين الذي انعكس على قراراته المتسرعة، فيها مايحمد وفيها مايذم .

فقد كان هذا الرجل فقير البيئة محروم الطفولة السعيدة، حاقداً على الواقع الذي عاشه وحاقداً على الطبقات المستغلة الموجودة على أرضيته .

والفقر داء قاتل قتال تنسحب أوجاعه على كل مراحل حياة المرء واراه يشكل عقداً في الذات لايمكن لأي زمن أو حدث أو أية سلطة أن تمحوها .

ومن هنا كان تعطشه للانتقام وحبه الانفراد بالسلطة والحكم وكان قليل الثقة بالآخرين كثير الحرص على كرسي السلطة متذبذباً في مواقفه مغتراً بنفسه منساقاً الى كل مايخدم سلطته ويعزز أركان حكمه . .

وأقولها جازماً . . . أن جرائر الفقر وعقده لايمكن أن نتخلص منها الذات البشرية الحساسة مهما تبدلت الظروف وتغيرت الأحوال . . . وليس من قبيل التبجح أو الادعاء القول:

أنني لم أجد ترجمة لعقد الفقر وجرائره كالتي جسدتها في «أجب أيها القلب» . . .

ومكبـوتـه لم يشفـع الصفـح عنـدها
مددت اليهـا من أنـاة بشـافـع

غزت مهجتي حتى الاثت صفـاتهـا
ولاثت دمي حتى اضـرت بطـابعي

رَبَتْ في فؤاد بالـتشـاحـن غارق
مليء و في سم الحـزازات ناقـع

كوامـن من حقـد واثـم ونـقـمـة
تقـمـصـنـي يرقبن يوم الـتراجـع

وقلت لها: يافـاجـرات المخـادع
تزيـين زي المحصنـات الخـواشـع

وقـرن بصـدر كالمقـابـر موحش
ولحـن بوجـه كالأثـافيّ سافـع

وكـنَّ بريـقـا في عيـوني وهـزة
بجسمي وبُقيا رجعة في أصـابعي

وارعـبن أطيـافي وشـردن طائفـا
من النـوم يسري في العيون الهواجع

والحق يقال والحديث عن فقر كريم قاسم أنني ظللت وحتى هذه اللحظات أعـاني الكثـير من تراكـمات القهـر والفقـر والعـوز والحـاجة التي اعتملت في داخلي وافرعت غصونها حتى وصلت شرايين الدماغ الذي منه قرارات المرء وأحكامه..

وهذه المكبوتة التي فجرتها شعرا.. كان يحملها في داخله عبد الكريم قاسم لكن يبدو أن هذا الزعيم أراد أن يفجرها اعدامات وقتلاً وتصفيات بالاضافـة الى أنـه فجـرهـا تدميراً للصرائف وفجرها بناء حضارياً للفقراء وفجرها تطلعات وطنية متحدية للاستعمار بأشكاله.

ولم تكن الـرغبـة الثأريـة من قبـل هذا الزعيم مقتصرة على هذا الشخص أو ذاك فحسب أو على هذه الشريحة الاجتماعية أو تلك بل كان ثأره مهيئاً للانفجار في أية لحظة وأي ظرف وأية حادثة قد تمس قراره.

وهـذا ماكـان أحـد نقـاط ضعفـه البـارزة اذ كيف لرجـل دولـة يقـود ثورة الجمهورية أن يخرج عن وقاره وحلمه وحكمة قراره لأتفه الأسباب وأبسطها.

لقد كان لي مع الرجل من أحداث ما لايمكنني أن أصف آلامها وتبعاتها عليّ حتى هذه اللحظـات صحيـح أنني أخطأت معـه ذات يوم وانني ثرت عليه ذات مرة وخرجت عن حلمي وقتذاك إلا انه وهو الحاكم وأنا المحكوم لم يترفع عن أن يجعلني أدفـع الثمن غاليـاً وأنـا الـرجـل الأعـزل وهـو المصفح بالقرارات والرجال المنفذين لأوامره، والسلطة..

أقـول هذا للتـاريـخ وأقـولـه لأضع الحدث في خلفياته واكتبه لانني جزء من

الحدث والحدث جزء من التاريخ وكلاهما التاريخ والحدث يعكسان صورة عن ذوي القرارات فيهما.

كان عبد الكريم قاسم وبالرغم مما له من حسنات لم يخلق ليكون رجل دولة لسوء حظه وسوء حظ العراق ومنذ أن طغى لديه حب الثأر على حكمة القرار بدأ عهده ومنذ أسبوعه الأول بالقلاقل والاضطرابات والانشقاقات والاشارات الى ماسيأتي من مستقبل قاتم مما أوداه الى نتيجة بائسة وأودى بالعراق الى ما لايحسد عليه . . .

لازلت أعجب حتى هذه اللحظة وأنا أحاول تحليل شخصية عبد الكريم قاسم وأقرأها واقعياً وتاريخياً وسيرة كيف ينسى هذا الرجل القريب مني المتودد اليّ صاحب القرار. بؤس الواقع الذي كنت أعيشه . . وفظاعة المعاناة التي كنت أحياها . . . وهو الذي قال عن بيتي الذي زاره : : أنني أزور هذا البيت الذي أنضج الثورة . . وهو الذي قال لي : أنا لاأرد لك طلباً . . . وقد زارني في بيت مستأجر ويعلم أنني وجميع أفراد عائلتي لانملك سقفاً واحداً في جميع أنحاء العراق .

كما يعلم انني استأجرت وفي مرحلة زعامته القصيرة أربعة بيوت زار واحداً منها مرتين ووضع حراساً للثاني وأطفأ المدفأة بيده «وهذه من خصائصه الكريمة» في احدها وقد تضايق من دخانها .

يعرف أيضاً انني من الحياء بحيث استطيع أن أطلب للآخرين ماشئت ولا أستطيع أن أطلب لنفسي ولعائلتي مايسد أبسط شيء .

«اني أزور البيت الذي أنضج الثورة»

من اليسار: الجواهري في سريره وبجانبه شقيقته الفقيدة «نبيهة» وعبد الكريم قاسم يتحدث مع البنت الصغرى للجواهري ظلال والدكتور كامل أحد أقارب الجواهري

الفصل الثالث

الشراكة الخاسرة

بعد أن تناولنا بالقراءة والتحليل الأسباب التي مهدت لقيام الجمهورية العراقية وبعد أن تتبعنا تفاصيل المكونات النفسية والاجتماعية والسياسية لشخصية زعيمها «عبد الكريم قاسم» أعود الى ذكرياتي وعلاقتي به في هذه المرحلة وأقول:

في الاسبوع الأول من قيام الثورة وبعد أن صدرت مراسيم جمهورية بحرية الصحافة وحرية التنظيمات والنقابات راجعت عبد السلام عارف بشأن جريدتي «الرأي العام» المتعطلة عن الصدور. . .

وبعد أن جاملني الرجل ورحب بي ترحيباً فيه من التصنع مافيه من المداهنة والرياء قال لي (ليس الزعيم عبد الكريم قاسم وحده الذي زار بيتك. . أنا سأزور بيتك أيضاً. .) ولم يضف على ذلك شيئاً. . لم يسألني عن الجريدة ولا عن واقعها ولا عن زمن السماح بصدورها ولم يتحدث ولو كلمة عابرة بهذا الصدد. .

ورويت لعبد الكريم قاسم ما حدث لي مع صاحبه وشريكه فقال لي بابتسامة علت أسارير وجهه:

(لايهمك) . . .

وفي اليوم الثاني أو الثالث صدرت الجريدة. . .

كان هذا مؤشراً على علاقة هذين الشريكين في الثورة وهي في اسبوعها الثالث. .

المؤشر الثاني الذي يدلل على تزعزع أو فساد أرضية هذه العلاقة والذي كنت طرفاً فيه أيضاً هو أنه بينما كنت في (علي الغربي) ـ وقد عدت اليها لتصفية وضعي كمزارع ـ أتسلى عند دجلة وضفافها في تلك الأرض الجرداء وأتذكر فشلي وخيبتي كمزارع وإذ بي ادعى على بدالة الهاتف في مركز المدينة لأجد على الطرف

الثاني الشهيد «وصفي طاهر» ليقول لي : أن عبد السلام عارف سيزور منطقة العمارة فكل رجائي أن لا تكون باستقباله وأهمية هذا الكلام يأتي من كونه على الهاتف أولاً وبهذه الصراحة ثانياً ومن مرافق عبد الكريم قاسم الأول ثالثاً . . وكنت أعرف أن عبد السلام عارف سيزور هذه المنطقة بعد أن طلب مني محافظ العمارة «وهو الصديق» أن أكون معه في استقباله .

اذن فقد وصلت الأمور الى هذا الحد وهذه الصراحة بين زعيم الثورة ونائبه والثورة لم تزل في بدايتها . . ومن ثم تتوالى مثل هذه المفارقات وهذه المواقف مما جعلني أتوقع ماستحمله الأيام لهذه الثورة من نكسات ودماء . . .

الفصل الثالث

علاقة ودسائس

صدرت جريدتي وبحكم صلتي القوية بعبد الكريم قاسم والظروف الصعبة جداً التي كنت أعيشها أصبحت هذه الجريدة وكأنها لسان حاله وبمبالغة واسراف وسوء رؤية وموقف مني . .

وفي مثل هذا المناخ كثر الذين يريدون لعلاقتي بعبد الكريم قاسم أن تنحدر وتتهاوى وجهود هؤلاء تلاقت مع جهود الذين يتربصون به نفسه ـ وكثر الذين استعملوا لهذا الكتابة والوشاية والمزايدة ضدي ـ وكثر الذين بتزلفهم وتملقهم راحوا ينصبون الشراك وكان ـ وهذه من سيئاته ـ يتسمع اليهم . . ان لم أقل أنه كان يجاملهم ويبارك دسائسهم . واضافة الى ذلك فقد وجدت زعماء الاحزاب والشخصيات المتقربة من العهود جميعها مستائين لامن كوني لست تحت لواء هذا الحزب أو ذاك وحسب بل ومن حب الجماهير العفوية البسيطة لي .

وعلاقتي هذه مع الجماهير وعلاقتهم بي قديمة وقديمة جداً . . لانني منحاز منذ الطفولة ومن منطلق دمي ولحمي لواقع الفقراء والبؤساء مثلي، مدافع برغم كل العوائق عن مصالحهم ومستقبلهم وأفراحهم وأتراحهم لمجرد أنني في الصميم منها . .

وحقاً كان الرجل قريباً مني ـ لصيقاً بي ـ وبدون مصلحة أومكسب أيضاً . .

كانت جريدتي تعيش حصاراً من نوع خاص وتعيش عزلتها ووحدتها وهي التي كان من المفروض ان تكون الرائدة في تلك المرحلة جماهيرياً وتمويناً ودخلاً . . . هذا الحصار أرادته الأحزاب ثائرة بالآخرين لابذات قادتها ودعاة ريادتها . .

وكم هي المرات التي ثارت هذه الاحزاب وبخاصة البرجوازية الوطنية منها والقومية على حد سواء ومن خلال أولئك التائقين الى التحرر والثورة، الذين لم يتكون وعيهم بعد، دون أن يعرفوا الطرق الصحيحية للخلاص . .

وأكثر من ذلك وأمر فمن خلال غوغاء الشارع وبسطائه وأولئك اكثر الذين ينقادون بلا تفكير ويهتاجون ببدائية الغرائز . .

وكان الذين يحصدون الثمرة المرة هم العامة لا القادة والمتعطشون التائقون الى الحياة والكرامة لا السادة الذين من خلال حفلاتهم تعطى الأوامر . .

وكم هي المرات ايضاً التي وجدنا فيها هؤلاء القادة منسحبين من مواقفهم متنصلين من أعمال من نفذوا أوامرهم . . متباكين على كل ماهم مسؤولون عنه بحجة مايسمونه «النقد الذاتي» أي كما يقولون «بعد خراب البصرة» وحبذا لو أن هذا النقد الذاتي كما تستحقه هذه التسمية مدوياً في الاسماع ومتوغلاً في العيون ومثلاً سائراً على الأفواه وليس أن يكون فيما بينهم فقط ، ولا أن يتناقله هذا الفرد من هذه الخلية الى تلك ثم يعودوا وفي موقف شبه حاسم بعده ليخطئوا من جديد وينقدوا ذواتهم من جديد . . .

وبعد فمن حقي هنا أن أقول لكل من يريد أن يَعي الواقع ، ان الذين يمشون بغوغائية وراء كاتب بيان هم محتاجون لاثوريون . . وان الذين يهتفون ويصفقون هم الفقراء . . لاالمتاجرون بالسلطة والاحزاب والمتآمرون وقابضوا شيكات «الزعزعة» . .

وان التربية الثورية لاتحتاج من يسحل ويهدم ويحرق ويخرب بغريزية لم يصقلها الوعي ولا تدري الى أين تقاد . . .

قد أكون مخطئاً في كل هذا لكنني لست بمخطيء أبداً عندما اتحدث عن ازدواجية هؤلاء الزعماء والقادة وكتبة البيانات والمستميتين على الزعامات وعلى اكتاف الجماهير ، أقول هذا كله لانني عانيت الكثير . تخيلتني القاسم المشترك بينهم ، ولم ألق من يدافع عني في أحرج أوقاتي وأشد أزماتي .

شفاعات

أما وقد تناسيت نفسي مع الرجل الذي لايرد لي طلباً، وأما وقد تناساني هو نفسه، فهذا لايمنعني من أن أجيء بأكثر من لقطة واحدة مما كان لي معه من شفاعات مشفّعة في سبيل الآخرين لها دلالاتها وأهميتها، وسأحاول جاهداً إيجازها فأول ما كان منها وأنا أحاول مصداقية قولي:

وكذاك كنت وما أزال كما بنى   أهلي أجازي بالجميل جميلاً

أي أن أردِ جميل الشيخ الاقطاعي بكل معنى كلمة (المشيخة) بلاسم الياسين وقد ألقي القبض عليه ونفي الى الموصل، وبكلمة واحدة مني مع «عبد الكريم قاسم» بصدده، كان يتجه الى الهاتف ليكون «بلاسم» بعد ساعة من ذلك مطلق السراح بكل تجلّة وتكريم، ومثل ذلك بل وأكثر منه دلالة وأهمية فهو لامجرد انقاذ رأس أخيه الأكبر الفتاك (عبد الله) بل وكل خزائنه وقد أوشك وأوشكت أن يطير وا هباء، وبعد ذلك فان يسمح لـ (عبد الوهاب مرجان)، صديقي القديم ورئيس الوزراء السابق وقد حكم عليه بالإقامة الجبر ية، بالسفر خارج العراق لغرض التداوي.

وفي لقطة من هذه اللقطات، وفي إحدى ليالي رمضان من عام ١٩٥٩ م تقدمت إليه بقائمة أسماء لبعض الصحفيين الذين يعاتبونني بها يشبه التعنيف لأنهم رهن التوقيف وأنا نقيبهم، وقلت له وقد سلمته رسائلهم إليّ: هذا ماابتليت به ياسيادة الزعيم، وكان وقتها «العبدي» الرجل الشريف الطيب والحاكم العسكري موجوداً، فوجدته يومىء إليه بإشارة مالبث العبدي بعدها أن قدم لي ظرفاً.

ورداً على المفاجأة قلت له ما قلت للأمير عبد الاله ولشكري القوتلي وللبكر ولصدام ولغيرهم أنني لست من هذا القبيل ياسيادة الزعيم..

فأجابني بها يخجل حقيقة وقال: هذه ليست لك وليس لك حق في رد هدية لظلال.

فما كان بوسعي ردها وأخذت الظرف وسلمته لظلال التي مالبثت أن أدخلته في صندوق توفير البريد لحسابها.

وهناك شفاعة يحق لي القول عنها وإن على وجه التقريب أنني انقذت وانا فخور بهذا حياة العشرات ان لم أقل المئات من العوائل الكريمة في العراق، فالفقر والحاجة والجوع ربما كانوا أشد من الموت وهو ما كان من أمر الشيوخ المتدينين الذين قصدوني للشفاعة، وفي المقدمة منهم الشيخ محمد حسين الجواهري «وهو من أعمامي الباقين الذين لهم مكانة عندي» لقد شفّعوه الي وشفعت بهم الى كريم قاسم فلقد كانت لهم حصص كثيرة مما كان يسمى بـ (خيوط ذهبية) من المزارع التي تخصص لهم من الاقطاعيين أو من المتنفذين في الأوساط الفراتية من أصحاب الاراضي.

على كل حال فقد كانت قطع من الأرض تخصص وارداتها لهذا الشيخ المتدين أو ذاك، وأكثرهم بالأصل وبالنسب ذوو علاقة بهذا الشيخ أو ذاك وانها قصدوا النجف وسكنوها وتوالدوا فيها طلباً للعلم والشريعة، وقد قطعت عنهم هذه الحصص بموجب قانون الاصلاح الزراعي الذي لم يلتفت الى هذه الناحية وحرموا المورد الأول بل الوحيد لهم ولمن معهم. كانوا يقصدون القبيلة التي يرتبطون بها نسباً أو علاقة أو تكريماً في كل موسم حصاد ويعودون بأثمان الحصص المباعة لهم وفيها كل الكفاية للموسم القادم أو السنة القادمة..

قصدت عبد الكريم قاسم ومعي ثلاثة منهم وسألني عمي الأكبر: أتنسّب أن أجيء معهم.. فقلت له لا أنا بالنيابة عنك، لاأحب أن تكون شفاعتي اليهم ومنهم من هو من عائلتي شخص محترم مثلك فتقدمت اليه واحترمهم الرجل والحق يقال، أن عبد الكريم قاسم وكما ذكرت له حسناته الكثيرة على سيئاته الأكثر، وقلت له كلمة لاأجمل منها يا سيادة الزعيم هؤلاء الذين وصلوا الى درجة الإمامة أو مايشبهها على دخان نفطية (أي الفوانيس) وأنا من عاشوها في صباي، قال لي وهو يهز رأسه هزة خفيفة ولطيفة: أعلم بذلك. وأضفت هذه قصتهم ولا أطيل الكلام، فخرجوا من عنده وقد صدر مرسوم جمهوري باعادة كل ماكان اليهم من ذلك.

هذه كلها كانت بداية الشفاعات، أما نهايتها فكانت إنقاذ حياتين من الموت

المحتم، وأولهما فحياة «عبد الكريم قاسم» نفسه، وثانيهما فحياة «منذر أبو العيس»، ولئن كانت حكاية هذا الثاني ستأتي الاشارة اليه، فستكون حكاية (الأول) في محلها اللائق بها هنا، وفي الصميم من هذه اللقطات وهاهي بنصها وفصّها كما يقولون: فلقد اخترت من دون كل الذوات والزعامات لأؤتمن على سر خطير يقول أن الزعيم سيصفي في يوم كذا..

وذلك عندما طلبني السفير السوفيتي عن طريق سكرتير السفارة ليقول لي: لو كنت قادراً على المجيء لاتيت اليك، فذهبت اليه ليختلي بي ومعه المترجم ويقول: لدينا ياجواهري علم اليقين أن عبد الكريم قاسم سيصفى جسدياً يوم المولد النبوي.. ولم نجد غيرك من نثق به لتبليغ الرجل.

فقلت:

هذا فخر لي ولطف منك وانطلقت الى الرجل وقصدت مرافقه الخاص (وصفي طاهر) الذي أبلغني أن الزعيم مجتمع مع «بهجة العطية».. بعد دقائق خرج العطية وأبلغه المرافق بوجودي.. فوجدته يجيء اليّ، الى غرفة «وصفي طاهر» ويجلس بجانبي متسائلاً.. خير انشاء الله قلت له خيراً.. وأخبرته بحقيقة الأمر، وأخبرته عن أهمية مصدر الخبر.

فقال لي: الأمر بيد الله، بيد الاقدار..

قلت له:: هذا صحيح ولكن الله مع عبده مادام العبد مع نفسه، وأنت لست بالمسؤول عن نفسك فحسب بل عن بلد كبير عريق.

وعى الرجل خطورة المسألة وسألني: أهذا مابلغت به حرفياً؟، قلت: نعم وستتم العملية في نادي الضباط.. وكان مصداق ذلك أن قبض على مرافق عبد السلام عارف متلبساً بالجريمة متربصاً ويده على الزناد...

النقابة الأولى والاتحاد الأول

بعد أن صدر قانون حرية الأحزاب والصحافة في توالي العام الأول من الثورة جرى تشكيل اتحاد للأدباء يجمع أدباء العراق كما جرى تشكيل نقابة للصحفيين لتجمع شملهم وفي ظرف كهذا ومرحلة كهذه من يكون المرشح الأول لرئاسة هاتين النقابتين سوى الجواهري وهو أقدم صحفي باق على الحياة باستثناء صديقي منذ القدم السيد «رزوق غنام» صاحب جريدة «العراق» والذي كان قد تقاعد كما أتذكر عن عالم الصحافة أما في اتحاد الأدباء فلو كان هناك من يستحقها غيري لكنت من اتباعه . .

ولقد عانيت ما عانيت وذقت ما ذقت من مرارة تحمل هذه المسؤولية وليتني كنت غير مؤهل لذلك لكنت أرحت واسترحت ولكنت في غنى عن صراعات وقلاقل تلك المرحلة وما جرتّ من مصاعب ومشاكل وأفعال وردود أفعال ستنعكس سلباً على مرحلة من حياتي وستنسحب ذيولها الى ما أحسد عليه من مستقبل . .

وحقاً وصدقاً أقول :

انني لم أعان في اتحاد الأدباء ما عانيته في نقابة الصحفيين من صعاب ومشاكل وأزمات وصراعات وتآمر . . لأن قطاع الأدباء لم يكن ليسمح بالدخلاء والمدسوسين وانصاف الموهوبين وأشباه الكتبة ليتطفل عليه ، على العكس تماماً من عالم الصحافة الذي يستوعب من هب ودبّ «كما يقولون» ويحوي بين عناصره من شاءت له نفسه أو هذا الحزب أو تلك الجهة أو ذاك المتنفذ أن يكون فيه . .

واستطيع القول : ان مهمتي كرئيس لاتحاد الأدباء كانت في مستوى الطموح والنجاح لأنني وبحكم انتمائي الصميمي الى عالم الكلمة المبدعة وعلاقاتها التي تكون بالمستوى نفسه فقد استطعت أن أستقطب زملائي من قوميين وديمقراطيين

وشيوعيين ومستقلين . .

وكانت استطاعتي الجمع بين المتناقضين والأضداد على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم تشكل مصدر اعتزاز لي وأن اسماء كبيرة كانت في تلك النقابة أمثال العلامة «المخزومي» والكاتب والأديب «علي جواد الطاهر» والسيد «محمود الحبوبي» الشاعر، كمستقلين يمثلون ذواتهم وكانت هناك «عاتكة الخزرجي» «ونازك الملائكة» التي كانت وقتها في الكويت غير أن اسمها كان في الصميم من الهيئة الادارية . . .

كما كان هناك «حافظ جميل» الشاعر المعروف «وصلاح خالص» وهو الأديب الضليع والكاتب الموهوب، كما فتحت أبواب النقابة لجميع الشباب الناشيء المتأدب . .

وقد استطعت من خلال علاقتي المتينة وقتذاك مع زعيم الجمهورية أن أحصل على ماكان يسمى «بنادي بغداد» وهو على بساطته كان أجمل مافيه حديقته الخضراء الغناء التي كانت ملتقى الأدباء ومنتدى حواراتهم ونقاشاتهم . . هذه النقاشات والحوارات التي كانت تتم بكل حرية وكل مسؤولية وبكل ديمقراطية أيضاً . .

صحيح أنني لاقيت في اتحاد الأدباء فيما بعد ذلك عدداً من الصعوبات غير أن هذه الصعوبات لاتذكر اذا ما قورنت بتلك التي واجهتها في نقابة الصحفيين . .

فعلى الرغم من أن بداية هذه النقابة نفسها كانت بداية خير وبما يشبه البشارة لما يفترض أن تكون، وعلى الرغم من أنني كنت معتزاً كل الاعتزاز بكوني المحور الوحيد الذي استجابت اليه الجهات التي يصعب استجابتها لارسال من يمثلها في الهيئة الادارية لهذه النقابة وفي الطليعة منهم الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة الفارس الصامد الفقيد «مصطفى البارزاني» والذي أرسل لتمثيل حزبه أعز شخص لديه وأقربهم اليه السيد «جلال الطالباني» ولايختلف الأمر بشيء أن يكون مع ذلك فأصغر المقربين اليه سناً وبعد السنين فيما بين الستين والتسعين فلابد أن يكون ابن العشرينات ومثل ذلك فيما استجاب اليه الحزب الوطني الديمقراطي المتشدد في مثل هذه الأمور وكان من يمثله وبخاصة ففي عالم الصحافة ألمع الشخصيات فيها عنده وهو السيد «عبد الله عباس» . .

وبمثل ذلك فما كان من القوميين الذين كان يمثلهم الشاب الطيب والنزيه

السيد «قاسم حمودي» صاحب جريدة «الحرية» وهو والد القطب البعثي ونقيب الصحفيين من بعدي في أوائل السبعينات، السيد «سعد قاسم حمودي».

على الرغم من كل ذلك فقد كانت هذه النقابة تعج بأسماء تحمل في حقائبها كل تناقضات العراق ومشاكله وان تلك الأسماء إما أسماء متحزبة وإما مستأجرة وإما دخيلة على هذا العمل.. الأمر الذي جعلني هدفاً لأكثر من مستهدف ورمية لأكثر من رام، وكان ذلك في اطار الحملة على كل تقدمي أويساري أوصاحب فكر نظيف.. ولأنني في الصميم من هذه المهنة فقد كنت المستهدف الأول من أصحاب صحف اليمين ومن أصحاب الصحف المستأجرة لصالح فئات وأحزاب مرتبطة مما أعجزعن وصفه..

بالرغم من اني حاولت كثيراً أن أنهض بواقع الصحافة وبالرغم من أنني التمست «عبد الكريم قاسم» ذات يوم للافراج عن صحفيين معتقلين كان فيهم من هو من أصحاب اليمين أكثر ممن هم من أصحاب اليسار وأطلق سراحهم..

وهنا يخطرني ما كتبه «اوريل دان» في مؤلفه الضخم الفريد من نوعه في «المحايدة» والتوثيق والأمانة «العراق في عهد قاسم».. حيث قال:

(بعد انشاء نقابة الصحفيين مباشرة واجهت هيئتها الادارية اليسارية المتاعب من السلطات فبرغم ازدهار الصحافة اليسارية حينذاك قدم رئيسها الجواهري استقالته بعد أول انتخابات لها في ايلول **١٩٥٩** بسبب المصاعب التي تكتنفه أثناء تأدية واجباته «إزاء النقابة» وأيدت الهيئة الادارية شكوى الرئيس لكنه اقنع بسحب استقالته.. ص **٣٩٩**)..

وكما قال: فقد كانت الصعاب عليّ أكثر من أن تحصى في هذه النقابة وكيف لا وفيها كل هذا الخليط العجيب وكل هؤلاء المدسوسين وكل أولئك المستأجرين.. كيف لا والعراق يعيش غليان أحزابه وهذه الأحزاب لاتتوانى عن استعمال أية وسيلة وصولاً للامتيازات...

كيف لا وعبد الكريم قاسم كان يفتح صدره للوشايات والدسائس وأحياناً كثيرة يباركها ويثني على أصحابها...

انها مهمة صعبة في زمن صعب.. ألقيت على عاتق رجل صعب كذلك.. وبئست هذه المهمة عليّ وعلى مستقبلي

ضجة في الكويت

بعد أن كان ما كان من تسلمي رئاسة اتحاد الأدباء ونقابة الصحفيين وفي جو كان فيه الأدباء متجانسين رغم اختلاف تحزبهم وانتماءاتهم. . تلقينا كاتحاد أدباء دعوة للمشاركة بمؤتمر عربي يقيمه اتحاد الكتاب في الكويت وتشارك فيه اتحادات كتاب عربية كلها حديثة العهد. . وتشكل الوفد بصورة جميلة ومدروسة ومن شخصيات أدبية تمثل كافة الاتجاهات وقبل أن يسافر الوفد بيوم واحد قابلت الزعيم عبد الكريم قاسم وسألته ان كان يود أن يرسل رسالة ودية وفي هذا الجو بالذات الى أمير الكويت تساهم في تلطيف الأجواء المتوترة آنذاك. .

فأجابني وبالحرف الواحد. . أنا ياأستاذ الجواهري لم أكتب حتى الآن رسالة بخط يدي ولكن لك أن تحمل مني رسالة شفهية الى أمير دولة الكويت، ولم يكن ذلك بالشيء القليل في ظروف بمثل تلك الظروف. .

أقلتنا الطائرة الى البصرة ريثما ننقل بأخرى الى الكويت وما أن وصلنا بالثانية الى الكويت حتى كانت المفاجأة. .

فقد وجدنا وعلى طول الطريق الموصل من المطار الى الفندق لافتات مكتوبة بالخط العريض الواضح وعليها عبارات تقول:

احذروا الشيوعيين. . احذروا الشيوعيين. .

وللحقيقة لم يكن بين كافة أعضاء الوفد المكون من سبعة أو ثمانية أشخاص سوى ممثل واحد للحزب الشيوعي العراقي وهو الدكتور «صلاح خالص» أما الباقون فلم يكن واحد منهم ذا علاقة من قريب أو بعيد بالشيوعية والشيوعيين. . بل كان فيهم أكثر من واحد من الناقمين على الشيوعية. . واذا كانت هذه

الاستقلالية بحاجة الى أكثر من شاهد بوسعي أن أعد منهم الشاعر «حافظ جميل» والباحث واللغوي «كمال ابراهيم» والمؤرخ «علي الخاقاني» والشاعرة «نازك الملائكة» والعلامة المتجرد الدكتور «مهدي المخزومي» والأديب الكاتب الدكتور «علي جواد الطاهر» والشاعر «محمود الحبوبي» وفي الصميم من هؤلاء جميعهم أنا المستقل بذاته وقراراته وتصرفاته بالذات.

المهم وقبل يوم الاجتماع وكما هو المألوف كان علينا أن نزور أمير دولة الكويت، وانتدبت أنا والدكتور المخزومي والشاعر الحبوبي وذهبنا اليه وجلسنا ناحية بينما هو مشغول أو متشاغل بالحديث مع أحد أعضاء الوفد المصري بحيث وجدنا أنفسنا في موقف لانحسد عليه ونحن نمثل الوفد العراقي لاغيره.

وحفظاً لكرامتنا وكرامة الوفد أومأت الى زملائي بالنهوض ونهضنا فعلاً لنجد أنفسنا ونحن نستأذن الأمير بالانصراف أي كما يقولون: ماسلّم حتى ودّع..

وقطع الأمير حديثه على وجه متكلف ليقول لمحدثه كلمة واحدة لم أعرف مدى صلتها وعلاقتها بالحديث وهي بالحرف الواحد.. «والعراق»..

صحيح أنني ارتكبت خطأ في هذا اللقاء تنبهت اليه فيما بعد وهو أن الواجب الرسمي والدبلوماسي كانا يقتضيان أن أبلغ الأمير بأنني أحمل اليه رسالة من الزعيم ليكون بعدها ما هو مألوف من الشكليات والرسميات والمراسيم، غير أن الصحيح أيضاً أن موقف التجاهل من ذاك الأمير كان أكثر مما يحتمل بحيث أنساني كل شيء إلا احترام الذات واحترام الخصوصية التي يتمتع بها ذلك الوفد.. على أي حال فقد كان تصرفنا منسجماً كل الانسجام مع مرارة واقع ذلك اللقاء.

وانصرفنا لنعود الى قاعة اجتماع الوفود كلها.. ولربما ومن باب المعادلات أن يكون مجرد أننا الوفد العراقي أقوى البواعث على اختياري رئيساً للجلسة أي أن يكون هذه المرة العراق حيث يجب أن يكون..

ابتدأت الجلسة الأولى وفق الرتابة المنهجية للمتحدثين، وجاء دور الكلمة للوفد العراقي وهنا اعترف أنني أخطأت ثانية بعد خطأي الأول بعدم تبليغ الرسالة الشفهية من الزعيم الى الأمير، هو أنني أعطيت الكلمة لصلاح خالص.. إذ كنت بذلك التصرف كمن يصب الزيت على النار... وبدوت وكأنني أعطي هوية للوفد العراقي وهو ماكان يتمناه كل من في القاعة.

وزاد الطين بله أن صلاح خالص لم يكن قد أطلعني على كلمته أنا بالذات

على الأقـل بوصفي رئيسـاً للوفـد، اذ لوتم ذلك لكنت أعتقد جازماً انني سأصرفه عن الموضوع الذي طرقه وللأسف والى جانب ذلك كله فقد أطال وأسهب في ذلك الجـو المحمـوم عن الخوارج والقرامطة وتصوروا معي مثل هذا الحديث في مجتمع له تقاليده وخصوصياته وأعرافه وأزماته . .

والحقيقة أنني قسوت على صلاح خالص فيما بعد وعجبت منه لماذا لم يطلعني على المـوضـوع الـذي سيطـرقـه . . وكيف يطـرق مثل هذا الموضوع لاغيره في جو تآمري يعيشه الخليج وفي بيئة لها كل تلك الخصوصيات . . وكان ماتوقعت . .

إذ نهض أحـد أعضـاء الوفد المشترك السوري المصري إبان الوحدة المصرية الـسـوريـة وهـو السيـد «محمـد حيـدر» وكان شخصية بارزة ومثقفة وطالب بالرد . . وأعطيته الحق في ذلك فأطال وأطال أيضاً وبما لايقل عن الغلظة بل التهجم في رده الى أن نفـذ صبر ي ودققت على الطـاولـة مطـالباً اياه بانهاء كلمته إلا أنه بعناد قد يكون مدبراً أو طبيعياً لست أدري استمر في الحديث .

دققت على الطاولة ثانية وقلت له :

إما أن تكف وتسكت وإما فان هذه الجلسة ستخرب . . وسننسحب من هذه القاعة . . فلم يتعظ الرجل .

فنهضت . . ونهض الـــوفـد العـراقي بأكمله معلنـين الانسحـاب . . إلا أن النخـوة العـربية والعراقية بخاصة دفعت العراقيين العاملين بالكويت لإعادتي الى المنصة والرجل مازال واقفاً والوفود في تململ وحيرة ولبكة ، أخذت مكاني وقلت للرجل :

يااستاذ حيدر . أطلب منك مايجب أن يطلب أن تعتذر من الحضور ومني كذلك . .

وبينـما هو متعثـر في الـرد أو بما يكاد يشبه الرفض واذا بصديقي الشهير المبدع الفقيـد «رئيف الخـوري» وكان يرأس الوفد اللبناني يقف على امتداد قامته ليقول : أتعتـذر أم ننسحب كلنا أيضاً . . . فاضطر الرجل إلى الاعتذار ، وحينها وقد تألمت بمثل ماعسى أن يكون قد تألم حيدر نفسه ووجدتني مضطراً أن أبدي له أسفي ، وحزني على أن ننجـر الى مثـل هذه النهـاية . . مضيفاً : اننا لم نأت الى هنا لتبادل الشتائم ولا لنتصارع أو نتشاجر . . واننا لم نأت لنتكتل أو لنتحزب أو نتعصب وأنت تدري كما يدري الآخـرون أنـك لو اشعلت سيجـارة في البصرة فستطفئها في الكويـت . .

ومع ذلك لاقينا مالقيناه من لافتات على طول الطريق.

ثم ان هذه المسافة القصيرة بين البصرة والكويت لم تدعني أكمل قصيدتي «يافا» التي كنت أتغنى بأبياتها وأشرت الى الدكتور «المخزومي» على أنه الشاهد.. فهتف الجميع.. نريد القصيدة نريد أن نسمع القصيدة ولبيت الطلب وكان منها....:

بـ يافا يوم حط بها الركاب   تمطّر عارض ودجا سحاب
ولفّ الغادة الحسناء ليل   مريب الخطو ليس به شهاب
وأوسعها الرذاذ السح لثما   فقيها من تحرشه اضطراب
ويافا والغيوم تطوف فيها   كحالمة يجللها اكتئاب
وعارية المحاسن مغريات   بكف الغيم خِيطَ لها ثياب
كأن الجو بين الشمس تزهي   وبين الشمس غطاها نقاب
فؤاد عامر الايمان هاجت   وساوسه فغامره ارتياب
أقلتني من الزوراء ريح   الى يافا وحلق بي عقاب
فيالك طائراً فرحاً عليه   طيور الجو من حسد غضاب
ولما طبق الارج الثنايا   ولوح من جنان الخلد باب
ولاح «اللد» منبسطاً عليه   من الزهرات يانعة خضاب
نظرت بمقلة غطى عليها   من الدمع الظليل بها حجاب
فقلت وما أطيق سوى عتاب   ولست بعارف لمن العتاب
أحقاً بيننا اختلفت حدود   وما اختلف الطريق ولا التراب
ولا افترقت وجوه عن وجوه   ولا الضاد الفصيح ولا الكتاب

وتمشى المرح والفرح وهم يسمعون الشيء الجديد على الوجوه الكئيبة شبه المتآمرة.. وبعد ذلك كانت الطلقة أو القنبلة قائلاً: هل تعلمون أيها الحضور وأنتم أيها الكويتيون المسؤولون عن الوفود أنني أحمل رسالة من زعيم الثورة الى أمير الكويت.. وعندها ضجت القاعة وبما يشبه العاصفة من الهتاف والتصفيق وأضفت:

هي رسالة ود متبادل وعطر تاريخ مشترك وأن البغضاء ليست من شمائل أهل العراق وأن العراق قربان وحدة وشعبه قربان وفاء..

ومن هذه اللحظة تبدل الموقف ليصبح رسمياً وخرجنا نحن الوفد العراقي

منتصـرين شامخـين على كل الـوفـود المتـآلبة علينا وتبلغ أمير الكويت بالرسالة وقد تليت على رؤوس الاشهاد . .

وذهبنــا مرفــوعي الـرأس الى حفلة العشـاء المقـامـة للوفـود والتي قضت فيهـا المراسيم ومن جديد ألا تفتتح المائدة إلا على يد الوفد العراقي ومددت يدي قبل أي يد أخرى اليها .

منـذ تلك اللحظـة كما قلت : انقلبت الحـال الى حال وبدأنا نعامل باحترام لايوصف رسمياً وشعبياً وكأن هذا المؤتمر لنا بعد أن رتب كل شيء ليكون علينا . .

الى أن كتبت احدى الصحف في اليوم الثاني تقول : لايجوز للشاعر الأوحد أن يستعمل لفظ الزعيم «الأوحد» وتقصد كلماتي عن عبد الكريم قاسم التي وردت في الخطاب . .

احتججت صباح اليوم التالي على ماورد على لسان الصحيفة وقلت :

أنا عراقي وأنا أنطق بلسان رئيس البلاد . . وعار أن أحاسب على لفظ منفرد مهـما كانت حيثيـات ذلـك اللفظ ومهما كانت مدلولاته ومهما كانت مراميه ، فاما أن تعاقب هذه الجريدة التي نصبت من نفسها قاضية ألفاظ واما أن نعود الى العراق . .

وعطلت الجريدة ليوم واحد . .

وهـذا التعطيـل كان سابقـة أعتـز بها لمجـرد أنني أؤمن بالموقف والدفاع عن المكانة قدر اعتزازي بحرية الصحافة . .

والحق . . أنني ذكـرت كل هذه التفـاصيل لأدلل على أن الوطن العربي ممزق ويا للأسف وأن بعض قضاياه السياسية والحدودية والوجدانية قابلة للتحكم من خلال أفـراد يرون العـالم من خلال مصـالحهم . . ولأؤ كـد أن العراق بنظري هو الكويت وأن سوريـة هي فلسطـين وأن كل ناطق بالضـاد شريـان من عصب هذه الأمة مهما عملوا به تمزيقاً فلابد أن تلتئم جراحه وينتفض على العابثين . .

الفصل الثالث

السفر إلى موسكو ودول أخرى

في هذه المراحل الانتقالية من تاريخ العراق وفي زحمة انشغالي بترتيب أمور اتحاد الأدباء ونقابة الصحفيين تأتي زيارتي الى الاتحاد السوفيتي للمشاركة في اتحاد الكتاب السوفيات بدعوة خاصة منهم وكان ذلك فترة الاهتزازات والمفارقات والنكسات التي تطفوا على سطح علاقات نقابة الصحفيين . .

وبينما أنا أهيء حقائبي للرحيل وإذا بجريدة الحزب الشيوعي العراقي «اتحاد الشعب» تنشر نبأ يقول : ان وفداً ـ بالحرف الواحد ـ وفداً . . . «فلان وفلان» سيغادر الى موسكو . .

الحقيقة أنني تألمت جداً حين قرأت هذا النبأ لأنني أعرف من يكون فلان هذا أعرف أنه بعرف المقاييس الأدبية لايستطيع أن يكمل بيتاً شعرياً واحداً وأعرف أنه بعيد كل البعد عن أي علاقات أدبية وترشيحه معي بغض النظر عما فيه من مساسة لكرامتي . . فتخريب ـ أومايشبه التخريب ـ للدعوة الخاصة بي والموجهة إليّ شخصياً في الحقيقة أحرجت كثيراً وأنا أناقش أمر الغاء هذه الرحلة أومرافقة هذا الرجل . . وما لبثت أن اتصلت بسكرتير السفارة السوفيتية «ومعروف كم كان للسفارة السوفياتية من دور في تلك الظروف» وكان صديقي وصديق الصحف كلها لأقول ما هذا ياصديقي؟ . . . ليجيب : أهذا منا يافلان . . انه من اخوانك الشيوعيين . . .

غريبة هي أمور اخواني الشيوعيين ، لماذا لم يختاروا من بين كل أعضائهم إلا هذا الرجل الذي لاعلاقة له بي بأي وجه من الوجوه ، لماذا لم يختاروا ـ لو صح أن يكون هناك اختيار ـ «صلاح خالص» مثلاً أو أي رجل يستطيع أن يثبت جدارة في

ميدان الكلمة ويكون واجهة حضارية لهم . . ولماذا لم يراعوا الفرق الكبير بين حضوري وحضوره في محافل أدبية تحتاج رجالها . . . وكان أن دفعت ثمن رفقة هذا الشخص «الموفد» . . .

ففي أول يوم من السفر فوجئنا في مطار «استكهولم» ولسوء الحظ بأننا موقوفان وكان يومها هو يوم قدوم الشاه الى هناك وأخذنا الى فندق صغير وفتشنا، وجاءت الطائرة ورحلت ولم نزل على تلك الحال. وجائتني الفكرة هنا وأنا الذي لايراسل جريدته من الغربة كما كان يفعل الآخرون . . وقررت أن اكتب رسالة احتجاج الى جريدتي «الرأي العام» أتساءل فيها عن سر هذا التوقيف وأسبابه وأغراضه، وفهمنا فيما بعد، أن هذه الفكرة قد أتت ثمارها، وأن هذا الاحتجاج قد وصل الى وزارة الخارجية، وليأتينا ونحن في موسكو رجلان مهذبان من السفارة الدانمركية ليقدما اعتذارهما وأسفهما لما حدث، وليدعوانا الى الاقامة في الدانمارك لمدة اسبوع.

لا أدري، وهذه واحدة من غفلاتي، لماذا لم أقم وأنا المسؤول الأول والأخير عن هذه السفرة، بتلبية هذه الدعوة وقبول هذا الاعتذار الكريم وعلى أعلى مستوى؟ ولماذا أرجع الى التقاليد البدوية بل والجاهلية، بأن أشارك هذا الموفد «الواغل» علي في أمر قبول هذه الدعوة، فلا يكون منه إلا رفضها، وأن أنزل على حكم الأمر الواقع فأثني على هذا الرفض، ليقوم الرجلان الوقوران وبكل صمت إلا من كلمة «الوداع».

ولم يكتف صاحبي بذلك، وكان قد عين لنا مرافقاً في تجوالنا وتصريف أمورنا، وإذا بهذا «الموفد» يستولي عليه بدعاباته وأحاديثه المضحكة ولأبقى وحيداً سجين غرفتي ليوم وأكثر حيث شاء الحظ أن يتصل بي «جورج تللو» وهو من الطلائع الخيرة من الحزب الشيوعي ولايخلو كل حزب من طلائع خيرة وشباب واعٍ ويسألني عن حالي ووضعي . . وحين أخبرته بواقع الحال اتصل مباشرة بمؤسسة الشبيبة «الكومسمول» الآمرة الناهية وقتذاك، فينقلب الواقع من حال الى حال وتكون الضارة نافعة بل ونافعة جداً . . فلقد كان من تأثير المسؤولين عن «الشبيبة السوفيتية الكومسمول» بل ومن غضبهم عل هذه المفارقة البغيضة بأن لم يكتفوا باراحتي من هذا المرافق الثقيل بل وبعزل المسؤول الموكل بنا. وأبعد ذلك الموفد الى فندق آخر وأكثر من هذا بكثير فقد أبلغوني أنهم من هذه الساعة حتى ساعة عودتي مسؤولون بكل معنى الكلمة عن رعايتي وفي المقدمة من هذه الرعاية ما اذا كنت

بحاجة الى الاستجمام أو الى الاستراحة أو التداوي ولشد ما كانت غبطتي بهذا العرض ولشد ماكنت عليه من تعب وارهاق بلغ حداً يفوق التصور، وحسب القاريء ماتعرف عليه من تحمل ثقل أكثر من مسؤولية واحدة فمسؤولية عبد الكريم قاسم نفسه قبل النقابة والنقابة والصحيفة والصحيفة والموقف والموقف. . . ووجدت هذا الطلب في محله وقلت لهم: أنا لا أشكو مرضاً معيناً لكنني أحس بالهزال والتعب فما كان منهم في اليوم الثاني إلا أن نقلوني الى أعظم مصح وأبدعه في كل الاتحاد السوفيتي الى حيث ينزل أعضاء المكتب السياسي وخصصوا لي جناحاً فخماً بصالته وحماماته، قيل لي أن الرئيس الاندونيسي «سوكارنو» كان فيه ثم كان يوم الفحوص حيث تجمع خمسة من كبار الأطباء المختصين وصوروا لي المعدة والكبد والأعصاب كما جاؤ وا بطبيب أسنان من كبار أطبائهم لازلت أذكر ضخامة رأسه وقصر قامته وصمته المطبق أيضاً حيث أخذ القالب لأسناني ليجيء به وياللعجب في اليوم الثاني أو الثالث، وحين أبديت عجبي واعجابي قالوا لي: ان هذا الطبيب هو طبيب ستالين العظيم الخاص والذي ركّب أسنانه حيث لم أزل حتى هذه اللحظة أي بعد أكثر من ثلاثين عاماً من تركيب القالب وأنا أحمله معي دون أن يحس من يراه بأنه صناعي. . .

عودة بسيطة الى الوراء الى حيث كنت في غاية الدلال والتكريم بعد أن تم عزل المرافق ونقل الموفد وتبدل الموقف من حال الى حال كنت فيه من العناية والتكريم ما اعتقد أنهما لم يكتبا لأحد غيري ومن طبقتي في العالم العربي كله. . عودة لاتذكر النقطة التي لم تزل عالقة بدمي حتى هذه اللحظات. . بينما هذه الذكريات متعلقة بالتاريخ. النقطة التي من خلالها اقترحت منظمة الشبيبة (الكومسمول) أن تكون مرافقتي المذيعة السوفيتية المستشرقة التي تجسد في حضورها وسحرها وعذوبة ألفاظها ولكنتها المصرية الممزوجة بنغم اللغة الروسية أعظم قصيدة لم يكتبها الشعر بعد. .

لقد جاءتني هذه الساحرة لتجري معي حديثاً لاذاعة موسكو لكم تمنيت وقد فتنت بها لأول لحظة أن تبقى الى جانبي ولو ساعات قصارا. . وما لبثت هذه الأمنية أن أصبحت واقعاً ومن صميم تكريمهم قرروا أن تكون هذه الرائعة مرافقة لي. .

بقينا في موسكو ليومين أو ثلاثة وبعدها أريد لي ولا أقول لها أن تكون مرافقتي الى المصح في «سوتشي» على البحر الأسود . .

قلت أنها عالقة بدمي لأنني حتى هذه اللحظات التي يتسنى لي بها سماع اذاعة موسكو اذكر غنجها ورقتها اذكر عذوبتها اذكر صلابتها وقوة ارادتها اذكر رقتها وكبرياء مواقفها الى الدرجة التي أربكتني وأوقعتني في القلق وأنا بين أيدي الأطباء . . متسائلاً : كيف تنتصر إرادة الموقف في مقاومة احساس شاعر يطمح حتى ولو بلمسة من يدها . .

وبعد في غمرة هذه الصور المتلاحقة لهذا التكريم بكل جوانبه وإيجابياته فقد عنَّ لي سؤال له مايبرره وهو لماذا تكون مقاييس التكريم أحياناً كثيرة مرتبطة بزمن ما . . بموقف ما ـ بمكان ما ـ بمصلحة ما . . وليس لمجرد التكريم والدلال . .

ألأنني الشاعر العراقي والعربي كما يقولون . . ألأنني رئيس اتحاد الأدباء ونقابة الصحافة . . الحقيقة لاهذا ولا ذاك . . .

فقد كرمت كل ذلك لأنني صاحب الكلمة العليا لدى عبد الكريم قاسم وإلا فما معنى أن أكرم اليوم ويلغى هذا التكريم بعد غياب المرحلة . . وما معنى أن أكون الآن في غاية الدلال وبعد فترة تعامل طلباتي في مراجعة فحص عيوني في غاية المماطلة بل ويستمر المنع حتى يومي هذا حتى فيما بعد ان انتهت مرحلة عبد الكريم قاسم . . . ولم تنته مرحلتي . .

وما معنى أن يكون صديقي عبد الوهاب محمود «سفير العراق في الاتحاد السوفيتي» وهو أكبر منصب عراقي خارج العراق آنذاك معززاً مكرماً وهو سفير وبعد يوم أو يومين من انتهاء مدته ، يعامل كما يعامل مواطن من الدرجة العاشرة ويضعونه وهو في المصح في ردهة مكتظة بالمرضى بل وأكثر من ذلك فقد ضايقوه بالرحيل (ورسالته إليّ والتي يقول لي فيها انه في قاووشٍ مكتظٍ بالشيوخ والعجائز محفوظة لدي ببغداد) وكل ذلك لمجرد أنه لم يعد سفيراً ولم يعد بيديه شيء من مقدرات الأمور ولاتشفع له مواهبه ولاكونه فيما قبل وفيما بعد نقيباً للمحامين ووزيراً ومسؤولاً ولفترة معينة عن حركة أنصار السلام العالمي . .

وأسأل كل هذا لأنني أبحث عن الانسان في كل علاقة وعن المكانة في كل رد فعل وعن مغازي التكريم في كل موقف ولم أنا متلهف أن تكون رياح التغيير التي قام بها ومايزال غورباتشوف ناجحة ومثمرة تعيد الى العلاقات الانسانية نقاءها

وصفاء تطلعها الى الحضارة . .

وأعود الى مايصح تسميته «بمجمّع كبار الأطباء» في هذا المصح الخطير حيث تجمع حولي حفنة منهم كل باختصاصه وحيث جاؤوا اليّ بسجل كبير مفتوح على صفحته وكأنني أمام حاكم تحقيق عادل وأمين ليدونوا فيه كل مدارج حياتي وتفاصيلها قالوا :

ياسيد «جواهري» نعرف أنك الشاعر الأول في العراق وأنك أول رئيس اتحاد للأدباء فيها وأول نقيب للصحافيين فهل لنا أن نتعرف على اللقطات الهامة منها وأنت موزع بين كل هذا المهمات . .

وما هي اللقطات المطلوبة أو ماهي النماذج التي يمكنني الحديث عنها . .

قالوا : على سبيل المثال : فكرة عن الحقوق التي تحصل عليها مقابل هذه الواجبات وما هو مستوى الحياة التي تعيشها . .

قلت : ياسادتي كل هذه الواجبات التي عددتموها هي بدون أي حقوق كانت وبدون أي مقابل كان أما عن نمط العيش فأنا أعيش فوق أدنى المستويات بقليل أي دون متوسط الحياة . .

قالوا : أنت رئيس اتحاد الأدباء فكم هو المرتب الذي تتقاضاه من أجل هذه المهمة .

قلت : ولا فلساً واحداً . .

قالوا : وعن مهمة نقابة الصحافة قلت ولا فلساً واحداً . .

ودهش الجميع (ومابين الابتسامة والضحكة) قالوا : ومن أين تتدبر أمورك اذن . .

قلت : من جريدتي التي تربح يوماً وتخسر اسبوعاً وتربح يومين وتخسر اسبوعين وقد تركتها وهي مدينة الآن وتركت نفسي مثقلاً بالديون كذلك .

قالوا : وبيتك . . .

قلت : ليس لدي أي بيت أملكه لا أنا ولا كل أفراد عائلتي . .

فصعقوا وقالوا : أنت شخص بثلاثة أشخاص شاعر ـ ورئيس ـ ونقيب وتكون كذلك .

ثم بدأ كلّ باختصاصه الواحد بعد الآخر . القلب والصدر . . الكليتين ـ المعدة ـ الضغط ـ الدماغ ـ العيون ـ وبعد كل هذه الاجراءات الدقيقة

والفحـوصـات المنظمـة استـدعيت في اليـوم الثـاني أو الثالث لأبلغ : إنك سليم من أي مرض وهــذا ماهــو نادر لمن هو في مثــل سنــك ومشــاغلك ولكن كم أنت تعب ياجـواهـري . . والى حد الارهـاق، فخذ الحمامات وتناول الأشربة والأطعمة التي تشـاء وخـذ القـارب المشـدود الخـاص لك للسياحة في البحر الأسود . . كل مافيك حسـاسيـة الحـر والـبرد . . نوصيك بالوقاية منهما وان تضع طاقية على رأسك في يقظتك ومنامك وهذا ما أنا عليه حتى يومي هذا . . ومنه كانت وما تزال الأجوبة مني على كثـرة التسـاؤلات عن هذه الطـاقيـة. تعـافيت تمامـاً في ذلـك المصـح ووصـل وضعي الجسـدي الى ما يشبـه السمنـة قيـاساً الى وضعي السـابق، وكان أول شاهد على ذلك ولدي الدكتور «فلاح» الذي كان يدرس الطب في موسكو حيث يكاد لايتعرف عليّ لابسبب الطاقية بل بسبب ماطرأ على صحتي من تحسن . .

عدت الى موسكـو وفيهـا تلقيت الـدعوة الى هنغاريا . . بلغاريا . . ثم الى ألمانيا الشرقية وأخيراً فيينا ولبيت هذه الدعوات كلها . . .

غادرت موسكـو الى صوفيـا ولقيت فيها مالقيت في موسكو من رعاية وتكريم وسألوني أيضاً عن وضعي الصحي فقلت لهم وقد أحسست بألم في عيني أني أشكو منهما وللحقيقـة فقد قاموا بالواجب وأخضعوني لفحوص دقيقة وعلى يد أكثر من طبيب وعـرضت على أكثـر من جهـاز ولكن ويـا للأسف فقد كانت النتيجة أن المرض هو «المـاء الأبيض» وهنـا تسـاءلت بيني وبـين ذاتي بسخرية وألم أي ماء أبيض وعيناي يضرب بهما المثل في السواد . . وهذا السواد في العيون مما يتغزل به الشاعرون . .

بعـد صوفيـا سافرت الى بودابست الساحرة وقد وجدت فيها من التكريم ما وجدت في الاتحاد السوفيتي وصوفيا بفارق واحد هو أنهم هنا لم يسألوني عن صحتي بل وتغاضوا عن هذه الناحية برمتها ووجدت أن بودابست نفسها تكفي لأن تكون الطبيب المداويا . .

وليس هذا القول من باب الطرافة والنكتة بل انني حقيقة لم أشك من أي ألم في عيني في بودابست بل وصل الأمر حد رؤية الغابة والشيخ :

ورأى الـشـيـخ خلال الـغـابـة ... الـدكـنـاء أشـبـاحـا تلوح
بعـضـهـا يصـهـر بعضـا فتمنى ... وتـشـهّـى لو يروح
عله يقطـف منهـا ... ثمـر الجـنـة غضّـى

بعدها سافرت الى برلين ولقيت أيضاً مالقيت من تكريم حتى أن هؤلاء بعثوا إليّ بمرافق من وزارة الخارجية أي عاملوني على وجه رسمي وهنا كما في موسكو سألوني عن وضعي الصحي وفيما اذا كنت أشكو من أي شيء فقلت من جديد «عيوني». .

قالوا لي وبكل صراحة . . هناك اثنان عالميان في طب العيون واحد منهم انسلّ في ليلة ظلماء الى برلين الغربية وبقي ساعده الأيمن هنا وله عيادة خاصة وبالرغم من أن مواعيده ستحتاج الى انتظار طويل فستتدبر الأمر . . وفعلاً اقتنصوا لي موعداً في اليوم الثاني وتلقاني الرجل بكل لطف وفحصني بكل دقة واهتمام ورعاية وحرص ليقول لي في خاتمة فحصه الدقيق . . ان عينيك سليمتان كل السلامة وليس فيهما أي عارض مرضي . . فقط أنت تعاني من ضعف لايتجاوز نصف نمرة من أنهار العدسة ومن يومها أيضاً كانت هذه النظارة التي لم تفارقني حتى الآن . .

انتهى فحص هذا الطبيب العظيم وتقريره المفرح وتسلمت الوصفة منه ووقتها وجدت الفرصة سانحة لأقص عليه قصة الماء الأبيض الذي أنبأت عنه في كل من موسكو وصوفيا، فدهش . . أعادني ثانية الى السرير وسلط على عيني ثانية أكثر من جهاز وبعدها قال : أنا جاهز لأن أوقع لك تكذيباً على كل تلك الفحوص امض الى شأنك ولاتخف، ليس هناك لا ماء أبيض ولا ماء أسود والى هذه اللحظة وبعد أكثر من ثلاثين عاماً من تلك الفحوص لم أعثر على ماء أحمر أو أبيض أو أسود في عيني وصدق ذلك الطبيب العبقري العظيم وكذب المنجمون . . . وعلى أي حال فقد دامت رحلتي هذه أكثر من ثلاثة شهور كنت فيها اتنقل بين هذه العواصم بكل دلال واحترام وتقدير وبعدها عدت الى بغداد والى جريدتي والى الاحداث التي تعتبر نقاطاً فاصلة من تاريخ العراق . .

رأس الكرية
ومحاولة اغتيال قاسم

بعد عودتي من الدول الاشتراكية وبينما كنت أمارس العمل المعتاد في جريدتي مساء يوم /٧/ تشرين الأول ١٩٥٩ وإذا بالمسؤول الاداري للجريدة يدخل عليّ مهتاجاً ليقول:

لقد رمي «عبد الكريم قاسم».

ماذا تقول؟! . .

قال: نعم لقد رموه في رأس الكَرْيّه وللقارىء أن يتصور كيف عاشت بغداد ساعات تلك الليلة. . وكيف سيطر القلق والهلع والفزع على كل بيت في العراق وفي بغداد بخاصة وعلى مصيره. . وكيف كانت تتداعى الأسئلة على كل شفة وكل لسان هل قتل الرجل؟. . هل جرح؟. . هل الجرح خطير؟. . وماذا بعد؟. . ومن امتلك هذه الجرأة؟. . الخ. . .

وكان لحسن حظ الرجل أو لسوء حظه وأعني هذه الكلمة فلو أن هذه الساعة كانت حاسمة لعبد الكريم قاسم لكانت أروع له مما عاش بعدها ومن سوء مصيره وفظاعة نهايته بعدها، ومع هذا فقد نجا من الموت في محاولة اغتيال مخططة، مدبرة، مدروسة، شارك فيها أكثر من طرف.

وهنا أرى من المفيد أن أضع القارىء في صورة الأحداث الدقيقة التي عشتها والتي وجدت غنى عن تفاصيلها بما جاء في كتاب أوريل دان «العراق في عهد قاسم». (والذي نقله الى العربية عن الانكليزية صديقي المحامي جرجس فتح الله) حيث جاء في الصفحة ٣١٨ منه. . .

[بعد فشل حركة الشواف اختفى قادة البعث كافة وبات كل نشاط علني

لحزبهم حديث خرافة وشمل ذلك الاتصالات المؤقتة التجريبية والتخطيط مع الناقمين من شتى الهويات، وهو الطابع الذي كان يتصف به النشاط البعثي خلال الاشهر الستة المنصرمة، فقد كان الآخر ضرباً من المستحيل في جو من الخوف والاستسلام الذي طغى على القطاعات المعادية للشيوعية من الجمهور ولهذا بدا قتل قاسم الحل الأوحد فعلاً والى هذا انصرفت القيادة القطرية لحزب البعث الى تحقيق هذا قبل ختام شهر آذار ١٩٥٩ . .

وأقر المخطط التمهيدي بسرعة أن يدفن قاسم تحت وابل من نار الأسلحة الأتوماتيكية والرمانات أثناء مروره بسيارته في شارع الرشيد بين منزله في حي «العلوية» جنوب بغداد وبين مقر عمله في وزارة الدفاع الواقع وسط المدينة على الضفة اليسرى. . وعينت «رأس الكَرْيّة» لتنفيذ العملية. . حيث يضيق شارع الرشيد وتؤدي اليه أزقة متداخلة ذات فرص جيدة للهرب. .

وتألفت هيئة التنفيذ من «فؤاد الركابي ـ وعبد الله الركابي ـ واياد سعيد ثابت ـ وخالد علي الدليمي» وكلهم أعضاء في القيادة القطرية لحزب البعث. . أنيطت مسؤولية التنفيذ «باياد ثابت» وتقدم التنظيم والتخطيط بسرعة فائقة. . وتم الحصول على السلاح والعتاد من تجار الأسلحة في العراق على مايبدو، وهو ليس من الأمور العسيرة، وهيئت نقاط مراقبة في رأس الكَرْيّه وعلى طول الطريق من العلوية الى وزارة الدفاع واتخذ نظام اتصال رمزي وجرى التمرين على السلاح في قاعدة مرتجلة في بقعة خارج «المسيب» وأمنت خدمات طبيب (ولعله يريد به د. تحسين معلاّ وهو الآن من المتمردين على حزب البعث) وفي أوائل حزيران تمت الاستعدادات لإنزال الضربة. .

وعندها. . عندها فقط بحسب قول «الركابي» تراءى للجنة أن الاغتيال بهدف الاغتيال لاجدوى فيه فقد يؤدي الى تقديم العراق لقمة سائغة للشيوعيين وصوتت القيادة القطرية على ارجاء العملية حتى تأمين استعدادات كافية لاقامة نظام يعقب حكومة قاسم.

في نهاية شهر تموز توصلت قيادة البعث القطرية الى إعادة تقويم الموقف في فرضية محكمة ووضعت مشروع إزالة قاسم من الوجود على قاعدة واسعة، وتركت خطة الاغتيال قائمة وبضمنها المتطوعون لتنفيذها بعد استبعاد واحد منهم لأسباب انضباطية على مايبدو.

وانشئت صلات بعـدد من الضبـاط الاحرار وغيرهم من جماعات قومية غير بعثية وكانت صلتهم بالجيش الرائد «صالح مهدي عماش» الذي لم يمر وقت طويل على إطـلاق سراحـه وإعادته الى الخدمة الفعلية ووعد «صديق شنشل» بالمساعدة المالية اذا لم يكن لديه مايقدم خلاف ذلك لأن حزب الاستقلال كان في حكم الميت لايستطيع حراكاً.

وكان الانقلاب الأعظم في الخطة هو ولاشك اعتماد تنصيب الفريق «نجيب الـربيعي» رئيس مجلس السيـادة الحـالي رئيسـاً دستـوريـاً للدولـة، فميـوله المعادية للشيوعية معروفة.

وهكـذا قررت القيـادة القطـرية المخاطرة بمحاولة كسبه وتعاونه وبطلب من الركابي فوتح عن طريق صديق شخصي له هو «شكري صالح زكي» العضو البارز في الجبهـة القـوميـة والتي يحف بها الغمـوض، وغـير البعثي. (وبـالمنـاسبة ـ وعلى ذكر «أوريـل ذان» ـ لفؤاد الـركـابي هذا وبخـاصـة لنهايته البائسة في أوائل السبعينات وهو يلازمني صبـاح مسـاء شبـه عائـذ أو لائـذ على فرط مابيني وبينـه من بعد في الميول والاتجاهات حديث سيأتي في هذه الذكريات).

كانت استجـابـة الـربيعي ـ والحديث هنا مايزال لصاحب الكتاب ـ حماسية كما يقـول الـركـابي الـذي استطـرد. . سيـدخل الربيعي وزارة الدفاع مرتدياً بزته العسكرية (في العادة يرتدي الزي المدني) فور مقتل قاسم ومن ثم يوجه خطاباً الى الشعب من الراديو ممهداً بذلك السبيل لنظام قومي جديد. . وأنشئت صلات بدار الاذاعة للحيلولة دون أي توقف أو خلل يطرأ.

وحول شكل الحكم المقبل تمَّ الاتفاق بين البعث والضباط الاحرار والفئات القـوميـة الأخـرى بأن يتـولى مجلس قيـادة للثورة زمام السلطة وأن تؤلف وزارة من أعضاء المجلس ومن زملاء لهم وقد ترددت على الألسن أسماء مثل (ناجي طالب ـ وعبـد اللطيف الـدراجي ـ وفؤاد عارف والأخير وزير في حكومة قاسم وقتذاك ومن تحصيل الحاصل أن ينهض بأعباء الحكم أيضاً أعضاء القيادة القطرية لحزب البعث والضبـاط الأحـرار الأقـدمـون أمثال «طاهر يحيى» وأحمد حسن البكر) وقوميون غير بعثيـين أمثـال صبحي عبـد الحميـد وشكـري صالـح زكي، ولم يكن دمـج العراق بالجمهـوريـة العـربيـة المتحـدة ضمن المخطـط ليس فوراً على الأقـل. . وهـذا مااشترطه الربيعي لقاء تعاونه.

بنهاية أيلول كان الاستعداد لعمل واسع النطاق قد تم ثانية وفي يوم الأربعاء الموافق للسابع من شهر تشرين الأول اشغلت محطات العملية وانذرت فرقة الاتصالات «صالح مهدي عماش» في وزارة الدفاع لاعطاء الضوء الأخضر . وفي الساعة السادسة والدقيقة الثلاثين مساء انهال على سيارة قاسم وابل من نار الرشاشات والرمانات أثناء مرورها في طريقها من وزارة الدفاع قاصدة حفل استقبال في دار البعثة الدبلوماسية لألمانيا الشرقية في الباب الشرقي وتم الهجوم في رأس الكَرْيّة كما رسم له . .

قتل السائق وأصيب الرائد «قاسم الجنابي» مرافق قاسم اصابة خطيرة ونفذت رصاصة في كتف قاسم الأيسر وقام سائق تكسي بنقله الى مستشفى «دار السلام» وهناك ظهر أن اصابته أخطر مما ظن حيث بقي في المستشفى حتى أوائل كانون الأول وأردي أحد المهاجمين وهو «عبد الوهاب الغريري» برصاص رفاقه وليس بنيران قاسم كما ادعى هو وتركت جثته ملقاة على قارعة الطريق . .

وحاق الفشل بباقي الخطة . . قيل أن الربيعي حضر فعلاً الى وزارة الدفاع ببزته العسكرية معتقداً أن قاسم قد قضي عليه وعندما اتضحت له الحقيقة اضطر للادعاء بأنه جاء للحيلولة دون انقلاب شيوعي ، وطلب بعض الضباط الأحرار من «العبدي» أن يؤازرهم في الاستيلاء على الحكم إلا أنه رفض رفضاً باتاً وهددهم اذا ما اجترأوا على الحركة . ولم يتخذ أي اجراء ضدهم كما يبدو . .

نجا قاسم وفي نجاته تعاون ولاء «العبدي» ووضع اللواء العشرون في بغداد بقيادة «اسماعيل العارف» في حالة انذار قصوى وشلت يد المتآمرين العسكريين الذين كان عليهم تولي الأمر بدلاً من اخوانهم بالمظاهرات الكثيفة التي قادها الشيوعيون . فملئت بهم الشوارع . . فشلت المؤامرة . . .]

وهكذا فقد ابتدأ عبد الكريم قاسم يتجرع الكأس المرة وهي كأس يتجرعها كل من كتب له أن يحكم العراق . . وابتدأت معاناة الرجل تتصاعد يوماً فيوماً حتى يومه الأخير .

أما أنا وبعد عودتي من سفرتي الى البلدان الشرقية ، وبالرغم من أنني مازلت أجرر ذيول العلاقة الشخصية بيني وبين كريم قاسم فقد عدت لأبدأ العد التنازلي في الحياة .لأبدأ مرحلة انهيار مادي . . وانهيار معنوي . . وكانت البداية في ذلك تبعات الحمل البغيض لنقابة الصحفيين وتبعات اندفاعي العاطفي والفطري

الى جانب عبد الكريم قاسم . . وتبعات تآلب الرجعيين والانتهازيين والعنصريين عليّ . . وهم المتمرسون على التآمر والاثارة والشتائم منذ العهد الملكي . .

أما وأنا بصدد هذا الاندفاع، وأما والحديث عن «رأس الكَرْيّة» وعن جراح كريم قاسم وملازمته مشفى دار السلام فيصح لي أن أجيء بما حدثت به القاريء قبل هذا وبصدد شفاعاتي المشفعة أن أجيء بحكاية شفاعتي لإنقاذ «منذر أبو العيس» من الإعدام . وهذه حكايتها :

ففي ذات يوم وعلى غير موعد وبما يشبه المفاجأة كان السيد «عبد القادر اسماعيل» يقتحم عليّ جلستي الهادئة ليقول لي بلهفة المستغيث :

ياأبا فرات المفتاح اليوم وحياة «منذر أبو العيس» طوع يديك أنت بالذات، فلقد قرب موعد تنفيذ الحكم عليه بالاعدام، فقلت له حاضر ياسيدي عبد القادر سأفعل مابوسعي رغم أن الزعيم جريح ولايصل اليه إلا أشخاص معدودون، وانطلقت من فوري وهتفت مستأذناً بمقابلته واستجيب الطلب تواً، ودخلت مستشفى «دار السلام» ولم يطل انتظاري ومع أن وزير المعارف وهو ضابط عسكري جاف وغليظ كان ينتظر قبلي، فقد استدعيت قبله وتلقاني الرجل بكل بشاشة قائلاً : خيراً . . قلت عائذ وشفيع وطالب رحمة وأنت أب للكل، وأبو العيس عائلة محترمة من الكادحين وأعرفهم منذ فترة طويلة تسبق معرفتي بعلاقة والدتك الكريمة بهم خلال زيارتها مرقد الامام «موسى الكاظم» (في الكاظمية) وكانوا من السدنة فيها، ومنذر هذا ابنهم العزيز المدلل وحرام أن يموت ويعدم .

فقال لي : «ياأستاذ جواهري» قد أخطأ في حق من اعتدى عليهم والحياة قصاص والحقوق حق متبادل . . فقلت له : صحيح ماتقول من أنها حقوق متبادلة ولكنني أؤكد لك أن ماسمعته كان كذباً والأمر برمته لم يتجاوز التضارب بزجاجات الكولا، وما الشاب الذي اتهم منذر بقتله وهو من السادة (الطويل) كما يسمونهم وحتى أن هذه العائلة نفسها فأنا شديد التعرف عليهم واسف على مقتل شخص عزيز منهم ومع هذا فهناك شبه اجماع على أنه قد لقي حتفه على الجسر بيد الآخرين ومنذر بريء من دمه .

فسكت وبدا سكوته بادرة رضا، وأضفت الى ذلك تساؤلي منه عما اذا كان يجب أن يسمع ذلك من قبل من كلفوني بهذه الشفاعة، وهنا اذكر شيئاً قرأته في ملامح وعبارات عبد الكريم قاسم لن أنساه أبداً لأنه يتنافى مع شخصية هذا الرجل

بكل سلطانه وجبروته وهو الخوف اذ قال: أنت تعلم يااستاذ جواهري أنني مطوق ومحاصر ثم سكت برهة من الزمن قال بعدها: ليقدموا طلباً..

وقدم الطلب وبدل حكم الاعدام بالسجن المؤبد وسلم البائس «ابو العيس» بعدها بفترة الى اعداء «عبد الكريم قاسم» في يوم ٨ شباط الشهير من عام **١٩٦٣** ليلقى حتفه.

أما في بين ما قرأته من ملامحه وهو في مستشفى «دار السلام» وبين كريم قاسم في ساعاته الأخيرة التي لم أكن شاهداً عليها وعلى فظاعتها فهو الشيء الذي لم أكن قارئاً له حسب ولا سامعاً عنه فقط ولكن شاهداً عليه بأم عيني وهي إذ أنا أزوره أكثر من مرة بعد شفائه من جراحه وفي مقره الدائم في وزارة الدفاع حيث كان يفتخر باللوحة المؤطرة وهي تحتضن ثيابه المصبوغة بالدم في «رأس الكرية» دون أي تفكير منه كما يبدو بتقزز الآخرين من زواره وأتباعه.

وحقاً أقول فقد كان مني وفي المرة الثانية أو الثالثة ما لم استطع التغاضي عنه حيث كانت مني اشارة شبه مهذبة وباحدى يديّ الممتدة فيما بينه وبين اللوحة بما فيه الدلالة الكافية على نشاز وجودها، فلم يكن منه إلا أن يرفعها في اليوم التالي وأقولها وكأنني معه اليوم وبعد ثلاثين عاماً..

عـاشـوراء السـتّين

إذا كان لكـل امـرء عاشـوراء فأنـا شخصياً لي أكثر من واحدة وعلى أكثر من صعيد وعلى أكثر من مفترق عمر. .

والمؤرخ المنصف الشـريف يستطيع أن يعود الى «عاشورائي» في الثلاثينات ليسطـر ما دفعتـه من دمي وكـابـدتـه في ليلي وعانيته في نهاري . . ونهارات منسحبة ظلمتها الى مايشاء. .

حيث يرى أنني وفي سنة واحد فقدت أربعاً من أعز ماعندي لمجرد أن أقف ضد التيار ولمجرد أني دفعت بنفسي مختاراً للسباحة عكسه وكأنني الوحيد الذي قدر عليه أن يتصدى ويقاوم النازية والنازيين في العراق، وكأنني الوحيد أيضاً الذي عليه أن يحمل لواء البسطاء الذين لايقوون على شيء سوى قبض الريح. .

ووقتهـا يجد المؤرخ المنصف أنني خســرت كل شيء ومــازالـت آثــار تلك الخســارات مسحـوبـة على واقعي بل وعلى دمي وأعصابي حتى هذه اللحظة وأنا أكتب هذه الـذكـريات وقد بلغت التسعين. . وجاشى لعاشوراء الثلاثين أن تقارن بعاشوراء أخرى من حيث الحزن والألم والفواجع . . .

غير أن العاشوراء في الستينات لاتقل بكثير من مرارتها عن تلك وذلك لمجرد أنني جعلت من نفسي ودمي الــدرع الــواقي لسـلامـة مَن معي . وعلى أي حال وللمرة العاشرة أعترف أنني كنت الشريك الأول في تحملي التبعات التي كتبت عليّ . انجـرفت بكل عفوية وبراءة وطفولة وراء عبد الكريم قاسم وكنت في غنى عن كل ذلك

ولم أكن ممن يحاولون قطف ثمار هذه المواقف المتعجلة منصباً أو مكسباً أو عزاً أو جاهـاً. . ولم أكن لأتعـظ من المـاضي وأتريث قليلاً في الخطوة بعد الأخرى وأنا

الذي دفعت ثمن العفوية والارتجال والبراءة والتعجل ما لايستطيع أحد غيري أن يتحمله . .

وحين أعود بالذاكرة الى عاشوراء الستين وأحداثها وتفاصيلها وكل ما كان مني مع الآخرين ومن الآخرين معي . . وبكل ماعانيت من تناقضات ومفارقات . . وبكل ماعشت من انقلابي على هذا الحدث وانقلابات الاحداث والاشخاص عليّ، وكيف أن التيارات كانت تتقاذفني الى حيث تريد وأقاومها مستعملاً كل شريان في أعصابي حيث أذكر كل ذلك وأراه حدثاً شاخصاً أمامي وفي خلال سنتين وأربعة شهور فقط . . فإن مخيلتي تعجز عن التصور وعقلي يتوقف عن التفكير وأعود لأقارنها بما حدث لي وأنا أرجع عشر سنوات خلت لأرى فارقاً كبيراً في عمليات تنظيم الأحداث والمواقف والتحولات . . ولأرى أيضاً أن النظم التي كانت تحرك تلك الأحداث الغابرة كانت منطقية أوشبه منطقية، متسلسلة، مقدماتها توحي بنتائجها . . وأرى كذلك أن ما وقع يجب أن يقع ومالم يقع يجب ألا يقع . .

حتى أنني رأيت ماحدث لي بعد «قصيدة الوتري» العنيفة التي مر ذكرها والتي تلقيت عقاباً عليها يشبه الثواب . . وما أعقب كل ذلك من موقف وموقف وقصيدة وقصيدة وحدث وحدث . .

كل ذلك كان منطقياً أما الذي كانت أحداثه تسير بعكس المنطق تماماً . . هو ما لاقيته خلال سنتين وأربعة أشهر فقط من عاشوراء الستينات اذ لم يبق شيء مر وقاس ومؤلم ومهين ولا منطقي إلا ما عشته وكابدته وترك بصماته الأليمة على صفحات تاريخي الممتدة حتى هذه اللحظات . . ولقد كنت في ذلك كله الباحث عن حتفه بظلفه . . والواضع نفسه في مواقف تخلو من التفكير المسبق . .

مؤتمر الصحفيين العالمي

لقد كانت البداية الممهدة لعاشوراء الستينات هي مؤتمر منظمة الصحفيين العالمية فقد دعونا لحضور المؤتمر كل الشخصيات البارزة في عالم الصحافة واستجاب الدعوة صحفيون من مختلف الجنسيات وفي المقدمة منهم سكرتير منظمة الصحفيين العالمية في باريس، وكان معظم هؤلاء الصحفيين وبحكم مهنتهم وبالإضافة الى هذا الحضور ليكونوا شهود عدل على مايجري في العراق ونتيجة لمعايشتهم الأحداث فقد خبروا كل أبعاد مايحدث من انتكاسات وتناقضات ومفارقات وتحركات رجعية وسواها . .

وحضر الزعيم عبد الكريم قاسم وبحكم «البروتوكول» والمألوف، كنت الرجل الذي يقف الى جانبه وهو يلقي خطابه . .

ولم نلبث أنا وجميع الحضور طويلاً حتى فوجئنا بهذا الزعيم وهو يشن حملة قاسية وجارحة على صحف المعارضة أو شبه المعارضة وبعبارة أوضح فعلى الصحف النظيفة، الصحف ذات الموقف والكلمة التي تناهض الرجعية وتتصدى للخطأ وتواجه الصحف المشبوهة، حملة لاأشد منها . . في حين لم يأت على ذكر الصحف الرجعية تلك وغير النظيفة بكلمة واحدة وكأنه جاء ليبرىء ساحتها ولكي يزكيها ويمنحها صك الغفران . . أو كأنه يعتبرها المثال الذي يجب أن تقتدي به الصحف . .

وهنا لم أستطع السيطرة على أعصابي . . والاذاعة تنقل الحفل وخطاب الزعيم على الهواء مباشرة .. إلا أن أجمع أوراقي التي كنت قد سجلت فيها الرد المفترض على خطابه وفيها كانت الكلمات الجميلة عن الثورة ومواقفها وموقفه هو بخاصة منها وعن دعمه الذي افترضته للصحافة الوطنية مركزاً في أوراقي على

كفاحه ضد الرجعية والانتهازية وارسائه لقواعد الحرية . . وبحركات عصبية قلت للزعيم قاسم وتلك الأوراق في يدي :

«إن هذه كانت رداً على ماكنا نتوقع أن نسمعه منك . . أما والحال هذه فانني سأطويها وارتجل غيرها» .

وفعلاً ارتجلت كلمات وأنا في حال انفعالية تعبيرية والكلمات تخترق المذياع منصبة على الجماهير داخل قاعة المؤتمر وخارجها قلت فيها :

كيف يكون منك أيها الزعيم مثل هذا الموقف ولماذا تحمل على صحف هي للثورة . . هي لك . . هي لسلامة هذه الجمهورية . . أتكافىء هذه الصحف واتجاهاتها بمثل هذا الهجوم؟ . . أهذا ثواب من تبنى أفكار هذه الثورة قلباً وقالباً؟ .

وبعد هذه الكلمات صعدت الى الشرفة التي يطل منها على الجمهور وسألته : أتكون أيها الزعيم قد استأت من كلامي هذا؟ .

قال : لا . . لا . .

قلت له : الحقيقة انني ما أزال أيها الزعيم عند موقفي ومازلت مصراً على تساؤلاتي آملاً أن لاتكون محرجة . .

وإذا به يقول وبالحرف الواحد . .

عجيب . . الاستاذ الجواهري يعارض الحرية . .

قلت له : سيادة الزعيم أهذه هي الحرية؟ أية حرية لهؤلاء الحاقدين على الثورة؟ . . وابتدأت وكأنني أخطب من جديد . .

ومن هذه اللحظة ابتدأت ساعة الصفر في تدهور علاقتي مع الزعيم والمستقبل . . ومن هذه النقطة انطلقت لأقطف ثمار التنمر والمضايقة والمطاردة . .

اذكر أن هناك حدثين ابتدأا خلال المؤتمر واستمرا ولم ينتهيا بعده . .

الأول :

ان سكرتير منظمة الصحفيين العالمية قال للمترجم وهو يوضح له خطابي وبالحرف الواحد : (لقد كنت مريضاً منذ جئت وشاهدت مايجري في العراق . . ولم يداوني إلا هذا الطبيب الجواهري وهو يرتجل خطابه) ولا أشك أن هذا الرجل المريض الشريف قد عاوده المرض وهو في مقر عمله في باريس فيما لو كان يتابع أخبار وأحداث هذه الجمهورية .

أما الثاني :

فإن خطـابي هذا عتم عليـه من أغلبيـة الصحف وهـو الـذي كان يجب أن يكون القنبلة المدوية في عالم الصحافة وبخاصة فلدى هؤلاء المعنيين بالدفاع الثائر عنه . .

ولست أدري لماذا أصـاب الخـرس كل تلك الصحف؟ . لست أدري كيف أكـون واجهـة القـذيفة الجارحة إن لم تكن القاتلة دفاعاً عنهم وهم يستلون أقلامهم ويلجأون الى عتمـة المـواقف مني ، كما أنني لست أدري كيف يهربـون من مواجهـة قضاياهم وأنا الذي دفعت بنفسي مختاراً ثمن مواجهتها . .

وتسـاءلت مرة أخـرى لماذا أصـاب هؤلاء الحقد والحسد وأنا المرمي في قلب العـاصفـة . . وفي جوملىء بالمشـاحنـات والبغضـاء والدسائس والمؤ امرات . . وأنا البعيد عنها كل البعد متناسياً أن الصحافة وأنا رئيس لنقابتها كانت ترتدي أقذر أثوابها؟ .

وكأن سيادة الزعيم يريد لتلك الصحف الدخيلة مالم تخلق له وهي أن تكون حرة بمفاهيم الحرية عنده ـ لا بالمفاهيم الحضارية ـ .

من منطلق هذا الـواقـع البـائس لما تحويـه هذه النقـابـة من عنـاصر مشبوهة وأخرى مأجورة وثالثة مدسوسة ـ ورابعة عميلة ـ وقلة قليلة تتمتع بالحياد والنقاء والوطنية . . .

كان علي كرجل يملك كرامة وأفق تفكير . . واحساساً بالمسؤولية أن أستقيل وأن أرمي عن كتفيّ عبء هذا الحمـل البغيض مهـما كانت النتـائج لأنها لن تكون بأسـوأ مما لاقيت وبـإصرار وبما يشبه الاجماع ـ لا من أرباب الصحف النظيفة فقط ـ لابـل ومن الأكثـريـة الساحقة ومن محرريها ومراسليها وسائر التابعين لها فقد رفضت الاستقـالـة وبقيت في منصبي متحمـلاً أوزاره وقـد كنت في الحقيقة متمسكاً بأعباء قانـون الصحـافـة هذا التمسـك الـذي كان جريرتي الوحيدة لدى تلك الطغمـة المعهودة ممن لايؤمنون بقانون . . ولايهتمون بوطن ولايبالون بمستقبل ومتمسكاً بأن لاتصـدر جريـدة بدون موافقة نقابة الصحافة ووزارة الاعلام . . وهو أحد بنود هذا القـانـون . . ومـع ذلـك كان هذا القـانـون يمـزق وينتفض ممزقوه عليّ وعلى وزير الاعـلام الـرجـل الطيب النظيف المبتلي مثلي بأجهزة الحكم الأقوى منه ومني وبمن حولـه من المكـرة وصيـادي الفـرص وكـان هذا الـوزيـر هو في الندرة النادرة من أعز مالـدي من معـارف وأصـدقاء . . شريفاً في كل أدوار حياته ناكراً للذات ، أميناً كل

الأمـانـة على ما يعهـد اليـه من هذا المنصب أو ذاك وهـو الفقيـد الـدكتور «فيصل السامر» ولكنه وكما قلت كان مغلوباً على أمره . .

صحيـح أنني كنت عنيفـاً في مواجهـة من يمـزقـون ذلـك القـانـون غير أن المنتفضـين كانـوا يتفـاخرون هم أيضاً بانتفاضاتهم ويفاخرون بمن يشد من ازرهم ويسـانـدهم على حد سواء من أنصـار كريم قاسم ومن المتر بصين به وبجمهوريته وبحرياته المزعومة . .

ومثال واحد ربما كان القاريء في غنى عن أمثلة كثيرة غيره هو أن تخرج ذات يوم جريـدة (. . . .) لاغـيرهـا ولاغير صاحبها وهي تتهم نقابة الصحفيين لسوء التصرف بأموالها فلم يكن مني إلا أن أطلب من وزير الداخلية بالذات ليرسل من يختاره مفتشاً لحسابات النقابة، وكان المرسل من قبله ضابطاً عسكرياً شهماً وكريماً، وضـع أمـامه سجل الحسابات وكان يشرف عليها الصحفي المؤتمن المرحوم «محمود شوكت» صاحب جريـدة «الثبـات» وبالدهشة الضابط العسكري والتي بلغت حد الاطـراق برأسـه تكـريـماً لهذا السـجـل واحتقـاراً لمن اتهمـه وذلـك عنـدما وجد أن «المكنسة» ذات الدرهم أو الدرهمين مسجلة ومثبتة . .

واعتـذر هذا الصحفي في نفس المكـان الذي نشر فيه الاتهام من جريدته . . كما تنص حروف القـانـون لامن منطلق الشهـامـة أو الـرجولة بل هرباً من الدعوى ـ التي لاأدري لماذا ترفعت عنها وكان من المفترض أن أقيمها عليه ـ . .

وللانصاف هنا ومن باب التعادل لابد من القول أنه في هذه الفترة من تاريخ العـراق كان مقـابـل الخـارجين عن شرف الصحافة جرائد وصحف كرست نفسها للوطن والنـزاهـة كجـريدة (الثبات) وجريدة (الحضارة) «للسيد الصوري» وكانت هنـاك جريـدة (الأحـرار) لـ «لطفي بكر صدقي» ولها قصة غير معروفة مع الأسف خاصة بها . .

في هذا الجو المحموم المضطرب المخلخل قررنا عقد المؤتمر الأول للنقابة وكان ذلك بمناسبة مرور عام على تأسيسها . .

كان موقفي من عبـد الكـريم قاسم في هذا المؤتمر كافياً ليكون بداية لنهايتين نهاية علاقتي به، ونهاية عبد الكريم نفسه .

والغـريب أنـه حتى جريـدة الأهـالي التي كانت ذات اعتبـار قد أسفّت فيما

أسفّ به الآخرون، ومابيان نقابة الصحفيين الموجود نصه في الرد عليها إلاّ دليل على أن المصيدة قد أوشكت أن تنطبق عليّ.

وهكذا حيكت الأحابيل والشباك وبات كل شيء جاهزاً لاصطياد هذا الطائر الغريب عن هذا الجو بأرضه وسمائه لاصطياده بشباكه ولشنقه بحباله وعلى يديه.

وأما الوثائق التي بحوزتي فهي قصائدي المؤرخة بالإضافة الى النذر اليسير جداً من أعداد من جريدتي الرأي العام هو كل ماوصل إليّ من بغداد، والتي أقول في افتتاحية واحدة منها: «مظلمة!!» وفي أخرى «إلى الزعيم العبقري»، أما مقدمة المقال ففيها تمجيد بالثورة الذي استمر، ومابعد المقدمة جاءت الإشارة إلى عبد الكريم قاسم عبر التساؤل التالي: «ثم ماذا بعد هذا أيها الزعيم»؟.

وكنت خلال هذه الفترة أرزح تحت تراكمات الديون والمشاكل والعقبات والحالة النفسية السيئة، لقد قال عني أديب سوري معروف، في مراجعته الجزء الأول من هذه الذكريات أنني «الرجل المقاتل» وهو يريد بذلك ماتلمّسه من تلك الحياة المريرة منذ موعدها مع القدر، من يوم ولادتها وطفولتها شبه الضائعة وشبابها المهدور ومابينه وبين الذروة من كهولتها في توالي الأربعينات وماسال على صفحات الذكريات عنها وفي العديد من ساحاتها من بقع الدم المنزوف من جراحاتها. ومن هذا كله كنت عنده الرجل المقاتل، ولا أدري كيف ستكون صورتي عنده عندما تكون هذه المراحل المتبقية من حياتي بين يديه، فلئن كنت مقاتلاً وعلى النمط الخاص بي وعلى أسلوبي وعلى طريقتي في التغرب والمواجهة عبر القصيدة والمقال وعبر الصراع والمنازلة غير المتكافئة مع الحاكمين والتي سال مني فيها دمٌ على جسر الشهداء، ودمٌ في بيتي، ودمٌ في قلبي.

فها أنا اليوم وفي مرحلةٍ تتجاوز كل ذلك في ضراوتها وقساوتها بل وفي تخبّطي أنا بالذات في مجاهلها والحقيقة المرة هي أنني في هذه الفترة بالذات وخلافاً لكل فترات حياتي كنت (مقاتلاً) فاشلاً ومع هذا بل وبسبب من هذا الفشل فقد كنت أحارب على أكثر من جبهة واحدة، جبهة جهاز عبد الكريم قاسم، جبهة الصحافة، جبهة الأرض الخراب، جبهة الأجهزة الجديدة للمطبعة، وجبهة الديون المتراكمة.

وماكانت جراحي الكثيرة وآلامي الموجعة إلاّ يقظة جديدة ووثبة قوية لعنادي المألوف والذي أسميه صموداً.

وفي خضم كل هذه الصـراعـات يبقى السؤال الخطير بدون جواب، لماذا صبرت على كل هذا؟ ماالذي دفعني إلى تحمل سنة ونصف من حياتي كانت كل ساعة مرار فيها كافية لتدفعني للفرار أنا الرجل الأعزل وتنقذني من مواجهة الحاكم المطلق.

وفي الـواقـع لم أتحمـل كل ماتحملت وعـانيت ماعـانيت إلاّ إيماناً مني بأن من يسير على درب المـواجهـة أو المقـاومـة عليـه البقـاء وجهاً لوجه حتى أمام الموت، وإلاّ فكيف يكون الصامد.. ؟!!

بيان نقابة الصحفيين
رداً على مزاعم جريدة الاهالي

طلعت جريـدة الاهـالي على قرائهـا يوم أمس بمقـال تنـاولت فيـه موضوع الصحافة والصحف الوطنية بالنقد اللاذع كما تعرضت فيه لنقابة الصحفيين تعرضاً مجحفاً تميز بطابع الحقد واللجوء الى تشويه الحقائق وعنونت هذا المقال بمايلي «حول خطـاب سيـادة الزعيم في مؤتمر الصحفيين.. الصحافة العراقية وعوامل فشلها في أداء مهمتهـا» وقبـل أن نـاقش مقال الجريدة بمحتوياته، وقبل أن نحكم الجمهور العـراقي الـواعي الكـريم فيما بيننا وبين جريدة الأهالي نود أن نذكرها بأن استغلال خطاب سيادة الزعيم عبد الكريم في مؤتمر الصحفيين سواء بعنوان المقال أوبما تكرر في المقـال نفسـه لغايات ذاتية وأغراض شخصية أوحزبية هوليس في صالح جريدة الاهـالي بالـذات كما أنه اساءة الى الزعيم نفسه الذي لانعتقد أنه يقبل بأن ينصب خطابه على الصحف الوطنية الحرة الشريفة على الوجه الذي أولته به جريدة الاهالي.

فالحقيقـة النـاصعـة التي تفهم بوضـوح من خلال المقـال المـذكـور أن هذه الجـريـدة تضـع نفسها في مصاف الفريق الآخر من الصحف التي وقفت هي أيضاً بدورهـا ومـاتـزال موقف المعـادي للصحف الـوطنيـة الحرة الموجهة وبنفس الحماس

والاندفاع اللذين تميز بهما مقال جريدة الاهالي . . تلك الصحف التي استغلت كما تستغل اليوم جريدة الاهالي خطاب الزعيم لغاياتها الخاصة ولتبرير مواقفها من الصحف الحرة الموجهة تلك المواقف التي لايحسد عليها من يقفها .

فإذا انتقلنا من هذا الى محتويات المقال نفسه، فإننا نجد أن جريدة الاهالي قد نصبت من نفسها واعظاً ومرشداً للصحافة الوطنية الحرة محاولة بهذا الاسلوب تنزيه نفسها ومواقفها، وبعد الاطناب في هذه النصائح والمواعظ تلجأ الى الطعن والتشهير بالصحف الوطنية مستعملة في ذلك لغة وتعابير سبقتها إليها صحف أخرى معروفة . .

فلقد تعمدت الجريدة في أحكامها القاسية هذه أن تخلط بين الصحف الوطنية الشريفة الموجهة بغيرها من الصحف الرجعية السوداء، وهي إذ تبدأ تهجماتها على وجه يبدو منه التعميم والخلط بين تلك الصحف ونقائضها كوصفها اياها بأنها «قد تجاهلت واجبها الوطني المقدس» وبأنها فقدت شعورها بالمسؤولية الخطيرة الملقاة على عاتقها وبأنها أخذت تتاجر باسم الشعب للكسب الذاتي على حساب الشعب نفسه ولِبَثِّ مفاهيم لاتخدم الأهداف الوطنية .

إنها إذ بدأت ذلك فلقد انتهت الى تخصيص الصحف الوطنية الشريفة في هجومها هذا فكشفت عن هدفها الأول والرئيسي من مقالها ملصقة بهذه الصحف الخيرة التعابير والأوصاف التي ألفها الجمهور في صحف صفراء معروفة ناعتة اياها، بالانتهازية . . وبالاندفاع في ارضاء فئات معينة على حساب المصلحة العامة . . والمبالغة في التملق لهذه الفئات . . دون وازع من الشعور بالمسؤولية . . وبأن هذه الصحف قد سفت أسفافاً مخجلاً . . ـ هكذا بحروفها ـ أدى إلى انحطاط مستوى الصحافة الى ماشابه هذه التعابير النابية التي لاتليق أبداً بصحيفة تحترم نفسها .

ثم انتقلت الجريدة من الهجوم على الصحافة الوطنية الى الهجوم على نقابة الصحفيين . في عهديها قبل المؤتمر الأخير وبعده . وقد بزت في ذلك حتى جريدة الزمان في هذا الهجوم . ناعتة بأنها «قد تجاهلت أهدافها المهنية الاساسية» ولتبرير هجومها، اضطرت الى قلب الحقائق الثابتة، من ذلك زعمها «بأن الهيئة الادارية» كان قد سيطر على أكثريتها تيار حزبي معين مما جعل المنتسبين إليها بما فيهم بعض أعضاء هيئتها الادارية نفسها يفتقدون ثقتهم بها ويقاطعون جلساتها .

ففيما يتعلق بتكوين الهيئة الادارية، يعرف الجميع وفي المقدمة منهم أصحاب جريدة الأهالي نفسها، ان الهيئة الادارية القديمة كانت تتكون من رئيسها السيد محمد مهدي الجواهري، ونائب الرئيس السيد محمد السعدون: ومن السادة سكرتيرها عبد الرحيم شريف وأمين الصندوق محمود شوكت والأعضاء جلال الطالباني وفاضل مهدي وقاسم حمودي، ولطفي بكر صدقي ومحمود الجندي وبعد استقالة السيد قاسم حمودي حل محله السيد خالد الدرة وبعد استقالته حل محله السيد منير رزوق فهل هذه القائمة هي التي يسيطر على أكثريتها تيار حزبي معين، واذا كانت هناك أكثرية حزبية فهل كانت لغير الوطني الديمقراطي في شخص السيدين محمد السعدون وفاضل مهدي؟ أما فيما يتعلق بالزعم بمقاطعة جلسات الهيئة الادارية، فهذا أفتئات على الواقع، إذ أن أحداً لم يقاطع الجلسات، وحتى السيد محمد السعدون أبدى نشاطاً ملحوظاً في عقد الجلسات وإصدار البيانات والتعليمات قبيل انعقاد المؤتمر الأخير. وخلال تغيب النقيب خارج العراق. ومثل ذلك الافتئات ماادعته الجريدة من أن بعض أعضاء الهيئة الادارية نفسها يفتقدون ثقتهم بها. فمن هم هؤلاء الأعضاء المزعومون؟. أهو ممثلها السيد محمد السعدون الذي كان كما قلنا يصدر البيانات والتعليمات حتى قبيل أيام معدودات من انعقاد المؤتمر بوصفه نائباً للرئيس. أم هو الممثل الآخر لها السيد فاضل مهدي الذي لم ينبس ببنت شفة تدل على فقدان هذه الثقة منه بالنقابة. أم هو السيد جلال الطالباني ممثل الزميلة المحترمة «خه بات» الذي كان ولايزال من أعز أصدقائنا. أم هو شخص آخر. فلتسمه الجريدة. ومثل ذلك تعبير «المقاطعة» المزعومة أيضاً. ومن الغريب أن الأهالي جريدة حزبيه تعرف هي قبل غيرها ماتعني هذه المقاطعة. وماهي أصولها ومستلزماتها فهل كان لدى جريدة الأهالي وممثليها شيء من هذا المعنى. أو شيء من هذه الأصول والمستلزمات وكيف كان ذلك.. فلتتفضل الجريدة بتبيانه. فهذه المقاطعة المزعومة لم يكن منها شيء أبداً لا في جلسات الهيئة. ولا في المؤتمر ولا في جلسة الانتخاب. والتدليل الخاطىء الذي أوردته جريدة الأهالي متهافت من أساسه شأن كل الحجج التي تحججت بها. هناك شيء ثابت يعرفه الجميع أن جريدة الأهالي ومن يعمل فيها بذلوا كل جهودهم اليائسة لعرقلة توحيد الكلمة وجمع الصفوف في انتخابات النقابة واستعملت في ذلك كل وسائلها من أمام الستار ومن ورائه. ولما يئست من ذلك لجأت بعد فوات

الأوان وبفضل ارادة الصحفيين الخيرين الواسعة وتضامنهم المجيد مع نقابتهم الى الكشف عن حنقها وغيظها على النقابة.

ولسنا نحن أيضاً بصدد الاستفاضة في تفصيل الأسباب التي أدت الى ركوب جريدة الأهالي مثل هذه المراكب الخشنة منذ مدة طويلة سواء في نهجيها الديمقراطي أو في أسلوب البحث أو في المواضيع التي تعالجها ومحتوياتها، تلك المراكب التي انحرفت بالجريدة عن النهج الذي أصبح هو طريق الشعب السوي الى استكمال حرياته وسيادته الوطنية اننا بدورنا أيضاً لانريد الاستفاضة في هذا وفي غيره من مواقف جريدة الأهالي في عهد الثورة لسبب واحد هو أن الجماهير العراقية الكريمة أصبحت تعرف الشيء الكثير عن ذاك. أما ماتبتدعه الجريدة من عوامل ساعدت بزعمها على تدهور الصحافة ـ وهي تقصد بوضوح الصحافة الحرة الشريفة ومن دون أية اشارة الى الصحافة الرجعية السوداء ـ فالحقيقة الراهنة أن مواقف جريدة الأهالي الراهنة هي من أبرز تلك العوامل في هذا التدهور.

وكذلك فإننا لن ننجر الى مستوى الشتائم التي ختمت بها الجريدة مقالها المسموم هذا لان ذلك ليس من مصلحة الصحافة نفسها وماهو بشيء من مصلحة الوطن.

إننا نكتفي بأن نرمي كل تلك الشتائم في وجوه مستحقيها وحكمنا فيمن يستحقها هو الشعب أولاً وأخيراً.

نقابة الصحفيين العراقيين

استقلال الذات واستقلال القرار

أستطيع التأكيد من جديد أنني لست رجل فرص ولا رجل مناسبات ولا أملك مهارة اقتناصها كما أنني لم أتقن فنون المواربة والانتهاز. إن هذه الأسباب هي التي جعلت الفرص تضيع مني كما يضيع الدخان في الريح . .

ويمكنني القول أيضاً : أنني شئت أم أبيت فقد خلقت في ملتقى الطرق الى التناقضات الحزبية والطائفية والسياسية في المجتمع العراقي ومن هذه الخصوصية أضعت الكثير من الفرص التي تتوفر لمن هو في مكانتي وقد دعم نفسه بحزب أو عشيرة أو ولاء . .

هكذا تربيت وهكذا كان بيتنا ومازال وكأنه يقطف الثمرة الحلوة من كل تلك المفارقات والتلاقيات والنظائر والأضداد على مرارتها ليشكل ملتقى لكل الأطراف ولكل الانتماءات والشعارات، هكذا عاش هذا البيت يستقبل ويودع كل الطبقات بعيداً عن كل أهوائها ومشاحناتها وانتهازاتها وفي هذا كله كنا ومانزال نجد سعادتنا . .

على هذه الأرضية وفي تلك الأجواء كنت أحاول جمع المتناقضات في نقابة الصحفيين وفيها من فيها من الأعضاء والأفراد المتنوعي المشارب . .

ومن هذا الحب لجمع المتناقضات كان الهدف يضيع لأن المصلحة لدى أمثال هؤلاء المتنافرين أقوى من أن تجمعهم أخلاق وأشد من أن تتلاقى فيها بينهم قلوب صافية نقية بل حتى شبه صافية ونقية وأقوى من أن يوحدهم وطن أو مصلحة عامة أو اتفاق اخلاقي أو مصير واحد . .

كما أذكر من خلال هذا الواقع أيضاً أنني حين كنت أرى هذه التشرذمات

السياسية وكل هذه القوى الحزبية المتصارعة ورغم خلافاتها التكتيكية أو الاستراتيجية تتكتل وتتقافز لهزهزة موقع عبد الكريم قاسم . .

وكنت في هذه المرة أيضاً أفتح بيتي ومكتبي وعلى قدر مايستطيع أن ينجدني تصنع لم أعتده في الليونة والمرونة لاحتواء كل تلك التناقضات ومع هذا فكل ذلك لم يجد نفعاً، فمع أمثال هؤلاء تهدر المكاسب شارات تقدم أو تأخر على الطريق . .

ومجتمعاتنا العربية والعراق في الصميم منها تعج بهذا الصراع العنيف تحت الشمس، وعلى كل من قدر له أن يتعايش مع حلبة هذه المصارعة أن يدفع أثمانها الغالية . .

إن كل من هو مثلي ـ وما أكثرهم في هذه المجتمعات ـ يخيفون أمثال هؤلاء الذين مهما اختلفوا على كل شيء فيما بينهم فانهم يتفقون على أن يزيحوا من طريقهم بكل ما في قدرتهم من وسائل من يجدونه حجر عثرة في هذا الطريق فيتجاهلون أثاره ويشوهون أفكاره ويحرفون تاريخه ويلفونه لف الذين كفروا بالنقمة والتغاضي والتجاهل . .

ومن هذا المنطلق لم استغرب أبداً التعمية الاعلامية بكل وسائلها التي مورست عليّ سواء فيما قمت به من جهود مضنية ومواقف مشهودة أو قصائد، وفي جملة ذلك وفيما يخص هذا النطاق الضيق وفي العراق وحده، كانت التعمية على خطابي في مواجهة عبد الكريم قاسم . .

وكيف لايكون هذا والمتحكمون عبر التاريخ يخشون الكلمة والموقف ويخشون الحقائق والمواجهة ويخافون من الجرأة الأدبية والصراحة وانتماء الملهمين الى طبقات الشعب . .

كيف لا والمتحكمون والمأجورون والخونة والمرتزقون والزاحفون المتذبذبون موزعون هنا وهناك على خارطة الأحداث . . وقبل هؤلاء وليس بعده ـ فهذا الشر المستطير ـ المثقفون المزيفون تحت كل شعار كان وبأية واجهة كانت وبأي انتماء كان، ممن يفترض فيهم من لايعرفهم أن يكونوا معك في الشدائد والمحن بقدر ماأنت معهم وهم في رفاهاتهم ورغاداتهم إذ هم ليسوا من فرسان المحن ولا من المعذبين في الأرض ولا ممن يميزون الظالم عن المظلوم ولا الحارم من المحروم ومع هذا ويا للسخرية فهم مثقفون . . انهم يهربون من عدسة الكاميرا التي هي الكلمة ويتجنبون ضوءها ويسدلون الستار على بريقها . .

من هذا الواقع المرير بدأ حصار الاعلام الرسمي والحزبي والصحفي عليّ في عهد عبد الكريم قاسم أو لنقل في السنة الثانية من حكمه . .

ولم يكن كل ذلك بمحبط لي على الاطلاق إن لم يكن المشجع لمجرد انني كنت أعرف موقعي في الشارع العراقي والعربي وأعرف محلي من الاعراب في سجل الواثقين بأنفسهم في الوقت الذي أعرف فيه كما يعرف الناس أن أولئك يقبعون في زواياهم المعتمة بحثاً عن اقتناص فرصة أو اصطياد مكسب . .

ومن هذه الزاوية لم استغرب تكالبهم عليّ لأنهم يعرفون أنني أعمل بقوتي الذاتية غير مقيد بهذا الفرد أو ذاك وبهذا التكتل أو ذاك التجمع . .

كذلك لم استغرب استغلال خونة الحرف مرحلة فتور علاقتي بعبد الكريم قاسم بسبب مواجهتي إياه والتي كانت من أجل حرية وشرف الصحافة النظيفة . .

وكثيرون من قرائي عالمون كم من مرة ومرة سنحت لي فرصة وفرصة وركلتها ، طيبةً مرة ، وجهلاً مرة وتجاهلاً أحياناً . .

فرص مرت وأنا في العشرين ومثلها وأنا في الثلاثين وكذلك في الأربعينات وفي الخمسينات هذه بالذات وفي الستينات كما سيأتي الحديث عنها وأنا استدعى الى العراق . .

وبرغم ذلك أقول هذا وأنا فرح بل وسعيد لمجرد أنني تكونت كما أشاء وحييت كما أشاء وأنزل عليّ الدهر من صروفه ماشاء وبقيت كما أنا لا أريد أن أستمد قوتي من الآخرين ، ولامكانتي من الدهاليز والانتماءات . . .

مـــاذا في الميـــمونـــة

أمـا بصـدد مقـال (مـاذا في الميمونة) وموضوعه فقد كان عن حادثة عابرة وفي قرية لم أسمع باسمها كما افترض انه لم يسمع بها إلا القليلون . .

فالميمونة ناحية تابعة لمحافظة العمارة ويبدو أن الحزب الشيوعي العراقي كان له فيهـا بعض الانصـار أوبعض الشبـاب الـذين لم يشـاؤ ا أن ينـزلـوا الى الشارع بأنفسهم فأنـزلـوا النسـاء بغيـة احـراج الشـرطـة لأنهـا كما هو المفترض والمألوف أن لاتتجـاوز الحـدود مع النسـاء كما تتجـاوزهـا مع الرجال ومع هذا فلم تنجح جماعة الحـزب الشيـوعي هنـاك في ذلـك لأن الشـرطـة تجاوزت تلك الحـدود ولأنهـا اعتبرتهن بديـلاً عن الـرجال المختفين ورائهن فقست عليهن ونكلت مااستطاعت واغتصبت أكثر من واحدة وهنا بيت القصيد . .

ففي تلك الأثنـاء وبـرغم هذه الفـترة المـدللة والمحسودة فيما بيني وبين (عبد الكـريم قاسم) فقـد كانـت جريدة «الرأي العام» تنضـم الى صفوف المعارضة حتى لو أدى ذلـك الى المســاس به وبسياسته بمقالات متتابعات وبكلمات وموارد عديدة وكانت خاتمتها الأسيفة «ماذا في الميمونة» . .

فبعد هذا المقال بمدة قليلة وجد اتحاد الأدباء نفسه بحاجة ماسة للنقود حتى أن الكهـربـاء قد انقطَـع عنـه فراحـوا يلحون عليّ بالذهاب الى عبد الكريم قاسم لأخذ المخصصات المطلوبة للاتحاد .

كنت متهيباً اللقاء ـ مستعداً للانفجار، غير قادر على تمالك نفسي خاصة وأنـه كان هنـاك من يتـآمـر ويحثـه على تجاهـل هذا الطلب من اتحاد الأدباء شريطة حضـوري ، وحـدث ذلـك مرتـين ـ المرة الأولى عندما طلب «الدكتور صلاح خالص» (سكرتير الاتحاد) المقابلة وتم تجاهلها لمجرد العلم بأنني لن أكون في مقدمة الوفد .

وفي المـرة الثـانيـة وقـد أعيد عليه نفس السؤ ال عن حضوري ، اتصل بي الدكتور صلاح نفسه وقال لي : «دخيلك راح نفلس ونعزل» . .

وفي هذه المرة وجدتني مضطراً الى استجابة هذا النداء بل وهذه الاستغاثة ، وتم الموعد واستعجل اللقاء المؤجل واستعجلت معه الساعة الحاسمة . .

وعلى كل حال فقـد كان القـدر قد كتب في لوح الغيب ، ولقـد كنت برغم علمي بالجو المشحون وشبه المتفجر قبيل هذه المقابلة المرغم عليها بمدة طويلة غير قادر على التلبُس لبوس الفاهمين الملمين بقابلية التكيف والمهادنة أو الملاينة وبعبارة أخرى فلم أحاول أن أتصنع وما أسهل هذه الحرفة وما أرخص هذه العملة في كل مجتمع عربي ، لأدفع عن نفسى هذه الشحنة المكبوتة وأن أتعلم من دروس الماضي والحـاضـر مايـصـحّ أن يكـون ذخـراً للمـسـتقبـل خاصـة فيـما سبق لي وأن تعلمتـه وامتحنت به من دروس قاسية في مدرسة الحياة وفي مشاق المسيرة الكبرى منها . .

ولبيت الطلب وتـوجهت مع الهيئـة الادارية الى مقر «عبد الكريم قاسم» في وزارة الـدفـاع وفي طريقنـا كانت الغلطـة الفـادحة التي لاأدري حتى الآن أكانت وليدة تلك الشحنة أم أنها جاءت لتصعد منها وتهيؤ ها للتفجر أكثر فأكثر، فقد كان مني أن طلبت الى «صـــلاح خالص» مالا يجوز أن يطلب وهـــو أنني سألتـزم الصمت تجاه الـرجـل «عبـد الكـريم» وأن يتحدث هوعن شؤ ون الاتحاد وحاجاته وطلب المنحة المقررة له ـ وللقارىء أن يتصور ما معنى هذا الطلب ـ انها لاتختلف بشيء عما يشبه الاهانة المدبرة للرجل الأول . .

واستقبلنـا الـرجـل بالألفـة المعهودة والترحاب وأجلسني على يمينه وبدأت الغلطة المبيتة وتحدث سكرتير الاتحاد بدلاً عني ـ أنا رئيس اتحاد الأدباء والمقرب اليه حقـاً أو تصنعـاً لااختـلاف فيـه في جوهـر الأمـر ـ وتحمـل الـرجل ذلك بالرغم من أحاسيسه المرهفة ، لقد كان من المفترض في صلاح خالص أن يدرك موقفي الخشن هذا وأن يقنعني على سبيل المثال أن ذلك شيء غير مقبول لي ولـ عبد الكريـم قاسم نفسـه أيضـاً وبـدلاً من ذلـك فقـد استغـل مع الأسف مثـل هذه الهفوة مني وأساء استغـلالهـا فقد أطال حتى لكأنه شبه جائع الى لقمة دسمة وتحملها الرجل ، وبعد فترة قصـيرة جداً من الصمت أو من المجـامـلات المألـوفـة عرج عبد الكريم على مايـبـدو أنـه كان جاداً في التعـريـج عليـه بما أشـرت من أمـر المماطلة في مقابلة الهيئة

الادارية له، وبعبارة أوضح فقد حانت الفرصة التي كان يتسنحها وسرعان ماأدار الحديث الى موضوع الصحافة ونقابة الصحفيين ليصل الى فتيل القنبلة الموقوتة وليقول على سبيل المثال:

طبعاً قرأتم ماكتبه الاستاذ «الجواهري» في مقاله «ماذا في الميمونة» . .

وشخصت الهوة الفارغة أمامي بكل أبعادها وتمالكت نفسي لأقول له بكل لطف وبكل أدب، ولكن بكل احراج كان لابد لي منه:

«ياسيادة الزعيم أنا لاأحب أن أثيرك ولا أن أطيل حديثي عما يبرر كلمتي هذه ولكنني أكتفي بسؤالك عن الفتيات المغتصبات وأقدر أن أقول - بناتك - ألم يقابلنك . .

قلتها وعندي الوثيقة الموثقة عليها

هذا السؤال فزز الجالسين من أعضاء الهيئة الادارية كلهم قدر ما فززه هو قبل كل أحد وأحرجه ولم يكن منه إلا أن سكت وبعبارة أخرى - كان معنى سكوته «نعم جئنني» . .

وكانت الكفاية أن ينتهي الحديث والمقام والمقال أيضاً وان نستأذنه بعد أن يوقع دفع المنحة المقررة لاتحاد الأدباء وأن ننصرف بسلام، ولكن وللأسف فقد كانت أم الخطايا، فللحق والحقيقة لاأدري ولاأتذكر وأنا أريد الائتمان فيما أقول، كيف تسلسل الحديث وبأي ذيل من ذيوله كانت كلمتي هذه البادرة والهادرة معاً، وإذ بي وأنا أقول مالا يصح أن يقال وبالحرف نفسه «ياسيادة الزعيم - ثورة وبشرطة «نوري السعيد» - . .

كلمة كبيرة حقاً - بل ونابية أيضاً - لكنها اندفاعة الشاعر المكبوت . . .

جملتي كانت على صغر حجمها وعلى بداهة ارتجالها فظيعة جداً، واحتقن وجه الرجل وارتجفت شفتاه حتى ليكاد الزبد يلتقط منها ليقول: (وأنت من بقايا نوري السعيد) . . .

غلى دمي . . واشتعل وجهي انفعالاً فقلت له: من دون تفكير فيما أقول وبالحرف الواحد:

«أنا يافلان - انني أتحداك» . .

ويمكن للقارىء أن يتصور معنى كلامي أمام العشرة الذين كان يعتبرهم الصورة المضيئة له في ظلامه الدامس أي الهيئة الادارية لاتحاد الأدباء. فأي احراج

هذا وأي تحد. . .

تتحداني. . قالها وهو شبه مرتجف. .

وشددت أكثر (أجل أتحداك ياسيادة الزعيم «عبد الكريم قاسم»). . .

وسرعان ما رد عليّ:

(لدي وثيقة ومستمسك). .

وكان المعروف عنه وبما يشبه المثل الدارج عنه في العراق أنه كان يهدد بكلمة «عندي مستمسك» لكل من يغضب عليه ويهدده قلت له:

(مازلت أتحداك. . جيء بها الآن أرجوك). .

قال: طيب

ونهض مهرولاً قاصداً غرفة أخرى كي يجلب مستمسكه المزعوم.

وطبعاً فقد أطبق الصمت على الحاضرين وانسجم كل الانسجام مع صمت الجدران، فالأمر ليس باليسير انه العسير العسير أن يهرول رجل هو زعيم ثورة ـ زعيم جمهورية جديدة والى ذلك فضابط عسكري وأن ننتظر ماسيجيء به الينا، إن هذا شيء أكثر من فظيع مع الأسف ـ ولكنه الذي كان. .

فنهضت والأصح فقد انهضتني فكرة صائبة برغم أنها كانت خاطفة وعابرة في أن أخرج من القاعة وذلك تحاشياً مني لما سيكون بعد أن يعود الرجل الأول وبما سيجرني اليه ولاشك من كلمة أخرى ومن رد عليها بمثلها إن لم تكن بأسوء منها.

فما كان مني إلا أن أقتحم الباب التي تطل على مدارج وزارة الدفاع للخروج منها فتلقاني المرافق العسكري (قاسم الجنابي) المخلص الأمين له والذي جرح معه في حادث «رأس الكَريّة» وبكل أدب وبشاشة قال لي:

«ياسيد جواهري» أنت خبير وعارف بالأصول المرعية هنا أنه لايليق بأن يخرج أحد وهو في مواجهة الزعيم بدون اذن منه ـ وبينما كنت أتسمع بأدب أيضاً لكلمات الجنابي ـ «كان الزعيم عبد الكريم» قد عاد من مهمته التي أسرع اليها ليجيء بالوثيقة الدامغة خالي الوفاض بادي الانقباض ليقول لي بصيغة الأمر والآمر «ارجع». .

ورجعت وجلست في أقرب ما أكون الى الباب من الطاولة المستطيلة لتسهل عليّ مهمة الخروج من هذا الجو المشحون والمتفجر أيضاً. . وبعبارة أخرى جلست

آخر القوم، وأبعدهم عن مجلس «عبد الكريم» واستدعاني الى جانبه مرة ثانية متصنعاً التسامح والتنازل مبتدراً الحديث قائلاً: (احسبوها «زوبعة في فنجان» فأنا أهرع الى الهاتف عندما تستدعيني «ظلال») وهي أصغر بناتي وفي التاسعة من عمرها آنذاك، وفي كلتا الزيارتين التي زار بيتنا كان يستدعيها ويدللها . .

ولم يكن مني إلا ما يجب أن يكون لأقول له: انني ياسيادة الزعيم آسف ان يحدث مالم يخطر لي على بال، أما وقد حدث فكل ما ألتمسه هو أن تسمح لي بمغادرة العراق أميناً مؤتمناً كما تعدني فلم يكن منه إلا بما يشبه النفي . .

ولو كنت داعياً على نفسي وهي في أشد حالة من انفعالاتها لطلبت كل شيء إلا أن يسمح لي الزعيم الجريح أن أسلم بجلدي قبل أن يثأر مني بكل ماعسى أن يبرىء من جراحه وبكل ماتثخن به جراحاتي .

ولم يبق لي وللآخرين أن يطول المقام أكثر مما طال واختصر هو بنفسه ذلك عندما ابتدر الوفد الأدبي قائلاً: «الآن هاتوا طلبكم» وقدموا اليه الطلب المماطل بل والمبيت وسرعان ما وقعه وليتهم كانوا قد قدموا اليه أضعاف المبلغ المطلوب مستغلين هذه الفرصة التي سنحت لهم . .

على كل حال خرجت وأنا افترض عبثاً أن يكون الرجل شهماً كريماً وبخاصة اذا كان هو الحاكم المطلق واذا كان الآخر رعيته، ومع الأسف فلم يكن منه مايجب أن يكون لكل رجل ذي مروءة وترفع وانفة لقد أسفَّ كل الأسفاف بما عاقبني عليه وبما كابدته من هذا العقاب . .

أما الذي كان مني فقد عدت الى الجريدة ولايعوزني وأنا في طريقي اليها إلا أن أردد قولي:

ماذا صنعت بنفسي قد أحقت بها مالم يحقه بروما عصف «نيرون»

وكان هناك مقال مألوف ومنسجم مع ماقبله ومايجب أن يكون بعده من الحديث عن هذه الأجواء السائدة آنذاك والتي كانت تسوء أكثر فأكثر وعن أمر التسيب في أجهزة الحكم كان مقالاً لاذعاً فحذفته برمته لكي لايكون وكأنه جزء لايتجزأ من هذه المعركة الخاسرة للطرف الأقوى أكثر من كونها خاسرة للجانب الأضعف . .

ليس لدي هناك من وثائق على «عبد الكريم» وهو يحاسب نفسه كل صباح

وكل مساء فيما بعد هذا الموقف الحاسم من تلك الصحف القذرة التي صارت تقدم اليه بكل مافيها من ابتذال واقذاع ولافيما يبشره به من أسفاف في مطاردتي ، رئيس جهاز أمنه (مجيد جليل) .

ومهما كان الأمر وأنا بصدد مكابدتي وصبري على كل ماأريد وكانت لي من القدرة على الصمود مستعيناً عليه بما سبق لي أن تعذبت وتألمت طيلة الأربعين عاماً من حياتي قبل هذا اليوم وأعطتني درساً ما أعظمه وما أثمنه من الصبر والجلد على صروف الزمن وعلى حقد الحاقدين وعلى الاستهانة بشتم الشاتمين . .

فقد كان هناك خمس أوست من الصحف التي تشترك بهذا الاسلوب أوذاك وبهذه اللهجة أو تلك تتفق كلها فيما هو مهيىء ومخطط فيما ينسجم وحقدها الدفين وعلى الأقل فيما يفرض عليها من التعريض والتجريح وقل فمن التشهير أيضاً . .

أما النفذة التي تكاد تكون الوصلة التي تشد بين السدية واللحمة في كل ماكان من أمر (ماذا في الميمونة) ومصيري البائس منها بعد ذلك فسأحاول ايجازه ما استطعت . .

فمع أنني خضت أكثر من مواجهة ومواجهة وموقف وموقف فقد كنت في ذلك منسجماً مع نفسي راضياً عنها في الخير وغاضباً عليها في الشر غير متحزب ، جندي متطوع ، و(ماذا في الميمونة) واحدة من هذه المواقف ومع هذا فان الحزب الشيوعي الذي كان حضوره قوياً في ميدان تلك الفترة والذي كان هو الأول والأخير في هذه القصة لم يحسن التعامل معي . .

وللمرة الثانية ولكي أكون صادقاً وموثقاً لدى القارىء عن مدى مسؤولية هذا (الأول والأخير) في كل ماكان عليّ من قصة «الميمونة» وتبعاتها فها أنا أضعه في صميم الصورة منها :

ففي ظهيرة ذات يوم من هذا الاسبوع المتفجر مع «عبد الكريم قاسم» كان ممثل الحزب الشيوعي الأول في بغداد «عبد القادر اسماعيل» يهتف إليّ بصدد مقابلة خاصة فيما بيني وبينه وكان ذلك واذا به يتقدم اليّ بالوثائق الموثقة عن أصل القصة وكل فروعها ، وأغلقت عليها الخزانة الحديدية الصغيرة لدي وكنت بذلك كمن يكاد يقرأ الغيب عن عواقبها وللتو وللساعة التي انصرف فيها «عبد القادر» كنت قد تناولت القلم لكتابة مقال افتتاحي لاأتذكر أنه تجاوز العمود الواحد ولكنه كان يقدح بالشرر (ماذا في الميمونة) . .

وبعد هذا فمن يصدق أن يكون موقف هذا الحزب من هذه (الكلمة) التي قررت مصيري وكدت أن أصفى جسدياً من أجلها ومن أجلهم هو أن تصدر جريدته الناطقة باسمه (اتحاد الشعب) وهي تعيد المقال مقدمة اياه بما يأباه الضمير الانساني (قالت جريدة الرأي العام) قاصدة وعامدة التشديد على تسميم الجو الخطير والمثير فيما بيني وبين قاسم أكثر فأكثر، بل حتى لكأن الجواهري هو الذي وضع (الميمونة) على خارطة العراق وهو الذي حشد نساءها ليقتحمن مركز الشرطة فيها بل وهو يحصّن لهن أوكارهن . .

فما عسى أن تكون الفظاعة والجرأة على الحق وخذلان الصديق أكثر من هذا . .

قبل يومين من كتابة سطور هذه المذكرات وبالضبط في اليوم الخامس من شهر كانون الأول عام ١٩٩٠ تسمعت بمحض الصدفة الى ماتسميه «اذاعة صوت أمريكا» كتاب الاسبوع وكان للكاتب الأمريكي الشهير «مايكل نورمان» (وهو يتحدث عن حرب فيتنام) عندما كان جندياً يحارب فيها وعما كان رفاقه المجندون يتعزى الواحد منهم والآخر ويتسلى بقوة الرباط الذي يشد برفيقه عن فراقه أهل بيته وذويه الى أن يخلص من ذلك ليقول:

كلمته الخالدة «مخطيء من يعتقد أو من يرى في قرارة نفسه أنه يصلح أن يكون رفيقاً أميناً مخلصاً لك صادقاً معك في أيام رخاءك من لم يكن كذلك في أيام شدتك».

لم أجد أصلح من هذا النموذج لأجيء به وأنا بصدد هذا الحديث ومرارته بل وبصدد ماشابه هذا الموقف من عشرات من أمثاله . .

ومع هذا كله فهل اتعظت بهذا كله، لم يكن مني شيء من ذلك ولم تظل نفسي تعتلج بما جيب أن تعتمل به صدر كل واحد في مثل موقفي هذا من حقد أو غيظ أو غضب. لقد ذاب كل ذلك وكأن شيئاً مما كان لم يكن . .

ليـــلة فريـــدة من نوعهـــا

وبعد فكلما حسبت أنني انتهيت من هذه الأزمة الفريدة التي مررت بها طيلة حيـاتي ذات الثـمانية عقود وتخلصت من جحيم أيامها وساعاتها وجدتني ومن جديد وأنا في دوامة جديدة حتى لكأنني استبق التأريخ وأنا أقول عنها وعن أمثالها وعني أنا بالذات :

اذا تخلصـــت من هم تجيش به — عنّــت هموم على أعــقــابــه جدد
كأن نفـســك بقيـــا أنفس شقيت — وكـــل ذنـــب ذويهـــا أنهـم وجـــدوا

ففي المؤتمر الذي أقامته نقابة الصحفيين العراقيين إحياءاً لذكرى «ثورة ١٤ تموز» من عام ١٩٦٠ م في حديقـة النقـابـة الواسعة ، كانت الشكوك تراودني وتراود الكثير ين من الصحفيـين في حضـور «عبـد الكريم قاسم» هذا الحفل وكان لتلك الشكوك مايبر رها في كل ما كان معه وفي كل ماكان له معي بما يشبه المواجهة ، ومع هذا فلم يكتف بالحضـور ولكن بالقـاء خطاب غير قصير وتحدث فيه ماشاء لينتهي الى حصتى من خطابه هذا وأنا الى جانبه ومشيراً بيديه اليّ يقول :

«أما فلان وان عز عليكم ذلك فسنأخذه منكم والى جانبنا» . .

ويكـون في ذلـك المفاجأة المتوقعة لدى كل متنصت الى المذياع العراقي وهو ينقل هذه الذكرى واحتفال النقابة بها وحضور الزعيم وخطابه .

وتبدأ التآويل والتفاسير لما سيكون من محلي (الى جانبهم) وتدور الناس وأنا معهم في فراغ ويدور الزعيم وكلمته في فراغ أيضاً وينتهي الى فراغ . .

أما اللقطة التي كادت تسد كل هذا الفراغ بما تقربه من نهايتي ونهاية مصير ي في هذه المسـيرة الشـاقة والتي لم تطل الأيام كثيراً بعدها ـ كما سيأتي الحديث عنها ـ

فهي التي كانت في الدار الفخمة للسيد «أحمد الأوقاتي» والتي أصبحت بعد ذلك مقراً للسفارة السوفيتية وكان ذلك بعد انتهاء حفل استقبال مهيب أقامه السيد «الأوقاتي» لرؤساء الوفود المشاركة للذكرى الثانية لثورة تموز حيث بقينا نخبة معدودة بأسمائها، (أنا وعبد الفتاح ابراهيم والمهداوي وماجد أمين وفريد الاحمر) وبطبيعة الحال فصاحب الدار نفسها الذي كان يذهب بين الحين والآخر الى النوافذ ليرى ان لايكون هناك من يتجسس علينا في مثل هذه الأجواء المحمومة والمسمومة ناسياً أن ذلك المتجسس كان بيننا فعلاً . .

وفي اليوم التالي سمعت «أميرة» وهي كبرى بناتي وهي تتهامس مع خالتها وتقول لها :

هناك ضابط عسكري من الجيران حكى لنا عن أبي كذا وكذا . . وبعد أن ذهبت سألت زوجتي :

ماهو الحديث فقالت : الحديث عجيب وغريب، من الذي كان يتجسس عليكم في دار الأوقاتي . .

قلت لها : حقاً انه لأمر غريب لاأعلم عنه شيئاً . .

أما وقد بلغ الأمر مبلغ أن يكون الشريط المسجل عند «كريم قاسم» فليس هناك سوى «فاضل عباس المهداوي» لاغيره، هذا الذي تعود أن يجر الناس جراً الى الحديث عن «عبد الكريم قاسم» فيما بين (التأليه) للمنافقين المؤلهين ومابين التجريح للساخطين الناقمين وهو يوزع نفسه وضميره بين الضدين وبكل سهوله، وكانت حصتي من ذلك الشريط المسجل هو الحديث الطويل والمنطلق والمنسجم عما كان من المتنبي مع كافور وما كان من كافور مع المتنبي حتى ليلة هربه تحت جنح الظلام وشعره ... بلياني العيد ـ ذلك العيد الذي يسائله المتنبي وقد نجا من أسر كافور ـ عيد بأية حال عدت ياعيد . . .

وبالرغم من ان ذلك الحديث المسجل كان لوحده كافيا للاثارة وللحقد ولحب الانتقام من لدن «عبد الكريم قاسم» فقد كان الى جانبه حتى لكأنه جزء لايتجزأ منه ما استعين عليه بقوة الذاكرة من التوقيت غير المقصود بين هذا الحديث وبين موعد نشر القطعه شبه القتالة بحد ذاتها والقائلة :

سيـــب ... والتأ ريخ من أغرى بسبي

لا الأولى سب فهم عبدان عبدان لربٍّ

يا لخزي المشتلي كل ـبـاً لسبّ «المتنبي»
عرضٌ «كافور» تهرّا ولـه مليون كلبِ

هذه القطعة التي وضعت ـ والحديث لصديقي الشهيد «وصفي طاهر» مرافق عبد الكريم قاسم ـ في إطار أحمر أمام الزعيم.

فضلاً عن قطعتين كانتا وكأنهما تمهيد لهذه القطعة، الأولى منهما تقول: وبعنوان «النفوس العاريات من الضمير»:

قالوا: قد انتصر الطبيب على العسير من الأمور
زرع الجماجم في القلوب وشَدُّ أضلاع الصدورِ
فأجبتهم: ومتى تلوح طلائع النصر الأخير
(زرع الضمائر في النفوس العاريات من الضمير)

أما الثانية فتقول ـ ربّ السجن أحبُّ ـ :

عندما أبصرت نيراناً من البغي تشبُّ
وإلى القمة مَن في يده زيتٌ يُصَبُّ
وإلى الهوة مَن يدفع عنها ويذبُّ
قلت: ـ والسجن بغيضٌ ـ ربِّ السجنُ أحبُّ

حـلقات متسلسـلة

واستمرت الحلقات المتسلسلة قبيل نهايتي المحتومة وعندما لم يجد كريم قاسم ولا كل من استنفـره من أجهـزة الأمن ومن الصحف المبتاعـة ولا بكـل من جنـده للتجسس عليّ في كل من حولي في مطـابـع الجـريـدة وفي إدارتهـا وحتى لمن كانـوا يفـدونني بأنفسهم وممن ربـوا عنـدنـا وممن سموا أولادهم بأسماء أولادنا وعندها فقد التـجأ الـى مالم يبرد من دمـي شيئـاً ولا أن يشـفي من غليله شيئـاً هو أن يزرع على قدر عليـه من المتسفلين من جهـازه هذا حتى من البـاعـة على جانبي الطـريق من يضـايقني في ذهـابي وإيـابي وأكثـر من ذلـك فحتى عندما صبغت ثيابي بالدم وأنا أرمى بـ «نشـابـة» وفي الكـرادة الشـرقيـة نفسها من أحد قناصة جهاز «مجيد جليل» العميل الأول له ولأمنه المنشود . .

وفي مابين هذه النكاية أو تلك فقد بلغ الأمر حداً تناقلته أكثر من اذاعة عالمية هو ماكان من أمر توقيفي دون أي مبر ر حتى ولو كان مختلفاً والقدر وحده يعرف كم كان سيطول هذا التوقيف لولا أن تتدخل صغيرتي ظلال، وعلى رغم انذاري بما يشبـه التحـريم وأنـا في طريقي الى الموقف عليها وعلى أمها في أن لاتتدخل بكلمة واحـدة ومـع هذا فقـد فوجئت بعـد اسبـوع واحـد بأنني مطلق السراح وعدت الى البيت ولشـد ماكـان غضبي على «ظـلال» عنـدما علمت أنها طلبت «عبد الكريم قاسم» على الهـاتف لتقـول له «أمثـل أبي رهن التـوقيف» . . وليكون منه أن يقول لها: «انه سيكون عندك بعد ساعة» .

عنـدهـا وانتهاءاً للفصل الأخير والمخطط من كتاب أمجاده والذي كان وكأنه يزايـد على فظـاعـاتـه الـواحـدة بعـد الأخـرى ليصل الى الدرك الأسفل منها وهو التمهيـد لبيـع أثـاث البيت ـ اذ لم يكن لي بيت ـ الـذي زاره مرتين للمزايدة العلنية

وبمشهد من «ظلال» نفسها والى هنا فلربما كانت عدم قدرتي على المقاومة ما أقدر أن أسميه بالجريمة وأكون شاهداً عليها من الدوافع التي دفعتني لقبول الانذار الأخير الذي بلغت به بين اختياري للتصفية أو مغادرة العراق كما سيجيء ذكره. .

وكان الغطاء على هذه الجريمة لأدفع الديون المستحقة عليّ ببيع مطابع الجريدة أو مضخات (الاقطاعية الجرداء) فكل ذلك لا يهز شعرة من رأسي ولكن بائن «تباع ملحفة ويشرى محزم» لسداد دين استحق عليّ لمن استدنته منه وهو يكاد يكون فرداً من أفراد العائلة - مهدي بلاسم الياسين - ولم يدر بخلدي ولا يجوز ولا يمكن ان يدور بخلد أي أحد في مثل هذا الموقف أن يصبح هذا الواحد من هذه العائلة مجنداً عليّ بكل ارتخاص وبكل ابتذال أيضاً في جهاز الأمن العام.

ومن المنطلق الأول كان مني أن أعطيه صكاً بخمسة آلاف دينار ديناً وعند الطلب كما يقول المتعاملون فقد كان المفترض لدى آنذاك أن تكون المدة المحددة له هي أقصى ما استطيع من تمديدها، أما من المنطلق الثاني فقد كانت المطالبة المحرجة والملزمة ببيع «الملحفة والمحزم» بما لا يزيد عن بضعة شهور. .

وفيما بين هذه الاستدانة وهذا الطلب المستحق وعلى قصر تلك المدة فقد استحال هذا العميل الجديد الى خبير في وظيفته الجديدة واستغلالها أبشع استغلال وكما أعلم واتذكر فبسابقة غير مسبوقة وغير ملحوقة لا في عالم الأسفاف في النكاية بل حتى في عالم المصارف والبنوك وذلك بأن يقدم أرقام الصكوك التي أسحبها الواحدة بعد الآخر من هذا المبلغ المستدان منه الى الجريدة التي تساءلت سؤال العارف بافتتاحية لا أفظع منها يقول عنواها:

«من الذي يحمي هذه الجريدة القذرة؟»

لقد سبق لي القول ان كل ماأعرفه من تاريخ تلك الصحف المستأجرة والمتهتكة سيبقى في مأمن وفي حمى ترفعي عنها وعنهم، ومع هذا وما دمت في معرض هذه الصحيفة بالذات والتي اتضح لي ولكل من كان معي آنذاك ومن خلفته ورائي حتى يوم نهاية «عبد الكريم قاسم» انه هو الذي كان يحميها وانه هو كان الجواب على سؤالي في مقالي المشار اليه فلا أجد لي بداً - ومن باب الاستثناء - من تعريف موجز بكلمات معدودات / هو أن أول يوم وآخر يوم من تعرفي على هذا المحمي والمشفع أن يزورني في ادارة جريدتي «الرأي العام» وقبل أن يحلم العراق

بالجمهورية المفروضة عسكرياً وفي جيبه (ربعية عرق) وأن يتصنع المجاملة والمداهنة ثم ليطلب من المستخدم في الجريدة قدحاً أو قدحين فارغين فيكون مني أن أنتهر المستخدم ثم (وعلى الاسلوب المطلوب) فان انتهره هو بالذات من اننا هنا في مكتب صحيفة ولسنا في (حانة عرق) ثم ليخرج شبه مطرود والى غير رجعة . . . .

* * *

ومن ناحية أخرى: وعلى وجه المفارقة بل المناقضة فقد تنادى الأخوان المقربون اليّ وفي المقدمة منهم السيد «أحمد الأوقاتي» وبصدد تغطية ماستطاعوا من تلك الديون الى القيام بطبعة جديدة من الديوان، الأمر الذي كان وكأنه فسحة نور بيضاء تخترق غمامة سوداء مطبقة عليّ.

مهـزلة سـرقة البَـيْـت
الذي زارهُ قـاسم مَرّتـين

وفي هذه الفـترة المسعـورة والمقهورة والتي كنت أجرر فيها ذيول يقظتي عليها وذيول الكوابيس في نومتي ، رحت استيقظ صباح ذات ليلة على جريمة جديدة من نوعهـا تجاوزتني في كل ما استُهـدفت به شـخصيـاً من جريمة وأخرى لتدخل داري هذه المـرة المكتـظ بمن عنـدي ، فهـل أكثـر شفـاعة من أن يسـرق على وجهٍ فاضح ومكشوف بيت شاعر العراق الأول «الجواهري» ، يُسطى عليه ليلاً وبمرأى من أحد أفـراد العـائلة وبصمتٍ مرعب منـه وهويرى بعينيه الرجل ينزل من السطح ليدخل غرفةً بعينها ويسرق أعزّ مافيها ، وماعسى أن يكون هذا الأعز سوى مثاقيل معدودة من الأساور الذهبية أو ماشابهها ومبالغ لابدّ منها للبيت وللجريدة ثم أن يخرج على طول قامته تحت جنح الظلام وقبيل السحر ، وينشر هذا الخبر ويقرأه «عبد الكريم قاسم» ولايخجل من أن يكون هذا هو البيت الذي زاره مرتين ، ويكون بعد افتضاح الأمـر ، وقـد استحـال أمـر السكـوت عليـه ، أن يتصنّـع جهـاز أمنـه الاهتمام بهذه الفضيحـة ، فيكـون منـه أن يبعث بمسؤول الأمن في الكرادة الشرقية ومعه الشاب المتهم ليطبق الحدث على الطبيعة وأن أتجول معه ، فيطبق بالتفصيل كيف نزل من السطـح ، وكيف التهم الأدراج وكيف وصـل الى الغـرفـة وفي الـزاوية المعينة منها ، وكيف ، وكيف؟ ثم أن يكـون بعـد يومـين أو ثلاثـة أمر محاكمته فأجيء أنا الشاكي لأمثل أمام الحاكم والى جانبي هذا الشاب المتهم وجمع غير قليل ممن كانوا يتتبعون القصـة ، وبكـل اختصـار يسألـه الحـاكم : كيف كان ذلك يافلان؟ فيقول له بكل جرأة ، وبكـل تحدٍّ ، وبكـل وضوح : أهوَ أنا ياسيدي؟ فيصيح به الحاكم ليصمت ، فأقول له وقد مرّت عليّ تجربة تحدي الحاكم وعواقبها في سنين شبابي ، وفي الثلاثين من عمري ، مما مرّت قصته في الجزء الأول : ولماذا تقاطعه ياسيادة الحاكم وهو يقول

مايقـول؟ فما كان منـه إلّا تجاوز طلبي هذا ويأمـره ـ وقـد أوشكت القضية أن تتطور وتتصاعد لتصل الى المقامات العليا إن لم يكن المقام الأول في الجمهورية المزعومة ـ أن ينصرف وبطبيعة الحال فأن أنصرف ثم أن يكون وبكل يسرٍ وسهولة حتى ولكأن الجـريمـة مجرد لعبـة لاأكثر وذلك بأن تُعاد المصاغات المسروقة دون أي شيء آخر، وينتهي كل شيء لقد كان الأمر مرتباً. . بل وأرادوه مرتباً ومفضوحاً في آن واحد.

ولإعطـاء التأريـخ شيئاً من حقه في الانصاف وللمفارقات شيئاً من حقها في المعادلة، فقد كانت هناك ومن بين كل تلك الصحف اللئيمة والمتعاوية، صحيفتان على قدرٍ كبير من النزاهة ومن احترامها لنفسيهما بالاضافـة الى ذلك فقد كـانت تربطني بصـاحبيهـما علاقة وطيدة من الحب المتبادل، وهما جريدة الحضارة للأديب الضليع «محمد حسن الصوري»، وجريدة الثبات لصاحبها الفقيد «محمود شوكت» وقـد وقفتـا أكثـر من وقفـة في هذه المعـركـة غير المتكـافئة الى جانبي قدر مااستطاع صاحباهما، ومايستطيعانه كان محدوداً أيضاً لعلاقة ذلك بما يُتوقع من مصيرهما على يد أجهزة «عبد الكريم قاسم» وتساءلت الصحيفتان بما يشبه المخاطرة منهما، كيف تكون هذه الوقيعة الشنيعة؟ ومَن الذي يقف وراءها؟

نقابة العمال والازدواجية

أمـا وقـد قاربت مسـرحيـة هذه الازدواجيـة المتبادلة بين (زعيم أوحد) وبين (مـزعـوم أوحـد) أيضـاً نهايتهـا، هذه الازدواجيـة التي لاأبالغ اذا قلت انها الفريدة من نوعهـا في كل ماكـان في تاريـخ العـراق من موقف وآخر فيها بين حاكم ومحكوم والتي تخالـط فيهـا المضحـك والمبكي والمهزلة والمأساة تخالطاً بحد ذاته عجيب وفريد، أما وقـد حدث ذلـك فقـد كان هنـاك موقفـان متقـاربـان متناقضان يصح لهما أن يكونا النموذج المتميز لكل ما سبق من أمثالها. .

فالأول منهـما هو موقفي في يوم عيـد العـمال وقصيـدتي التي أعتـز بها في جملة ماأعتـز به من قصـائـدي حتى لكأنهـا من مطلعها تريد أن تفرض عليّ وعلى كريم نفسه ماينبغي أن يقال:

«بكم نبتدي واليكم نعود». . ويجدها القاريء في ملحق الذكريات.

ومفهـوم انهـا تريد أن تقول «نعم» للعمال وللشغيلة و«لا» لعبد الكريم قاسم وتستمر القصيدة في مثل هـذا الغمز واللمز في أكثر من مورد ومورد، وفي الصميم من أبياتها كان «قاسم» وهو في شرفته العليا يتفاعل معها بما هو مألوف منه في المواقف النادرة من انفعالاته وعصبيته من أن يجرر ماااستطاع من بنطلونه. .

أمـا في المـوقف الثـاني والمتناقض والوجه الآخر لتلك الازدواجية المتبادلة فقد كان في يوم افتتـاح بنـايـة المستنصرية بعد تجديدها، فحسبي من كل ذلك النموذج الشـاخص من قصيـدتي «البـائيـة» والتي زايـد فيهـا عبـد الكريم قاسم نفسه في كل ما تصنـع وافتعـل من مجامـلات ليقـدمني ـ وكأنـه عريف حفـل ـ الى الحشد الحاشد وليقـول وبـالحـرف الـواحـد، (هـانحن نعيـد أمجـاد المستنصـريـة وبيننـا الاستـاذ

«الجواهري») والتي زايدت فيها أنا بالذات أيضاً حتى على أبلغ ما بالغ به «المتنبي» في أجمل مواقفه من سيف الدولة عندما وصلت منها الى :

ويا رب «تموز» نزلت بليله ... على السحر الريان ناراً تلهب
بأسحار «بغداد» تغنى عوالم ... وذكرك من أسحار بغداد أعذب
وأسود داج كالغراب كسوته ... غبار السرايا فهو كالنسر أشهب
وقفت به التأريخ تحصي ثوانيا ... بها رحت تملي والمقادير تكتب
عجيب مدى النصر الذي اجتزت حده ... وتوقيتك النصر المؤزر أعجب
وكان لك الجيشان جيش مدرب ... وآخر أقوى منه قلب مدرب

فما عسى أن تكون الصورة الشاخصة والمؤبدة لازدواجية الانسان وانفصامه إن لم تكن هذه الصورة نفسها في هذين الموقفين المتناقضين نفسيهما . .

مَوقفٌ وَمَوقفٌ

وبعد فإذا كان القارىء بحاجة الى أن يكون في صميم الصورة مما كابدته من عاشوراء الستينات لحد مايشبه الاغراق فيها وفي مفارقاتها وتناقضاتها فلا بد لي من أن أجيء بما كان مني مع «عبد الكريم قاسم» ومع صاحب جريدة «صوت الأحرار» لطفي بكر صدقي وأنا أطالب الأول باعادة جريدة الثاني إلى الصدور، وما كان من موقف صاحبها المبتذل والرخيص مني، ولهذه المفارقة بين الموقفين حكاية غريبة قدر ماهي اليمة: فبنمط من الأحابيل المحكم أشباكها عليّ من قبل الزعيم وفي حومة تكالب الصحف المثارة والمستنفرة ضدي وربما في حومة تفرز الناس هنا وهناك في شتى أنحاء العراق من هذا التكالب المثير لايكون من المدعي العام في بغداد إلا أن يهتف اليّ ليقول هل لدي سعة من الوقت لأتناول معه فنجاناً من القهوة في مقره الرسمي فتكون مني الاستجابة لهذا الطلب ويكون منه بعد التجامل المنافق والمفضوح وهو يعيد عليّ موقف (سيادة الزعيم) مني، وحبه الصميم!

وأمر ماكان منه في خطابه الأخير في مؤتمر نقابة الصحفيين من محاولة أخذه إياي لأكون الى جانبه ليخلص من ذلك الى معرض مايسميه بهذه الصحف (الكريهة) وطبيعي أن لايجرأ على القول أنها المستثارة ضدي.

وفي معرض تعجبه المصطنع من سكوتي عليها وعدم تقدمي بأكثر من دعوى على هذه أو تلك منها، لا أدري هنا أكانت بسمة الهز التي تمشت على وجهي قد اقتحمت عينيه أم أنها قد خفيت عليه، ذلك أنني وبسرعة خاطفة شخصت أمامي صورة هي الأصل، وهذه النسخة المنسوخة عنها، وفي العهد الملكي عندما أقمت الدعوى على شاعر شعبي مبتذل رخيص نهش مالم ينهشه أحد قبله

من أعـراض النـاس ليحضـر المحكمـة ويعيـد ـ وهو في معرض الاستجواب ـ كل شتائمه المبتذلة ويخرج منها بغرامة لاترتفع لمستوى حرف واحد من تلك الشتائم.

شخصت هذه الصـورة أمـامي قبـل أن أرد عليـه وأنـا الغـالـب وهو المغلوب والمهـزوم «وأي صحف تقصـد ياأستـاذ» . . عجيب الصحف الفـاعلة التاركة التي تنال منك . .

قلت: أنا لاأقرأ هذه الصحف . . فقال: أنت لاتقرأها وأنت المعني بها . .

قلت: أجـل أنـا المعني بها ولكنني وأنا الصادق والأمين لاأقرؤ ها ولايجرأ أحد في ادارة جريـدتي وهم كثـير ون أن يجيء بها إليّ . ربما أسمع همسة من هنا وهناك بشيء منها ولكنني لاأبالي بذلك . . فقال: ألا تبالي بذلك . .

قلت: نعم . . فقال:

ألا تحب أن تقيم الـدعـوى عليهـا وأنت من أنت وفي هذه الظروف التي قال عنك السيد الزعيم ماقال .

قلت: أجل «وفي هذه الظروف لن أقيم الدعوى على أي واحدة منها» . .

وانتهت الجلسة وخرجت لأجد ويا للعجب ويا للأسف ويالمسفين في اليوم الثـاني خبراً يقـول أن المـدعي العام لحكومة كريم قاسم قد أقام الدعوى نيابة عني وبـرغمي طبعـاً ثم لأجـد في اليـوم التـالي ماتوقعته وبمرارة أكثر هو أن تلك الشتائم المعـادة منشـورة على مدى صحـائف غير قليلة وفي أي صحيفـة أنهـا في صحيفـة «صوت الأحرار» نفسها وباشراف من لطفي بكر صدقي نفسه أيضاً . .

وكـان من أمـر إدانة تلك الصحف هو ماكان من حكايتي في «العهد الملكي» أي بغرامة مخطط لها أن تكون شبه رمزية في زهادة أثمانها . .

وكان هناك شيء أقبح من هذا هو أن يدعوني في نفس اليوم الذي كان هذا العـدد المبتـذل من هذه الجـريـدة نفسهـا «فـاضـل عبـاس المهـداوي» صاحب محكمة الشعب المعهودة لتناول العشاء معه ثم أن ألبي الدعوة لأجد نفسي وجهاً لوجه مع لطفي بكر صدقي هذا لاغيره . .

اليـــوم الحاســـم

في عصر ذات يوم من أوائل نيسان عام ١٩٦١ م وفي صميم تلك الأيام التي كنت أتمنى أن يكـون هنـاك مَن يصفّيني بطلقـة رصـاصة أو برشة من رشاش مريح دون أن يخطـر ببـالي أبـداً ولا بحال من الأحوال في أن أنجو بنفسي ، بأن أخرج من العراق ، بأن ألتجأ الى أكثر من بلد وبلد كانت أبوابه مفتوحة أمامي وإذا بي أتلقى هاتفاً يقول أنه من ممثلية ألمانيا الشرقية إذ لم تكن هناك سفارة وهنا وبهذه المناسبة فمن صفات هذا الزعيم الكثير السيئات هو أنه أول من وضع محطّ قدمٍ لألمانيا الشرقية في البلدان العربية وظل السفير العراقي في جمهورية ألمانيا الشرقية قبل أن تتوحد هو السفير المميز، وكان الهاتف يقول بالحرف الواحد أن السكرتير الأول للمثلية يطلب مقـابلتي ، وسـرعـان ما فطنت في أن يكـون الجواب هادئاً وحذراً فقلت له وأنا أعني مأقـول : حـاضـر، وليكن ذلـك في بنـايـة اتحاد الأدباء ، قلت أعني ذلك لأنني وأنا أغلق السـاعـة كنت أهتف الى الـدكتور المخزومي والسيد الحبوبي وثالثٍ لاأتذكر اسمـه وهم من الهيئـة الادرايـة لاتحـاد الأدبـاء وليكونوا معي في السـاعة الفلانية في حديقـة الاتحـاد ، وفي السـاعـة المطلوبة كُنّا نحن الأربعة في المكان المحدد ، وحضر الـرجـل ومعـه مترجم ورفيق له ، ورحبنـا بهما ، ولم يطـل المقام حتى بادرني سكرتير الممثلية بأنني مدعوٌ الى برلين الشرقية للمشاركة في مؤتمر اتحاد الكتاب الألمان ، وكان مني بمحض الفطـريـة والسجيـة أن قلت له : أنا ممتنٌ وشاكر ولكنني في ظروف شبه محرجـة مما يصعب عليّ معهـا أن أغـادر عملي في الجريدة وفي النقابتين وماشابه ذلك فإذا شئتم فواحد من هؤلاء الطيبين من أصدقائي ذوي المكانة المرموقة في الأدب أن ينـوب عني فقـال لي وبكـل ارتجال : لا يافلان ، الطلب شخصي والبطاقة شخصية لك بالذات ، قلت له : أنا آسف جداً على أن لايكون ذلك ولكن لابد مما ليس منه

بد، لابـد لي من الاعتـذار راجيـاً قبـولـه، وتقبـل الـرجـل جوابي هذا وودعنـاه ريثـما ينصرف كل منا الى بيته وعمله وحسبت أن كل شيء قد انتهى، واذا بي وأنا أتلقى في عصـر اليـوم التـالي وفي مايقرب من الساعة نفسها في اليوم السابق لطلب مقابلة ثانية وبالحرف الواحد مما كان مني في الاستجابة لهذا الطلب، فقد هتفت الى رفاقي نفسهم واحـداً بعـد واحـد للحضـور مرة ثانيـة وكنت في اليوم الأول كما هو الأمر في اليوم الثاني حاسباً لهذا الترتيب لهذه المقابلة حسابها ـ كما قلت فعانياً اياها ـ وذلك لأنني في الصميم من تربص كريم قاسم لخطواتي، ومن أن أي مستخدم أو موظف في هذا الاتحـاد هو عينـاً عليَّ، فكيف بي وأنـا ألتقي على جانب وفيـما يشبه التكتم المقصود والمخـطط ممثل دولـة أجنبية وأكون بذلك قد قدمت لكريم قاسم ولصحافته وجهاز أمنه اتهاماً جديداً، وحضر الرجلان وتكلم الأول فقال لي: «هل لنا أن نختلي بك لدقائق معدودات» وبكل صراحة شبه ثقيلة قلت له ياحبيبي هؤلاء هم نفسي وقلبي وضمـيري فكـل مايهمني يهمهم وهـم الأمنـاء على كل حديث أو كل لقـاء فأرجـو أن لايثقـل ذلـك عليـك واستجاب الرجل لهذا الطلب الغريب وانتقلنا الى مكتبي الخاص في بناية الاتحاد وهنا بادرنا الرجل الكريم فقال لي بالحرف الواحد: ياسيـد الجـواهـري، كُنّـا نريـدك فعـلاً وحقيقـة للحضور للمشاركة في مؤتمر اتحاد الكتاب الألمان وهناك تُبلغ بما يجب أن تُبلغ ولكنك اضطررتنا وأنت تعتذر أو تمتنع عن استجـابـة الطلب، أن نقـول لك: ان لدينا علم اليقين بأنك ستُصفى جسدياً من قبل جهة أو طرف معين. وهنا وجدتني كمن يفز من نومة عميقة مريحة ولم أجـد وأنـا أبلغ بهذا الحـرف الجـريء والصـريح، أن أكون عنترة بن شداد، فأن أصفى على قدر مقدور من الغيب شيء، وأن أبلغ بأني سأصفى، وأترك ذلك لمن يصفيني فعلاً شيء آخر، فكان مني أن قلت له: أما الآن ومع هذا اللطف في هذا الإنذار أو مايشبهه، فكـل مـاأرجـوه، إمهـالي الى غدٍ أو بعـد غد، لأقـدم الرد النهائي والقرار الأخير، قلت ذلك وكان يشخص أمامي الرجل الذي وصلت مضايقاته معي الى مايتجاوز كل الحدود هو نفسه الذي لايريد أن يقال أن الجواهري بالذات قد غادر جمهـوريتـه غاضبا أو ساخطاً أو لاجئاً أي أن استمهالي الموعد المضروب كان لغرض تدبير أمـر خروجي، ويشـاء حسن الحـظ أن تكون الدعوة قد وجِّهت إليّ للمشاركة في تكريم الشاعر اللبناني الشهير الأخطل الصغير وأن تكون الصحف قد نشرت هذه الدعوة، وكما قلت فلعدم تفكيري مطلقاً بالهرب، فقد تأجل حفل التكريم نفسه،

ويفسر هذا بطبيعة الحال أهمية حضور العراق أو عدمه، وشاء الحظ أيضاً أن أستغل هذه الدعوة لطلب تأشيرة السفر من الحاكم العسكري وهو (السيد العبدي) وكان الرجل نفسه ممن يعز عليه أن يرد لي طلباً ولكن وقد تأزم الموقف مع رئيسه الزعيم عبد الكريم فمن الطبيعي أن ينعكس ذلك عليه وأن يكون صورة عنه في التجافي أو التجاهل، فكانت مني لفتة صائبة هو أن أهتف الى صديقي المقرب والشهيد الذي كان مقتله هو ساعة الصفر ليوم ٨ شباط السيد جلال الأوقاتي آمر القوة الجوية الذي كانت علاقته ماتزال وطيدة مع السيد العبدي، لأتحدث معه بصدد الدعوة تلك الموجهة اليّ من لبنان وكان من السيد الأوقاتي أن قال لي ماهو المتوقع وبما يشبه الاختصار والتعنية: إنك يا أبا فرات تعرف كل شيء ومع هذا فارسل لي جواز السفر وموعدنا إلى غد، ولم أطل الحديث، وأرسلت الجواز بيد ولدي فرات، فقد كان السماح بالخروج من العراق معناه الحياة وإلا فالميتة الموعودة حتماً، وصعب عليّ أن أقدر مدى ماكان من فرحتي وأنا أتلقى في اليوم الثاني هاتفاً من السيد الأوقاتي يقول: ليأتِ فرات ويتسلم جواز السفر، ليتسلم بشارة بخلاصي من جوٍّ كنت أنادي صباح كل يوم فيه:

ألا موتٌ يُباع فأشتريه

وترتب كل شيء، وفي الحقيقة وإذا صح قولي وتناقض الأشياء سرُّ وجودها فيصح القول أن كل شيء لم يترتب حتى والطائرة مرتفعة عالياً عالياً عن أجواء بغداد قبل أن تحطّ في مطار بيروت، فما يدريني أن قد تنبّه جهاز أمن كريم قاسم لخلاصي من براثنه بأن تؤمر الطائرة لتعود إلى بغداد.

وغادرت وتركت ماعندي من حطام الدنيا نهب الناهبين وتركت ورائي نقابة الصحفيين التي كما أنا فخور بأنني كنت فاشلاً فيها وإلا لكنت واحداً من هؤلاء المتشرذمين، تركتها ليكون طه الفياض العاني لاغيره الناجح فيها، والنقيب لها بعدي، وتركت ورائي أيضاً ومن باب المفارقة اتحاد الأدباء الذي لم يقدر لاكريم قاسم ولا أجهزته ولا كل المدّعين في بغداد أن يسدوا فراغي طيلة ثمان سنوات وأنا في منفاي الجميل وبعد ذلك فبأكثر من عشر سنوات وأنا أعود الى بغداد، لم يكن هناك من تجرأ ليقول: أنا أرشح نفسي لرئاستها، تركتها وأنا أغادر العراق في ١٩٦١ م ثم وأنا أصر بإصرار بأكثر من رسالة محررة بيدي على استقالتي منها وهي تُرفض حتى يوم مغادرتي العراق، ومن جديد في عام ١٩٨٠،

شيء واحد لم أنسه بعد شيئين مفروغ منهما وهو أن أودع والدتي العزيزة بكل معنى الكلمة عليّ ولأقول لها وأنا أعلم مدى معزة غيابي عنها «إنني ياوالدتي مسافر الى البصرة» ولأضع في صدرها مايجب أن يكون من متاع الحياة الدنيا.

والثاني أن أتفق مع العائلة فيما يكون من أمر التحاقها بي بعد وصولي الى مكاني الموعود..

أما ذلك الشيء الواحد فهو بأن يقوم «فرات» ـ لصعوبة قيامي أنا بالذات ـ بالنيابة عني لزيارة السفارة الصينية ولمقابلة السفير الصيني نفسه ليبلغه وداعي وشكري وامتناني على زيارته النادرة من نوعها والتي أبلغت أنه مكلف بزيارتي بأمر من الرئيس «ماوتسي» حيث تمت الزيارة وعلى السيارة التي أقلته العلم الصيني ومعه أكثر من مصور واحد، ثم كان منه أن أقام لي وللعائلة حفلة فخمة بكل عوائل الموظفين والعاملين في السفارة الصينية.

الفصل الرابع

أرحْ ركابَك من أين ومن عَثَرِ
كفاك جيلانِ محمولاً على خطرِ
كفاك موحِشُ دربٍ رُحتَ تقطعُهُ
كأنَّ مغبرَّه ليلٌ بلا سَحَرِ
ويا أخا الطير في وِرْدٍ وفي صَدَرٍ
في كلِّ يومٍ له عُشٌّ على شجرِ
عُريانَ يحمل مِنقاراً وأجنحةً
أخفُّ مالمَّ من زادٍ أخو سَفَرِ
بحسبِ نفسِك ماتعيا النُّفوسُ به
من فرط منطلَقٍ أو فرط منحدرِ
أناشدُ أنت حتفاً صنعَ منتحرِ
أم شابكٌ أنت، مغتراً، يدَ القدرِ
أم راكبٌ متنَ نكباءَ مطوِّحةٍ
ترى بديلاً بها عن ناعم السُّرُرِ
سبع توهّمتها سبعينَ لاكَدَراً
لكن لحاجتها القصوى إلى الكدرِ
في «جنة الخلد» طافت بي على الكِبرِ
رؤيا شبابٍ، وأحلامٍ من الصِغَرِ
مجنَّحاتُ أحاسيسٍ وأخيلةٍ
مثل الفَراشات في حقل الصِبا النضِرِ

أصطـــادهـــنَّ بزعـــمـــي وهـــي لِي شركٌ
يصطـــادُني بالـــســـنـــا والـــلطـــفِ والخَـفَـــر
أقـــتـــادهُـــنَّ إلـــى حربٍ على الـــضـــجـــر
فيـــصطَـــلحـــنَ على حربـــي مع الـضـــجـــر

مرحَلة وُصولي إلى بـراغ

ووصلت لبنان وفوجئت وانا في المطار بما يشبه الاخذ والرد بين مستقبلي من لجنه الاحتفال وبين ضباط الجوازات وكنت قد نسيت انني قبل هذا قد طردت من لبنان لا في ما كان من امري في عهد الانتداب الفرنسي ولكن في عهد الحكم الوطني وكل جريرتي قصيده قلتها في تكريم احد الشخصيات الشاخصه هو السيد عبد الحميد كرامي وعرضت فيها بلتدخل الاجنبي وبقساوه الحاكمين وظلامه المحكومين واذا المنع لا يزال مدموغاً وقائما بعد مرور عشر سنوات والفظاعه والبشاعه في انه قائم حتي يومي هذا اي بعد ثلاثين عاما وتناول الامر صديقي الشهم سعيد عقل الذي له مكانته في لبنان ليعود وقد سوي الامر وستآتي الحادثه الاخري عن هذا المنع المفروض علي ولكن بغرابه اغرب وفظاعه افظع في بلد غنيته بسهوله وهضابه وجمالاته باكثر من عشرين قطعه وقصيده وباختصار للحديث فقد كان الحفل الحافل الذي القيت فيه من اجمل قصائدي:

لبنان ياخمري وطيبي — هلا لممت حطام كوبي

هلا اعدت لي الصبا — ريان يرفع بلذنوب

نـزق الشـباب عبدت — وبرئتُ من حلم المشيب.

والتي اقول فيها:

آ (بشـاره) وبـآيـمـا — شكوي اهزك ياحبيبي

شكوي القريب الي القريب — ام الغريب الي الغريب؟

هـل صـك سـمـعك ا نـني — من(رافدي) بلا نصيب

في كربه وانا الفتي الممرا — ح فـراج الـكـروب

أنــا (عــروة الــوردي) رمــز شهــامــة الــعــرب الــعــريــبِ
وزعــت جســمــي في الجســـومِ ومــهـــجــتي بين الــقــلوب

وبقيت مايقـارب الأسبـوع. وتكفّـل الأخـوان في بيروت بأخذ التأشيرة من السفـارة التشيكـوسلوفـاكيـة وبطبيعـة الحـال كانت بطاقة السفر مدفوعة إلى برلين الشـرقيـة، والطـائـرة التي استقللتهـا من بيروت متجهـة إلى حيث المقـر الـذي استـدعيت إليـه، إلاّ أنهـا وكـما علمت ستحـط في براغ ثم تعاود طريقها الى برلين الشرقية. ولكن ماحدث كان هبوط الطائرة في ميونيخ وهي في طريقها الى براغ، وإذ بي أستـدعى إلى مركـز الاستعـلامات ليعلموني بأن توصية بي قد جاءتهم من اتحاد الأدباء في براغ، فشكـرتهم على عنـايتهم. وفي الحقيقـة لم أكن أحتـاج شيئاً وقد كان معي «أخف مالمّ من زادٍ أخـو سفـرِ». وفي الـوقت نفسه استغربت هذه التوصية من قبل اتحـاد الكتـاب التشيكـوسلوفـاكيين، وكل مادار في خلدي من تفسير لذلـك هو أنه مجرد ضيافة ليوم أو يومين، فقد سبق لهم أن قدموا العراق، حيث قمت بكل مايجب عليّ من حفاوة بهم وتكريم لهم، وقلت أن هذا بديل عن ذاك.

على أي حال وبعد أقل من ساعة كانت الطائرة تحط في براغ، وإذ بي أجد اتحـاد الأدبـاء بشخصيـاتهـا الست البـارزة في انتظـاري في قاعـة التشريفات، وقد علمت أنهم كانــوا على موعـــد معي في الأسبــوع المـاضي دون أن يكــون لي علم بذلك. ثم انتقلنا إلى قصر الاتحاد الشهير والضخم جداً، وحللت في جناح واسع جميـل، وقـد قالـوا لي: هنا مقرك، مقر الثائرين. وبدا كل شيء رائعاً، فالموقع من أجمل مناطق الاصطياف والاستشفاء، والعزة والكرامة في ذروتها، حتى لكأن الحظ قد عاد من جديد ليسدّد خطواتي.

أمـا سبب هذا التبـديل، فقد حرت في تفسيره، ولم أجد سوى مبررٍ واحدٍ، وهـو أن الممثليـة الألمـانيـة الشرقية مدينة لعبد الكريم قاسم بما أشرت إليه من كونها المحطّ الأول في كل العالم العربي، وطبيعي أن تكون الحراجة لديهم غير قليلة إذا وُضعـوا في موقف يُفسـر وكأنه تهريب للجواهري من نظام حكم عبد الكريم قاسم وبعبـارة أوضـح فتخليص «الذي أنضج الثورة»، فيكون من أمرها كما هو المفترض والمنطقي أن تكـــون قد تداركت الأمـــر وأحـــالتني إلى براغ بعـــد تدبـير الأمـر مع المسؤولين عن ذلك في تشيكوسلوفاكيا، وبخاصة مع المسؤولين في اتحاد الكتاب كما

يسمونه هناك وبقيت في قصر الاتحاد ومغانيه الفاتنة مدة غير قليلة، وبرغم كل مافي هذا الموقع من جمال فقد أحسست وأنا في هذا المشفى أو المتنزه شبه البعيد عن براغ بأني منقطع عنها وعمّن فيها، وبخاصة عن الطبقة التي وفدت لأول رحلة إلى براغ من العراق، وكانوا أفراداً قليلين من الطلائع البارزة التي يصح أن يكونوا معي وأن أكون معهم.

وطلبت أن أكون في براغ نفسها، فأفرغوا لي بلطف جناحاً في أفخم فندق يصح أن يكون عالمياً، هو فندق (الكرون) وكان محطاً لساسة أوربا قبيل الحرب العالمية الأولى، وكان العلم العراقي ينصب أمامي فطوراً وغداء وعشاء وماشابه ذلك من الحفاوة والتكريم.

ومنه انتقلت وبناء على طلبي الى فندق لايجاريه في عظمته وأبهته إلا أنه يعد من الطبقة الممتازة، هو فندق الأنترناشيونال الذي كانت أكثر من عائلة عراقية قد حلت فيه.

وبدأت الطلائع الجديدة والمتتالية تفد شيئاً فشيئاً في الفترة شبه الحاسمة والأخيرة من حكم كريم قاسم. وبعد شهرين تقريباً انضمت إليّ وإلى تلك العوائل، عائلتي التي انتهى كل باعثٍ لوجودها بعد:

ودعا الجباة إلى حطام حويشةٍ   لتباع ملحفة ويُشرى محزمُ

ومن الصدف التي أكملت بعضها بعضاً أن يكون السيد عزيز الحاج ممثل الحزب الشيوعي في براغ وهو بصرف النظر عن تمثيله أو عن وظيفته فقد قام - وبحكم الصداقة وبما يشبه الأخوة الصافية بيني وبين والده الحاج علي حيدر والممتدة إلى أكثر من ثلاثين عاماً - بالعناية المتميزة وبالحفاوة.

وبقينا في هذا الجناح من فندق الأنترناشيونال بالذات طيلة خمسة شهور أو أكثر، كانوا خلالها يهيئون شقة خاصة بنا في منطقة جبلية صافية تكاد تُعد حتى الآن أعلى مايطمح إليه المقيم أو الساكن، وهي منطقة «بجريني».

وفيما بين هذا الجناح وهذه الشقة كان (السيد قاسم حسن) السفير العراقي في براغ وزميلي في معتقل أبي غريب شديد الصلة، كثير الزيارات. وكان منّي أن اعتذرت إليه عن زيارتي إياه في السفارة العراقية لمجرد أنها تمثل عراق (عبد الكريم قاسم) الذي شرّدني ومن معي:

ورمى بنا خلف الحدود كأننا   بُرُدٌ إلى الأمصار عجلى تُرزمُ

ومع هذا فقد زرته أكثر من مرة في بيته.

تلك كانت بداية السفير، أما مدى ارتباط هذه البداية بالسيد قاسم حسن وبما كان من أمر نهايته فيصح أن تكون من سخريات القدر، على حد سواء فيما كان له مع عبد الكريم قاسم من صلات ودٍّ عميقة وهو يرشح نفسه ليكون وزيراً للخارجية، وفيما تبدّل من حال إلى حال مع قتلته من الحاكمين الجدد وهو يباركهم محاولاً عبثاً تجديد الصلة بهم ثم ماكان من أمر نهايته وقد أتيح له أن يحتفظ بمنصبه لمدة تقل عن شهر واحد. أو فيما كان له وخلال هذه الفترة البائسة معي أنا بالذات ومع الرهط الأول من طبقتي في براغ حيث كانت حصتنا منه أن يجد كل واحدٍ منّا في صندوق بريده، المرسوم الجمهوري الذي يبلّغنا به بتوقيعه الخاص والقاضي بسحب جوازاتنا، بل وبسحب جنسياتنا مما لايجيزه أي دستور حتى الدستور العراقي المزعوم.

هذه لقطة موجزة عن بداية الرجل ونهايته، عبّرت بها عن الكثير والكثير من تفاصيلها ريثما أسجل منها ما لابدّ أن يكون في صميم الذكريات مقروناً كل ذلك حتى بهذا الموجز نفسه بالأسف الشديد على أمثال هذه النهايات.

وبعد فأحب أن أثبت تاريخ هذه الفترة الأولى من حياتي في براغ الجميلة، وأقول الجميلة لا الأجمل لأن ذوي الاختصاص بالإحصاءات ومن أعلى مصدر له في سويسرا قد عدّوها ثالث أجمل مدينة في العالم، بينما جاءت «ريو دي جانيرو» البرازيلية الأولى، وبعدها «باريس»، أما الرابعة فهي «فيينا».

وبالرغم من قضائي الفترة الطويلة والرفيهة في براغ إلاّ أنها بدت لي غاية في القصر حتى لكأنها الحلم الطائف...

الألـق والأرق

لسوء الحظ فقد كدرت الأجواء الصافية والحلوة والأنيسة التي كانت تلفني وتلّف من معي من تلك الشلّة التي هي الصفوة المتبقية لي من الشخصيات الشاخصة، السيول التي تدفقت على براغ ممن تكاد الأرض تنبذهم، فلماذا كان هذا السيل؟ وهنا ينجر الحديث الى لقطة أو أكثر عما كانت عليه تشيكوسلوفاكيا مع كل الفلك الشرقي، فقد كانت براغ الساحرة لؤلؤة هذا الفلك، وكان هناك تخريب لكل مجالات الحياة الاقتصادية، وإلا فمن يصدق أن هؤلاء الواغلين على براغ كان يكفي للواحد منهم فيما يفطر عليه ويتغذى به ويتعشى ويسكن وعلى سبيل المثال ففي فندق انترناشيونال ذو الطوابق الأربعة عشر وفي أعلاه المرقص الجميل الساحر والساهر حتى الصباح، أنه كان يكفي لواحدٍ منهم وأكثرهم كانوا من الأغنياء الموسرين لكي يأنس ويسرح ويمرح لاأكثر من ثلاثة دولارات في اليوم وكانت تساوي أكثر مايزيد على مائة كرون لكل كرون ثمنه وحسابه. والأنكى من هذا فقد كان كل واحد منهم يستدعي على عجلٍ من عسى أن يكون له من أهل بيته أو من معارفه.

ومرّت بعيداً أيامي وأيام «عبد الكريم قاسم» بل وساعاتها حتى يوم ساعته الأخيرة، ولكنني ومع هذا كله كنت أسبح في دوامة لاأقدر على التعبير عن حقيقتها وجوهرها، فهناك انفعالات نفسية تتداخل فيما بينها وتنعكس على أصحابها حتى ليحار وعيه وإدراكه عن إدراكها، أوعن إدراك تأثيراتها المتشابكة والمتداخلة، لقد كنت أدخل الجنة لأول مرة ـ إذ لاأريد أن تكون تلك الخطفة الخاطفة في حساب الأعداد ـ ومن حيث لاأدري، لماذا كنت إلى جانب الساعات والأيام والليالي التي أعيشها في هذا العالم الجديد غير منفصل عن تأثيرات الغربة

وأنا ممن يتشددون في معنى «الاغتراب» وكثيرون ممن هم أمثالي ومن طبقتي ممن يعيشون غربتهم لافي أوطانهم فحسب، بل في ذواتهم، في داخلهم، في حضورهم، ومع هذا فقد قلت أثر الغربة وأكاد أقرب من التصوير شبه الواقعي، انها تأثير البون الشاسع، الهوة العميقة، بين ماكنت فيه وبين ماأعيشه. ولربما كان هذا من ردود الفعل فيما أجرره من ذيول تلكم السنتين لابشهورها وأيامها ولياليها بل وبساعاتها. ربما كانت ردة الفعل هذه لايمكن أن تنفصل بشيء عن ذاتي وعن وعيي وبخاصة وعيي الباطني (اللاشعوري)، المكبوت، أحاسيسي المخنوقة، وإلا فبماذا أسمي، وكيف أصور أنني كنت أعود من تجوالي في مغاني براغ ومقاهيها الجميلة، وفي مراقصها أحياناً، لكي تبدأ ساعات الأرق والسهر من قبيل منتصف الليل على أقصى تقدير، لأنني كنت في أيام وليالٍ كثيرة من هذه الفترة الحائرة في فندق أنترناشيونال الذي كان بحد ذاته راقصاً بأكثر من مرقص، وبأكثر من مغنى، وبأكثر من مطعم أتذوق كل ذلك، ثم أن أستلقي على فراشي فلا أقدر أن أنام حتى ولاساعه بل حتى ولادقيقة واحدة، ولاأغالي إذا قلت أن ذلك كان طيلة مدة إقامتي، أي الشهور الستة في هذا الجناح الصغير والجميل المطل على الحدائق الفسيحة الخضراء. حيث كنت خلالها أغني «مرحباً أيها الأرق» و«ياانديمي» شيء عجيب. كيف كان ذلك؟ كيف يمكن لي أن أعثر على ملتقى الطرق - كما يقولون -؟ ربما أستطيع القول وأنا على هذه الحالة في قصيدتي «أرح ركابك» التي أستبق فيها الزمن والتي أصل فيها إلى قولي:

من ساعة الصفو تأتي ساعة الكدر

هذه الحروف وهذه الكلمات ربما كانت كافية للقارىء لكي يفهم ماتحت السطور.

واستمرت السنتان ١٩٦١، ١٩٦٢م على هذه الوتيرة التي مرّ ذكرها، حتى أنني كنت غير مهتمٍ بما يرد لي من الصحف العراقية ومجلاتها لفرط مللي مما عشته ومما كابدته منها، كما أنني لم أعد أتسمع الى كل أخبار العالم وبخاصة ففي هذه المرحلة الخطيرة، مرحلة عبد الكريم قاسم الأخيرة التي خلفتها ورائي.

كان كل الذي يسدّ هذا الفراغ هو أكثر من وجه واحد قبل أن تكثر الوجوه الطليعية والتي أكاد أنسجم معها وتنسجم معي ممن استعين بهم في تجوالي فيما بين النهار والليل، وإلى جانب ذلك كانت اهتماماتي الأدبية فيما بيني وبين نفسي، في

الصفوة من الكتب القليلة التي كنت أتسلى بها.

وابتدأت براغ وجمالاتها تتنزل عليّ بها تتنزلْ من هذه القطعة أو تلك أو هذه القصيدة وغيرها، ثم أن تتصاعد بعد ذلك، وهذه هي سنة الحياة حينما يكون المرء بين حالٍ وحال ومرحلة ومرحلة ونفسية ونفسية وموقف وموقف. ويصح القول أن هاتين السنتين على وجه التقريب كنت بحاجة إليهما لكي أعوض عن جزء من ذلك الزمن في بغداد.

أما من الناحية المعاشية فقد كنت فيها ينسبه الرخاء بها أغدق عليّ اتحاد الأدباء من الاف الكرونات بالإضافة إلى السبعمائة دينار وهي ماتبقى للعائلة من كل حطام الدنيا.

وغاب الأرق وظل النديم الذي لايقل عنه قلقاً وحيرة وانفعالاً ولكن بانبساطٍ عابرٍ فيها بين الحيرة وذلك القلق. فما بين ساعة تسدّ الفراغ مريحة أنيسة، ريثما تغطي عليها أكثر من ساعة من البؤس على النعيم والجنة عن الجحيم وهكذا.

وانتقلنا الى الشقة الجديدة المتواضعة ليكون ومن جديد نوماً مرهقاً مضنياً مثيراً وعادت الليالي وعادت الكوابيس، وبالكثرتها وبالفظاعتها، لقد كان جيراننا هنا في براغ وهم يدقون علينا الجدران، البديل الفذ والفريد من نوعه عن جيراننا في بغداد، إذ هم يفعلون ذلك وأنا في غمرة كوابيس الهاوية، فقد كنت أزعجهم هنا بصراخ ظل يعاود نفسه الليلة بعد الليلة حتى يوم - يادجلة الخير - الذي استرحت منه وأنا أحيله فيها آهاتٍ مصبوبةٍ على الورق:

لو تعلمين بأطيافي ووحشتها ... وددت مثلي لو أن النوم يجفوني
أحسّ يقظان أطرافي أعالجها ... مما تحرقت في نومي بأتوني
وأستريح إلى كوب يطمئنني ... أن ليس ما فيه من ماء بغسلين
وألمس الجدر الدكناء تخبرني ... أن لست في مهمةٍ بالغيل مسكون

وأنا فخور بدقة هذا التعبير، لاأعتقد أن هنالك من يقدر أن يزيد على فظاعتها بما جاءت بها هذه الكلمات «أحسّ يقظان أطرافي أعالجها» وأنا صادق أمين فيما كنت أقول في أن احس أطرافي، وأن ألمس الجدر الدكناء، وأن توفطني شريكتي في الحياة بكوب من ماء أستريح إليه.

لِمَ شممتُ ثرىً عفناً يضمُّكما ... وفي لُهاثيَ منه عِطرُ «دارين»[1]
بنوةً وإخاء حلفَ ذي ولعٍ ... بتربةٍ في الغد الداني تغطيني
لقد وَدِدْتُ وأسرابُ المنى خُدع ... لو تَسلمان وأنَّ الموت يطويني
قد مِتُّ سبعينَ موتاً بعد يومكما ... يا ذلَّ من يشتري موتاً سبعين
لم أقوَ صبراً على شجوٍ يرمِّضني ... حرَّانَ في قفص الأضلاع مسجون
تصعدتْ آهِ من تلقاء فطرتها ... وأردفت آهةٌ أخرى بآمين
ودبَّ في القلبِ من تامورِه ضرمٌ ... ماانفكَّ يُثلج صدري حين يُصليني[2]

«أيها الأرق» . . . نداء حي، واستدعاء صارخ، مشوبان بترحيب تلمس في كل حرف منه حرارة الصدق، وقوة الايمان، بمثل ماتنطوي عليه من حرارة الألم، وبمستوى قوة البواعث التي ابتعثته، كان هذا «الأرق» يبدو، لشدة انسجامه، وروعة تكامله، وكأنه الاطار الذي لايوجد بديل عنه، للصورة أبداً، وكأنه اللمسة التي لاتتم إلا بها . . . . حتى ليبدو أمراً تافهاً . . . وشيئاً نابياً أن يحلّ النوم محلّه، أو أن يزحزحه الرقاد عن موضعه.

وبعد: فلابد أن تكون هذه الصورة نفسها، التي استلزمت هذا الاطار ـ هذا الأرق ـ هي التي فرضت عليّ هذا التعبير الناضح صدقاً، وحباً، وترحيباً . . ومن وجهة ثانية لابدّ أنها هي نفسها التي فرضت عليّ أن أقف بهذا التعبير، من حيث أراد هو، نفسه، أن يقف بي . . وأن أنتهي منه ـ على قصره ـ لمحض أن المضي فيه أكثر فأكثر كان فضولاً في القول، واقحاماً في الأداء.

وإذا أردت الأمانة الكاملة . . والدقة المفترضة، في استكمال الأسباب المحتملة لهذا الحيز الضيق والمساحة المحدودة اللتين قسمتا لهذا الطارق الحبيب ـ الأرق ـ فلا بد لي أن أعود لأتذكر أن لـ «يادجلة الخير» يداً قوية، وأثراً بالغاً في ذلك . فلقد تشابكت ـ وهذه القطع المعدودة ـ في آن واحد فشبكتها، واقتحمت

---

(١) دارين: قرية من قرى الشام.
(٢) التامور: غلاف القلب.

ميـدانهـا فزحـزحتهـا عنـه، وجاءت (يادجلة الخير) لتقول شيئاً جديداً ليس الأرق وحـده، ولكن جوهر الغربة نفسها، بما فيها من موحيات . . وبواعث . . وأحاسيس . . وكوابيس . أيضاً.

وهدأت العاصفة الكاسحة . . وقرت الأحاسيس الموحشة في أعماق الضمير وأصبحت «الغربة»، وكأنها هي القياس، وعدمها هو الاستثناء، ولم يعد:

- ليلي يفر من يد الظلم
- ولا يتخطاني ولم أنم

- وعـادت «السـرج» تخفق عليّ بألطف مما كانت، بظـلال أرق، وبمـوحيـات أكثـر طلاقـة وانبعـاثـاً . . ولم ينتقص من لطفهـا، ولا من قوة موحيـاتهـا «جبـل من الأسى» . . كان ومازال وسيظل «يتمشى معي وينتقل» . . والعكس هو الصحيح، فلعل كل طائف من تلك الطيوف، كان يستريح بظل من هذا الجبل، وكان يحتمي به وكان يجد نفسه الضائعة في شخصه الشاخص.

وسـارت الأيـام والليـالي بعقـد من السنـين، على أكثـر من وتيرة واحدة . . ودارت قواعــدهــا على أكثـر من محور واحـد . . ولقحت بأكثـر من عبرة . . وأكثـر من تجربة . . وأكثر من فكرة . . وألفيت لي «نديماً» جديداً غير «الأرق» . اصطـلحـت معه واصطلح معي طيلة هذه الفسحـة من الـزمن، بخـير مايكون عليه الزمان من حال . . وبأشد مايكون مراعاة لقواعد الألفة . . ولأعراف الصحبة . . كنت لاأثقل عليـه في المنـاجـاة . . ولا في المسافات . . ولا في مطارحة الهموم . . ولافي بث لواعج النفس . . ولا في تقـاسم الأفـراح والأتـراح . . ولا في ابتعـاث الذكريات . . ولا في تبادل الصور . . ولا التسابق في التقاطها . . لقد كنت أطرق عليه الباب الفينة بعد الفينـة، قد تطـول الى حد العتـاب، وقـد تقصر الى حد الالحاح، لأهمس في أذنه فكرة عنت . . أو همّاً طرق . . أوذكرى سنحت . . أوبارقة أمل لاحت . . أوسويعة أنس وارتياح وانبساط حانت . .

ومن كل هذا وذاك، تكـونت هذه الاضـمامـة الصغـيرة المتعـددة الألـوان والظـلال، أضعهـا بين يدي القـارىء ملتمسـاً منه أن يمسها برفق . . وأن يتملاها بتجـرد . . وأن يتعـاطف معهـا، فان فيهـا - كما أعتقـد - من المشـاركة في خلجات

نفسه، وفي مضطرب أحاسيسه، وفي مسارب ذكرياته خير شفيع لها. . وخير مبرر لوجودها.

يا أيها الأرق. . .
مرحباً:
يا أيها الأرق. .
فُرِشَتْ أُنساً
لك الحدقُ
لك من عينيَّ مُنطَلقٌ
اذ عيونُ الناس
تنطبقُ
لك زادٌ عنديَ
القلَقُ
واليراعُ النضوُ. .
والوَرَق
ورؤىً في حانةِ
القدر
عُتقَت خمراً
لُمعتَصِر

الناجُون مِن يَوم شَبَاط

كانت الفترة التي عشتها في براغ فترة عز ودلال، فقد كانت ورقة رابحة بالنسبة لي وشبه رابحة لكل عراقي يقدم إلى براغ، إذ كان بيتنا على طريق المطار ولم يكن هناك وافد من الشخصيات العراقية قبيل مصرع عبد الكريم قاسم أو بعيده إلاّ ويعرج علينا، وليالٍ كثيرة مضت كان البيت يظل حتى الصباح مضاء بالوافدين القادمين. وفي الصفوة الصافية من هؤلاء الناجين وفي الطلائع منها كانت نهاراتي وبالأصح كانت نهاراتنا تتقضى بأشهى ماتكون وسط ألطف الأجواء وأمتع اللقطات، ووسط جمالات براغ وتستمر حتى منتصف الليل أو قبيله أو بعيده. وتعاودني بعدها الكوابيس المكبوتة المتفجرة، وكيف يكون هذا؟ ولماذا تلاحقني وأنا في أجمل فنادق براغ كما أشرت سابقاً ثم في الشقة الجديدة شبه المملوكة حتى يومي هذا وأنا في التسعين بعد الألف والتسعمائة؟ وكيف «حييت سفحك عن بعد فحييني»؟ كيف حييتها عن بعد أنا الذي كنت لا بالقرب منها وحسب بل وفي الصميم من قلبها ومن ضفافها ذلك الشقي المعذب أولاً والهارب منها قبل أن يصفى أخيراً. أي بعد أن أصبحت الأرقام سنيناً بديلاً من تلك الساعات والدقائق المحمومة والمسمومة فيها. على أي حال كانت هذه المفارقات، فقد طاردتني ولاحقتني (دجلة الخير) وتفجرت أمواجها حروفاً لاهثة كانت تنطلق بمحض مشيئتها وتتفجر بقوة ذاتها لتعبّر عن واقع مرير يحار العقل في تبريره، وسرعان ماكنت أبعث بها بالبريد العاجل إلى جريدة المستقبل وهي من الصحف المعدودات، ووصلني العدد ذاته وقد نشرت على طول الصفحة الأولى من الجريدة وخطّ صاحبها على حاشيتها: لقد نفذت بعد ساعة أو ساعتين من صدورها

وسنعيدها صباح يوم الجمعة القادم، ويشاء الحظ أن يكون صباح يوم الجمعة هو الثامن من شباط، وطبعاً فقد دُمرت الصحف وانشغل الناس بأنفسهم أو بالقنابل الملقاة على بغداد والطائرات المحومة عليها.

ومهما كان الأمر فقد ظل هذا الشخص الثاني الطاريء والحائر مطلق العنان بين السارح والبارح بما يصح أن يكون ديواناً جديداً بحد ذاته من أمثال «أيها الأرق» «ياانديمي» «ياغريب الدار»، «يادجلة الخير» وبين ديوان آخر وجديد مثله، (ياالخديك ناعمين)، (لُمّي لهاتيك لُمّي)، (ياغادة الجيك) و(بائعة السمك).

أما بعد فقد أحببت لهذه الفترة الممتدة ذات الخمس سنوات فيما بين سنة ١٩٦٣م و١٩٦٨م موعد عودتي إلى العراق بكل مافيها من تعاقب الأحداث ومفارقاتها وتقلبات الظروف خلالها، هو أن تكون مدخلاً للوصول بالقاريء إلى هدف لاأسمى منه عندي ولاأعز هو أنني وبالرغم من كل ماتغير به عليّ الزمن والحدث والمكان فلم يتغيرّ فيّ شيء واحد من أن أكون مع الناس وفي كل زمن وفي كل مكان وفي كل ماتتعاقب به عليهم الأحداث.

وبعد فلست إلاّ ظلاً من ظلال الشاعر المعجزة الجبار (غوته). ومع هذا فقد أوصى أن يُكتب ماهو قائم حتى الآن على شاهدة قبره وبما يشبه الحرف الواحد: «لقد كنتَ ضياعاً في طفولتك، وطيشاً في شبابك، ورعونة في شيخوختك، ومع هذا فلن يمر انسان على قبرك إلاّ ويشهد بأنك انسان».

شيء عظيم ورائع، وماهذا بالقليل. ومن هذا المنطلق ومن باب الشيء بالشيء يذكر فقد كانت هناك لقطة حلوة إلى جانب لقطات غير قليلات من أمثالها هي دعوتي في أواسط الستينات لزيارة ألمانية الشرقية وقتذاك، حين أتيحت لي زيارة بيتي الشاعرين الألمانيين الجبارين «شيلر» و«غوته» وهما متقاربان على بعد مابينهما.

كانت هناك لي مفاجأتان أولاهما الفارق العجيب بين بيت غوته بكل أبهته وبذخه وصالة قصره بثرياتها الكريستالية الفخمة، وبين البيت المتواضع لشيلر العظيم والشبيه بالبيوتات الشرقية المألوفة والمكشوفة، وحسب شيلر معجزته الخالدة (اللصوص).

وثانيتهما هو ذلك الأثر البسيط في ظاهره والعميق في مغزاه والشاهد العدل على أن البساطة هي سرّ أسرار العظمة. فقد كان هناك على المدخل الوحيد من لبيت المتواضع، والى جانب سرير أو سريرين من الدرجة الثالثة للنوم ومثلهما أو

أكثـر بقليـل من الكـراسي المتواضعة. وكان على المدخل الوحيد لهذا البيت وعلى منضـدة صغـيرة سجـل مكشـوف على صفحتيه وفي كل صفحة منه تاريخ اليوم أو الشهر أو السنة مايصحّ تسميته بيوميات، تتضمن تكاليف المعيشة من أكثر الأشياء زهادة إلى أغلاها مما كانت زوجة الخالد تتسوّق به. وعلت وجهي دهشة طارئة وأنا أتصفح هذا السجـل، فقـد وجـدتني مسبوقاً إلى ماكنت أعتقد السبّاق فيه، ففي الجملة مما أعتـز به دفـتر صغـير الحجم، كثـير الأوراق استمـر عندي طيلة سنوات عديـدة في براغ، أسجـل في كل صفحـة منه كل يوم من أيام الشهر وماتسوقت به. ففي صفحـة منـه على سبيـل المثال كان مجموع مصروفاتي لهذا اليوم خمسين كروناً أي مايساوي دولاراً.

وبعد ومن جديد وبعيدا عن كل هذه المراحل فعوده الي المرحلة (عبد الكريم قاسم) وساعاته الاخيره .

ففي صحوه من يوم الثامن من شباط كان السيد عزيز الحاج يتصل بي ليفاجئني بانه قد انتهي كل شئ وقبل ان يتم كلمة مصرع عبد الكريم وبكل اندفاع وجدتني اقول له كلمتي تختلط بكلمته:« بشرك الله بلخيرسآسرج الشموع » كلمات خمس احار كثيرا وانا اصبها علي الورق ان اقربها الي ذهن القارئ لادراك ماتحت حروفها فلقد كانت لاكما تبدو كلمات عابره كانت الما ودما واعصابا وتأريخاً كانت تتكلم بنفسها عن نفسها وكنت انا صاحبها اسمع اليها ويبرق في حروفها وكلماتها تأريخ فظيع قصيّ جدا جدا في زمن ما بعيدا جدا جدا في مكان ما. وسواء اسرجت الشموع ام لم اسرجها فقد ظلت في ثنايا ضلوعي لتتسرج من جديد لالتضئ مداخل نفسي انا المعني بها ولا لمداخل نفوس كل من يتعاطف معي بل في مداخل نفوس كل من مروا بأمثال مامررت به وفي كل ماتمنوا ان تكون عاقبة من اجهز عليهم وهم احياء ليروا عاقبته علي ابشع صوره واذلها لقد عادت هذه الشموع ومره ثانيه لتتسرج بما يؤطر وبما ينشر من تلك الكلمات الخمس بأكثر من ابيات خمس وانا في معرض مشاركتي للمهرجان الذي اقيم في ميونيخ لنجده (كردستان) وبطولاتها عندما وصلت من قصيدة :

قلبي لكردستان يهدي والفمُ ولقد يجود بأ صغريه المعدمُ

الي قولي:

انا صنو يومك في كفاحك محرب شاكي العزيمة اعزل مقتحم

آبى الهضيمة واستباح هضيمتي ... فيما استباحك أحمق متجرّمُ
ألوى بمن عندي وعندي صفوة ... هي من أبيه، ومن ذويه أكرمُ
ورمى بهم خلف الحدود كأنهم ... بُرُدٌ إلى الأمصار عجلى ترزمُ
وأشاع لحمي للذئاب ولحمه ... وحمى لحوماً بالنتانة تزخمُ
ودعا الجباة إلى حطام حويشةٍ ... لتباع ملحفة ويُشرى محزمُ
وتفرج المتفيهقون فلا دمٌ ... يغلي، ولا قلم يذود، ولا فمُ

لقد قمت لإلقائها وأنا في الشلة المتميزة التي كانت تتصدر الحفل، وفي الصميم منها كان السيد (التيجاني) عضو مجلس قيادة الثورة في السودان ـ إن لم يكن رئيس المجلس ـ آنئذٍ والذي كان أحد المعجبين ـ وهو الثائر ـ بثورة تموز وبـ «عبد الكريم قاسم» نفسه كل الإعجاب، ورجعت الى مكاني وقد أتممت القصيدة لأجد السيد التيجاني يسألني وهو مدهوش: أحقاً هذا ياأبا فرات؟ قلت له: ياسيدي كما سمعت، إنه إيجاز كل الإيجاز لحقبة طويلة كل الطول. فكان من السيد الجليل الكريم نفسه، وأعتقد أنه مازال هناك أحياء يرزقون هم شهود على ماأقول، إلا أن لطم جبهته بيده.

وبعد فهل انتهى كل شيء لمن كابد وعانى ماعانى ودفع من الأثمان الباهظة مادفع وتخلص من كل ذلك بأعجوبة وهو مثخن بالجراح ليتعافى ويتشافى وليدخل الحياة من جديد ومن كل أبوابها المشرعة والتي لايرتفع الى مدى أحاسيسه المرهفة فيها إلاّ مدى استماتته في حب الحياة؟ لم يكن شيء من ذلك الذي كان هو ماقاله هذا الشاعر نفسه عن نفسه:

ياجلق الشام إنا خلقةٌ عجبُ ... لم يدرِ ماسرها إلاّ الذي خلقا
محلّؤون وجنات النعيم بنا ... وعاطشون ونمرى الجونة الغدقا
وزاحفون بأجسادٍ نوابضها ... تستام ذروة علّيين مرتفقا
إنا لنخنق في الأعماق غصّتنا ... حتى تمور على أحداقنا حُرقا

فالمصيبة هي أن هذه الخلقة وُجدت لتجهل كل شيء، ولتفهم شيئاً واحداً هو أن تكون إنساناً، أي مع الإنسان الذي لايعجبها، أن تكون مع المسحوقين حتى ولو كانوا هم لايقدرون إلاّ أن يكونوا كذلك، حتى لكأنهم لديه البديل الوحيد عن المفاتن والمغاني والموحيات، بكل ألوانها، بكل صبغها، بكل جمالاتها.

ولكي أنصف التأريخ ولكي أكون حكماً عدلاً فيما هو لنفسي وفيما هو عليها،

فقد كانت هذه العودة الى الجولة الجديدة ـ جولة حركة الدفاع عن الشعب العراقي ـ استجابة أكثر مما هي انطلاقة، فقد وجدتني شئت أم أبيت مقاتلاً في معركة طارئة قدر ماهي مفروضة ومحتومة عليّ.

خلقت على ماكنت غير مخيّرٍ هواي ولو خيّرت كنت المهذبا
أريد فلا أُعطى وأُعطى ولم أُرِدْ وتكره نفسي أن تكون المجربا

قالها (بشار) العظيم من أيام زمان ويعيدها الزمن بعد الزمن، والإنسان بعد الإنسان، والمكان بعد المكان....

وهكذا كان. فقد ألقي على كتفي هذا الحمل الثقيل بوزنه ومستواه والكريم بمحتواه وسرعان ماتجاوبت مع هذه الحركة الجماهير الممتدة والوسيعة وجذبت الشعب العراقي في كل الفلك الشرقي وبخاصة في براغ وهي مئات وفي موسكو وهي ألوف ومثل ذلك ففي بولونيا ولندن نفسها. وطافت هذه الحركة عبر الأثير وعبر الصحف الغربية والشرقية. فبالإضافة الى اذاعة بلغاريا كان هناك إذاعة لندن، وكانت قصيدتي الشهيرة في الأسبوع الأول من الحركة بل في الأسبوع الأول أو الثاني من النظام الجديد، والتي لاأدري بحق كيف تحملها عبد السلام عارف. ولهذه القصيدة التي ضجّ بها العراق في صميمه والمساجين من وراء قضبان سجونهم حكاية عجيبة.

ففي هذا الأسبوع الأول نفسه كانت جريدة النداء الشهيرة والصادرة في بيروت قد وصلت الى براغ وفي افتتاحيتها تقول: «لقد سلمت دجلة والفرات إذ سلمت ياأبا فرات». لقطة عجيبة من رجل ظل يتتبع أخباري ليصل إلى يقين، أنني مازلت خارج العراق، وسألت صديقاً لي عمن عساه يكون فأجاب ضاحكاً: أنسيت الرجل الذي التقيته في فندق الكرون الشهير وكان يتوكأ على عصاه ورددت تحيته بقولك (فهمنا أنك أعور ولكن هاأنت أعرج أيضاً). والمقصود هو أمين الأعور.

وكان هذا المقال مدخلاً شريفاً وهاماً بدأت به أول خطوة جماهيرية في حركة الدفاع وذلك بالإعلان عن تجمع في مركز فسيح جداً في براغ يضم كل العراقيين للاستجابة إلى دعوة حركة الدفاع وفعلاً فقد اكتظت القاعة كلها وكان عدد الواقفين يفوق عدد الجالسين.

وافتُتحت الجلسة بقراءة المقال وتلته القصيدة التي رددت بها على جريدة النداء:

«أمـين» لاتغضب فيـوم الطغـام آتٍ وأنـفُ شامـت للرغـام

ويمكن أن يكـون مطلعهـا دليـلاً على فظاعتها وعلى ماأصاب عبد السلام عارف منهـا. لقـد كان حدثـاً فريـداً من نوعـه إذ قيـل وأذيـع ونشر منها وعن رئيس جمهـوريـة مالايمكن أن يقـال أويذاع أوينشـر عنه. فانتزعت الفتيات والنساء كل مايحملن من أساور ذهبية وقلائد ومجوهرات لتلقى على المنضدة وليعلن كل فرد من الشبـاب عن تطـوعـه براتبـه الشهـري كاملاً. وبصرف النظر عن أهمية دور الحزب الشيـوعي وبخـاصـة فدور ممثليه وشخصيته القوية فقد كان الحجر الأساس في هذا التكوين متمثلاً بالجبهة الوطنية وبكل عناصرها والرموز الشاخصة منها وفي المقدمة منهم، وفيما عداي أنا الذي يصح أن أكون الممثل الشاخص للمستقلين فقد كان يمثـل فيهـا الحـزب الـوطني الـديمقـراطي بالـدكتـور فيصل السامر، ومن الحزب الـديمقـراطي الكـردستاني فالشخصية الأولى بعد السيد البارزاني العظيم، جلال لطالباني، ومن الكتل التقدمية وفيها بين الديمقراطي والشيوعي ذنون أيوب ونوري عبد الرزاق والفنان محمود صبري.

ابـدأ نشـاط الحـركـة في أول مؤتمـر صحفي لها حضره أكثر من مندوب من الصحف الشرقية والغربية، ثم بدأ تشكيل الحركة بانتخاب هيئة الرئاسة ومعاونيها وبتـوزيـع المهـام المطلوبـة على الأعضاء، واتخذت من شقة السيد أيوب الضخمة مقراً لها، بوصفه ملحقاً صحفياً سابقاً للسفارة العراقية.

دافعت الحـركـة عن الوجه العراقي وفعلت فعلها وأتت ثمارها بما لاأغالي اذا قلت أنه لم تكن هناك وعلى أقل تقدير بما يخص العراق حركة مثلها استقطبت كل من بالعراق، بكل تجمعاته وكتله وأحزابه، وترافق فعلها أو صداها ليصلا إلى كل من قدر في ظـل هذا النظام العسكري والبعثي الجديد أن يمشي حراً على قدميه أو مثقـلاً بالحـديد أورهن السجون أوقيد التعذيب في زنزاناته ولتقتحم مراكز التوقيف التي انطبقت على عشـرات الالاف من المـوقوفين حتى لقد أفرغت لهم المساجد في انحاء العراق.

استطـاعت هذه الحـركـة إلى جانب كل ذلـك أن تزحـزح كل المـوجـات العسكـريـة الجـديدة حتى أن هذا النظام ذاته قد انشق على نفسه في السنة الأولى

منه وانحازت للحركة الفئة الأقوى والأشد من هذا القسم المنشق المطرود والمؤجل الى خمس سنوات أي الى ١٩٦٨م، إذ كان هؤلاء يعدون حركة الدفاع بمثابة القول القائل: «عدو عدوي صديقي».

أما البواعث التي شدت من أزرها فقد كانت قبل كل شيء وبعد كل شيء التجانس في الفكر والهدف ونكران الذات والاستعداد للتضحية والسعي لأن تكون هذه الحركة ملفتة للنظر باعثة للقوة الوطنية على التجاوب معها سواء في داخل العراق أو في خارجه.

لقد أوجدت نفسها وأثبتت وجودها واقتنصت الظروف الملاءمة لها، وسرعان ما انسجمت هذه الظروف معها.

وكانت الحرب الباردة في صميمها وأطبقت فيما أطبقت أو كادت على العملاق الأول منتزعة منه المحط الأول والأقوى أي العراق، وقد استلّت منه المناصر الفريد من نوعه «عبد الكريم قاسم» لا في شدة بغضه للاستعمار وللعالم الغربي ولا في قوة إيمانه بالبديل الأول والأقرب وهو الاتحاد السوفييتي بل لمحاولة هذا الغرب بكل مايستطيع ليعزله عن العالم.

ولم تكن هذه الحركة لتؤتي ثمرتها لولا امتداد جذورها قبل كل شيء في صميم تربتها العراق، أما أن يسعفها الطقس أو أن ينجدها الموسم أو أن يمطرها السحاب في أوانه وفي محله ليقوّي من فروعها ويمد من أغصانها فذلك شيء آخر، وربما كان من مفاخر هذه الحركة هو سماح العملاق وفي معرض التنويه بالحركة بما لايمكن أن يخطر على بال مادياً وهو أن تعيد الروبل إلى المصارف الحكومية لتتقبله بأربعة أضعاف من أمثاله. وبعبارة أوضح فان تقدم لها الألف روبل وهو مايساوي في السوق المحلي بثلاثمائة دولار لتعيدها إليك بألف وثلاثمائة دولار، ومثل ذلك مافعلته تشيكوسلوفاكيا بعملتها الـ(الكرون) وبأربعة أضعاف كما هو الأمر في موسكو.

وللقارىء أن يتصوركم هي الجالية العراقية في الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا وكل أنحاء الفلك الشرقي، وكلها تلبي نداء الحركة بأول إشارة لها، وتستجيب لها بكل ماتستطيع وبكل ماتملك.

لقد كُنا في براغ والحق يقال وحتى آخر نفس من أنفاس هذه الحركة أمناء على حساباتنا، على ميزانيتنا شبه الضخمة والتي وصل الأمر بها الى حدّ مديد

العون لا إلى قسم كبير من العوائل العراقية المنكوبة آنذاك بل والى الحركة الكردية. ولقد كنت أول من رحب بقدوم ممثل السيد البارزاني، وأول من وقع له على المعونة المادية المطلوبة، وكانت مبلغاً غير زهيد. وأعود لأؤكد بأن هذه النجدات وتلك الإغاثات لم تكن لمجرد سواد عيون الحركة لو لم تثبت نفسها بنفسها ولو لم تكن قادرة على البقاء شامخة وفعالة حتى بدون المساعدات.

وبعد فلم يكن منا نحن الطلائع العراقية في براغ أو غيرها وعلى حد سواء فمن حركة الدفاع هذه أوغيرها من الحركات من كان يعتقد أننا بهذه الحركة أو الوثبة أو الانتفاضة أومايسمى بالثورات سنزلزل أرضاً صلبة صامدة وصابرة على رغم كل مايراد لها وبها وعلى مدى العصور. فلقد ظلت كما هي منذ أن كانت وحتى يوم أن تزول ـ كما يبدو ـ هادئة مستريحة في كل مايشاء لها الحاكمون والغزاة المنيخون بكلكلهم عليها أو العابرون منها الى غيرها. كُنّا نعرف كل ذلك ولكن الطرف الوحيد الذي كان يتخيل أويتوهم مالم نتخيله أو نتوهمه كان هو الاتحاد السوفييتي الذي انتُزعت منه الجنة الموعود بها في المنطقة العربية كلها.

إلى هنا يصح أن يكون الحديث منتهياً عن الحركة، ليبدأ مابعدها من محاولة لها مايبررها وذلك عندما أوشكت قوة الاندفاع في الحركة على الانكماش بقدر ماأوشكت الأنظمة العسكرية بحد ذاتها على الانكماش أيضاً الواحدة بعد الأخرى، وذلك بزوال الضابط العسكري فيها بعد الضابط، فعبد السلام عارف بعد عبد الكريم قاسم وأخوه عبد الرحمن بعده، «وهكذا دواليك» حتى يومنا هذا كما يقول المثل.

وفي هذه الظروف كانت رحلتنا الى «لندن» لترتيب بعض اللقاءات والتأييدات لحركة الدفاع. وبتدخل جماعة من حزب العمال سمحوا لنا بالبقاء لمدة ثلاثة أيام وأردنا اليوم الرابع فلم يوافقوا لنا. وكانت حصتنا الوحيدة من هذه السفرة وفي الحقيقة فبما فيها الكافية هي اجتماعنا بالشخصية العالمية الشهيرة والمدافعة عن السلام الفيلسوف «برتراند رسل»، وكان مرافقه المحبب إليه الشاب العراقي السيد خالد أحمد زكي الذي سألناه ذات مرة: كيف صحته وقد تجاوز التسعين؟ فقال: لاتخافوا عليه إنه يفرغ كل ليلة زجاجة من الويسكي، ويأنس في ساعاته المرحة. وكان يتحدث إلينا بما يشبه المحاضرة في أعلى مستوياتها.

وقد عاونتنا بعض الصحف البريطانية في هذه الزيارة. أما بعضها الآخر فقد

سخر من الفيلسوف العظيم ومن السلام العالمي نفسه.

ومن «لندن» ذهبنا الى «باريس» وهناك اشتد مابيني وبين الجماعة بصدد ماكانوا يسمونه (بالعهد الجديد)، فوصل الأمر الى حدّ أني اتصلت بجريدة (لوموند) وصاحبها ورئيس تحريرها هو صديقي اللبناني الأصل الذي رحب بي كثيراً وكأنه كان يعيش معي كصديق منذ فترة طويلة. قلت له: لي كلمة أريد أن أرسلها إليك إذ أنني على خلاف مع الجماعة. فقال: الآن أنا أرحب بها وانتظرها. لكنها لم ترسل فضلاً عن أن تنشر بسبب رجاء د. فيصل السامر في أن لاتصل الأمور الى هذا الحد. فكففت عنها. ورجعنا. وهكذا بدأت حركة الدفاع تلفظ أنفاسها الأخيرة.

محنة من جديد وهزيمة قبل النصر الموعود

وفي عام ١٩٦٧م كانت هناك حادثتان هامتان متقاربتان تشاء الصدف أن تكون الواحدة منهما مشدودة شداً وثيقاً بالثانية، وفي معرض أضخم بلد عربي من مشرق المنطقة العربية حتى مغربها وهو (مصر) ثم أن تكون لكل واحدة منهما - وعلى انفراد - دلالتها العميقة.

فالأولى منهما هو تعرفي على السفير المصري «مجدي حسنين» واشتداد العلاقة بعد ذلك فيما بيني وبينه لحد أن لايقل لقاءنا في بيتنا بيراغ عن يومين أو ثلاثة في الأسبوع الواحد من سهر وسمر ومنادمة، وفي واحدة من هذه الليالي وقد انطلق الحديث عن الغربة والتغرب وإذا به يبادرني: ولماذا أنت ياشاعر العرب كلهم متغرب وهناك وطنك الثاني والأوسع «مصر» وهناك القاهرة البديل الأفخم عن بغداد؟ وسرعان ماكان مني أن أقول له مالا يخطر له على بال هو أنني ياصديقي العزيز لم يفتني هذا الوطن الثاني بل وليس هناك من بلد عربي أكثر من مصر مما أنسجم معه وتتلاقى كل أطرافي بأطرافه أدباً وشعراً وسعة أفقٍ وملامح فنٍّ وجمالاته بل وجمالات كل مَن فيه ولكنني أقول لك وأنا لم أحاول أن أجرب ماأقول لشدة اطمئناني إليه وهو أنني ممنوع من دخول القاهرة. وإذا بالدهشة تعلو أساريره ليقول لي: هذا شيء غير ممكن، هذا تخيّل شعري ينطلق بعيداً بعيداً. قلت له: لعلّني مخطىء، ومن عسى أن يكون أقرب منك أنت بالذات الى معرفة ذلك؟ قال لي: وفعلاً سيكون منّي هذا الواجب، إنني مسافر بعد أسبوع وسأعود إليك لأودعك إلى المطار في سبيلك الى القاهرة، وفارقته، ولم يمض أكثر من أسبوعين وإذا به يهتف إليّ بأنه عائد من القاهرة وبأنه بحاجة الى مؤانسة جديدة، وذهبت إليه فبادرني

بالقـول: يا أخـي الجـواهـري كم أنـت ملهـم! وكم تستـوحي! وكم أنت مُوحى إليـك: إنني دهشت في القـاهـرة بصدق ماتقول ولو لم أكن أنا بالذات من شلّة علي صبري فلربما شككت فيما علمت وفيما كدت أتأكد منه ولكنني أقول لك بصراحة وأعيد لك أنا من أخوان علي صبري وهو الذي يمنعك من الدخول وليس جمال عبد الناصر الذي يحبّك كثيراً.

أمـا الثـانيـة فقـد كانت في الليلة الحاسمة من تاريخ الذل العربي وفي مساء الرابع من حزيران عام ١٩٦٧م، أي ليلة الهزيمة الكبرى في صباحها، فقد كانت حصتي من تلك الليلة أن أكـون المـدعـوّ الـوحيد من الطلائع العراقية للمشاركة في المهـرجـان الكبـير الـذي أقيم ابتهـالاً بيـوم النصـر المـوعـود والـذي أقـامـه السـفـراء العـرب في براغ. فقـد كنت راضيـاً كل الـرضى عن قصيدة حسبت أنها في مستوى الحـدث الخطـير قدر ماكنت محاولاً جهـدي أن أثير بها كل نفسٍ وكل سامع في كل بلد تصـل إليـه وكـل قارىء يقـرؤ ها وأن أكون جزءاً من هذا النصر الموعود وشاهداً عليـه بل وشهيـداً من شهـدائـه ومـع هذا كله فقـد كان الشخص الثـاني القابع في اللاوعي يُعتّم عليها بما يشبه الظلمة ويميل كثيراً من القطع المتفجرة فيها إلى محض تخوّف من هزيمة موعودة بل وأكثر من ذلك فإلى التشدد في الصمود لها والصبر عليها:

دع الطـوارق كالأتّـون تحتـدمُ	وخـلّهـا كحبيـك النسـج تلتحمُ
وخـذ مكـانـك منهـا غير مكـترثٍ	دهدى بك الموج أو علّت بك القمم
كفاك (والخطب!) فخراً أن تصارعه	إن المـصـارع أنـا صار محترمُ
ومـثـل بلواك في غُمّـى تدافـعـهـا	تكـون عقباك اذ تستكشف الضمم
تعسّـر الصبح واستعصت ولادتـه	حتـى تشـابكـت الأنـوار والظلم
تبـارك الخطـب تبـلوه وتحـصـده	ان الخطـوب إذا مااستُثمـرت نعم
عود الـرجـال بكف الخطب يعجمه	كالمنـدل الـرطب يذكو حين يضطرم
خُضِر الكـوارث لانكسـاً ولاجـزعاً	واتـرك إلى الغيب مايجـري به القلم
لو كان يُضمن نصـرٌ قبـل موعـده	لكـان أرخص مافي الأنـفس الهممُ

فمن يصـدق أن يكـون هذا كله هو الكـوكبـة الأولى لموكـب النصـر المـوعـود ومـع هذا فقـد كان مني مايجب أن يكون. كنت ـ كما قلت ـ منسجماً كل الانسجام مع نفسي وقصيـدتي وروعـة إلقـائي إيـاها حتى أنني استغربت وأنا في زحمة إلقائي

إيـاهـا أن ينهض سفـيران من سفـراء العرب لم أشخصهما ليغادرا الحفل ولربما كانا ـ والحق يقال ـ أديبين فهما كل الفهم ماتحت السطور.

وعـدت وقـد انتهى الحفـل الى بيتي لأسهـر الليلة التي كان العـالم بمشـرقـه ومغربه يسهرها أو يكاد.

وكم يؤلمني أن أتحـدث عن لقطـة أسيفـة فريـدة في عالم الـزعـماء المسؤولـين ومستوياتهم العليا والرئيس الفقيد جمال عبد الناصر في الصميم منها، فلقد تنصّت ولأشد سمعي وبصري شداً الى المذياع والتلفزيون بكل حواسي الى كل كلمة من كلماتـه في المؤتمـر الصحفي الخطـير والشهير في تلك الليلة وأمام الحشد الحاشد من صحفيي العـالم كله والله وحـده يعلم كم هو العـدد الوفير من عملاء الاستخبارات فيهم، وسرعان مادهشت لكلمة واحدة لن أنساها ماحييت وهو يردّ بها على واحد من ذلك العدد الوفير الذي كان يستفزّه وعلى أبشع صورة ليسأله ومابينه وبين كل ماكان في اليوم التالي أقل من أربع وعشرين ساعة: ياسيادة الرئيس لقد قلتم إنكم ستنتصـرون وستلقـون (اسرائيل) في البحر؟! وكان الجواب وصداه يرن في سمعي حتى الآن: أجل....

ولابد أن يكون لها مثل هذا الصدى في كل مَن سمعها في العالم وفي كل مَن نسمَع في اليوم التالي لما بعدها....

إقـــامـــة محــــدودة

وفي الشهـور الأولى من عام ١٩٦٨م وجـدتني بحـاجـة ماسة الى شيء من المدد والعون يساعدني ومن معي من أهل بيتي على مانحن فيه من عوز، ووجدت ذلـك في طبعـة جديـدة لديـواني، وكـان مني أن قابلت السفـير اللبنـاني وحمّلته رسـالة مكتـوبـة الى الـوريث والـولـد الأكـبر لذلـك (البـاقي وأعمار الطغاة قصار) رئيس الوزراء، أستميحه الأذن للدخول الى لبنان، فيكون منه وبعده مدة غير قصيرة أن يجيئني الرد المتفضل بالسماح لي بدخولها لمدة شهر واحد، وأكرر واحد ليس إلا .

ووجـدتني في تلك السـاعة كما لم أجد نفسي في أمثالها وجهاً لوجه مع هذا السماح بدلاً من أن أتمـرد عليـه بل وأن أقـول ماأريـد أن أقـول في الـرد على هذا التحديد ونزلت على حكم الأمر الواقع .

وقبيـل سفـري الى بيروت كنت راغبـاً كل الـرغبة أن أقضي أياماً في دمشق لأعـرج منهـا الى لبنـان، فلم يكن مني إلا أن أهتف الى صديقي الشاعر السوري محمد الحريري بأنني قادم ليكون على علم بذلك ولينتظرني إذا تيسّر له في المطار وقد عينته بالذات لسببين :

الأول هو أنني وكما مرت الإشارة من سحب جواز سفري، كنت أحمل جوازاً عالمياً جديداً عليّ قدر ماهو مألوف في مثل هذه الظروف .

والثاني هو أن أخاه «زياد» كان آنذاك في هيئة الأركان العسكرية، وله كلمته ونفوذه .

ووصلت فعلاً وتقدمت إلى المسؤولين عن الجوازات، وتصنّعوا الدهشة وكل ضابـط منهم يريـه إلى الآخـر في المطـار ويقـول : انه شاعرنا الجواهري، وإذا أجد

الفـارق على قرب قدمـين أو ثلاثة فيما بيني وبين السياج المضروب، وفيما بيني و.
من وراء هذا السياج ثلة غير قليلة من أصدقائي القدماء ومعهم «محمد الحريري»
وهم لايقـدرون على صنـع شيء. وعمـد الضباط إلى حل وسط لتسفير شاعرهم
مع شخص سوري شاءت الصـدف أن يكـون في طريقـه الى بيروت بسيـارتـه
الخاصة، وقد أقلني من المطار دون أن أرى دمشق.

ودخـلت لبنـان ولم تتـم المعـاملة بالشهـر واحتـاجت الى شيء من الـوقت
وبـوسـاطـة من صـديقي الـذي أحبـه على طول الخـط منذ أن عرفته، ومنذ كانت
وساطته الأولى في يوم تكريم الشاعر بشارة الخوري وهو الشاعر المقل والمبدع سعيد
عقل وبصعود منه وبنزول سمح لي بتمديد بقائي لمدة أسبوعين وأردت الثالث وكان
ماأردت، ولكن بإشـارة مهـذبـة ومؤدبـة من صديقي (عقـل) بأن لاأقلل من شأني
ومكانتي بطلبي أسبوعاً آخر فلعله لايقدر على ذلك.

أما فيما بين عامي ٦٦ و١٩٦٨م فبقدر ماكانت أوضاع الحكم البعثي في العراق تتحلل وتتهافت، كانت أمور العودة الى العراق لمن يريد تتسهل وتتيسّر أكثر فأكثر وهذا ماكان من أمر حركة الدفاع نفسها التي راحت تتهاوى ليجيء وعلى أنفاسها الأخيرة رهط آخر يتسلم ماتبقى من تراثها ليطير هباء ولكي يُتخفّى ويتغطى على كل ماتبقى من حساباتها ومطبعتها الثمينة. أما أنا بالذات فقد تحللت أيضاً من هذه المشاغل التي انسجمت معي وانسجمت معها بل واستغرقت فيها. ووجدتني ومن جديد حراً طليقاً ذاهباً وآيباً على هواي وعلى نمط حياتي الجديدة فيما بين البيت والعائلة وفيما بين المراوحة بين هذا المقهى أو ذاك وهذا المغنى أو الآخر، وهذا القنص الجديد من جمالاتها أو غيره في خلسات مما بين ساعات النهار وأوائل الليل وأحياناً فحتى تواليه من الأسحار، وبقي شريكي الوحيد والخليص والأمين في كل ذلك هو الدكتور فيصل السامر. لقد كُنّا بفضل سيارته الخاصة وبجواره شبه اللصيق ببيتنا في منطقة (بجريني) نتواعد على هذه الساعة أو تلك من هذه الليلة أو غيرها لنذهب بكل بشاشة ومرح وانسجام أكثر من ليلة في الأسبوع لنرجع قبيل الصبح رجعة اللصوص وبيوتنا نائمة ثم لنعاود سيرتنا من جديد على منوال يكاد يكون مفروغاً على قالبه وفي حجوم مقاييسه. وابتدأت البقية من الطلائع الخاصة بي تتفرق هي أيضاً، فقد عاد الوفد الكردستاني برئاسة جلال الطالباني ينسلّ الواحد منهم تلو الآخر الى منطقة كردستان التي لم تنجُ حتى في أيام عبد الكريم قاسم من القنابل المتساقطة عليها والمدافع المصوبة إليها. وتقدم فريق من هذه الطلائع وهم أكثر من عشرة بما يشبه العريضة الى المسؤولين في العراق يسترحمونهم في العودة وجاؤوا إليّ بهذا الطلب ورفضته قائلاً: إنني ياأيها

الأخــوان لاأدعي البطـولات في كوني غير ملتمس العـودة ولكنني أدعي أنني أعـي ذاتي وأدرك ماأنـا عليـه من حال وماعساه يكون هناك، في هذا العراق الذي فارقته رازحاً تحت حكم كريم قاسم، وهاهو اليوم يرزح تحت إرادة الواحد بعد الآخر من بعده. ثم لماذا أعود إلى العراق وأنا في براغ؟ ولماذا ابتذل نفسي بهذه العودة وأنا أعتز بها وبكـل مايحيـط بي وبهـا من هذه المفـارقـات الشاسعة والبعيدة فيما بين الحضارة والتخلف؟ وقبـل أن ترسـل العـريضـة فقـد تقـدم أكثـر من واحـد منهم بنشرها في الصحف اللبنـانيـة وتشـاء الصـدف أن تصل إليّ مجلة الآداب لسهيل إدريس وإذا باسمي الكامل في الطليعة من تلك الأسماء وبها يصح أن يكون الستار الذي يغطي عليها وعلى التهاساتها.

وكذبت الخبر في أكثر من رسالة واحدة مني إلى أكثر من صحيفة في بيروت. أقـول فيهـا: إنني آسف على أن تكـون هنـاك صحيفـة أو مجلة تنشـر اسمي بدون موافقـة مني حتى بدون علم مسبق، إنني لاأنكـر على من يود العـودة الى وطنه من الغـربـة حقـه في هذا، ولكنني أنا بالذات أحب أن أعلن على رؤوس الأشهاد إنني لن أعـود الى العـراق حتى يطلبني الشعب العراقي نفسه. وتقع الجفوة الجافية بيني وبين سهيل إدريس لمجرد أنني عنيته كما يُفهم من كلمتي ضمناً رغم أني لم أجيء بها على ذكر المجلة وصاحبها.

وقبيـل عودتي الى العـراق كانت عائلتي قد سبقتني إليـه مزوّدة بكـل ماتبقى لدينـا من المكـافأة على طبـع ديـواني «بـريد الغربة» الذي قامت به حركة الدفاع. وبقيت لوحـدي الى أن هتف إليّ أحـدهم ذات يوم ليقـول: هنـا السفـارة العراقية ولشدّ ماكـان قلقي على أهـل بيتي البعيـدين عني من أن يردني نبأ على يد السفارة نفسهـا التي كما قلت لم أزرهـا ولم أتخـاطب معهـا طيلة سبـع سنوات، «خير» قلتها على عجل، وردّ عليّ المتكلم بكل بشاشة وأدب: خير وخير ياأستاذ الجواهري إنها برقية من الفـريق عماش أتلوهـا عليـك: إن الوطن بحاجة الى شاعر الوطن، أطلبوا إليه العودة بكل تكريم، وماشابه ذلك. أنا إذن مطلوب وبابي مطروقة، ومع هذا فقد ماطلت برغم هذا قرابـة شهـرين كان خلالها كل أسبوع - إن لم أقل بين يوم وآخر - ترد إليّ الـرسـائـل من بيتي وعـائلتي ومن أكثـر من واحـد من خلصائي يلحون عليّ وأحيــانـاً فبـالغمـز واللمـز يستنكـرون عليّ ابطـائي في حين كانت تتنسم وسـائـل الإعلام، صحافة وإذاعة وتلفزيوناً موعد قدومي وتوالي نشر القطع المتناثرة من هذه

القصيدة أو تلك، وكان لابد مما لابد منه.

ووجدتني ذات يوم وفي ذلك المقهى الأنيس الصغير وعلى مرمى البصر من شقتنا الصغيرة الأنيسة وبطاقة العودة الى بغداد في جيبي وعلى قدح من «الجعة» أمامي وعلى وريقة الحساب المسماة بالفاتورة وفيما تبقى من ساحة بيضاء فيها أخط بكل يسر واسترسال:

أطلت الشوط من عمري ... أطال الله من عمرك
ولا بُلّغت بالشر ولا ... بالسوء من خبرك
حسوت الخمر من نهرك ... وذقت الحلو من ثمرك
وغنتني صوادحك النشاوى من ندى سحرك
ألا يامزهر الخلد ... تغنّى الدهر في وترك
ويا أمثولة الحسن ... مشت الدنيا على أثرك
ذكا في تربك العطر ... ودبّ السحر في حجرك
فلو صيغت دنا أخرى ... فما كانت سوى كِسَرك
ولو أن المنى خمر ... لكانت سُؤر معتصرك

وحزمت حقيبتي ولشدة غفلتي عما ينتظرني في بغداد من توقع لهذا القدوم. فقد حجزت على طائرة تصل العراق بعد منتصف الليل بدلاً من أن أحجز على طائرة في وضح النهار لإراحة المستقبلين. ومع هذا وبعيداً عن التصديق فقد وجدت وأنا أصل فيها بين الواحد والثانية من بعيد منتصف الليل ساحة المطار وهي شبه مغلقة بمن فيها والكثرة الكاثرة منها من سواد الناس الذي قيل لي أن السعيد منهم من وصل على آخر رحلة من سيارات النقل الداخلي. أما القسم الغير قليل فقد جاؤوا مشياً على الأقدام وماأبعد المطار عن مركز المدينة، بل حتى عن أطرافها. وكان في الطليعة من هؤلاء ممثل من مجلس قيادة الثورة يرحب بقدومي. والرهط المقرّب إلي في براغ والذي سبقني بمغادرتها.

«أرح ركابك»..!
ورسالة مملحة إلى الفريق عماش

وعدت من المطار الى البيت الذي كانت العائلة قد استأجرته كما هو شأنها وشأني قرابة نصف قرن في محلة الداوودي وهي من المحلات المألوفة في العاصمة.

وفي الأسبوع التالي لوصولي وجدت من اللائق والضروري أن أردّ الجميل بالجميل وذلك بزيارة الى السيد عماش، وهتفت إليه، وفي الموعد المضروب كنت عنده محاطاً بلطف المجاملة وحرارة الترحيب، وكانت الصحف قد نشرت أن هناك حفلا تكريمياً سيقام لي في صدر القناة، وإذا به يفاجئني بسؤ الي عمّا إذا كنت قد أعددت له شيئاً جديداً، وفي الحقيقة فقد أعددت لنفسي شيئاً من ذلك وأنا في براغ وبعد أن وجدتني أتجهز للعودة الى الوطن، وفي ساعة من ساعات الصفو الذهني والنفسي والطبيعي كنت أقول أبياتاً غير قليلة وقفت عندها لأنني حسبتها قصيدة شأني في ذلك هو ماكان من شأني في أكثر من قصيدة واحدة، من «المعري» مثلاً أو «أبو التمن» أو «هاشم الوتري»، وفي هذا المطلع وهو كل شيء فيما سيكون بعدها:

أرح ركابك من أين ومن عثر ... كفاك جيلاناً محمولاً على خطر
كفاك موحش درب رحت تقطعه ... كأن مغبره ليل بلا سحر
ويا أخا الطير في وردٍ وفي صدَر ... في كل يومٍ له عش على شجرِ
عُريان يحمل منقاراً وأجنحةً ... أخفّ مالمّ من زادٍ أخو سفرِ
بحسب نفسك ماتعيا النفوس به ... من فرط منطلق أو فرط منحدرِ
خفف جناحك لاتهزأ بعاصفةٍ ... طوى لها النسر كشحيه فلم يطرِ
ألفى له عبرةً في جؤجؤ خضلٍ ... من غيره وجناحٍ منه منكسرِ

إلى آخر هذه القطعة الوثابة الصاعدة وكان من حسن ظني أن تكون هي

الجواب المباشر لسؤال السيد عماش : أجل عندي . فلم يكن منه إلاّ أن مدّ يده إلى درج مكتبه ليخرج ورقة وقلماً ويخطّ عليها أبياتاً ثلاثة أو أربعة من هذه القطعة وحسبته من باب إعجابه بها وحبه للاحتفاظ بشيء من ذلك ، ولم يدر بخلدي أبداً أن يفتتح الحفل بقصيدة له على وزنها وبداعة مطلعها ، وخرجت منه ، وبعد عدة أيام وجدت وزير الإعلام «عبد الله سلوم» يهتف إليّ عما إذا كنت أستطيع زيارته لتناول فنجان من القهوة ، واستجبت الدعوة ، وكان منه أن يبلغني بما لم يدرّ ببالي شيء منه وهو أن هناك رغبة من مجلس قيادة الثورة في أن يكون لي راتب تقاعدي إذ لم يكن لي بحكم قصر المدة في الوظائف التي أشغلتها تقاعد يستحق الذكر، وشكرته ، وبأحاديث متفرقة من هناك وهناك ، ودّعته ، وكان بعد ذلك أن يهتف إليّ وكيل الوزارة صديقي الفقيد والشاعر والإنسان «شاذل طاقة» بأنه مستعد إذا شئت أن يزورني . ومن باب الواقع لا المجاملة في أن يترك وظيفته والشغل الشاغل له قلت : كلا ، أنا زائرك . وجئته لأراه لأول مرة ، وهي نفس الرؤيا التي كانت مع السيد عماش ، إنني كنت أتخيله شبحاً في قصة اقتحامي وزارة الدفاع في أوائل الخمسينات بشأن قضية ولدي (فلاح) . وتناولنا أطراف الحديث وإذا به يفاجئني وهو يتغنّى ـ بما لم أحب بل وبما لم أتخيله ـ بأشد الأبيات مرارة من قصيدتي (أمين لاتغضب) والتي استهدفت فيها أول عهد حاكم بعثي جديد فحسبت ذلك تحدياً صارخاً لي ، وعبّرت له بهذه الكلمة ومعها النظرة الجريئة عن مدى معنى هذا ، وإذا به يقول لي : ولمَ يافلان ، إننا كلنا نتغنّى بها الآن ، كنت خالي البال عمّا دونته قبل هذا بقليل في ذكرياتي عن أنهم كانوا يعدونني وأنا في حركة الدفاع صديقاً لهم مادمت عدواً لعدوهم ، لم يخطر لي بشيء أن أربط ذلك بهذا الموقف وسرعان ماعاد الحديث إلى موضوع التقاعد نفسه ليبلغني أنه قد عيّن لي راتب أُريد أن يكون أكثر فلم يسمح القانون المعمول به بذلك لأنه أعلى مايكون من راتب تقاعدي لأعلى درجة من أي منصب كان وهو مائة وخمسون ديناراً ، وشكرته ، ورجعت إلى البيت لأسمع وأنا أفتح الاذاعة وهي تستهل بأول خبر صدور المرسوم الجمهوري بذلك ، هذا شيء يجب أن يذكر ويشكر ، فهذا الراتب حينئذ وهو مايساوي قرابة خمسمائة دولار تساوي اليوم وفي أي بلد كان على أقل تقدير تساوي ألفاً وخمسمائة .

وعدت ورقة رابحة ، وعادت الشفاعات من جديد وبفارق غير قليل ، فقد كانت شفاعاتي فيما سمي بثورة تموز إلى رئيس عسكري مطلق اليد ، وشبه منفرد

بالسلطة وكلمته هي الأولى والأخيرة في كل مايريد أن يقول أو يفعل. أما هنا فلم يكن الأمر بطبيعة الحال كذلك ماذام الحكم حزباً وليس فرداً. مهما تقاربت الحدود وتضايقت، ليكون هذا الحزب الواحد حاكماً مطلقاً متفرداً. وقمت ماستطعت بأكثر من شفاعة واحدة لهذا المسؤول أو ذاك.

ولكن الشفاعة المشفعة والخطيرة وذات الدلالة الخطيرة أيضاً، هي التي كانت الأولى من نوعها لدى الفريق عماش نفسه، والتي أقول عنها بأمانة وصدق: «ليتني لم أقم بها، ولم أشهد على مابعدها». ومن منطلق هذه الخطورة وتلك، فسأحاول جاهداً أن أوجز تقديمها الى القارىء.

لقد استثمر محمد حسين الشبيبي في بغداد وموسى أسد وهو قادم من حيث يقيم في براغ هذه الورقة الرابحة خير استثمار. فقبيل الحفل التكريمي الموعود بيوم أو يومين، ليطلب الأول إليّ أن يسمح لولده (علي) بالسفر خارج العراق، وهو المفترض فيه أن يعودوا به إلى أبيه وذويه كوماً من عظام، لأنه في الصميم من جماعة عزيز الحاج المسلّحة، والتي ذُبح أكثر من واحدٍ منها ذبح النعاج.

أما الطلب الثاني وإن بدا أيسر وأسهل، فلم يكن في الحقيقة كذلك، وفي هذه المرة فلمجرد أن المشفع نفسه كان من أبغض من يكون لدى الحاكمين، ومجرد وجوده في العراق كانوا يعدونه غير مشروع، فكيف بأن يحصل منهم بالذات على جنسية عراقية.

واستجبت لهذين الطلبين كما لو كنت أستجيب لطلب فنجان من القهوة قائلاً لكلٍ واحدٍ منهما أن يقدم ورقةً بكلمات معدودات بحاجته المطلوبة، وأن يكونا قريبين مني في يوم الحفل.

وأقيم الحفل الذي أريد له أن يستقطب كل الأطراف الرسمية والشعبية وكل الهيئات الحزبية أو النقابية وأمثال ذلك، وكان حفلاً فريداً من نوعه واستهل وزير الإعلام وهو يرحب ويقدم ويكرم المحتفى به ليقول والكلمة الآن للسيد النائب، وإذا بالفريق عماش صاحب الورقة والقلم قبل هذا يعتلي المنصة لينشد:

أرح ركابك من أين ومن عثرِ   هيهات مالك بعد اليوم من سفرِ

شيء رائع، يقوله وزير داخلية، لايقدر أحد أن يسافر بدون إذن منه، وسرعان ماكان الصدى يتردد بين سمعي وخلدي (إنه لا والله لي بعد اليوم سفر وسفر لأنني خلفت وارثة الجنان (براغ) ورائي)، وأتم الرجل قصيدته الجميلة، فلم

يكن من المدعين وكان يجمع المجال الشعري قدر مايستطيع إلى مجالاته الوسيعة والعميقة في تأريخ الغزوات الإسلامية والعربية، وعاد الرجل ليأخذ مجلسه الى يساري، وكان مجلسه هذا فيما بيني وبين صديقي الآخر والشهم الذي يشاء القدر أن يدفعا حياتهما على يد الغربة والمهانة ثمناً لمواقفهما المشرفة، وابتدرت الفريق عماش بالحرف الواحد: ياأبا هدى، لقد قلت لي في أول لقاء أنك تعرف أنني غير طلّاب حاجةٍ لنفسي ولكن للناس فحرام عليك أن لاتعرّفني بحاجة المحتاج منهم، وسرعان ماأجابني: أجل وأنا على ذلك وهنا أومأت الى «الشبيبي» و«موسى أسد» وكانا قريبين مني كما طلبت إليهما فقدم كل واحد منهم ورقته ليوقع على كل واحدة منهما بكلمةٍ واحدة (شجاع) وشجاع هذا هو المرجع الأول في أمر الجوازات والجنسيات على حدٍّ سواء.

وإلى هنا وكما يتلمس القارىء فالأمر أكثر من طبيعي بيد أن الذي كان ومن منطلق الحزب الواحد والحاكم بأمره، هو النقيض لذلك فقد كان هناك وفي الدرجة الأولى وقبل كل أحد (مجلس الأمن القومي)، وكان وراءه وتحت الستار مَن هو الرجل الأول بحق وليس الفريق الركن عماش، كان هناك «صدام حسين» وكان من جراء ذلك ليس ماكان من مساسٍ بكرامة عمّاش حسب بل ماهو أكثر إيلاماً لي من أن أكون السبب في ذلك، فلقد اقتحم بيت الشبيبي في الليلة نفسها أي بعد ساعة لأكثر من انتهاء الحفل بثلّة من رجال الأمن ليطلبوا إليه تسليم ولده (علي) ليردّ عليهم: لقد سافر، وعندهم وهم المندسّون في الحفل علم اليقين أنه لم يسافر بعد. فيكون السؤال والجواب، إلى أين؟ الى القاهرة. وكيف كان ذلك؟ بالطريقة المشروعة، بجواز سفر. ومن سمح له بالسفر؟ إنه السيد النائب ووزير الداخلية. هاتِ ولدك ياحسين الشبيبي، ثم ارجع بعد ذلك الى السيد النائب. هذه واحدة من فظائع الحزب الواحد المتحكم، وفي العراق لاغير...

أما المتشفع الثاني فتكاد نهاية أمره أن تبدو تافهة غير ذات بال قياساً إلى ماكان ومع هذا فقد جعلوا منها كوميدية قصيرة، فقد أعيد وهو في طريقه إلى المطار، وقد عصبت عيناه الى زنزانة شبه مصطنعة ولمجرد السخرية لتنتزع جنسيته التي قد شدد أزراره عليها اعتزازاً بها وحرصاً عليها.

أفلست على حقٍ عندما قلت عن هذه الشفاعة، ليتني لم أكن شاهداً عليها. ولا على بداية النهاية من صاحبي وصديقي الفريق عماش؟ وفعلاً فقد

سمح لهذه النهاية أن تجرر أذيالها، لما لايزيد على عامين. ففي أوائل عام ١٩٧١م وأنا في القاهرة مطلوباً ـ إليها وبإلحاح ولست ممنوعاً وبإلحاح مني عن دخولها ـ وذلك للمشاركة في الذكرى الأولى لوفاة جمال عبد الناصر، فوجئت وأنا أقرأ الصحف المصرية بتعيين الفريق الركن عماش سفيراً وكما أتذكر ففي موسكو حيث ظلّ يتنقل بمثل هذه الوظيفة بعد مكانته تلك بين البلد والآخر حيث انتهى بتقاعده عن العمل وموته في الغربة.

وخلال هذين العامين كانت العلاقة الوطيدة فيما بيني وبينه تشتدّ وتشتدّ ويسد الفراغ فيما بين البرهة والبرهة منهما بهذا اللقاء أوذاك وأجمل مافي ذكرياتي عن هذه اللقاءات هوماكان من أمري معه في يوم من أيام ربيع عام ١٩٦٩م وأنا في براغ وفي مقهاي والأصح ففي مغناي المفضل «سلوفينسكي دوم» وبالعربية فالبيت السلوفاكي، وأمام كأس من «الجعة» كانت صحيفة عراقية معي وفي الصميم من أخبارها، أن الفريق عماش قد أمر بتطويل بدلات الطالبات الجامعيات من فتيات العراق ـ ويالله ماأجملهنّ ـ بذريعة المحافظة على الأخلاق، وفوجئت بالخبر. واستكثرت ذلك على عماش الأديب والشاعر الرقيق فضلاً عن حرفته العسكرية، فلم يكن مني وورقة صغيرة لدفع الحساب أمامي إلاّ أن أخطّ عليها وكأنني أخط رسالةً منثورة وليس قصيدة هي من أبدع ماعندي من قصائدي روعةً وجمالاً:

وفّى لها نذراً فوافى وسعى بها سبعاً وطافا
ورمى لها الجمرات من قلبٍ تعلّقها شغافا
وافى بها والثلج يحتضن المشارف والحفافا
حتى (المسارج) في الكوى الـ خفراتِ يخفقن ارتجافا

* * *

آهٍ على (ابن العبد) إذ يتبرض اللهو اشتفافا
يهوى (الطراف) ويهكناً بضّاً وأن يحمي المضافا
لو عاد لاختصر المسافا لدناً، وحيا، واستضافا
لرأى له وسط الجبا لِ، الخضر من ثلجٍ طرافا
لاعتاض عن حلب العصيـ ـر مشى به علجٌ ودافا
حلَباً تقطر من شفا ه الغيد يُعتصر انتزافا
وعن (البهاكن) كل ور دٍ تسرج الليل الغدافا

لأصل من ذلك كله الى الهدف المنشود قبل كل شيء آخر:

«أأبا هدىً» شوق يُلح ... ولا عجٌ يذكي الشِعافا
شوق المبارح لم يغيـ ... ـره البعاد، ولا تجافى
نُبئت أنك توسع الـ ... أزياء عتّاً، واعتسافا
وتقيس بالأفتار أر ... ديةً بحجة أن تنافى
ماذا تنافي؟ بل وما ... ذا ثَمّ من خُلُقٍ يُنافى
حوشيت أنت أرقّ حا ... شيةً، ولطفاً، وانعطافا
أترى العفاف مقاس أقـ ... ـمشة؟ ظلمت إذن عفافا
هو في الضمائر لاتخا ... ط ولا تقصّ، ولا تكافى
من لم يخف عقبى الضميـ ... ـر فمن سواه لن يخافا

* * *

يامن رأى فلك النجو ... م سعى بأكوابٍ وطافا
هذي الصحاف من الزبر ... جد رُحن يحملن الصحافا
ساعاً على ساعٍ وقو ... فاً وانتشاراً، واصطفافا
الساحرات فمن يرد ... ك أن يطرن بك اختطافا
والناعسات فما تحسُّ ... الطرف أغفى، أم تغافى
والناهدات يكاد ما ... في الصدرِ يقتطف اقتطافا
هدي (المسيح) إلى السلا ... م على العيون طفا وطافا
ودم (الصليب) على الخدو ... د يكاد يرتشف ارتشافا

قلت ابتدأت القصيدة على ورقة الحساب الصغيرة صباحاً، أما عصر اليوم فقد كانت القصيدة بأكملها في البريد المسجل وبعنوان رسالة مملحة من مقهى سلوفينسكي دوم الى الفريق عماش وإلى جريدة (الاتحاد) من أوسع الصحف العراقية انتشاراً طالباً إليها أن تعرضها قبل نشرها على السيد عماش.

وتلقيت العدد من الجريدة وفي الصفحة الأولى منها القصيدة. وبعد ذلك فبعدد غير قصير عنها كانت هناك قصيدة للفريق عماش وهويطارحني بها على وزنها ورويها:

لاح سقانيها سلافاً ... ورمى بها غيداً لطافا
طابت «مملحةٍ» بها الـ ... أبيات تقتطف اقتطافا

وكـانت على مافيهـا من لطف ورقـة غير ناجحـة في التـبر يـر أي أن تكـون مأساة فلسطين مدعاة للتخشّن وللشظافة والتقليل أو التخفيف من مظاهر الحياة ومرافئها.

ولكن والشيء الذي هو أجمل حتى من رسالة مملّحة فضلاً عن جواب الفريق عماش في قصيدتـه على هذه الـرسـالـة هو ماكـان من أمر مفاجئته إياي بعد هذين القصيـدتـين بأيـام معـدودات وأنـا في هذا المقهى «سلوفينسكي دوم» نفسـه وتلك الكأس من الجعة ومن حوالي «فلك نجوم» باقتحامه هذا المقهى الشعبي هو والوفد الضخم معـه الـذي جاء ليتفـاوض مع المستـويات العليا مثلهم في براغ ، وأنا حائر حتى الآن لا في هذه اللقطـة الفـريـدة من نوعهـا في كل تأريـخ الحـاكمـين العـرب وتعـاملهم مع الطـلائع من المحكومين حسب بل وكيف أن يشاء القدر أن أكون أنا بالذات في هذا المقهى وفي هذه الساعة نفسها، حتى لكأنني كنت على موعدٍ شبه رسمي مع الرجل الأول في العراق. لقد كان في الطليعة من ذلك الوفد وإلى جانب وزراء عديدين ومنهم الدكتور سعدون حمادي.

رحمك الله ياأبا هدى لقد كنت إنساناً بحق.

الملحق الشعري

أخي جعفر

ألقيت في الحفل التأبيني الكبير للشهيد «جعفر الجواهري» في جامع الحيدر خان في بغداد في ١٤ شباط ١٩٤٨.

أَتَعْلَمُ أمْ أنتَ لا تَعْلَمُ ... بأنَّ جِراحَ الضحايا فَمُ
فَمٌ ليس كالمُدعي قولَةً ... وليس كآخَرَ يَسترحِم
يصيحُ على المُدْقِعينَ الجياع ... أريقوا دماءكُمُ تُطعَموا
ويهْتِفُ بالنَّفَر المُهطِعين ... أهِينوا لِئامكُمُ تُكْرَموا

❊ ❊ ❊

أتعلَمُ أنَّ رِقابَ الطُغاة ... أثقَلَها الغُنْمُ والمأثَم
وأنّ بطونَ العُتاةِ التي ... مِن السُحتِ تَهضِمُ ما تهضم
وأنَّ البغيَّ الذي يدَّعي ... من المجد ما لم تَحُزْ «مريم»
سَتَنْهَدُّ إنْ فارَ هذا الدمُ ... وصوَّتَ هذا الفمُ الأعجم
فيا لكَ مِن مَرهمٍ ما اهتدَى ... إليه الأُساة وما رهَّموا
ويا لكَ من بَلسمٍ يُشتَفى ... به حينَ لا يُرتجى بَلسم
ويا لكَ من مَبسِمٍ عابسٍ ... ثغورُ الأماني به تَبسِم

أتعلمُ أنّ جِراحَ الشهيد ... تَظَلُّ عن الثأر تستفهِم
أتعلمُ أنّ جِراحَ الشهيد ... مِن الجُوعِ تَهضِمُ ما تَلهم
تَمُصُّ دماً ثُم تبغي دماً ... وتَبقى تُلِحُّ وتستطعِم
فقُلْ للمُقيمِ على ذُلّهِ ... هجيناً يُسخَّرُ أو يُلجَم
تَقَحَّمْ، لُعِنْتَ، أزيزَ الرَّصاص ... وجَرِّبْ من الحظّ ما يُقسَم

وخُضْها كما خاضَها الأسبقون وثَنِّ بما آفتتحَ الأقدم
فإمَّا إلى حيثُ تبدو الحياة لِعينيْكَ مَكْرُمةً تُغنَم
وإمَّا إلى جَدَثٍ لم يكُنْ ليفضُلَه بيتُكَ المُظلِم

* * *

تَقَحَّمْ، لُعِنْتَ، فما ترتجي مِن العيش عن وِرده تُحرَم؟
أأوجعُ مِن أنك المُزدَرى وأقتلُ من أنَّك المُعدِم؟
تقحَّمْ فمَنْ ذا يَخوضُ المَنون إذا عافَها الأنكدُ الأشأم؟
تقحَّمْ فمَن ذا يلومُ البطين إذا كان مِثلُكَ لا يَقْحَم؟
يقولون مَن هم أولاءِ الرَّعاع فأفهِمْهُمُ بدمٍ مَنْ هُم
وأفهِمْهُمُ بدمٍ أنهمْ عَبيدُكَ إنْ تَدعُهُمْ يَخدُموا
وأنَّك أشرفُ من خيرِهمْ وكعبُك مِن خدِّهِ أكرم

* * *

أخي «جعفراً» لا أقولُ الخَيال وذو الثأرِ يَقْظانُ لا يَحلُم
ولكنْ بما أُلهِمَ الصابرون وقد يقرأُ الغيبَ مُستَلهِم
أرى أُفُقاً بنجيع الدماءِ تَنوَّرَ، وآختفتِ الأنجُم
وحبلاً من الأرض يُرقى به كما قذفَ الصاعدَ السُّلَّم
إذا مدَّ كفّاً لهُ ناكثٌ تصدَّى ليقطَعها مُبْرِم
تكوَّر من جُثَثٍ حولَهُ ضِخامٍ وأمجادُها أضخم
وكفّاً تُمدُّ وراءَ الحجاب فترسُمُ في الأفْقِ ما ترسُم
وجيلاً يَروحُ وجيلاً يجيء وناراً إزاءَهما تُضرَم
أُنبِّيكَ أنّ الحِمى مُلْهَبٌ وواديه من ألمٍ مُفعَم
ويا وَيْحَ خانقةٍ مِن غدٍ إذا نَفَّسَ الغدُ ما يَكظم
وأنّ الدماءَ التي طلَّها مُدِلٌّ بشُرطتهُ مُعرِم
تَنَضَّحُ من صدرِك المُستطاب نزيفاً إلى الله يَستظلِم

ستبقى طويلاً تَجُرُّ الدماء ولَنْ يُبرِدَ الدمَ إلّا الدم
وأنَّ الصدورَ التي فلَّها وأبدعَ! في فلِّها مُجْرِم
ونَثَّرَ أضلاعَها نَثْرةً شَتاتاً كما صُرِّفَ الدرهم
سَتَحْضُنُها من صُدور الشباب قُساةٌ على الحقِّ لا ترحم

* * *

يوم الشهيد

نظمت في آذار ١٩٤٨ بمناسبة اربعينية الشهيد (جعفر الجواهري).

يومَ الشَهيد: تحيةٌ وسلامُ ... بكَ والنضالِ تؤرَّخُ الأعوامُ
بك والضحايا الغُرِّ يَزهو شامخاً ... علمُ الحساب، وتفخرُ الأرقام
بك والذي ضمَّ الثرى من طيبهم ... تتعطَّرُ الأرضونَ والأيام
بك يُبعَث «الجيلُ» المحتَّمُ بعثُه ... وبك « القيامةُ » للطُغاة تُقام
وبك العُتاةُ سيُحشَرون، وجوهُهُم ... سُودٌ ، وحَشْوُ أُنوفهم إرغام
صَفّاً الى صفٍّ طَغاماً لم تذُقْ ... ما يجرَعون من الهَوان طَغام
ويُحاصَرون فلا « وراءُ » يحتوي ... ذَنَباً ، ولا شُرَطاً يحوز «امام»
وسيُسألون مَن الذين تسخَّروا ... هذي الجموعَ كأنّها أنعام
ومَن استُبيح على يَديهم حقُّها ... هدَراً ، وديست حرمةٌ وذِمام
ومَن الذين عَدَوا عليه فشوَّهوا ... وجهَ الحياة فكدَّروا وأغاموا
خَلَصَ النعيمُ لهم فهم من رقَّةٍ ... وغضارةٍ بيضُ الوجوه وِسام
وصفا لهم فلَكُ الصِبا فتلألأوا ... فيه كما تَتَلألأ الأجرام
يتدلَّلون على الزمان كما اشتَهت ... شهواتُها قُبُّ البطون وِحام
ومَداس أرجلهم ونَهْبُ نِعالهم ... شَعبٌ مهيضُ الجانِحين مُضام
يُمسي ويُصبح يستظلُّ بِخِدنِه ... بَقَرِ الزَريبِ ، ويرتَعي ويَنام
سيُحاسَبون ، فان عَرتْهم سَكْتَةٌ ... من خيفةٍ فستنطِقُ الآثام
سيُنكِّسُ المُتذبذبونَ رتابَهم ... حتى كأنَّ رؤوسَهم أقدام

* * *

يومَ الشهيد ! وما الخيالُ بسادر ... بئسَ الخيالُ تقودهُ الأوهام
الشعرُ - يا يومَ الشهيد - تجارِبٌ ... وبلاؤُها ، لا لؤلؤٌ ونِظام
كَذِباً يُخيَّلُ أنَّ بارقةَ المُنى ... تنجابُ منها وحشةٌ وظَلام
أو أنَّ بالنَّزْرِ اليسيرِ من الدما ... سيُبَلُّ من عطَشِ الطُغاةِ أُوام
أو أنَّ مَرعوباً ستَسْعى نحوَه ... عما قريبٍ راحةٌ وجمِام
حُسبانُ ذلك للشهيدِ خِيانةٌ ... ولِما تفجَّرَ من دمٍ إجرام
ولَتلك مَدعاةٌ سيُنصَرُ عندَها ... عارُ النُكوصِ ويُخذَلُ الإقدام
ولَذاك إيهامٌ يضلِّلُ أمةً ... وسلاحُ كلِّ مضلِّلٍ إيهام
عَظُمت محاولةٌ وجَلَّ مرامُ ... أفباليَسيرِ من العَناءِ تُرام

* * *

يومَ الشهيد ! طريقُ كلِّ مناضلٍ ... وَعْرٌ ، ولا نُصُبٌ ولا أعلام
في كلِّ مُنعَطَفٍ تَلوحُ بليةٌ ... وبكُلِّ مُفترَقٍ يدِبُّ حِمام
وحياضُ موتٍ تلتقي جَنَباتُها ... وعلى الحياضِ من الوُفودِ زِحام
وقِباحُ أشباحٍ لمُرتَعِدي الحَشا ... بَرِمٌ بها ، ولمُحرِبين هُيام
بك بعد مُحتَدِمِ النضالِ سينجَلي ... مما ابتدأتَ من النِضالِ ختام
سيُجازُ شهرٌ بالعَناءِ وآخَرٌ ... ويُخاضُ عامٌ بالدماءِ وعام
ستطيرُ في أفقِ الكفاحِ سَواعدٌ ... وتَطيحُ في سُوحِ الكرامةِ هام
ستَثور من رَهَجِ اللُّهاثِ عجاجةٌ ... ويَهُبُّ من وهجِ الشّكاةِ قَتام
سيُعالَجُ الباغي بنَضْحٍ من دَمٍ ... حتى تُسَكَّنَ شَهوةٌ وعُرام
لا بُدَّ من نارٍ يروحُ وَقودُها ... منّا ومنه غارِبٌ وسَنام
وتُنيرُ منها الخابطينَ دُروبَهم ... من بعدِ ذلك جَذوةٌ وضِرام
اذ ذاك يُصبحُ بعد طُولِ مَتاهةٍ ... بيدِ الشعوبِ مقادةٌ وزِمام

* * *

تبّاً لدولةِ عاجزينَ توَهَّموا ... أنَّ « الحكومةَ » بالسِياطِ تدام

والوَيْلُ للماضينَ في أحلامِهم ... إن فرَّ عن «حُلمٍ» يَروع مَنام
واذا تفجَّرَت الصدورُ بغيظها ... خَنَقاً كما تتفجّر الألغام
واذا بهم عَصْفاً أكيلًا يرتمي ... واذا بما ركنوا اليه رُكام
واذا بما جَمَعَ الغُواةُ خُشارةٌ ... «واذا عصارةُ كلِّ ذاك أثام»

* * *

اني لَيخنُقُني الأسَى ويهُزُّني ... ما لاحَ طفلٌ يحتَبي وغُلام
علماً بأن دِماءَهم ليست لهم ... وبأنها للجائعينَ طَعام
للناسِ بعدَ اليومِ مِيلادُ الفتى ... ومَماتُه ، ورَضاعةٌ وفِطام
يومَ الشهيد ! بكلِّ جارحةٍ مشَى ... داءٌ تَعاوَرَهُ الزُمان عُقام
تَعِبَ الأساةُ به ، وجافى أهلَه ... يأساً نِطاسيٌّ به عَلّام
وَتَعَسَّر الإبلالُ حتى تنتفي ... منه الجذورُ ، وتُقطَعَ الأجذام
يوم الشهيد ! بك النُّفوس تفتّحت ... وَعياً ، كما تَتَفَتَّحُ الأكمام
كادَ الضعيف يشُكُّ في إيمانه ... والصبرُ كاد يَشُلُّه استسلام
طاح البلاءُ بخائرٍ في مَعرَكٍ ... أشِبٍ تطيشُ بهَوله الأحلام
وآنجاب عن متردِّدينَ طِلاؤُهم ... وانزاحَ عن مُتربِّصين لِثام
وأُغِصَّ قومٌ بالسكوت ، وأفصَحَتْ ... عن غيرما عُرِفت به أقوام
وتمسَّك المتشبِّتون بجاحمٍ ... جَمَراتُه تُشوى بها الأقدام
وتراكم الصبرُ الجميلُ بساحةٍ ... من حولها تتراكمُ الآلام

* * *

شعبٌ يُجاعُ وتُستَدَرُّ ضروعُه ! ... ولقد يُمارُ لتُحلَبَ الأغنام
وأمِدَّ للمُستهتَرين عِنانُهم ... في المُخزِيات فأرْتَعوا وأساموا
وتَعَطَّلَ الدستورُ عن أحكامه ... من فَرطِ ما ألوَى به الحُكّام
فالوعيُ بَغيٌ ، والتحرُّرُ سُبَّةٌ ... والهَمْسُ جُرْمٌ ، والكلامُ حَرام
ومُدافِعٌ عما يَدينُ مُخرِّبٌ ... ومطالِبٌ بحقوقِه هدّام

* * *

ومُعاتَبٍ والسَوط يُلهِبُ ظهرَهُ ومعذَّبٍ بجراحه ويُلام
مما أشاعَ البَغيُ من إرهابه وبما آستُطيبَ الخَوفُ والإحجام
ومطارَدون تعجَّلوا أيّامَهم ومشرَّدون من المذلَّةِ هاموا
ومشكِّكون وقد تعاصَت مِحنةٌ صَلُّوا على شَرَفِ الخلاص وصاموا

* * *

وجدوا عِتاباً للبلاد فأعتَبوا وملامةً لشبابها فألاموا
ومَشوا اليها يدعَمون صفوفَها بصُدورهم ، اذ عزَّهن دِعام
حَمَلوا الرصاصَ على الصدور وأوغلوا فعلى الصدور من الدِماء وِسام
تابَ الغَويُّ وثاب كل مشكّكٍ إنَّ الحِمى من فوقه قَوّام
نَكِروا النفوسَ وفجَّروا اعراقَها صَمْتاً ، فلا صَخَبٌ ، ولا إرزام
وأبَوا سِجامَ الدمع شيمةَ نائحٍ فلهم . . دماء يغتلينَ سِجام
ناموا وقد صانُوا الحمى ومعاشِرٌ تَركوا الحِمى للطارئات وناموا

باريس

نظمت عام ١٩٤٨ في باريس وأكملت في بغداد

تعـــاليتِ «بـاريسُ» . . أمُّ النضـالْ
وأمُّ الجـمال . . وأمُّ الـنـغـم
تَذوَّبَ فوقَ الـشِـفـاهِ الألم
وسـال الـفؤادُ . . . على كلِّ فم

* * *

على كلِّ خِصْـر تلاقـت يدانْ
ألانـا مُتَـقَـفَـهُ فاسـتـلان
وكـلُّ فمٍ حَشْـوهُ وردتـان
هما الشفتـان . . هما الجَمْـرتـان
أراقَ الـزمـانُ دمـاء الـشبـاب
حفـافَـيـهِـما فهـما يَلْهَـثـان
تَمَسَّـح خدٌّ بخـدٍّ يلوبْ
من الحـب في وجـنـتـيـهِ نُدوب
ولاحَ كما لاحَ فوقَ الـسُّـهـوب
رؤى شفقٍ في الـوجـوه الشحـوب
كأنّي رأيـت فؤاداً يذوب

* * *

وثَـمَّ بصـيصُ ضيـاء . . يلوحْ
ونـفـحـةُ عطـرٍ ذكيٍّ . . تَفـوح
وصـدرٌ يجيء لصـدرٍ يـروح

وحـــاشيــــةُ من غِطـــاء الســـريــر
وأصـــداء نجـوى كَسَحْبِ الحـريـر
ونهـــدانِ قامـــا على الشـــاطئيـنْ
يَمُــــدّانِ نحـــوَ غريــقِ الـــغــرام
يَدَيْــنِ يُليــحــانِ بالـــبُرْعُـــمَـــين

أنيتا

نظمت في باريس عام ١٩٤٨م

إنَّ وجهَ الدُّجى «أنيتا» تجلَّى
عن صباحٍ مِن مُقلَتَيكِ أطَلا
وكأنَّ النجومَ ألقَيْنَ ظِلاّ
في غديرٍ مُرقرَقٍ ضَحْضاحِ
بينَ عينيكِ نُهبةً للرياحِ
وغياضُ المُروج أهدَتكِ طَلا
إن هذا الطيرَ البليلَ الجَناحِ
المُدوِّي على مُتونِ الرياحِ
والذي أزعجَ الدُّجى بصَباحِ
عبَّ في الليل من «ثُغورِ» الأقاحِ
رشفَةً مجَّ عِطرَها وتولَّى
حيثُ هذا الرأسُ الجميلُ تدلَّى
والفِراشُ الذي به يتَملَّى
وبحيثُ ارتدَّتْ هباء نثيرا
تملأ النفسَ والفضاء عبيرا
خَصِلاتٌ مِن شَعرِكِ الذَهبيِّ
كنتِ فيهِ الثريَّ أيَّ ثِريِّ

* * *

إسمعي، إسمعي «أنيتا» فهنّا

وهُـنـا، صادِحٌ صَبا فتـغـنَّى
والطـريـقُ المـهـجـورُ عادَ فَنّا
مِن جديـدٍ ببـعـثِـه يتـهـنّى
فلقـد دبَّـتِ الحـيـاةُ إلـيـه
وتمـشّـى المـعـاوِدونَ عليـه

* * *

إسـمـعي وقـعَ رائِحـين وغـادي
وتمَـلَّ مِن الـوُجـودِ المُـعـاد
والـقَطـارَ المـجَـلجَـلَ المُتهـادي
في سفـوحٍ مُنـسـابَـةً وَوِهـادِ
إسـمـعي، إسمعي «أنيتـا» صَداهُ
تجدي عن صَدَى الـزَّمـانِ بديـلا
وَتَـرَيْـنَ الـدُّنـيـا تُجِدُّ رَحيـلا
بالأمـانيِّ غُدوةً وأصـيـلا

* * *

ياحـبـيـبـي! ولـلنـديـمِ هُمومُ
يُقـعِـدُ «الكأسَ» ثِقلُهـا.. ويُقيمُ
ياحـبيبي! و«ليتَ..» شيء عَقيم
ليـتَ أنَّ الحـيـاةَ ظِلٌّ مُغـيـم
وهكذا:
ليـتَ أنَّ عيـشـاً يدومُ
مثل هذا،
ليـتَ «الـشَّـقَـاء» سَرابُ
يرتـعـي المـرء ظِلَّه ويهـاب

* * *

ياحـبـيـبـي، ورَغـبـتي، ودليـلي!
إنَّ لونَ الـلامِ حالَ فحُـولي!

والـذْراري بعـدَ الصـراعِ الطـويل
وســنا الفجــرِ
ينــحــدِرْنَ فُلولا
وبـنــاتُ الـنَعْشِ المُقِــلِّ القتيــلا
يتَــذوَّبــنَ حَســرةً وعــويــلا
ويُجَــرِّرْنَ من حِدادٍ ذيــولا
مُسبَــلاتٍ على المجــرِّ الــذليــلِ
ياحـبـيـبي ! مالَ الــزمــانُ فميــلي
وأمـيــلي بمــوضــعِ الـتَّـقـبيــل !

ذكريات

نظمت في باريس وهي القطعة الثانية من قصيدة «أنيتا».

لاتمُــرِّي «أنــيــتُ» طيـفــاً بـبــالي
مالِطـيــفٍ يسُـمُّ لحمـي ومــالي؟
أنــا عنـدي من مُوحشـات الخَيـالِ
الطـيــوفُ المُـعــرِّســاتُ حِيــالي
كذئــابٍ مســعــورةٍ وسَــعــالي
بل تعــالَيْ إلــى يديَّ، تعــالي
فهُــما الآن يحضــنــانِ الـفِــراشــا
خالِيــاً منــكِ يستقيضُ ارتعــاشــا

* * *

أمس كنّــا هُنــا هنــا نتــســاقى
من كؤوسِ الهــوى دهــاقــاً وِفــاقــا
أمسِ كنّــا رُوحــاً بروحٍ تلاقــى
ويــداً تحتــوي يداً، وفؤادا:
لأخيــهِ يبثُّ نجــوى، وعيــنــا:
تَرتـعــي أُختَــهــا، فكيفَ وأينـا؟
عادَ ماكــان أمسِ منّــا طِبــاقــا
وحشــةً، وارتعــاشــةً، وفِــراقــا

* * *

أمسِ مدَّ الـصــبــاحُ كفّــاً فحــلاّ

من نجـوم الـسـماء عِقـداً تحلّى
بسنـاهُ الـدُّجى، وفـرَّق شَمـلا
أمسِ، إلاّ نجـماً دنـا فتـدلّـى
يُرغِمُ الـشـمسَ أن ترى منـه ظِلاّ
أمسِ، هذا النجمُ الغـريبُ أطـلاّ
من على شُرفَـةٍ نطِـلُّ عليـهـا
ونُـزَجـي همسَ الـشـفـاهِ إليـهـا

فراق

نظمت في باريس وهي القطعة الثالثة من قصيدة «أنيتا».

ياهَنائي وشَقوتي : يانعيمي
وجحيمي : ياكوثري وحميمي
ياوَقائي من وافدات الهُموم
جنبيني رَتْعَ الظلامِ البهيم
في عظامي بالثَّغرِ منكِ البسيم
وأديلي من حُكمِ هذا الظَّلوم
بصراطٍ من لُطفكِ المستقيم

* * *

سامحي سامحي، فإنَّ اللَّيالي
التَّوالي منهنَّ مثلَ الخوالي
ناقلاتٌ ساعاتِها كالظِّلالِ
لِسِوانا، ونحن عمّا قريبِ
نتراءى مثلَ الخَيالِ المُريبِ

* * *

سامحي! إنَّ روعةً وشبابا
وجلوداً مجلُوَّةً وإهابا
سوف تغدو - إذا أطار الغُرابا
منكِ هذا (الثلجُ!) النديفُ سَرابا

وسـيبقى على الـزمـانِ نَدِيّـا
وعـلى لافـحِ الهـجـيرِ عَصِيّـا
خافـقٌ لاتَـرَيْـنَـهُ الـيـومَ شيّـا

وداع

نظمت في شباط ١٩٤٩ في باريس وهي القطعة الرابعة والأخيرة من قصيدة «أنيتا».

«أنيتُ» نزَلنا بوادي السِباعْ
بوادٍ يُذيبُ حديدَ الصِراع
يُعَيِّرُ فيه الجبانُ الشُجاع
«أنيتُ» لقد حانَ يومُ الوداع

* * *

إليَّ إليَّ حبيبي «أنيتْ»
إليَّ لأليَّ لجيدٍ وليت
كأنَّ عُروقَهما النافِرات
خُطوطٌ من الكلمِ الساحِرات
إليَّ بذاكَ الجبينَ الصَليتْ
تخافَقَ عن جانبيهِ الشَعَرْ
يبُثُّ إليَّ أريجَ الزَهَر
سيَعبِقُ في خاطري ماحَيِيتْ
ويُذكِرُني صَبوتي لو نَسِيت
إليَّ إليَّ حَبيبي «أنيتْ»
أطِلّي عليَّ بهِ كالشِراع
فقد لَفحَتني سَمومُ العِراقْ
فألهبنَ منّيَ جُرحَ الفِراق
إليَّ إليَّ به للعِناق

لغــيرِ الـعِنــاقِ الــذي تَعــرِفــينْ
بحــيــثُ يلُزُّ الــوتــينُ الــوَتــين
عَشِــيَّــةَ أهــتِــفُ أو تهتِــفــين
لنـجــمِ الـقَضــا، ولسَهمِ القــدرْ
ولــلمُــســتَــقِــرٍّ بذاكَ المقَــرّ!!!
بأنْ لامُــيَّــلَ هذا الــسَّــفــينْ
إلــى حيــثُ أرهَــبُ، أوتَرهَــبــين
إلــى وَحَــلٍ من دُمــوعٍ وطــين

هاشم الوتري

نظمت في عام ١٩٤٩م

إيه «عميدَ الدار» ! شكوى صاحب ... طَفَحتْ لواعجُهُ فناجى صاحبا
خُبِّرْتُ أنّكَ لست تبرحُ سائلا ... عنّي، تُناشدُ ذاهبا او بيا
و تقولُ كيفَ يَظُلُّ «نجم» ساطعٌ ... ملء العيون، عن المحافل عاتبا
الانَ أنبيكَ اليقينَ كاملا ... وضَحُ «الصباح» عن العيون غياهيا
فلقد سَكَتُّ مخاطِباً إذ لم أجدْ ... من يستحقُّ صدى التكة مُخاضب
أُنبيكَ عن شرِّ الطّغام مفاجراً ... ومفاخراً، ومساعيا ومكاسب
الشّاربينَ دمَ الشّباب لأنّهُ ... لو نالَ من دمِهِمْ لكان الشاربا
والحاقدين على البلادِ لأنّها ... حَقَرَتْهُمُ حَقْرَ السَّليبِ لسالبا
ولأنّها أبداً تدوسُ أفاعياً ... منهمْ تَمُجُّ سمومَها . وعقاربا
شَلَّتْ يدُ المستعمرينَ وفرضُها ... هذي العُلوقَ على الدماء صرائبا

* * *

بغدادُ كان المجدُ عندَكِ قَيْنَةً ... تَلهو، وعُوداً يَستحثُّ الضّاربا
وزقاقَ خمرٍ يستجدُّ مَساحِباً ... وهَشيمَ رَيحان يُذَرّى جانبا
و«الجسرُ» تمنحُهُ العيونُ من المَها ... في الناسبين وشائجاً ومناسبا
الحمدُ للتأريخِ حينَ تحوَّلتْ ... تلكَ المَرافِهُ فاستَحلْنَ مَتاعبا
و«الجسرُ» يفخرُ أن فوقَ أديمِهِ ... جثثَ الضّحايا قد تَركْنَ مساحبا
وعلى بريقِ الموتِ رُحْنَ سوافراً ... بيضٌ كواعبُ، يندفعنَ عَصائبا

* * *

إيـهٍ «عـميـدَ الـدار» كلُّ لئيمـةٍ ... لابُـدَّ واجـدةٌ لئـيـماً صاحـبـا
ولكـلِّ «فـاحشـةٍ» المتاع دَميمـةٍ ... سُوقٌ تُتـيـحُ لها دَمـيـماً راغـبـا
ولـقـد رأى المستعمِـرونَ فرائسـاً ... منّـا، وألْفَـوْا كلبَ صيـدٍ سائبـا!
فتـعـهَّـدوهُ، فراحَ طوعَ بنـانِهـمْ ... يَبْرونَ أنـيـابـاً لهُ ومخـالـبـا
أعـرَفتَ مملكـةً يُباحُ «شهيدُهـا» ... للخـائبـينَ الخـادمـينَ أجانبـا؟
مستأجـريـنَ يُخرِّبـونَ دِيـارَهُـمْ ... ويُكـافئـون على الخـرابِ رواتبـا
مُتنـمّـريـنَ يُنصّبـونَ صُدورهُمْ ... مِثـلَ السّبـاعِ ضَراوةً وتَكـالُبـا
حتـى إذا جدّتْ وغـىً وتـضـرَّمَتْ ... نارٌ تلُفُّ أبـاعـداً وأقـاربـا
لَزِمـوا «جُحـورَهُمْ» وطـارَ حليمُهُمْ ... ذُعْـراً، وبُـدِّلَـتِ الأسـودُ أرانبـا

* * *

أُنبيـكَ عن شرِّ الطَّغـام نكـايـةً ... بالمؤثـرينَ ضَمـيرَهُمْ والـواجبـا
لقـد ابـتُلوا بي صاعـقـاً مُتَلهِّبـاً ... وقـد ابتُليتُ بهمْ جَهـامـاً كاذبـا
حشـدوا عليَّ المُغـريـاتِ مُسيلةً ... صغـراً لُعـابُ الأرذلـينَ رغـائبـا
بالـكأس يَقْـرعُـهـا نديمٌ مائـلاً ... بالـوعـد منهـا الحـافَتـينْ وقـاطبـا
وبتكلُّمُ الخَلَواتِ تمْسَـخُ عنـدَهـا ... تُلْعُ الـرِّقـاب من الظّبـاء ثعـالبـا
وبأنْ أروحَ ضُحىً «وزيـراً» مثلما ... أصبحتُ عن أمـرٍ بليـلٍ «نـائبـا»
ظنّـاً بأنّ يدي تُمَدُّ لتـشـتـري ... سقـطَ المتـاعِ، وأن أبيـعَ مواهبـا
وبأن يروحَ وراء ظهـريَ موطـنٌ ... أسـمنتُ نحـراً عنـدَه وتـرائبـا
حتـى إذا عجَـمـوا قنـاةً مُرَّةً ... شوكـاءَ، تُدمي من أتاهـا حاطبـا
واستيأسُـوا منهـا، ومن مُتخشِّبٍ ... عَنَتـاً كصِـلِّ الـرّمـلِ يَنْفـخُ غاضبـا
حتـى إذا الجُـنـديُّ شدّ حِزامَـهُ ... ورأى الـفـضـيلةَ أنْ يظَـلَّ مُحاربـا
حَشـدوا عليـه الجُوعَ يَنْشِبُ نابَـهُ ... في جلدِ «أرقـطَ» لايُبـالي ناشبـا
وعلى شُبـولِ الليثِ خرقُ نعـالِهم! ... أزكـى من المُـترهِّـلينَ حقـائـبـا
ماذا يضُـرُّ الجـوعُ؟ مجدٌ شامـخٌ ... أنّي أظَـلُّ مع الـرعـيَّـة ساغـبـا
أنّي أظَـلُّ مع الـرعـيَّـةِ مُرْهَـقـاً ... أنّي أظَـلُّ مع الـرعـيَّـةِ لاغـبـا
يتـبـجَّـحُـونَ بأنّ مَوجـاً طاغـيـاً ... سَدُّوا عليـهِ مَنـافـذاً ومَسـاربـا

كذبـوا فَمِـلء فم ِ الـزمان قصائدي
أبــداً تجوبُ مشـــارقـــاً ومَغـــاربـــا

أنـــا حتـفهُم ألــجُ البيـــوتَ عليهمُ
أُغـري الـوليـدَ بشتمهمْ وَالحـاجبـا

* * *

لابُـــدّ «هـــاشمُ» والـزّمـانُ كما ترى
يُجري مع الصّفْــوِ الـزُّلالِ شوائبـا

والفجــرُ ينصُــرُ لامحــالـة «ديكـهُ»
ويُطــيرُ من لَيـلٍ «غـرابـاً» ناعبـا!

والأرضُ تَعْمُـرُ بالشّعـوبِ فلن ترى
بُومــاً مَشــومـــاً يَستطيبُ خرائبـــا

والحــالِمــونَ سَيَفْقَهـون إذا انجَلَتْ
هذي الطّيــوفُ خوادعـــاً وكـواذبـا

لابُـــدّ عائــدةٌ إلـــى عُشّـــاقِــهـــا
تلكَ الـعهــودُ وإن حُسِبنَ ذواهبـــا

أطبق دجى

نظمت في بغداد ١٩٤٩م

أطْبِقْ دُجى، أطْبِقْ ضَبابُ ... أطْبِقْ جَهاماً ياسَحابُ
أطبِق دُخانٌ من الضمير ... مُحَرَّقاً أطبِق، عَذاب
أطبِقْ على مُتَبلِّدِ ... ينَ شكا خُمولَهُمُ الذُّباب
لم يَعرفوا لونَ السماء ... لِفَرْطِ ماانحنَتِ الرقاب
ولفرطِ ما دِيسَتْ رؤو ... سهمُ كما دِيسَ التراب
أطبق على المِعزى يُرا ... دُ بها على الجوعِ احتِلاب
أطبق على هذي المُسوخ ... تَعافُ عيشتَها الكلاب

* * *

أطبقْ على هذي الكُرُو ... شِ يَمُطُّها شَحْمٌ مُذاب
مستنوقينَ ويزأرونَ ... كأنهم أُسْدٌ غِلاب
أطبق إلى يومِ النشور ... ويومَ يكتملُ النصاب
أطبق دجى حتى يقي ... ءُ خُمولَ أهلِ الغاب غاب

* * *

أطبق: فأنتَ لهذه السوءاتِ - عاريةً - حجاب
أطبق: فأنت لهذه الآثامِ - شامخةً - شباب
كُنْ سترَها لايَنْبَلِجْ صُبحٌ ولا يَخْفِقْ شهاب
أطبق دُجى: أطبق ضَباب
أطبق جهاماً ياسحابْ

إلى الشعب المصري

نظمت في القاهرة ١٩٤٩م

يا «مصـرُ» تستبِقُ الـدهـورُ وتعثُرُ ... والـنـيـلُ يزخَـر والمسلَّةُ تُزهـرُ
وبنـوكِ والتـاريـخُ في قصبيهـما ... يتسـابقـانِ فيُصهَـرونُ ويُصهَـر
والأرضُ يُنقِـذ من عمايـة أهلِهـا ... نورٌ يرفُّ على ثراكِ ويُنـشـر
هذا «الصعيـد» مشت عليه مواكبٌ ... للدّهـر مثقَـلةُ الخُطى تتبخـتر
يصـلِ الحضـارةَ بالحضـارة مابنى ... فيكِ «المعزُّ» ومـادحـا «الإسكندر»
وتنـاثَـرُ الجمـراتُ حولـك، نابغٌ ... يخفـى، وآخـرُ عبقـريٌّ يظـهـر
ووسِعتِ أشتـاتَ الفُنـونِ كأنهـا ... فلكٌ يدور وأنـتِ أنـتِ المِحـوَر

* * *

يامصـرُ لم تبخس جمالـكِ ريشـةٌ ... مرّت عليـه، ولم يخُنْـكِ مصـوِّر
لله جوُّكِ، أيُّ مَبعـثِ فتـنـةٍ ... حتـى الطبيعـةُ عنـده تتمصَّـر
الليـلُ عنـدَكِ غيرُ ماعُـرِفَ الـدجى ... في أرضِ غيرك، والصباحُ المُسفر
وكأنـما من صُنـع جوِّك وحـدَه ... قمـرٌ على كَبِـد السـماء مُنـوَّر

* * *

يا «مصرُ» مصرَ الشعب: لاغاياتُه ... تفـنـى، ولا خطـواتُـه تتـقـهقـر
يُلوى على مالايُطـاقُ، ويـرتضي ... مالا يليـقُ، ويستكيـنُ ويَصبِـر
يُزري به المتـحكِّمـون فيـزدري ... وتنـالُ منـه الحـادثـاتُ ويسخـر
فاذا استـوى أجلٌ، وحـانتْ ساعةٌ ... وتكـافأتْ فُرَصٌ، وحُـمَّ مقـدَّر
واستنفَـدَ المتضاربـونَ قِداحَهم ... وانفضَّ عن خَـسَرِ الـربيـح المَيْسـر

ألــقــى لهم يدَهُ وشــدَّ ذراعــه		فإذا يد الطــاغــي أذلُّ وأقــصــر

* * *

يامـصــرُ مصــرَ الأكثـرين ولم يزل		في الشـرقِ يرضــخُ للأقـلِّ الأكثـر
وخُطى الشعـوب سريعـةٌ، وأمـامَها		دنـيــا بها تبـني الـشـعــوبُ تعمَّــر
يامصـرُ في سُوح الجهــاد ركــائــزٌ		تَهدي المُــضــلَّ طريــقَــه وتحــذّر
ووراء أجــداثِ الضحــايــا إصبَعٌ		«يــومـي إليــكِ بها وعــين تنظــر»
فتــماســكــي فوراء حيـلكِ آخــرٌ		أقـسى على نقـدِ الجـدودِ وأقــدر
يجزي البُنــاةَ المحسنين، ويـزدري		بالنـاكصـينَ عن الجهـاد، ويسخَـر

* * *

أنـا ضيفُ مصـرَ وضيفُ طه ضيفُها		مابعــدَ ذلــكَ للمُفــاخِــر مَفخــر
أنــا ضيفُ مصــرَ فلن أثقِّلَ فوقهـا		ظِلّي بمأثُــكــةٍ تُعــاب وتُــنــكــر
ولــذا عتـبـتُ فمثلما مسَّ الثـرى		غيــثٌ تخلَّلهُ سحــابٌ أكــدر
وهُنــا يكــادُ بمصــرَ يسألُ أهلُهــا		هل في العــراقِ أعـاجمٌ، أم بربـر؟
ويـكــادُ يُجهــلُ أنّ «بـغــداداً» بها		كانت يدُ الــدنيــا تطــولُ وتقصُـر

* * *

يامــصــرُ إنّ الــرافــديــنِ لجذوةٌ		لو أنّ ماء جذوةٌ تتــسـعــر
طفحتْ ضِفـافهـما دمـاً، وتصـافقـا		بالمــوت يُنــذِر والحــيــاةِ تبـشِّــر
تنســابُ دجلةُ ليس يدري سابــحٌ		فيــهــا متــى تطـغـى به وتــدمِّــر
وتـغــطُّ أثبــاجُ الـفُــراتِ كأنهــا		جبــلٌ على قيــعــانــه يتــســوَّر
وعــلى الجــبــال مُحلأونَ كأنهــم		في الجــو عُقــبــانٌ تلوب وأنــسُــر
ومصــارعُ الشهــداء في جنبــاتِهــا		شبــحٌ يُخيـف الســادرينَ ويُسهِـر
لايـعـلمــونَ وفي الســماء صواعقٌ		عن أيِّ سقــفٍ فوْقَــهـم تتـحــدَّر

* * *

يامصــرُ لم يَعُــدِ الكــلامُ خديعــةً		إنّ اللســانَ هو الضمـيرُ الأصغــر
إنّــا وإيّــاكــم كما احـتــاجــتْ يدٌ		ليــدٍ، وإن كَذَبَ الــدعــاةُ وزوَّروا

إنّـا إذا أنّ الجـريـحُ بأرضـكـم ناغـاهُ مجروحٌ يئـنُّ ويـزفِـر

* * *

أشيـاخَ «مؤتمـر الثقـافـةِ» إنّكم مني بها تشكـو الثقـافـةُ أخـبر
تمضي السنـونَ وكـلُّ شيء جامدٌ تتطـوّرُ الـدُنـيـا ولا يتطـوَّرُ

* * *

«طـه». . ونـورُ الفكـر أوفى حُرمـةً والمجـدُ أوفـرُ، والمكـانـةُ أوقـر
سبعـونَ من سُوحِ الجهـادِ قضيتهـا للخـير تعمـلُ جاهِـداً وتـفكّـر
للّهِ درُّكَ أيُّ همٍّ شاغـلٍ يُحيـا به الليـلُ الطـويـلُ ويُسهـر
ياصـاحبَ «المتعـذبيـنَ» وعنـدَه مما يعـانـون، العـذابُ الأكـبر
أشـكـو إليـك؛ لأنّ مثلك عارفٌ مثـلي، وليس لأنـك المستـوزَرا!
رَكضتْ بيَ الخمسـونَ لا حلَبـاتُهـا تُوقي العِثـارَ ولا العِنـانُ يُقصِّـر
وتنـاهبتْ شعـري بمحض غُبـارها فبيـاضُـه بسـواده يتـنـدَّر

باقٍ وأعمار الطغاة قِصارُ

نظمت في عام ١٩٥٠

باقٍ، ـ وأعمارُ الطُّغاةِ قِصارُ ـ ... من سِفرِ مجدكَ عاطرٌ مَوّارُ
متجاوبَ الأصداء نفحُ عبيره ... لُطْفٌ، ونفحُ شَذاتِهِ إعصار
رفَّ الضميرُ عليه فهو منوَّرٌ ... طُهراً كما يتفتَّحُ النُّوّار

* * *

عبدَ الحميدِ وكلُّ مجدٍ كاذبٌ ... إنْ لم يُصَنْ للشعب فيه ذِمارُ
والمجدُ أنْ يَحميكَ مجدك وحده ... في الناسِ .. لاشُرَطٌ ولا أنصار

* * *

عبدَ الحميدِ وماتزالُ كعهدها: ... شعبٌ يُذَلُّ وأُمةٌ تنهار
ومسلَّطونَ على الشعوب برغمها ... السوطُ يدفع عنهمُ والنار
وصِحافةٌ صِفرُ الضميرِ كأنها ... سِلَعٌ تُباع، وتُشترى، وتُعار

* * *

لُبنانُ يابلدَ الصَّباحةِ تُجتلى ... والعلمِ يُقطف، والنُّهى تُشتار
ياموطِنَ الأحرارِ حين يَسومُهمْ ... خَسْفٌ، وحينَ تُشرَّدُ الأحرار
ناغيتُ حُسنَكَ والصِّبا لي شافعٌ ... ومسحتُ تُربَكَ والهوى لِيَ دار
وأثرتَ من «قيثارتي» فتجاوبَتْ ... بحفيفِ «أرْزكَ» تلكمُ الأوتار

* * *

لُبنانُ نجوى مُرَّةٌ وسِرارُ ... إنّا بحُكْمِ بَلائِنا سُمَّارُ
ماذا يُرادُ بنا؟ وأينَ يُسارُ؟ ... والليلُ داجٍ، والطريقُ عِثار

والـــوحش يربض في الثنـايـا مُنـذِراً		والمــوتُ		جارٌ		بها		زآر

* * *

أشــبــابُ لُبـنــانٍ يُضــامُ لأنــه		يَقِــظٌ على عُقبـى المصـيرِ يَغـارُ
ألمثلِهم صاغَ القُيـونُ حَديـدَهم؟		وبـنـى الـسُّجـونَ لمثلهم مِعـمار؟
والـسِّجنُ لو علمتْ مَن الشـاوي به		لتسـاقطـتْ ببنـاتِـه الأحجـار

* * *

حتـى إذا لُقِـحَـتْ قبـيـل أوانها		شعـواء يجهـلُ كُنـفـهَهـا الـثُّـوّار
ومـضـى بوزرِ مُغـامـرٍ ومُتـاجـرٍ		ومُـبـرِّرٍ		شهـداؤهـا		الأبـرار
ألقى لنـا المُستعمـرونَ عِصـابـةً		كانـت تضُـمُّ شَتـاتَهـم أجـحـار
مِن حاضني حكم الدخيل، وناصري		سلطـانـهِ		إنْ		عزَّه		الأنـصـار
وبَـنـوا لنـا بيـتـاً أقـمنـا عُشْـرَهُ		ولمِـنْ هنـاكَ الـتـسـعـةُ الأعشـار

* * *

سَرعـانَ ماخَفَقَ اللواء، وشُـرِّعتْ		نُظُـمٌ، وقـامتْ دولـةٌ وشِـعـار
الجـورُ صُلْبُ كيـانهـا، ونظـامُهـا		الاقطـاع		والاذلال		والافـقـار

* * *

تنهـى وتأمـرُ ماتـشـاء عِصـابـةٌ		ينهـى ويأمـرُ فوقَـهـا اسـتعـمار
واستنجـدتْ ـ ودمُ الشعـوب ضِمانُها		ورفـاهُهـا ـ فأمـدَّهـا «الـدُّولار»
يُلوى به عَصَبُ البـلاد، وتُشـتر ى		ذممُ الـرجـال، وتحُجـز الأفكـار

* * *

قُلنـا لهم: فيمَ اللَّجـاجـةُ والسـما		تُعطـي وتمـنـع، والـقضـا غدّار؟
وعـلى مَ يشتـطُّ المـمثِّـلُ منكـمُ		رفقـاً بسـاعـة تُرفـعُ الأستـار؟
وعلى مَ يُوغِـلُ في الحـماسةِ راقصٌ		بأشـدَّ		ممَّا		يَنْـفُـخُ		الـزَّمـار؟!
قلنـا لهم: إنّ البيـاضَ كشحمـةٌ		والـليـلَ		ليـلٌ		والـنهـارَ		نهارُ
فأتـى الجـوابُ لنـا بأنّ نهارَكـم		ليـلٌ، وأنّ عشـيركـمْ كُفّـار!
وإذا أبـيـتـمْ فالجـريـمـةُ أنّكـم		للبـلـشـفـيـةِ، بيـنـنـا أنـصـار!

تنويمة الجياع

نشرت في عام ١٩٥١م ببغداد

نامـي جيـاعَ الـشّـعـبِ نامي		حرسَـتْـكِ آلهـةُ الطَّـعـامِ
نامـي فانْ لم تشـبَـعـي		مِن يَقْظَـةٍ فمِـنَ المـنـام
نامـي على زُبـدِ الـوعـود		يُدافُ في عَسـلِ الـكـلام
نامـي تَزُرْكِ عرائسُ الـ		أحـلام في جُنـحِ الظـلام
تتـنـوَّري قُرْصَ الـرغـيـ		ـفِ كدورةِ الـبـدر الـتـمام!
وتَـرَيْ زرائـبـكِ الـفِـسـا		حَ مبـلَّطـاتٍ بالـرُّخـام

* * *

نامـي تَصِـحِّـي! نِعْـمَ نو		مُ المرء في الـكُـرَبِ الجـسـام
نامـي إلـى يومِ الـنـشـو		رِ ويـومَ يُؤذَنُ بالـقـيـام
نامـي على المسـتـنـقـعـا		تِ تَمُوجُ بالـلُّجـجِ الطَّـوامـي
نامـي على نَغَـمِ الـبـعـو		ض كأنـه سجـعُ الحَـمـام

* * *

نامـي على على تلكَ الـعظـا		تِ الـغُـرِّ من ذاكَ الإمـام
يُوصـيـكِ أن لاتطـعـمـي		من مال ربِّـكِ في حُطـام
وتُـعـوِّضـي عن كلِّ ذ		لك بالـسُّـجـودِ وبـالـقـيـام

نامـي يُسـاقَـطْ رزقُـكِ الموعـودُ فـوقَـكِ بانـتظـام

* * *

نامـــي ولا تتجـادلـي *** الـقـولُ ماقـالـتْ «حـذَام»

* * *

نامـي جيـاعَ الـشـعـب نامـي *** الـنَـومُ مِن نِعَـمِ الـسـلام

* * *

نامـي جيـاعَ الـشـعـبِ نامـي *** لا تَقْطَـعـي رزقَ الأنـام
لا تقطـعـي رزقَ المُـتـا *** جر، والمُـهـنـدس، والمـحـامـي!
نامـي تُريحـي الحـاكـمـيـ *** ـن مِن اشـتـبـاكٍ والـتـحـام

* * *

نامـي : إلـيـكِ تحيَّـتي *** وعـلـيـكِ، نائـمـةً، سلامـي
نامـي جيـاعَ الـشـعـب نامـي
حَـرسَـتْـكِ آلهـــة الطَّـعـام

قفص العظام

نشرت في عام ١٩٥١م بدمشق

تعـالى المجـدُ ياقفصَ العِظـامِ ... وبـورِكَ في رحـيـلكِ والمُـقـامُ
وبـورك ذلـك العُشُّ المُضـوّي ... بوحشتـه.. وبـالغُصص الـدوامي
تعـالى المجـدُ لامـالٌ فيُخـزي ... ولا مُلْكٌ يُحَلَّلُ بالحـرام

* * *

تعـالـى المـجـدُ يا أُمَّ الـرزايـا ... تَمَخَّضُ عن جبـابـرةٍ ضِخـام
تمَلّى الـقـبرُ منهـا أيَّ عطـرٍ ... ووجـهُ الأرضِ أيَّ فتـىً هُمام

* * *

حَجَجْتُ إليـكِ والـدنيـا تَلاقى ... عليـكِ بكـل قاصـمـةٍ عُقـام
وفي صدري تجولُ مسـوَّمـاتٌ ... من الـبلوى عَصَـيْنَ على اللّجـام
فما هي غير أنْ لاحـت لعـيـني ... مخايـلُ من ملامِحـكِ الـوِسـام
وضـوّت من جبينـكِ في غضـونٌ ... بها يَغْـنـى الـزمـانُ عن الـكـلام
وطُفْتِ بخـاطـري حتى تمشّى ... حنـانُـكِ مثـلَ بُرْء في سَقـام
فكنـتِ الـدهـرَ أنـتِ وكـان لَمحٌ ... لشـخـصِـكِ يرتمي كلُّ الأنـام
وكـنـتِ الـسـمـعَ مني لاورائـي ... سواك صدىً يَرِنُّ ولا أمـامـي

* * *

فيـا شمـسي إذا غابـت حيـاتـي ... نشـدتُـك ضارعـاً ألا تُغـامـي
ويـا مكـفـوفـةً عن كلِّ ضرٍّ ... نشـدتُـكِ أن تَكُـفي عن ملامـي

فليس يُطيقُ سهماً مثلَ هذا فؤادي وهو مُرْتَكَزُ السِّهام

تعالى المجد باقفص العظام

وبورِكَ في رحيلكِ والمقِام

في مؤتمر المحامين

نظمت في بغداد عام ١٩٥١م

سلامٌ على حاقدٍ ثائرِ على لاحِبٍ من دمٍ سائرِ
يَخُبُّ ويعلمُ أن الطريـ ـقَ لابُدَّ مُفضٍ إلى آخِرِ
كأنّ بقايا دمِ السابقيـ ـنَ ماضٍ يُمهِّدُ للحاضرِ
كأنّ رميمَهُمُ أنجمٌ تُسدِّدُ مِن زللِ العاثرِ
وليسَ على خاشعٍ خانعٍ مُقيمٍ على ذُلِّهِ صابرِ
عفا الصبرُ مِن طللٍ داثرٍ ومن مَتْجرٍ كاسدٍ بائرِ
يغُلُّ يَدَ الشعبِ عن أن تُمدَّ لكسرِ يد الحاكمِ الجائرِ
ويأمرهُ أن يُقِرَّ النزولَ على إمرةِ الفاسقِ الفاجرِ

* * *

سلامٌ على جاعلين الحتو فَ جسراً إلى الموكب العابرِ
على ناكرينَ كرامَ النفوسِ يذوبونَ في المجمعِ الصاهرِ

* * *

سلامٌ على خالعٍ من غدٍ فَخاراً على أمْسِهِ الدابرِ
وليس على عائشٍ كالغُراب على جِيَفِ الساحقِ الغابرِ

* * *

سلامٌ على مُثقَلٍ بالحديد ويشمَخُ كالقائدِ الظافرِ
كأنّ القيودَ على مِعصميه مفاتيحُ مُستقبَلٍ زاهرِ
أقولُ لِمُلقىً بتلكَ الجِباب هَزوءٍ بأهوالِها ساخرِ
تبوَّأ من سِجنه غابةً تَدورُ على أسدٍ خادرِ

مُقيمٍ على العهـدِ كالـديـذَبـان: تعـالـيـتَ من حارسٍ ساهـر!
تعـالـيـتَ مِن قُدوةٍ تُقـتَـدى ومـن مَثـلٍ مُنَـجـحٍ سائـر

* * *

سمـيرَ الأذى والظـلام الـرهيب خلا الحـيُّ بعـدَك من سامـر
ويـاجـذوة الـفـكـر إنّ الـعـراق حريصٌ على مؤمـنٍ فاكـر
سلِمـتَ فأنـتَ مَنـاطُ الـرجـاء لشـعـبـك في غدهِ الـبـاكـر
وأنـت الامـامُ لتـلك الـصـفـو فِ في زحفِهـا الحـاشـدِ الظـافـر
سلِمـتَ فانّـكَ في ناظـري فإنْ غبـتَ عنـه ففـي خاطـري
سلمـتَ فانْ غضُـونَ الـسـنـينَ على وجهـكِ الشـاحب الغـابـر
سطـورٌ من المـجـدِ لاتـنـمـحي وعِـشـتَ وعـاشـتْ يدُ الـسـاطـر
وإنّ الـغـبـارَ، غبـارَ الـنِّضـال بمـفـرَقـك الألِـق الـعـافـر

* * *

ويـا وفـدَ مصـرَ عليـكَ السلام سلام المُـواطـن لا الـزائـر
تمرُّونَ منّـا بذكـراكُـمُ مرورَ الحـبـيـبِ على الخـاطـر
ونـدفـعُ عنكم ثِقـالَ الخُطـوب دفـاعَ الجُـفـونِ عن الـنـاظـر

* * *

أبُـثـكُـمُ: لا أُحِـبُّ الحـماسَ ولا أنـا للنـقصِ بالـنـاكـر
بُليـنـا، وأنـتـم، بمـسـتـعـمِـرٍ أكـولٍ شَروبٍ لنـا غادر
وأنّـا خُصِـصـنـا من الخـائـنـيـ ـن بالـعَـددِ الأرذلِ الـوافـر

* * *

أقـولُ: وقـد لاحَ غُولُ الـبـلاء يُفـرِجُ عن شِدقـهِ الـكـاشـر
وخـفَّـتْ «لـلـنـدنَ» شرّ الـلصـو صُ تقمَّصَ ثوبَ الـدُّجى العـاكـر
تَحُوكُ برغـمِ أُنـوفِ الـبـلاد نسـيـجَ الهـلاكِ لها الـدامـر
إلـى كم تُداري شيـوخُ الـعـراق وأقطـابُ مِحوره الـدائـر
عُجـولاً تُربّـى لُمسـتـعـمـر ويُـلعـن في عِجله «الـسـامـري»؟

الدم الغالي

نظمت بالقاهرة عام ١٩٥١م

خلِّي الـدّمَ الـغـالي يسـيـلُ إنّ المُـسـيـلَ هو الـقـتـيـلُ
هذا الـدّمُ المطـلولُ يُخـ ـتـصـر الطـريـقُ به الطـويـل
هذا الـدمُ المطـلول إنْ عزَّ الـكـفـيـلُ هو الـكـفـيـل
أن يُسـتردَّ به الأسـيـ ـرُ، وأنْ يُعَـزَّ به الـذلـيـل

* * *

خلّي الـدمَ الـغـالي يسـيـلُ ضوءاً يُنـارُ به الـسـبـيـل
عذراً يقـوم على الطـغـا ةِ الـسـافـحـينِ، به الـدلـيـل
هذا الـدم المـهـراقُ ركـاضٌ لغـايـتـه عَجـول
متـحـذِّرٌ كالـسَّـهـمِ صُلْـ ـبـاً لا يزيـغُ ولا يمـيـلُ
يَصِـلُ المـنـاضـلَ بالمـنـا ضلِ حينَ يُعـيـيـهِ الـوصـول

* * *

قـل للشـبـاب بمـصـرَ والـدُّنـيـا لمـن يُصـغـي تقـولُ :
هذا أوان الجـولـةِ الـ ـكـبرى فما اسطـعـتـم فجـولـوا
خوضـوا دمَ المـسـتـعـمـريـ ـن فطـالمـا خِيـضـتْ وُحـول
وتـصـيـدُّوهـم مِثـلما صِيـدتْ لُمحـترشٍ وُعـول
لَكُـمُ الـديـارُ ومجـدهـا وفَـخـارُهـا الـضَخـمُ الأثـيـل
لكـمُ المـروجُ وعِطـرُهـا ونـسـيـمُـهـا الـعَـبِـقُ الـعـلـيـل

ماتشاؤون

نشرت في عام ١٩٥٢م

ماتَشاؤونَ فاصنعوا فُرْصةٌ لا تُضَيَّعُ
فُرصةٌ أنْ تَحَكَّموا وتَحُطّوا، وترفعوا
وتُذِلّوا على الرِّقا بِ وتُعطوا وتَمنعوا

* * *

ماتشاؤونَ فاصنعوا لكمُ الأرضُ أجمع
قد خلِقْتُمْ لِتَحصِدوا وعبيداً لِيَزرَعوا
لكمُ «الرّافدانِ» و«الزّابُ» ضَرْعٌ فأضرعوا
ماتشاؤونَ فاصنعوا الجماهيرُ هُطَّع
ما الذي يستطيعهُ مُستَضامونَ جُوَّع!

* * *

ما نَهَبْتُم فوزِّعوا للحواشي وأقطِعوا
عن ذَويكُمْ وعنكُمُ الدَّساتيرُ تَدفَع
القوانينُ شِرْعةٌ بِحِرابٍ تُشَرَّع
والأراجيفُ شُرْطةٌ و«التقاريرُ» مِدفَع

* * *

كاذبٌ من يُخيفكُمْ بعظاتٍ ويَصْدَع
ويُريكُمْ مَصارعاً لطغاةٍ «تَصرَّعوا»
كاذبٌ! كلُّ همّهِ أنْ تخافوا وتَفزَعوا

لكمُ «الجِنُّ» تَهْرَعُ مثلما «الإنسُ» تخضع

* * *

أنتمُ «الشّمسُ» في السّماء، وأذكى وأرفع
أنتمُ «الموتُ» هلْ يَحِينُ من الموتِ مَصْرَع؟
أنتمُ «السُّلُّ» يختفي في صدورٍ.. ونَرْجِع
أنتمُ «اللّهُ» واحداً وهو لا شكَّ.. أرْبَع
فرصةٌ لا تُضيَّع ماتشاؤون فاصنعوا

ظلام

نظمت في معتقل أبي غريب عام ١٩٥٢م

ظلامٌ يفورُ.. ونجمٌ يغورْ
وزنجيُّ ليلٍ يُخيفُ الدهور
حَمُولٌ لثقلِ الدّياجي صَبُور
كأنّ ثناياهُ عشُّ النُّسور
كأنّ المجرةَ فيها بُثور
وأقزاعُ غيمٍ هنا.. أو هنا
كأنّ الحُلوكةَ فيها سَنا
كأنّ الاله الذي هَيْمَنا
يُفجِّرُ من جنباتِ العُصورْ
غباءَ الفُسوقِ وعُهْرَ الفُجور

* * *

كأنَّ السمواتِ قفرٌ يَبورْ
كأنَّ يداً من وراء السُّتور
تراوحُ بين الحصى والصُّخور
هنالك حيثُ الشرابُ الطَّهور
يلوِّث منه طُفاحُ الزنا

* * *

غفا الحقدُ ياليلُ والحاقدُ

ولـفّـهـما نعـشُـكَ الـبـارد
غفـا نَفَسٌ عفـنٌ حارد
يضـيـق به قفصُ الأضـلعِ
وناب وبـيء من الـمـضـجـع
ويطـفـو على الـقـفـر والـبـلقـع

كما يستكلب الذّيبُ

نظمت ببغداد عام ١٩٥٣م

عدا عليَّ كما يَستكلبُ الذيبُ ... خَلْقٌ ببغدادَ أنماطٌ أعاجيبُ
خلقٌ ببغدادَ منفوخٌ، ومُطَّرَحٌ ... والطَّبلُ للناس منفوخٌ ومطلوب
خلقٌ ببغدادَ ممسوخٌ يُفيضُ به ... تأريخُ بغدادَ لاعُرْبٌ ولا نُوب!
لا الأريحيُّ الذي ضَمَّتْ ملاعبُها ... ولا التقيُّ الذي ضمّتْ محاريب
ولا الكريمُ يميناً جُودها رفَهٌ ... ولا الكريمُ ضميراً جُوده طِيب
لو شئتُ مزّقْتُ أستاراً مُهَلْهَلَةً ... فراحَ سِيَّانِ مهتوكٌ ومحجوب
لَبانَ للنّاس مَصدوقاً بلا دَغَلٍ ... مُبرقَعٌ من إباء القوم مكذوب

* * *

إني لأعذِرُ «أحراراً» إذا برموا ... بالحرِّ يَلويه ترغيبٌ وترهيبُ
والصابرينَ على البلوى إذا عَصَفُوا ... بالصَّابر الشَّهْم آدَته المطاليب
والخابطينَ بظلماء كأنّهمُ ... «بغلُ الطواحين» يجرى وهو معصوب
فما لِعُبدانِ أهواء، وعندَهمُ ... في كلِّ يومٍ من التغرير أُسلوب
عُفْرُ الجباهِ على الأقدام شيخهُمُ ... من الشِّبالين بالايماء مسحوب
القاعدونَ إذا اشتدَّتْ مجلجلةٌ ... وطاحَ ضَحيانَ محروبٌ ومكروب
والراكضونَ إذا انجابتْ عَجاجتُها ... كأنّهُمْ في الميادين اليعاسيب
منافقون يُرونَ النّاسَ أنّهُمُ ... شُمٌّ، أباةٌ، أماجيدٌ، مصاحيب
وأنّهم قادةٌ صِيدٌ وأنّهُمُ ... غرُّ المصابيح والدُّنيا غرابيب
والنّاسُ واللهُ يدري أنّهُمْ هَمَلٌ ... غُفْلٌ، سوامٌ، عضاريطٌ، مناخيب

مشـــتْ إليَّ بعـــوضـــاتٌ تُلدِّغــني ... وهـل يُحِسُّ وبيتَ النحـلِ يَعسـوبُ
تسعـونَ كلبـاً عوى خلفي وفـوقَهُمُ ... ضوء من القمـــر المنبـوحِ مسـكـوب
وقبـلَ ألفٍ عوى ألفٌ فما انتقصَتْ ... «أبـــا محسَّـــدَ» بالـشَّتْم الأعـــاريب

* * *

يامـنطـويـنَ على بُغـضي لعلمِهمُ ... أنّي لدى النّاس، أنَّى كنتُ، محبوبُ
تُغـلي الحـزازاتُ فيهم أنّ أروَ سَهُمْ ... دُونٌ وكعبي رفيـعُ الشأن مرهــوب
ويستثـيرُ شَجاهم أصيـدٌ عَصَـرَتْ ... منـه الخُطـوب وشَـدَّتـه التَجـاريب
مُسـهَّـديـن على مجدي ونـسـبتِـهِ ... كما تُسَـجَّـلُ للنّهــر المنـاسيـبُ
يُريــحُ جَنـبـيَ أنْ يُذكي جوانحَكُمْ ... جمرٌ من الضِّغْنــة الحمـراء مشبـوب
أطَـلْتُ هَمَّكُـمُ والـدَّهــرُ يُنـذركمْ ... أنْ سوف لا يـنـقضي همٌّ وتعــذيب
يبقى القصيـدُ لَظىً والأرض مشربةً ... دمـاً، وتُـذرَى مع الـريح الأكاذيب

كفارة وندم

نشرت عام ١٩٥٤م

ستبقى - ويَفْنَى نَيزكٌ وشهابُ - عروقٌ أبِيّاتُ الدِّماءِ غِضابُ
لطافٌ كأنفاسِ النّسيمِ نوافحٌ كريّاه صُمٌّ كالصخورِ صِلاب
هوتْ عَذَباتُ العمرِ إلّا صوامداً على لَفْحِ إعصارٍ فهنّ رطاب
وجفَّ وريقٌ منه إلا نديّةً تعاصت على الأيامِ فهي شباب
عييتُ بطبِّ الأحمقين وجهلِهمْ بأنّ النفوسَ الخيِّراتِ عجاب
فهنّ إذا ما الأمرُ هانَ أباطحٌ وهنّ إذا ما الجدُّ جَدَّ هِضاب
وهنَّ «منيفاتٌ» لأن هُويِّها بألسُنِهِنَّ يُزدَرَى ويُعاب
وهنّ «عظيماتٌ» لأنّ صريخَها يَئِنُّ أنينَ الكلْبِ حين يُشاب
يضيقُ بها كونٌ وهن فسائحٌ وسبعُ سماواتٍ وهنّ رحاب
يُساقين أحقاباً وهنّ ظوامىء ويُطعِمْنَ أجيالاً وهنّ سغاب
ويَنْحَتْنَ والدنيا لهنّ نموذجٌ ويرسُمْنَ والرؤيا لهنّ خِضاب

* * *

أقولُ وقد كلَّ الجوادُ فلم تَجُلْ مسوّمةٌ غالوا بهنَّ عِراب
ولاح مَحَكٌّ للرجالِ فلم يكنْ هنالك إلّا زائفون كِذاب
وصوّحَ قاعُ الطيباتِ وأعولتْ عليها من الضِغْنِ الخبيث ذئاب
حنانَيْك نفسي لايضِق منك جانبٌ إذا ضاق من رُحْبِ النُفوس جَناب
ولا يتهضّمْكِ انخفاضٌ فطالما تخفّضَ نسرٌ صاعدٌ وعُقاب
وشامخةُ الأدواحِ يُلوى عِنانُها مع الريح، والمحضُ الصريحُ يُراب

فلا تهنِ الشكْوى عليكِ وإن مَشتْ بمنحسِرٍ بادي الضلوعِ حراب
فانْ تقتنص منكِ الليالي فريسةً وإنْ يجتمعْ ظُفْرٌ عليكِ وناب
وإنْ تَشابكْ للحزازاتِ أجمةٌ ويلتفَّ للحِقد المبرِّحِ غاب
فللَّيثُ أضرى مايُرى إذ تَهيجُهُ وأقتلُ ماتخشاه حينَ يُصاب

* * *

هبيني لم أُسلفْ جميلاً ولم أقلْ جميلاً، ولم تُخضَبْ عليَّ ثياب
ولم أُزجِ تلك التضحياتِ كريمةً بها راح يُجْزى مُدَّعٍ ويُثاب
ولم أُدعَ للجُلّى كقيسٍ ورهطهِ وللحيْسِ تدعى ختعمٌ وكِلاب
فهل أنا إلاّ من سوادِ نقائصي إلى نقص أزكاهم حصىً وتراب

* * *

ويا وطناً رُدَّت عليَّ ظلالُهُ مصوّحةً رَوّى ثراكَ سَحاب
ندى المسك فيها غبرَّتني عجاجةٌ وفيها سيُحثَى بالجِمام تراب

* * *

سرى البرقُ وهّاجَ السنا فتنورت كُوىً في الضفاف استجمعت وقِباب
وطارتْ بألواحِ الزجاج شرارةٌ تمزَّقَ منها للظلامِ حجاب
وران نضيدٌ من غيومٍ كأنما فجاجٌ به مغبرَّةٌ وشِعاب
على الجانبِ الغربيِّ للبرقِ دعوةٌ لدى الجانب الشرقيِّ منه تُجاب
تحلَّبَ ضرعٌ من سَحابٍ وآخرٍ وحُلِّ وِطابٌ مفعَمٌ ووِطاب
مدى ليلةٍ حتى إذا الفجرُ مسَّها وبُدِّلَ منها صِبغةٌ وخِضاب
ودغدتِ السَّعفَ المغفي نسائمٌ لطافٌ، نديّاتُ الشَذاة، عِذاب
ونَقَّلَ رُعيانُ الغيوم قطيعَها إلى آخرٍ يُسقى بها ويُصاب
تزحزح مركومٌ من الغيمِ وانبرتْ تَهاوى رُبىً منسوفةٌ، وهِضاب
وحالت سماً مأهولةٌ فاذا بها لدى الصبحِ قفرٌ موحشٌ ويَباب

الراعي

نظمت عام ١٩٥٥

لفَّ العباءةَ واستقلّا بقطيعهِ عَجَلاً.. ومهلا
وانصاعَ يَسْحَبُ خَلْفَه ركْباً يُعرِّسُ حيثُ حلَّا
يرمي بها جَبلاً فتتبعُ خَطْوَهُ.. ويَحُطُّ سهلا
أبداً يُقاسمها نصيباً من شظيف العيش عدلا
يَصلى كما تصلى الهجيرَ ويستقي ثمداً وضحلا
أوفى على روضِ الحياةِ يجوبهُ حقلاً فحقلا
وارتدَّ يحملُ مايصونُ دَماً.. وما أغنى وقلّا
«نايا» يذودُ به الونى ويلوِّنُ النَّسَقَ المُملّا
وعصىً يَهُشُّ بها.. ويرقى ذروةً، ويُقيمُ ظِلّا

***

يا راعيَ الأغنام: أنتَ أعزُّ مملكةً وأعلى
لله مُلْكُكَ ما أدقَّ وما أرقَّ.. وما أجلّا
يَرويكَ مَن رَشَفاتِهِ قَمَرُ السماء إذا أطلّا
ويقيكَ من وَعْثِ السُرى وَهَجُ المجرّةِ أن تَضلّا
وتلمُّ في الأسحار عنقودَ النجوم إذا تدلّى
عُريانُ من «عُقَد» النفوسِ عصيّن.. فاستعصينَ حلّا
لم تَخْشَ بؤسَ غدٍ يشوهُ من جمالِ «اليوم» شكلا

أطـيـافُـكَ الـزَّهـر الـنـديُّ   شذاً، وألـوانـاً، وطَـلّا
وتَـرى مُلونـة الطـبـيـ   ـعـة إذ تغُـمُّ.. وإذ تجلّى
غُوْلَ الظـلامِ إذا تعـلّى   وسـنـا الـصـبـاح إذا تجلَّى

يا أم عوف

نظمت عام ١٩٥٥م

يا «أُمَّ عوفٍ» عجيباتٌ ليالينا ... يُدنينَ أهواءنا القُصوى ويُقصينا
في كلِّ يومٍ بلا وعيٍ ولا سببٍ ... يُنزلنَ ناساً على حُكمٍ ويُعلينا
يَدفِنَّ شهْدَ ابتسامٍ في مراشفنا ... عَذْباً بعلقم دمعٍ في مآقينا
ويقترحْنَ علينا أنْ نُجرِّعَهُ ... كالسمِّ يجرعهُ «سُقْراطُ» تَوْطينا

❊ ❊ ❊

يا «أُمَّ عوفٍ» وما يُدريكِ ما خَبأتْ ... لنا المقاديرُ من عُقبى ويُدرينا
أنّى وكيفَ سيُرخي من أعنّتنا ... تَطوافُنا .. ومتى تُلقي مَراسينا؟!
يا «أُمَّ عوفٍ» حَرقنا كلَّ جارحةٍ ... فينا لِنُسرِجَ هاتيكَ الدواوينا

❊ ❊ ❊

يا «أُمَّ عوفٍ» وما آهٌ بنافعةٍ ... آهٍ على عابثٍ رَخْصٍ لماضينا
سمحٍ نجرُّ به أذيالَنا مَرَحاً ... حيناً .. ونعثُر في أذياله حينا
آهٍ على حائرٍ ساهٍ ويَرشُدنا ... وجائرِ القصدِ ضِلّيلٍ ويَهدينا
مثلَ الطيورِ وما رِيشَتْ قوادمُنا ... نطيرُ زهواً بما استطاعت خَوافينا
من ضحكة السَّحَرِ المشبوبِ ضحكتُنا ... ومن رفيفِ الصِّبا فيه أغانينا

❊ ❊ ❊

يا «أُمَّ عوفٍ» وكاد الحِلمُ يَسلُبنا ... خيرَ الطِباعِ وكاد العقلُ يُردينا
خمسونَ زُمَّتْ مليئاتٍ حقائبُها ... من التجاريبِ بعناها بعشرينا

إذ نحنُ من هذه الـدنيـا ضراوتُهـا ... وإذ مغـاني الصِّبـا فيهـا مغـانينـا

يا «أمّ عوفٍ» بريئـاتٍ جرائـرُنـا ... كانـت، وآمنـةُ العقبى مَهـاوينـا

إنْ نـنـدفـعْ فـبـعـفـوٍ من نوازعنـا ... أو نرتـدعْ فبـمحضٍ من نواهينـا

كانــت محاسـنُـنـا وأعظـمـهـا ... أنـا نخـافُ عليهـا من مَسـاوينا

يا «أمَّ عوفٍ» أدالَ الـدهـرُ دولَتنا ... وعـاد غَمْـزاً بنـا ماكـان يزهـونـا

* * *

يا «أمَّ عوفٍ» كوادٍ أنـت نازلـةٌ ... دَمْثـاً، فسيحـاً، نديّاً كان وادينـا

في مثـلِ رملتـكِ الحمـراء زاهيـةً ... كانت تَخُبُّ «عفـاريتـاً» مَهـارينـا

ومثـلِ خيمتـكِ الـدكنـاء فارهـةً ... كانـت ترفُّ على رمـلٍ صواريـنـا

* * *

يا «أمَّ عوفٍ» ومـاكنّـا صيـارفـةً ... فيـهـا نُحـبُّ ومـا كنـا مُرابينـا

لم نَدْرِ سُوقَ تجارٍ في عواطـفـهـم ... وبـائـعـين مودّاتٍ وشـاريـنـا

لانـعـرفُ الـودّ إلا أنّـه دنَـفٌ ... من الـصـبـابـةِ يعتـاد المُحبينـا

فما نُصـابـح إلا من يُماسيـنـا ... ولا نُرواح إلا من يُغـاديـنـا

غُفـلاً أتـينـاكِ لم تعـلَقْ بنـا غُرَرٌ ... ولا حُجـولٌ وإنْ رفَّـتْ هوادينـا

إنـا أتـينـاكِ من أرضٍ ملائكُهـا ... بالعُهـرِ تُرجم أو تُرضي الشيـاطينا

يا «أمَّ عوفٍ» أأوهـامٌ مضـلِّلةٌ ... أمِ الأسـاطيرُ يُبدعن الأساطينـا

مِن عهـد «آدم» والأقـوامُ مزجيـةٌ ... ، خوفَ الشرورِ، الضّحايا والقرابينا

أكُلّما ابـتـدعَ الانـسـانُ آلهـةً ... للخـيرِ صيرَهـا شرٌّ ثعـابينـا!؟

* * *

يارمـلةَ الـلّهِ رُدّي عن تحيَّـتِـنـا ... بخـيرِ مافيـكِ من لُطفٍ وحيّينـا

وسـامـرينـا فقـد ألـوى بنـا سمرٌ ... وطـارحينـا فقـد عَيَّت قوافينـا

رُدّي بها وهِبتـه الـشـاء من وَتـرٍ ... إذا ثغـا رَدَّدتـه الـروحُ تلحينـا

وبنحـةٍ من «كُليب» خِلتُ نبرتهـا ... من زُخـرفِ القـول تحريكاً وتسكينا

ويــا بســاطــاً منَ الخضـراء طرَّزهُ … صوبُ الغـمام أفـانينـاً أفـانينـا

* * *

جئنـا مغـانيـكِ نُسّـاكـاً يُبرِّحهمْ … لُقيـا حبيبٍ أقـامـوا حُبَّـه دينـا

ولاءمتنـا شِعـابٌ منـكِ طاهـرةٌ … كما تضـمُّ المَحـاريـبُ المصلّينـا

لم أُلفِ أحفـلَ منهـا وهي مُوحشـةٌ … بالمؤنسـات . . ولاأزهى ميـادينا

أحـالهـا النـور شيئـاً غيرَ عالمها … حتـى كأنّـا بوادٍ غيرِ وادينـا

حتى كأنّا ـ وضـوء البـدر يَفرشها ـ … نمـشي على غيمـةٍ منـه تُماشينـا

خلّفت غاشية الخنوع

ألقيت بدمشق عام ١٩٥٦م

خلّفتُ غاشيةَ الخنوع ورائي … وأتيتُ أقبسُ جمرةَ الشهداء
ودرجتُ في دربٍ على عَنَتِ السُّرى … ألقى بنور خطاهمُ وضّاء
خلّفتها وأتيت يعتصرُ الأسى … قلبي وينتصبُ الكفاحُ إزائي
وحمِدْتُ نفساً حُرّةً لم تنتقص … شَهْدَ الوفاء بعلقم الإغراء
صبغانِ يأتلقان ماعصفَ الدُّجى … بالناس لونُ سناً ولونُ دماء
يلدانِ فجراً صادقاً حلوَ السَّنا … خضِلَ الظِلال منعَّم الأفياء
قد قلتُ للإلفِ الخدينِ يُدلّني … أنّى تكون معالمُ الفيحاء؟
قف بي على النّسر الخضيب ولُمَّ لي … منه نسيلَ قوادمٍ حمراء
وتخطَّ بي أرضاً تعفَّرَ فوقها … ملكُ السماء مدوِّخ الأجواء
قف بي فلستُ بمأتمٍ لرثاء … أيُهان عُرْسُ رجولةٍ ببكاء
أنا لا أرى العصماء غيرَ عقيدةٍ … منسابةٍ في فكرةٍ عصماء
هذا أنا . عَظْمُ الضحيَّةِ ريشتي … أبداً ولفْحُ دمائها أضوائي
أستلهم النغَمَ الخفيَّ يموجُ في … جُرح الشهيد بثورةٍ خرساء
وأحِسُّ أنَّ يدَ الشهيد تجرُّني … لتلُفَّني وضميرُهُ برداء

* * *

عدنانُ إنّ دماً وهبتَ رسالةٌ … أنا من صميمِ دعاتها الأمناء
آمنتُ بالحُمر النوافح في الثَّرى … يبساً، أريجَ الواحة الخضراء
آمنتُ لاوحي العقيدة وحدَها … لكنْ بها أسلفتُ من خُلَصائي
آمنتُ إيمانَ الحجيج بقصدِهِ … فهناك لي جَدَثٌ على البطحاء

آمنتُ إيمانَ النهار بشمسه		فلقد غُمرتُ بنورها الوضاء
آمنتُ إيمانَ الدماء بنفسها		فأنا الصبيغُ بها صباح مساء

* * *

عدنانُ أنطِقني فقد خَنَقَ الشَّجا		بفمي البليغ مقالة البُلغاء
حاسبتُ نفسي والأناة تردُّها		في معرض التصريح للإيماء
بيني لُعنت فلستُ منكِ وقد مشى		فيكِ الخمولُ ولستِ من خُلطائي
ماذا يميزكِ والسكوت قسيمة		عن خانعٍ ، ومهادن ، ومرائي
أبأضعفِ الإيمان يخدع نفسَهُ		مَن سنَّ حُبَّ الموت للضعفاء؟
خلِّي النِّقاطَ على الحروف وأوغلي		في الجهر ماوسعتْ حروفُ هجاء
ما أنتِ إذ لاتصدعين فواحشاً		إلا كراضيةٍ عن الفحشاء

* * *

أضحيَّةَ الحلفِ الهجين بشارة		لكَ في تكشُّفِ سوءةِ الهُجناء
أسطورة «الأحلاف» سوف يمُجُّها التا		ريخُ مثلَ خرافة «الحلفاء»
قالوا «تعاقدنا» فقلتُ هنئتمُ		بقِرانِ فرطِ خنىً بفرطِ غباء
وا هُزأة الأحلاف بين مسخَّرٍ		ومسخَّرين ، وسيِّدٍ وإماء
يامن رأى «حلفاً» عجيباً أمرهُ		بين الثَّرى وكواكب الجوزاء
وتعلَّقت هُزءاً على أضوائه		بنيوب ذؤبانٍ أكارعُ شاء

* * *

دوّى على المستعمرينَ صواعقاً		وعيُ الشعوب ويقظةُ الدَّهماء
وتكشَّفوا عُرياً على أضوائها		مثلَ اللصوص بليلةٍ قمراء
ستدوسُ أقدامُ الشعوب كخرقةٍ		مهروءةٍ مَن كانَ سوطُ بلاء
سيرَى عَتادُ الأجنبيّ بعينه		مرمى عقيدةِ أمَّةٍ عزلاء
ستعود تُصهَر طلقةً وقذيفة		ترمي الطغاةَ سلاسلُ السجناء

* * *

ياشامُ يالمحَ الكواكب في دجى		ياموكب الأعراس في صحراء
ياموئل الذكرى يغطّي أرضَها		وسماءها حشدٌ من الأصداء

يا أمّ «أقيال» ومدرج أمّةٍ ... وعرينَ أشبال وكهفَ رجاء

ياأختَ «غسّانٍ» ينادمُ رهطه ... يوماً بجلَّقَ - سيّدَ الشعراء

يابنتَ «مروان» يركّز راية ... حمراء فوقَ رمالكِ السمراء

جَلَّ العُلا أبُبيتِ من تملّاء ... أرُفعتِ فوقَ جماجمٍ ودماء؟

لله أنتِ أكلُّ يومك حاشدٌ ... برجولة ومروءة وفَتاء؟

في أيِّ جوٍّ عابسٍ لم تُسفري ... ريّا الجنانِ نديّةَ الأضواء؟

وبأيِّ سُوحِ مكارمٍ لم يرتفع ... عَلَمٌ عليك مثلثُ الأجزاء؟

اليومَ عيدُ الواهبين، وفي غدٍ ... عيدُ الفتوح، وأمسِ عيدُ جلاء

نظمت بدمشق عام ١٩٥٦م

رِدي علقمَ الموتِ لاتجزعي ولا ترهبي جمرةَ المصرعِ
فما سُعِّرَتْ جَمراتُ الكفاح لغير خليقٍ بها أروع
فأنشودةُ المجد ما وُقِّعَتْ على غيرِ أوردةٍ قُطَّع
وخلِّي النفوسَ العذابَ الصِلاب تسيلُ على الأسَلِ الشُرَّع
فساريةُ العَلمِ المستقلٍّ بغيرِ يد الموت لم ترفع
ومُدِّي يداً لمجرِّ النجوم وأُخرى إلى الحَدَثِ البلقع
فإنكِ والموتُ دونَ الحياضِ صِنوانِ للشرفِ الأرفع
ردِي علقمَ الموت بئسَ الحياة تُرنَّقُ بالذلِّ مِن مكرع

* * *

«جزائرُ» ياكوكبَ المشرقين من دجا الشرق من كُربه فاطلعي

* * *

«جزائرُ» ياحدَثَ الغاصبين بُوركتِ في الموت من مربع
ويانبعةَ الصُبرِ الصامدين لوتها الرياحُ ولم تُقْطَع

ذكرى المالكي

نظمت عام ١٩٥٧ في دمشق.

ترنَّحتْ من شَكـاةٍ بعـدَكَ الـدارُ ... وهبَّ بالغضب الخلاق إعصارُ
وأرعـدَ الـوطنُ الغـالي وقـد ثقُلَت ... عليـه مما جنـى الجـانـونَ أوزار
واستصْرختْ حلَباتُ السبقِ فارسَها ... وقـد هوى، وانتخى شوطٌ ومضمار
ومـرَّ طيفُـكَ بالفرسـانِ فانعقـدتْ ... عليـه كالحـلُم المخمـور أبصـار
مشى الهـداةُ على أضـواء ضحكتـه ... واستلهمتْ دَمـه الـفَـوارَ ثُوَّار

* * *

«دمشقُ»: كلُّك ألطـافٌ وتكـرمـةٌ ... للنـازليـك وإيـلافٌ وإيـثـار
دمشقُ: لي في رُبـاكِ الخُضْـر جمهـرةٌ ... همُ ليَ الأهـلُ، والجيرانُ، والـدار
أحـببتهمْ وأحبـوني كما امتـزجت ... فيـها تجاوبُ أنـغـامٌ وأوتـارُ
دمـشـق: نحنُ بنـاةَ الشعـر آهـةٌ ... لاتـضطـنيـهـا حزازاتٌ وأوغـار
عن كل حرفٍ دَفعنـا فِديَـةً فذَحت ... لو كان المحـق مِيـزانٌ وأسـعـار
نحنُ الجبـابـرةُ الأعلونَ. يُرهبُنـا ... إذ يُرهقُ النـاسَ «فـرعـونٌ» وجبّار

* * *

دمشـقُ: لم يأت بي عيشٌ أضيقُ به ... فضـرعُ «دجـلةَ» لو مسَّحْتُ درَّار!
وثَـمَّ، لولا ضمـيرٌ عاصمٌ، خُفَـرٌ ... للمغـريـاتِ، و«للبترول» آبـار!
لو شئـتُ كافأ مثـقـالاً أصـرِّفـه ... شِعـراً من الـذهبِ الابـريـز قنطـار
لولا رسـالـةُ حقٍّ قد يحيـق بها ... حتى من المـدَّعـينَ الحقَّ إنكـار!
تبـجَّحـوا أنهم حربٌ لمنْ ظَلمـوا ... في «الـرافـدين»، وأعوانٌ لمن ثاروا!
عجبٌ للقـوم في أمـري أهمْ سنـد ... للظلْم؟.. أم هم على الثُّوّار ثوار؟!

ياســـادتي إنّ بعضَ العَتبِ منْبهَــةٌ لغــافلين، وبعض الشعــر إشعــار!
أنــا «العــراقُ» لســاني قلبهُ.. ودمي فراتــهُ.. وكـيــاني منــه أشطــار

وَخْطُ المشيب

نظمت بدمشق عام ١٩٥٧م

مشى و خـْطُ المشيب بِمُفْرَقيه وطـار غُرابُ سعد من يديه
و راحت من زهاها اسس حباً تقـول اليوم: وا أسفي عليه
تبـدّل غير رونقه و لاحت تـضاريسُ السنين بأخدعَيْه
رماداً خلـتـه لولا بقـايا تُوَقِّدُ جمـرتين بـمـقلتيه

❁ ❁ ❁

مشى و خط المشيب به كانٍء يُرَجِّلْ داهناً مـن لَمَـتيه

❁ ❁ ❁

مشى وَ خطُ المشيب به فألوى بأيكنه و عـاث بوجـنـتـيـه
وئـيد خطى كأنَّ عـذابِ جيل تَخَيَّر فحطَ بـمـنـكـبـيـه
و أخلى ملْعبَ الصبواب مـنه و بـدل مَـشْرقيه بـمغربيه
و قـرّبَ مـن مَنِيَّته و خوف لقرب الـمـوت شرٌّ مـنـيتيه!

❁ ❁ ❁

مشى وَ خطُ المشبب به فَرنتْ مناحة ثـاكـليـه بـمشعشعيه
و راح يـصيح عن الم و رعب الى واهٍ مـرجعـه ووبـه
مشى و خط المشيب بـمـفرقيه فـسـوت لـحده كلتا يـديه

أزف الموعد

ألقيت في مؤتمر اتحاد الطلبة العام في ١٦ شباط ١٩٥٩.

أزِفَ الموعدُ والوعدُ يعنّ ... والغدُ الحلوُ لأهليه يَحِنّ
والغدُ الحلوُ بكم يُشرق وجهُهُ ... من لدنّهُ، وبكم تضحكُ سِنّ
فخرُنا أنّا كشفناه لكمْ ... واكتشافُ الغدِ للأجيالِ فنّ
ياشبابَ الغدِ إنّا فتيةٌ ... مثلكُم فرّقنا في العُمرِ سنّ
لم يزلْ في جانِحَيْنا خافقٌ ... لصُروفِ الدّهرِ ثَبتٌ مطمئنّ
ولأنّا حين يصفو مَحضُكمْ ... مَحْضُنا يُمْزَجُ حيناً ويُشَنّ
لا تلومونا لأنّا لم نكنْ ... مثلَكُمْ فيها تُجَنّون نُجَنّ
ولأنّا إذ تَرُدُّونَ الأذى ... بالأذى نجزَعُ منه ونئنّ
عبقرٌ وادٍ نزلنا سرحَهُ ... شَتوةً فهو أصمٌّ لا يَرِنّ
ونزلتُمْ فتلقّاكُم به ... الربيعُ الغضُّ والروضُ الأغنّ

* * *

ياشبابَ الغدِ: هذا وطنٌ ... كُلّهُ فضلٌ وألطافٌ ومَنّ
تصطلي العُمْرَ جحيماً عندَه ... وهو فيها تعِدُ الجنّةُ عدْن
وهو إذ تستوبيء الأرضُ شذاً ... وهو إذ يقبُحُ كلُّ الكونِ حُسْن
وهو حتى إنْ تجافى عنك خِدْنٌ ... وهو حتى إنْ تخلّى عنك حِصن
يُفتدى إذ يَرخُصُ الفادي به ... وبه إذ توهِبُ النفسُ يُضَنّ
فاستمنّوه بما تُعطونه ... من دمٍ إنّ الحمى لايُستَمَنّ

الرصافي

ألقيت في عام ١٩٥٩م

لُغزُ الحياةِ وحَيرَةُ الألبابِ ... أنْ يستحيلَ الفكرُ محضَ تُرابِ
أنْ يُصبحَ القلبُ الذكيُّ مفازةً ... جرداء حتى من خُفوقِ سراب
فيم التحايلُ بالخلود، ومُلْهَمٌ ... لِحَفيرةٍ، ومفكّرٌ لِتَبابِ؟
حَسْبي بلَيْتَ تَعِلَّةً إذ مِيتَةٌ ... حتمٌ، وإذا آجالُنا بنِصابِ
ليت السماء الأرضُ، ليتَ مدارهَا ... للعبقريِّ به مكانُ شِهابِ
يُوما له ويُقالُ: ذاك شُعاعُهُ ... لامحضُ أخبارٍ، ومحضُ كتابِ
يامعشرَ الأدباء، غُرٌّ جهودكم ... في المكرُماتِ عريقةُ الأنسابِ
من كلِّ محرومِ الثوابِ، معاقَبٍ ... في هذه أو تلك شرَّ عِقابِ
يازُمرةَ الشعراء شفَّ نفوسَهُمْ ... فَرْطانِ: فرطُ جوىً وفرطُ عذاب
ذابوا ليَسقوا الناسَ من مُهَجاتهمْ ... خيرَ الشرابِ مُشَعْشَعَ الأكوابِ
وتحرَّقت منهم لتُعليَ شُعلةً ... لبلادهم كُتَلٌ من الأعصابِ
ناشدتُكُمْ بوشائجٍ من فكرةٍ ... وعقيدةٍ ورسالةٍ ومُصابِ
مَن منكمُ رغمَ الحياة وعِبئِها ... لم يحتسِبْ للموت ألفَ حِسابِ
أنا أُبغِضُ الموتَ اللئيمَ وطيفَهُ ... بُغضي طُيوفَ مخاتلٍ نصّابِ
يَهَبُ الردّى شيخوختي ويقيتُها ... بكُهولتي، ويَقيتُها بشبابي
ذئبٌ ترصَّدني وفوقَ نُيوبهِ ... دَمُ إخوتي وأقاربي وصِحابي

الشيخ والغابة

نظمت عام ١٩٥٩م

ورأى الشيخُ ظِلالَ الغابةِ الدَكناء..
أشباحاً تَلوحُ
بعضُها يَعصِرُ بعضا..
فتمنًى لو يَروحُ
علّهُ يقطف منها
ثمَرَ الجنة غَضّا،
ثم غامت صُوَرُ
ردَّته كالهِرّةِ
أسيانَ شجيّا!
آهِ.. لو كان فتيّا
آهِ لو رَدَّتْ إليه..
آهِ.. مما فاتَ شَيّا!
آهِ.. لو لم يَعلُ فَوْدَيهِ..
من الشيب مُسوحُ
آهِ.. لو كان لذي قلبٍ
مع الشيب طُموحُ
وتولَّتْ قَدَميه رجفةٌ
ثم تَلَوّى..
ثم ألوى..

ثم أقعى!
فرأى آدَمَ يلتفُّ بِحواء..
وتَلتَفُّ عليه..
مثلَ أفعى!
آهِ ياشيخ!..
ومن يُدنيكَ من عَهْدِ الشبابِ!
أغلَقَتْ من دونه سودُ الليالي..
ألفَ بابِ!

رباعيات

نظمت عام ١٩٦٠م

«بغداد» في الصباح . .

صفَّقَ الديكُ وقد زعزعهُ الفجرُ وألوى بالصياحِ
ومشى النورُ على الحقل وفوقَ الدربِ يزهى والبطاح
آه ما أروعَ «بغدادَ» وأحلاها على ضوء الصباح
غَسلتْ كفُّ السنا كلَّ الجِراحاتِ بها حتى جِراحي

زرع الضمائر

قالوا قد انتصرَ الطبيـ ـبُ على المُحالِ من الأمور
زرع الجماجمَ والقلو بَ وشدَّ اقفاصَ الصدور
فأجبتهمْ: ومتى ستر فَعُ رايةُ النصرِ الأخير
زرعَ الضمائرِ في النفو سِ العاريات عن الضمير

رب السجن أحب . . !

عندما أبصرتُ نيرا ناً من البغيِ تُشَبُّ
وإلى «القِمَّةِ» من في كفِّهِ «زيتٌ» يُصبّ
وإلى «السِّجنِ» الذي يد فع عنها ويَذُبّ
قلتُ ـ والسجنُ كريه: «ربِّ السجنُ أحبّ!!»

حُكم التاريخ . .

سيسبُّ الدهرُ والتا ريخُ من أغرى بسببي
لا الأولى سبُّوا فهم عبـ ـدانٌ عبدانٍ لرب
يا لخزيِ المشتلي كلـ ـباً لسبِّ المتنبي
عِرضُ «كافورٍ» تهرّا ولـه مليونُ كلب

المستنصرية

نظمت في ١٩٦٠ وألقيت في افتتاح المدرسة المستنصرية بعد ترميمها.

أعـدْ مجدَ بغـدادٍ ومجـدك أغـلبُ ... وجَـدِّدْ لها عهـداً وعـهـدكَ أطـيبُ
وأطـلع على المستنصـريـةِ كوكبـاً ... وأطـلعَتـه حقـاً. فانـك كوكـب
كأنَّ على بغـداد مما أفـضـتـه ... من المجـد أذيـالاً من التّيه تُسحب
محافـلها مَلقـى. وغُـرُّ قِبـابهـا ... نَشـاوى. ومَثـوى سَفحها مُتوثب

❊ ❊ ❊

ويـارُبَّ تموزٍ نزلـتَ بليـله ... على السَّحـر الريـانِ ناراً تَلهَّب
بأسـحـار بغـداد تغـنّـى عوالمٌ ... وذكـرك من أسحـار بغـدادَ أعـذب
وأسـودَ داجٍ كالـغـراب كسـوتَـه ... غُبـار السّـرايـا فهـو كالنسر أشهب
وقـفـتَ به التـاريـخَ تحصي ثوانيـاً ... بها رحـت تُملي والمـقـاديـرُ تكـتـبُ
عجيب مدى النصر الذي اجتزتَ حدَّه ... وتـوقيتُـك النصـرَ المؤمَّـلَ أعجب
وكـان لك الجيـشـانِ جيشٌ مدرَّبٌ ... وآخـرُ أقـوى منـه قلبٌ مدرَّب
ومـا الـسـيـف إلا آلـة خلفـهـا يدٌ ... وخـلفـهـما عزم يهمّ ويـضـرب

❊ ❊ ❊

أبـا كلِّ حرٍّ لي إلـيـكَ شَفـاعـة ... فهـل أنـا ذيّـاك الشفيـعُ المقـرَّب
بنـوك الـذين استرخصـوا مُهجـاتِهم ... وفـدَّوكَ منهـم بالـنـفـوسِ وذَوَّبـوا
وخـاطُوا عليك الجَفنَ خوفاً من الأذى ... إلـيـك على أهـدابهـا يَتسـرَّب
حنـانَـيـك لا تغضب عليهم بظِنـةٍ ... فَلَلْمـوتُ من سُخْـط المحِبـين أطيَب

لبنان ياخمري وطيبي

بيروت عام ١٩٦١م

«لُبنانُ» ياخمري وطيبي ... هلاّ لَمستِ حُطامَ كوبي
هلاّ رَدَدْتِ لسُهدِها ... عيني، وقلبيَ للوجيب
هلاّ عطفتِ ليَ الصِّبا ... نشوانَ يرفُلُ بالذُّنوب
نزقُ الشبابِ عبدتُه ... وبَرِئتُ من حِلمِ المشيب

* * *

يامن يقايضُني صدى الـ ... ـهمساتِ والسَّمَرِ المُريب
وترصّد الأقمارِ كابـ ... ـن أبي ربيعةَ في المغيب
والكاعبَ الحسناء تسـ ... ـتُرني بِمِفْضَلِها القشيب
وتنابزَ القبلاتِ في ... نجوى كمسترَقِ الدبيب
ويداً تخبّطُ في الهوى ... ويداً تُعابثُ في الجيُوب
يا من يُقايضُني ربيـ ... ـعَ العُمرِ ذا المَرْجِ العشيبِ
بالعبقريَّة كلِّها ... بخُرافة الذهنِ الخصيب
بعُصارة الستينَ تر ... زَحُ بالأديبِ وبالأريب
شيطانَ «غوته» ياربيـ ... ـب الغدرِ والدمِ والحروب
ومُقايضَ السبعينَ بالـ ... ـعشرينَ عن ثمنٍ رهيب
لو جئتَني لوجدتني ... مَحضَ السميعِ المستجيب

* * *

إيهٍ بشارةُ والليا ... لي مثقلاتٌ بالعجيب
متدافعاتٌ بالفُجا ... ءة لايَنينَ من اللُّغوب

«الأخطلُ» الجبّارُ جا ء «الكوفيتينِ» على نجيب
وأبو العلاء على بنا تِ الماء تُحدَى بالجَنوب
وذعرتَ صحراء العرا قِ بموكبِ النارِ المَهيب
بالآلة الخرساء تسـ ـتوري على وهج اللهيب
وأتيتُ «لبنانا» بجا نحتين من رِيحٍ غَضوب
مثلَ المسيح إلى السما ء وقد حُملتُ على صليب

* * *

«أبِشارةُ» «أنذا» لديـ ـكَ محمَّلاً بُرُدَ القلوب
من سُوح دجلةَ والفرا تِ منابتِ المجدِ السليب
أمِّ الشموسِ ومسرح الـ ـدنيا ومنتطحِ الشعوب
من نخله وزيُوته ومن الشَّمال إلى الجَنوب
من دار «هارون» الرشيـ ـد لدارةِ الأدب الحسيب
سِقطُ الندى من شهرزا د لغصن «أندَلُسُ» الرطيب
من «ألفِ ليلتها» لليـ ـلتكَ الغريقةِ بالطيوب
من لحنِ «زريابٍ» و«إسـ ـحقٍ» على شَفتي «غَريب»

* * *

لُبنانُ ياخمري وطيبي لا لامستكِ يدُ الخطوب
لبنانِ ياغُرفَ الجنا ن الناضحات بكلِّ طيب
متناثراتٍ في المشا رفِ والأباطحِ والدروب
سرّحتُ طرفي في نسيـ ـج الله والصنعِ العجيب
في السفح، في قِمم الثرى في البحر، في خُضْر السُهوب
فجَهِلْتُ أيّاً أنتقي من حسن أشتاتٍ ضُروب
لطفَ السِوارِ بكِ الخضيبِ أم لُطفَ معصمِك الذهيب

* * *

لُبنانُ يا وطني إذا حُلِّئتُ عن وطني الحبيب
أبِشارةُ وبأيما شكوى أهزُّكَ ياحبيبي؟

شكوى القريب إلى القريـ ـب أم الغريب إلى الغريب؟
هل صكّ سمعك أنني من رافديَّ بلا نصيب
في كُربةٍ وأنا الفتى الـ ـمتراحُ فرّاجُ الكروب
أنا «عروةُ الوردي» رمـ ـزُ مروءةِ العَرَبِ العريب
وزّعت جسميَ في الجسو مِ ومهجتي بين القلوب

أنتم فكرتي

نظمت عام ١٩٦١ في براغ

أنتمُ فكرتي، ومنكمْ نشيدي ... وبكم يستقيمُ لحني وعُودي
أنا طيرُ الصَّباح يُزعجني الليـ ... ـلُ ويحلو بسَحْرةٍ تغريدي
ربَّ ليلٍ سهرتُهُ أرقُبُ النجـ ... ـم بعين المدلَّةِ المعمود
كلّما مرَّتِ الهمومُ على أعـ ... ـقاب أخرى، أعدتُها من جديد
أتحرّى بؤسَ الملايين ضيمت ... برُواقيْ جَناحِه الممدود
كنتُمُ فجرَه المرجّى وكانت ... من تباشيرِكُمْ عُيونُ قصيدي

*　*　*

خالدٌ يومُكم، وكم قد دفعتم ... ثمناً غالياً لهذا الخلود

*　*　*

كم طريقٍ معبَّدٍ بدماء ... لشهيدٍ على عظام شهيد
كم رؤوسٍ هوت لرأسٍ شَموخٍ ... ونُفوسٍ شقت لأجل سعيد

*　*　*

ياشباب الدُنا وأنتم قضاتي ... في شَكاةٍ تطغى، وأنتم شُهودي
أنا في عِزَّةٍ هنا غيرَ أني ... في فؤادي ينِزُّ جرحُ الشريد
لي عِتاب على بلادي شديدٌ ... وعلى الأقربينَ جدُّ شديد
أفصقرٌ طريدةٌ لغُراب ... ونبيغٌ ضحيةٌ لبليد
يا لبغداد حينَ ينتصِفُ التأريخ من كلِّ ناكرٍ وجَحود
جَحَدتهُ فعاش أيَّ ضنيكٍ ... ورمته فعاش أيَّ طريد
يستقي من دمِ الفؤاد جريحاً ... ويغذّي جِراحه بالصديد
بخِلَتْ أن تُفيّءَ الظلَّ منه ... وحنت فوق كلِّ وغدٍ وغيد

يادجلة الخير

براغ عام ١٩٦٢م

حَيّيتُ سفحَكِ عن بُعْدٍ فحييني ... يادجلةَ الخيرِ، يا أمَّ البساتينِ
حييتُ سفحَكِ ظمآناً ألوذُ به ... لوذَ الحمائمِ بين الماء والطين
يادجلةَ الخيرِ يانبعاً أفارقُهُ ... على الكراهةِ بين الحِينِ والحين
إنّي وردتُ عُيونَ الماء صافيةً ... نَبْعاً فنبعاً فما كانت لتَرْويني
وأنتَ ياقارَباً تَلْوي الرياحُ بهِ ... لَيَّ النسائمِ أطرافَ الأفانين
ودِدتُ ذاك الشِراعَ الرخص لو كفني ... يُحاكُ منه غَداةَ البَينِ يَطويني
يادجلةَ الخيرِ: قد هانت مطامُحنا ... حتى لأدنى طِماحٍ غيرُ مضمون
أتَضْمنين مَقيلاً لي سَواسيةً ... بين الحشائشِ أوبين الرياحين؟
خِلْواً من الهمِّ إلاّ همَّ خافقةٍ ... بينَ الجوانحِ أعنيها وتَعنيني
تَهُزُّني فأُجاريها فتدفعُني ... كالريحِ تُعجِلُ في دفعِ الطواحين

* * *

يادجلةَ الخيرِ: ياأطيافَ ساحرةٍ ... يا خمرَ خابيةٍ في ظلِّ عُرْجون
ياسكتةَ الموتِ، ياإعصارَ زوبعةٍ ... ياخنجرَ الغدرِ، ياأغصانَ زيتون
ياأمَّ بغدادَ، من ظَرفٍ، ومن غَنَجٍ ... مشى التبغدُدُ حتى في الدهاقين
ياأمَّ تلك التي من «ألفِ ليلتِها» ... للآن يعبقُ عِطرٌ في التلاحين
يامُستَجمَّ «النُّوّاسيِّ» الذي لبستْ ... به الحضارةُ ثوباً وشيَ «هارون»
الغاسلِ الهمَّ في ثغرٍ، وفي حَبَبٍ ... والمُلبسِ العقلَ أزياءَ المجانين
والساحبِ يأباه الزقَّ ويُكرهُهُ ... والمُنفِقِ اليومَ يُفدى بالثلاثين
والراهنِ السابريَّ الخزَّ في قدحٍ ... والملهمِ الفنَّ من لهوٍ أفانين

والمُسْمعِ الـدهـرَ، والدنيا، وساكنَها … قـرْعَ النـواقيسِ في عيـدِ الشعـانـين

* * *

يادجـلةَ الخــير: مايُغليـكِ من حَنقٍ … يُغـلي فؤادي: ومـايُشجيـكِ يشجيني

ما إن تزالَ سِيــاطُ الــبـغي ناقعــةً … في مائِــكِ الطُهْــرِ بين الحـين والحـين

يادجلةَ الخير: أدري بالذي طفحت … به مجاريــك من فوقٍ إلــى دون

أدري على أيِّ قيثــارٍ قد انفجــرت … أنغــامُــكِ السُمر عن أنّـات محزون

أدري بأنــك مِن ألـفٍ مضـتْ هَدَراً … للآن تَهْزيـن من حكم الســلاطـين

* * *

يادجلةَ الخــير: والــدنيــا مُفـارِقَـةٌ … وأيُّ شرٍّ بخــيرٍ غيرُ مقــرون

وأيُّ خيرٍ بلا شرٍّ يُلَقِّحــه … طهـرُ المـلائـك من رجس الشيـاطين

يادجلة الخــيرِ: كم مِن كنـز موهِبـةٍ … لديـك في «القُمقُم» المسحـورِ مخزون

لعـلَّ تلك العفـاريتَ التي احتُجزتْ … مُحَمَّــلاتٌ على أكـتــاف «دُلفــين»

لعــزْ ،مــاً عصــوفــاً جارفاً عَرِماً … آتٍ فترْضيــك عقبــاه وتــرضيني

* * *

يادجلةَ الخـير: من كل الألى خبَرِوا … بلوايَ لم ألـفِ حتــى من يواسيـني

يادجلةِ الخــير: خلِّي المـوجَ مُرتفعـ … طيفــاً يمـرُّ وإن بعضَ الأحــاديــن

وحمِّليــه بحيــثُ الـثلجُ يغمــرني … دفء «الكوانين» أو عطر «التشارين»

* * *

واهــاً لنفسيَ من جمعِ النقيضِ بها … نقـيـضَــه جمْعَ تحريــكٍ وتـسـكـين

جنبــاً إلـى جنب آلامٍ أُقطِّـفُـهــا … قَطْفَ الجيــاع جَنى اللّذّاتِ يزهـوني

وأركـبُ الهــوْلَ في ريـعــان مأمـنَـةٍ … حبُّ الحيــاة بحبِّ المـوتِ يُغـريني

غُولاً تسـنَّـمـتُ لم أسألْ أكــارعَــه … إلى الهُوَى، أمْ على الواحات تـرميني

ومــا البُطــولاتُ إعجـازٌ وإنْ قنِعت … نفسُ الجبــانِ عن العليــاء بالهُــون

وإنّــما هي صفــوٌ منْ مُمارَسَــةٍ … للطــارئــاتِ، وإمـعــانٍ، وتمــرين

لايُـولَـدُ المَـرء لاهِـراً ولا سَبِعـاً لكـن عصـارةَ تجريـبٍ وتـلقـين

* * *

يادجلةَ الخـير: شكوى أمْرُها عجبٌ إنَّ الـذي جئت أشكـو منـه يشكوني
ماذا صنعـتُ بنـفسـي قد أحَقْتُ بها مالم يُحُقْـهُ بـ «رومـا» عسفُ «نيرون»
ألـزمتهـا الجِدَّ حيثُ النـاسُ هازلـةٌ والهـزلَ في موقـفٍ بالجـدِّ مقـرون

* * *

يادجلةَ الخـير: هل في الشكِّ منجلياً حقيـقـةٌ دون تلميـحٍ وتخمـين؟
أم خولطـت فيـه أوهـامٌ وأخـيـلةٌ كما تخالطـت الألـوانُ في الجُـون
أقـول: ليت كفـافـاً والكفـافُ به رُحبُ الحيـاةِ، وأقـواتُ المساجـين
أقـولهُـنَّ وعـنـدي علمُ ذي ثِقـةٍ أنْ ليس يُؤخَـذَ علمٌ بالأظـانـين
وإنـما هي نفسٌ همٌّ صاحـبـهـا أنْ لا تُصـدِّقَ مـرحـوضَ البراهـين
لم يوهـب الـفكـرُ قانـونـاً يُحصِّنـه من الظنـونِ، ومن سُخف القـوانـين

* * *

يانـازحَ الـدارَ ناغِ الـعُـودَ ثانيـةً وجُسَّ أوتـارهُ بالـرِفْـقِ والـلين
لعـلَّ نجـوى تُداوي حرَّ أفئـدة فيهـا الحـزازاتُ تَغـلي كالبراكـين

* * *

ويـاضـجـيعيَ كرىً أعمى يلفُّهـما لفَّ الحـبيـبـين في مطـمـورةٍ دُون
حسبي وحسبُكـما من فرقـةٍ وجـوىً بلا عجٍ ضَرمٍ كالجـمـرِ يكـويـني
لم أعْـدُ أبـوابَ ستـينٍ، وأحـسبني همّـاً وقفتُ عـلى أبـواب تسعـين
ياصـاحـبيَّ إذا أبصـرت طيفَكـما يمـشـي إليَّ على مَهـلٍ يحيـيـني
أطـبقتُ جَفنـاً على جَفنٍ لأبصُـرَه حتـى كأنَّ بريـقَ المـوتِ يُعشـيـني
إنّي شَمِـمـتُ ثرىً عفـنـاً يضمُّكـما وفي لُهـاثـيَ مـنـه عِـطرُ «دارين»
لقـد وَددْتُ وأسـرابُ المنـى خُدع لو تَسـلمان وأنّ المـوت يطـويـني
قد مِتُّ سبعـينَ موتـاً بعـد يومِكـما ياذلَّ من يشـتـري موتـاً بسـبعـين
لم أقـوَ صبراً على شجـوٍ يرمِّضـني حرَّانَ في قفصِ الأضـلاع مسجـون

تصعدتْ آهِ من تلقاء فطرتها — وأردفت آهةٌ أخرى بآمين
ودبَّ في القلبِ من تاموره ضرمٌ — ماانفكَّ يُثلج صدري حين يُصليني

أيها الأرق

نظمت في براغ

مرحبـا: يا أيهـا الأرقُ فُرشت أُنسـاً لكَ الحَـدَقُ
لكَ من عيـنيَّ منطـلقٌ إذ عُيـونُ النـاس تنطبِـق
لكَ زادٌ عنـديَ القـلقُ واليَراعُ النِّضـوُ والـورقُ
ورؤىً في حانـةِ القـدَرِ
عُتِّـقـتْ خمراً لمعـتصـرِ

* * *

مرحبـاً: يا أيهـا الأرقُ فـحمـةُ الديجـورِ تحـترقُ
والنُّجـومُ الزُّهـرُ تفـترقُ فـجـرً السـابـخ الغَـرقُ
شفَّ ثوبٌ للدُّجـى خَلَقُ وخـلا من لؤلؤٍ طبَـقُ
ومشـى صبحٌ على خَذَرِ
كغـريـبٍ آبَ من سفـرِ

* * *

أنـا عنـدي من الأسـى جبـلُ يتـمـشّـى معـي ويـنـتـقـلُ
أنـا عنـدي وإن خبـا أمـلُ جذوةٌ في الـفؤادِ تشـتـعـلُ
إنـما الـفـكـرُ، عارمـاً، بَطَـلُ أبـد الآبـديـن يَـقـتـتـلُ
قائـدٌ مُلهـمٌ بلا نفـرِ
حُسـرتْ عنـه رايـةُ الظَّـفـرِ

ياندِيمي

نظمت في براغ ١٩٦١

ياندِيمي: إنَّ الدجى وضَحا ... والهزازَ الغافي هناك.. صحا
ياندِيمي: وصُبَّ لي قَدَحا ... ألِسُ الحزنَ فيه والفَرَحا
وأرى: مِن خِلالِهِ شَبَحا ... من نِثارِ الهمِّ الذي طَفَحا
في شبابٍ مَضيَّعٍ هَدرِ
مثلَ عُودٍ خاوٍ بلا وتَرِ

* * *

ياندِيمي: وصُبَّ لي قدحا ... وأعرني حديثَك المرحا
ياندِيمي: وأمسِ رأدَ ضُحى ... قلتَ لي قولَ مُشفِقٍ نَصَحا
ماعلينا! أبارِحُ سنحا ... أمْ سنيحٌ بقفرةٍ برَحا
أفنحنُ الحُداةُ للبشرِ؟
أم رعاةُ الأغنامِ والبقرِ؟
ياندِيمي: وَوقني بلدا ... عَقُمَ الخيرُ فيه أن يَلدا
هو جرْعانُ، متخَمٌ حَردَا ... وهو عُريانُ، مكتسٍ عُقَدا
وهو إذ صِيغَ أهلُه بَددا ... يَكرهُ الخلقَ أينما وُجِدا
ياندِيمي؛ وأقصِ عن بصري
بشراً حاقداً على البشرِ

* * *

ياندِيمي: وماهي المُثلُ ... إذ يُساطُ الايمانُ والدَجَلُ
والرِسالاتُ أين؟ والرُسُلُ ... حين يُلوي بهنَّ مُنتحِلُ

يانـديـمـي أصـحَّ مانـقـلوا؟ أم هو الـنُّـجْـحُ كان والـفـشـلُ؟
فلذيّـاكَ باقـةُ الـزَهـرِ
ولهـذا الـشُّـواظُ من سـقـرِ

* * *

يانـديـمي : أمسِ اقتنصتُ طريـدا شاعـراً كان يستـضيـفُ البيـدا
كان همّاً وكـان صُلبـاً حديـدا يمـلأ القَفرَ، مُـوحشـاً، تغـريـدا
قلتُ مَن؟ قال: شرطَ أن لاتـزيـدا أنـا أُدعى : «مسـافـراً ويـزيـدا»
من بلادٍ أعَـدتْ عـليّ الـقـرودا
ونَـفَـتـني وكـنـتُ فيـهـا نشـيـدا

* * *

والـسُّـراةُ «المـبـغـدَدون» كِثـارُ ألـفُ دارٍ لهـم هـنـاك ودارُ
كم كؤوسٍ بها تشـهّـوا تُدارُ ونعـوتٍ، ليست لهم، تُستـعـارُ
كلُّ بيـتٍ للمُـتـرفـين مَزارُ بدمِ الخـلقِ لابـزيـتٍ يُـنـارُ
كم بها يبـتـدعـنَ من صُوَرِ
في حروفِ الهـجـاء من عِبرِ؟

* * *

يانـديـمي : لك الـنصيحـةُ مني ليس لي في نصيحتي مـا أغِـلُّ
خُذْ بعُـرس الـقُـرود دفـاً وغـنِّ وقـلِ الأهـلُ أنـتـمُ والمـحـلُّ!
صِيـدُ إنسٍ أنـتـم وأقـيـالُ جنِّ «جـنَّـةُ الخـلد» دون قـردٍ تُمـلُّ!
لا تـبـالي مـن يُجـتـوى أو يُـبـلُّ
ماتمـشّـى منـكـم على الأرض ظلُّ

* * *

يانـديمي : أمسِ استمعتُ هُتـافـا من بعيـدٍ . . من غابـرات القـرونِ
أنْ كُن المـرء لايهـابُ مَطـافـا لنـجـاء مشـى به أو كمـينِ

إنّ «سُقراطَ» فاقَ سُمّاً ذُعافا   ليرى الفكرَ فوقَ رَيبِ الظُنون

يا نديمي : ورغمَ كرٍّ السنين

ظَلَّ «سُقراطُ» فوقَ ريبِ المَنون

* * *

حييتهن بعيدهن

نظمت في براغ عام ١٩٦٢ وألقيت في الحفل النسائي العراقي بمناسبة عيد المرأة العالمي.

حيَّيتهُنَّ بعيدِهنّه   من بيضهنَّ وسُودهنّه
وجِدتُ شعريَ أن يرو   حَ قلائداً لعُقودهنّه
نَغَمُ القصيدِ قبسته   من نغمةٍ لوليدهِنّه
كم بسمةٍ ليَ لم تكن   لولا افترارُ نَضيدهنّه
ويتيمةٍ ليَ صِغتها   من دمعةٍ بخدودهنّه

* * *

إنا وكلٌّ جهودنا   للخير رهنُ جُهودِهنّه
وحدودُ طاقات الرجا   لِ لصيقةٌ بحدودِهنّه
وصمودُنا في النائبا   تِ مَردُّه لصمودهنّه
بنُحوسهنَّ نحوسُنا   وسعودُنا بسعودهنّه
التضحياتُ الغرُّ صنـ   ـعُ شُموخهن وجُودهنّه

* * *

قالوا «الشهيدُ» فقلت: ويـ   ـحَ ثواكلٍ بوحيدهنّه
حمَلنه تِسعاً وخِطـ   ـنَ عليه سُمرَ جلودهنّه
حتى إذا ماردّت الـ   آمالُ بعضَ شُرودهنّه
أوجدْنَه وفدَينه   خوفَ الردى بوُجُودهنّه
واليومَ جيرةُ لَحده   يحفِرنَ سُودَ لُحودهنّه
قالوا: أما شيء لديـ   ـكَ لرَودهنّ وخَودهنّه
فأجبتُهم إني أخا   فُ عليَّ بعضَ شُهودهنّه

للهِ أيَّةُ رِقَّةٍ وقساوةٍ في عوْدهنّه
عمّرننا بجهودهنّه وهدمننا بصُدودهنّه
أنا أختشي منهنَّ فالسلطانُ عبدُ عبيدهنّه
كم فتنةٍ لقديمهنّ ورثنها بجديدهنّه
الموت لِصقُ جُلودهنّه والنارُ تحت جَليدهنّه
ومَصارعُ الأبطال في التاريخ خدنُ مهودهنّه

ياغريب الدار

نظمت في براغ عام ١٩٦٢م

من لِهَمٍّ لا يُجارى ولآهاتٍ حَيارى
ولمطويٍّ على الجمـ ـرِ سِراراً وجِهارا
مَنْ لناء عاف أهلاً وصِحاباً، وديارا
تَخِذَ الغربة دارا إذ رأى الذلَّ إسارا
إذ رأى العيشَ مدارا ةَ زنيمٍ لا يُدارا
من لمطلول دمٍ مثل دمِ العبد جُبارا

* * *

ياغريبَ الدار لم يُخْـ ـلِ من البهجةِ دارا
لم يدعْ طيفاً يواسي مقلةً إلاّ أزارا
يمنح الشجوَ الثكالى وشذا الحبِّ العَذارى
يانديماً يعصر الخمـ ـرةَ ليلاً ونهارا
ويُساقي من دمِ القلـ ـبِ أخا الهمِّ عُقارا
تأخذ النشوةَ منه ثم تنساهُ السُكارى

* * *

ياغريبَ الدارِ لم تَكْـ ـفَلْ له الأوطانُ دارا
يا «لبغدادَ» من التا ريخِ هُزءاً واحتقارا
عندما يرفع عن ضيـ ـمٍ أنالتهُ السِتارا

* * *

ياغريبَ الدارِ يا من ضربَ البِيدَ قِمارا

ليس عاراً أنْ تَوَلّي من مسـفّـينَ فِرارا
تُطـمِـعُ الـعـاصِـفَ فيـه رقّـةُ الـنـبـع اخـضـرارا

* * *

ياغـريـبَ الـدارِ في قـافـلـةٍ سـارت وسـارا
سامـحِ الـقـومَ انـتـصـافـاً واخـتـلِق منـك اعـتـذارا
علّهـم مِثـلَكَ في مُفـترَقِ الـدربِ حَيـارى
سِرْ وايـاهـم على دربِ المـشـقـاتِ سِفـارا

بريد الغربة

نظمت عام ١٩٦٥ ببراغ

لقد أسرى بيَ الأجلُ ... وطول مسيرةٍ مَللُ
وطول مسيرةٍ من دو ... ن غايٍ مطمعٌ خَجِلُ

* * *

أقول وربما قولٍ ... يُدَلُّ به ويُبتَهِلُ
ألا هل ترجِعُ الأحلا ... مُ ماكُحِلَتْ به المُقلُ
وهل ينجابُ عن عينيًّ ... ليلٌ مطبقٌ أزل
كأن نجومَه الأحجا ... رُ في الشطرنج تنتقل
يُساقط بعضُها بعضاً ... فما تنفكُّ تقتتل
ألا هل قاطعٌ يصلُ ... لما عيَّت به الرُسُل

* * *

ويا أحبابيَ الأغليـ ... ـنَ من قطعوا ومَن وصلوا
ومن هم نُخبةُ اللذّا ... تِ عندي حين تُنتَخَل
هُمُ إذ كلُّ مَن صافيـ ... ـتُ مدخولٌ ومُنتَحَل
سلاماً كلُّهُ قُبَلُ ... كأن صميمَها شُعَل
وشوقاً من غريب الدا ... رِ أعيَتْ دونهُ السُبُل
مقيمٍ حيثُ يضطرب الـ ... ـمنى والسعيُ والفشل
وحيثُ يُعاركُ البلوى ... فتلويه ويعتدل

* * *

سلاماً من أخي دَنَفٍ ... تَناهتْ عنده العِلل

وحـيـدٍ غيرَ ما شَجَـنٍ بلوحِ الـصـدرِ يعـتـمـل
وذكـرى مُرّةٍ حلِيـت بها أيـامُـهُ الأُول
وحـيـدٍ بالـذي غنّـى وسـاقـى يُضـرب المـثـل
وفـيـما قال من حَسَـنٍ وسَـيء يَكـثُـرُ الجـدل

بائعة السمك في بَراغ

نظمت عام ١٩٦٥ في براغ .

وذاتَ غَداةٍ وقـد أوجـفـتْ بـنـا شهـوةُ الجـائـعِ الحـائـرِ
دَلَـفـنـا لـ «حـانـوتِ» سمّاكـةٍ نُـزَوَّدُ بـالـسمـكِ «الـكـابـري»
فلاحـتْ لنـا حلوةُ المُـجـتـلى تَـلَفَّـتُ كـالـرشـأ الـنـافـر
تَشُـدُّ الحِـزامَ على بانـةٍ وتـفْـتَرُّ عن قمـرٍ زاهـر
من «الجيـك» حسـبُـكَ من فتنـةٍ تـضيـقُ بهـا رُقيـةُ الـسـاحـر
فقـلنـا: عليـنـا ـ جُعِلنـا فداكِ بها اختـرتِ من صيـدِكِ الـنـادر
فجـاءت بمـمـكـورةٍ بضـةٍ لـعـوب كـذي خـبـرةٍ مـاكـر
تُنـفِّضُ بالـذيـلِ عِطـرَ الـصِبـا وتخـدع بالـنظـرِ الخـازر
تكـادُ تقـولُ: أمـثـلي تموتُ . . ؟ لُعِـنـتَ ابـنَ آدمَ من جائـر
أمـا في الـصِبـا ليَ من شافـعٍ . . ؟ أمـا لابـنـةِ «الجيـك» من زاجـر؟
أمـا ليَ من عودةٍ تُرتجى لمسـبـحِ أتـرابـيَ الـزاخـر؟

* * *

وأهْـوَتْ عليـهـا بسـاطـورِهـا فـيـالـكِ مـن جُـؤذرٍ جـازر
وثـنَّـتْ . . فشبَّـتْ عروسُ الـبحـارِ وقَـرَّتْ على الجـانـبِ الآخـر
فقـلنـا لها: يابـنـة الأجمـليـ ـنَ مـن كـلِّ بـادٍ ومـن حـاضرِ
ويـاخـيرَ من لقـنَ المـلحـديـ ـنَ دلـيـلاً على قُدرةِ الـقـادر
جمالُـكِ، والـرقـةُ المـزدهـا ةُ خصمـانِ للذابـحِ الـنـاحـر
وكـفُّـكِ صيـغَـتْ للثم الشّفـاه ولـيـسـت لهذا الـدمِ الخـائـر

فقـالــت: أجـل أنـا ما تنظـرانِ وإن شقَّ ذاك على الـنـاظـر
تعـلَّمــتُ من جفـوةِ الهـاجـرِ! ومِــن قسـوةِ الـرجـل الـغـادرِ!

الخطوب الخلاقة

نظمت غداة حرب حزيران عام ١٩٦٧م

دعِ الطوارقَ كالأتون تحتدِمُ وخلِّها كحبيكِ النَسيجِ تلتَحمُ
وخذ مكانك منها غيرَ مكترث دَهْدَى بك الموجُ أو علَتْ بك القِمَم
تَعَسَّرَ الصبحُ واستعصت ولادتهُ حتى تشابكت الأنوارُ والظُلَم
خُضِ الكوارثَ لانِكْساً ولاجَزِعاً واترُكْ إلى الغيب ما يجري به القلم
لو كانَ يُضمَنُ نصرٌ قبل موعِده لكان أرخصَ مافي الأنفُسِ الهِمَم

*   *   *

قالوا أتت أزمةٌ جُلّى فقلتُ لهم أهلاً وسهلاً فنِعمَ الطارقُ الأزَم

*   *   *

ويا «أبا خالدٍ» إنْ يلتهِبْ بفمي قولٌ، فأنّي لكل الثائرين فَم
يا ناصر الأمّةِ الكُبرى وحاضنَها لاالعُجْب يملأ برديه، ولا البَرَم
ناشدْتُك العُروةَ الوُثْقى بها انتفَضتْ به الشُعوبُ، ومااهتزّت به الأُمم
أنقِذْ فلسطينَ مَردوداً بها حَرَمُ على ذويه، ومركوزاً بها عَلَم

أطياف وأشباح

نظمت عام ١٩٦٧م

سَهِرتُ وطالَ شوقي للعراقِ — وهلْ يَدنو بعيدٌ باشتياقِ
وهل يُدنيكَ أنكَ غيرُ سالٍ — هواكَ وأنّ جفنَكَ غيرُ راقي

*　*　*

أحبتيَ الذين بها أُمَنّي — بلُقياهُمْ أهَوِّنُ ما أُلاقي
أرى الدنيا بِهِم فاذا تَخَلّوا — فهُمْ دنيايَ تؤذِنُ بافتراق
سلاماً كالمُدامَةِ في اصطفاق — ودغدغةِ النسيمِ على ارتفاق
وإنّي والشَجاعةُ فيَّ طبعٌ — جَبانٌ في مُنازلةِ الفِراق
ولي نَفسانِ طائرةٌ شعاعاً — وأخرى تَستَهينُ بما تُلاقي
أقولُ لها وقَد خدِرتْ ولانَتْ — تحدَّيْ من يُريدُكِ أن تُعاقي
وشدّي من حنانك للرّزايا — وسوقيه لهُنَّ. ولا تُساقي
فَلا مَنْ خاضَها كُرْهاً بناجٍ — ولا مَنْ خافَها جُبناً بباقي

*　*　*

حَلَفتُ بمن أسألَ الشعرَ نبعاً — لِرقَّتهِ، ولحناً في السواقي
ومَنْ سوّاهُ زغردةً هتوفاً — على شَفَةٍ، ودَمعاً في المآقي
صُبَبْتُ على العُتاةِ شُواظ نارٍ — تعود بها الصفاة إلى احتراق
ونَفَّضتُ السوادَ على وُجوهٍ — مُصَبَّغَةِ اللُحى بدمٍ مُراق
مُشَهرةٍ باسلافٍ مواضٍ — ومُخزيةٍ لأخلافٍ بواقي
وكانَ الموتَ في أجَلٍ مُتاحٍ — وكُنّ الموتَ في أجَلٍ معاق

براغ أو حوار

نظمت عام ١٩٦٨ في براغ.

أطلتِ الشوطَ من عُمْري أطالَ اللّهُ من عُمرك
ولا بُلِّغتُ بالشرِّ ولا بالسوء من خبرك
حسوتُ الخمرَ من نَهرك وذُقتُ الحلوَ من ثَمرك
وغنّتني صوادحُكِ. النّشاوى من ندى سَحَرك
كِلا حاليكِ عِشتُهما قريرَ العين في سرُرك
ففي الامساء من خَفَرك وفي الاصباح من خدرك
كأنّ تنابُزَ القُبلا ت خفقٌ من صدى سَمَرك

* * *

ألا يامزهر الخُلدِ تغنّى الدهرُ في وَتَرك
ويا أُمثولةَ اللطفِ مشتْ دنيا على أثَرك
ذكا في تُربك العِطْرُ وبثَّ السحرُ في حَجَرك
فلو صيغت دُناً أخرى لما كانتْ سِوى كِسَرك
ولو أنّ المنى خمرٌ لكانت سؤرَ مُعتصَرك
ولو صُوِّرتِ كان الخلْـ ـقُ والابداع من أُطُرك
وقائلةٍ: لقد غالَت دعاةُ السوء في ضَجَرك
وأنَّكَ تَنشُد الدنيا مُنزَّلةً على فِكَرك
وأطباعُ الورى حُلَلاً موشّاةً على قَدَرك
وأنّكَ في التطامُنِ تنـ ـقض المأثورَ عن خَطَرك
تخاف «النارُ» من شررك وتنبو العينُ عن خَورك

وتُـعـيـي الـفـكـرَ مرقـاتُـك | انْ قيـسـت بمُـنـحـدَرك
جرى مَثَـلٌ بمـصطَـبرِكْ | وآخـرُ سارَ في بَطَـرك
وهـذا أنـت منـسـجـمٌ | مع الألـوانِ في صُوَرِك
رضـيٌّ الـبـال في حِلّـ | ـكَ حلوُ الـسـجـعِ في سَفَـرك
أحَـرُّ من الـصَـبـا وهَـجـاً | ثليـجُ الـشـيـب في شَعـرِك
وألطـف من سنـا صفـ | ـوِ شفـيـفُ الـغـيـمِ من كدرك
أقـول لها: وهـل وَطَـري | فُديـتِ - ينـالَ من وطـرك؟
أورِدُكِ كانَ عن صَدَري؟ | أوِردي كـانَ عـن صَـدَرك؟
أنـفـعُـكِ كانَ من ضررَي؟ | أنـفـعـي كانَ من ضَرَرك؟
مشَـيـتُ على خُطـى عِبرَي | فظَـلّى أنـتِ في عِبرَك
أذنـبـي أنّ مُختَـبرِي | هداني غيرَ مُختَـبرِك؟
وأنّي عِشـتُ مجتَـمَـعـاً | أمـنـتُ به.. على حَذَرِك؟
لقـد نقّـلتُ من نَظَـري | فجـاء بغـير مانظـرِك
هلُمّـي خالطـي بَشَـري | تفـرِّي أنـت من بَشَـرك

الفداء والدم

ألقيت في الحفل الذي أقامته المنظمات الفدائية ببغداد احياء لذكرى الفدائي الشهيد «صبحي ياسين» في قاعة الشعب خريف عام ١٩٦٨م .

جلَّ الفداء وجلَّ الخُلدُ صاحبُهُ : ضاق الفضاء وماضاقت مذاهبُهُ
لونٌ من الخَلقِ والابداع يُحسِنُهُ خَلقٌ تُصاغ جديداتٍ رغائبه
وذِروةٌ من سماحٍ لاكِفاء لها إلا مَطامحَ من عزّت مَطالبه
في الفَدْي من جبروتِ الليل رهبتُه وعنده من ضحاياهُ كواكبه
يتلوه رأدُ الضحى شَفْعاً وتقدمه من روعةِ الفجر زحّافاً مَواكبه
جلَّ الفداء وإن ضجّت مآتمُهُ على الشهيد وإن رَنَّت نوادبه
إنَّ الزَّمازمَ في الدنيا لمصرعِهِ صَدى الزمازِم صبّتها كتائبه
جلَّ الفداء فما ينفكُّ مَآربةً لكلِّ مستبسلٍ أعْيَتْ مآربه
وبُورك الدَّربُ مسحوراً يتيهُ به نِكسٌ، ويحتضن الصنديدَ لاحبهُ
دربُ الخلودِ بلَيلاتٌ لوافحُه على الفُداةِ وجنّاتٌ سباسبه
حوى النضالَ فسيحاً مابه غلَقٌ ولا بمائعةٍ رِخواً رحائبه
على خَفافَيْهِ من شعبٍ مصائِرهُ وبين جنبيه من أمرٍ عواقبه
من عهد آدمَ والدنيا تلوذُ به تُعلي مرافهها الجلَّى متاعبه
* * *

غادى ثراكَ ابنَ «ياسين» وراوَحَه من الغَمام مُلثٌّ القَطر صائبه
صنعُ السماء وعند الأرض صَنعتُها دمُ الشباب مُلِثّاتٌ سحائبه
يَسقي ضريحَك لايَنْفَكُّ دائبُه عن الضجيج، ولا يصطلكَ ذائبه
سبحانَ من بدّل الدنيا وساكنَها لقد مَشَتْ خَبَباً فينا عجائبه

كان الكريمُ يوفّي النّذر منتحياً ... قبرَ الكريم عقيرات نجائبه
تَصاعَدَتْ هِمَمٌ للفَدي واستبقت ... مراتبَ النّفرِ الفادي مراتبه
وفّى لأمته نذراً، مفجّرةً ... نحورَه، وخضيباتٍ، ترائبه

*   *   *

ويا صحابةَ «صبحي» جهّزوا زُمراً ... منكم إلى الملأ الأعلى تصاحبه
غُرُّ الفراديسِ مَلقى كلِّ ذي شرفٍ ... طهرُ الملائكِ أرْحامٌ تناسبه
غرُّ الجباهِ على الغَبراء تُسرجها ... مَرْجُ المروءاتِ ضوّته حُبابه
تسربلوا رملةَ الوادي يحنّطُهُمْ ... نسيمُه، وتُواريهم مساحبه
وأسلموا حشرجاتٍ جدّ هانئةٍ ... إنّ الذي وهبوه الجرحَ عاصبه
ونفّض الرعبَ عن أجفان محتضرٍ ... ظلٌّ لواحةِ زَيْتونٍ يداعبه
ولمحُ «بيّارةٍ» لم يدنُ رائعُه ... حتى انثنى كرفيف الموتِ شاحبه
ياروعةَ البحر قد جاشت غواربه ... من بعدما لانَ واندلحت جوانبه

*   *   *

تفجّرت جنباتُ الليل عن نَغَمٍ ... خلوٍ كرجعِ صدى الأحلام ثائبه
ناغى «بفتحٍ» و«تحرير» و«عاصفة» ... كما تُناغي أخا وجدٍ حبائبه
مرحى شبابَ فلسطينٍ به مرحٌ ... مع الردى فهو ساقيه وشاربه
مرحى لمستَبِقينَ الدهرَ أزعجهم ... مِطالُه وأقلّتْهُم ركائبه
يَلوي ظُنُونَهم شهرٌ وقابلُهُ ... ويمتري صبرَهم عامٌ وعاقبه
مسمّرين على وعدٍ بلا كَنَفٍ ... من ضامنيه، ولاحولٍ يُصاقبه
مالت به صَهَواتُ اليأس عن أملٍ ... جُبُّ السَنامُ به واجتُثَّ غاربه
كانت حلولٌ وها أنتم فرائسها ... وكان «حلمٌ» وها أنتم ضرائبه

*   *   *

دع مشرقَ الشمسِ للدنيا يُغازلها ... فقد دجتْ عربيّات مَغاربه

أرح ركابك

ألقيت في الحفل التكريمي الذي أقامته وزارة الاعلام العراقية بمناسبة عودة الجواهري الى وطنه في ٣/ ١/ ١٩٦٩ .

أرحْ ركابَك من أينٍ ومن عَثَرِ   كفاك جيلانِ محمولاً على خطرِ
كفاك موحِشُ دربٍ رُحتَ تقطعُهُ   كأنّ مغبرَّه ليلٌ بلا سَحَرِ
ويا أخا الطيرِ في وِرْدٍ وفي صَدَرِ   في كلِّ يومٍ له عُشٌّ على شجرِ
عُريانَ يحملُ مِنقاراً وأجنحةً   أخفُّ مالمّ من زادٍ أخو سَفَرِ
بحسبِ نفسِك ماتعيا النُّفوسُ به   من فرطِ منطلَقٍ أو فرطِ منحدرِ
أناشدٌ أنت حتفاً صنعَ منتحرٍ   أم شابكٌ أنت، مغتراً، يدَ القدرِ
أم راكبٌ متنَ نكباءَ مطوِّحةٍ   ترى بديلاً بها عن ناعمِ السُرُرِ
خفِّضْ جَناحيكَ لاتهزأ بعاصفةٍ   طوى لها النَّسرُ كشحيه فلم يَطِرِ
ألفى له عِبرةً في جؤجؤٍ خضِبٍ   من غيرِه، وجَناحٍ منه منكسرِ

* * *

ياسامرَ الحي بي شوقٌ يرمِّضني   إلى اللّذات، إلى النجوى، إلى السَّمرِ
ياسامرَ الحي بي داءٌ من الضجرِ   عاصاه حتى رنينُ الكأسِ والوترِ
لاأدّعي سهرَ العشاقِ يُشبِعُهُمْ   ياسامرَ الحي بي جوعٌ إلى السَّهرِ
ياسامرَ الحي حتى الهمُّ من دأبٍ   عليه آبٍ إلى ضربٍ من الخدرِ
خلاف ما ابتُدعت للخمرِ من صُورٍ   وجدتها زادَ عجلانٍ ومنتظرِ
كأنَّ في الحَبَبِ المرتجّ مفترقاً   من الطريقِ على ساهٍ ومدّكرِ
ياسامرَ الحي إنّ الدهرَ ذو عجبٍ   أعيت مذاهبُه الجُلّى على الفِكَرِ
كأنّ نُعماه حبلى بأبؤسِهِ   من ساعةِ الصفوِ تأتي ساعةُ الكدرِ

تنـدسُّ في النَّشـوات الحُمسِ عائـذةً   هـذي فتُدركها الأخرى علـى الأثـر
ينـغِّص الـعـيشَ أنّ المـوتَ يُدركـه   فنحـن من ذيـنِ بين النـاب والظُّفـر
والـعـمـرُ كالليـل نحييـه مغـالطـةً   يُشكى من الطـول أو يشكى من القِصـر

*   *   *

ويـا صِحـابي ولـلفصحى حلاوتُهـا   لا تُنكروا نـاقـلاً قمـراً إلى هَجَـر
سبـع توّهمتـهـا سبـعـينَ لاكَـدَراً   لكن لحاجتهـا القصـوى إلى الكَـدر
ناشـدتـكم بعُيـون الشعـر لارَمَـداً   شكت، ولم تكتحـل يومـاً سوى الحَور
هل عنـدكـم خبرٌ عن قرب ملتَـحـمٍ   أو وشْـكِ معـتركٍ أو قرب مشـتـجَـر
فذاك والله عنـدي أصـدقُ الخـبرِ   إنّي أقـايض فيـه الـنـفـعَ بالـضـرر
كم أرصـدُ المـوتَ أدري أنـه رَصَـدٌ   إن كان في المـوت من فخـرٍ لمفـتـخـرِ
سبـحـانَ ربِّـك ربّ المـرء يخلُقُـهُ   صلصـالـةٌ وهـو من نـارٍ ومن شرر
أذنـبُـه أنّـه لو قِيـدَ محتـفظـاً   إلـى الـنـعـيـمِ تخطّـاه إلـى سقـر؟

*   *   *

في «جنَّـة الخلد» طافت بي على الكبر   رؤيـا شبـابٍ، وأحـلامٍ من الصِغَر
مجنَّحـاتُ أحـاسيـسٍ وأخـيـلةٍ   مثـل الفَراشـات في حقـل الصِبا النضِر
أصطـادهـنَّ بزعـمي وهـي لي شركٌ   يصطـادُني بالسنـا واللطفِ والخَفِر
أقتـادهُنَّ إلى حربٍ على الضجـر   فيصْطَلحن على حربي مع الضجـر

*   *   *

يادجلةَ الخـير ماهـانت مطـامحنـا   كـما وَهِمْنـا، ولم نَصْدُقْـكِ في الخبر
ها قد أَقَلْنـا على سفحيـك يؤنسُنـا   لـوذ الحـمائمِ بـين الـطين والنَّهَـر
وعـانَقَتْنـا حِسانُ النخل واصطفقت   جدائـلُ السَّعفِ المُزهـاة لاالشَّعـر
يادجلة الخـير ـ والأيـام تَسْحقُنـا   بين الـبشـائـرِ نرجـوهنَّ والنُـذر
كان الـذي لم نَخَـلْهُ كائنـاً أبـداً   حتـى كأنَّ مصـيراً حُمَّ لم يَصِـر
حتـى كأنّـا مع الأطيـار لم نطِـر   إلى رُبـاكِ، وطيفـاً منـكِ لم يَسِـر
ولا حَلَمْـنـا بنـارٍ منـك تحرقـنـا   في شاهـقٍ بنـديـف الـثلج معتمِـر

رسالة مليحة

براغ ١٩٦٩م

وفَّى لها نَذْراً فوافى ... وسعى بها سبْعاً وطافا
ورمى بها الجمراتِ من ... قلبٍ تعلَّقها شَغافا
ألوى بها والثلجُ يحـ ... ـتضن المشارفَ والجفافا
حتى المسارجُ في الكُوى الـ ... ـخفراتِ يخفُقنَ ارتجافا
وشتا بها وكأنَّه ... لم يشتُ قبلُ، ولا أصافا
متنظِّراً عرسَ الربيـ ... ـعِ لعلَّه يرعى الزِفافا

* * *

آهٍ على «ابن العبدِ» إذ ... يتبرضّ اللهوَ اشتفافا
يهوى «الطرافَ» و«بهكناً» ... بضّاً، وأن يحمي المُضافا
لو عاد لاختصر المسافا ... لدنا، وحبّا، واستضافا
لرأى له وسْطَ الجبا ... لِ الخُضرِ من ثلجٍ طِرافا
لاعتاضَ عن حَلَبِ العصيـ ... ـرِ مشى به عِلجٌ ودافا
حلَباً تقطّرَ من شفا ... ه الغيدِ يُعتَصَرُ انتزافا
وعن «البهاكِن» كلَّ رو ... دٍ تُسرج الليلَ الغُداقا
أ«أبا هُدى» شوقٌ يُلحُّ ... ولاعجٌ يُذكي الشِغافا
شوقَ المُبارحِ لم يغيّره البعادُ، ولا تجافى
يامنتج الدررِ الحِسا ... نِ مَعانياً غُرّاً ظِرافا
يقطرن إبداعاً، وإيـ ... ـثاراً وحبّاً، وانتصافا
نُبئتُ أنّكَ توسع الـ ... أزياءَ عَتّاً، واعتسافا

تقفوا خطى المتأنقا ت كسالكِ الأثر اقتيافا
وتقيس بالأفتار أر دية بحجّةِ أنْ تنافى
ماذا تُنافي؟ بل وما ذا ثمَّ من خلْقٍ يُنافى؟
حوشيتَ، أنت أرقُّ حا شيةً، ولطفاً، وانعطافا
وأشدُّ لِصقاً بالحجى وألدُّ بالعدل اتصافا
أترى العفاف مقاس أقـ ـمشة؟ ظلمتَ إذن عفافا
هو في الضمائر لاتُخا ط ولا تقصُّ، ولا تكافى
من لم يخف عُقبى الضمير فمِن سواه لن يخافا
ياقائدَ الجيش اقتحا ماً والتحاماً، والتفافا
طوِّقْ جهالاتِ الحمى والعنعناتِ به الجُزافا
وتقصَّ كلَّ جذورهنَّ فلا القويَّ، ولا الضعافا
أشبع الحياةَ ولطفها في موطنٍ يشكو الجفافا
وحش من الحرمان لا يُعفي السِمان، ولا العِجافا
عَصَرَ الدماء من الوجو ه وردّها صُفراً، نِحافا
وأشاعَ فيها وحشةً كالليلِ تأبى الإنكشافا
هوت المحاجرُ بالعيو ن كأنَّ فيهن انخسافا

* * *

أ «أبا هدى» قولٌ يخاف، سأدعيه ولن أخافا
إنّي وربَّ صاغهنَ كما اشتهى، هيفاً لطافا
وأدقَّهنَّ وما ونى وأجلَّهن، وأحافا
لأرى الجِنانَ إذا خلت منهن أولى أن تُعافا

ملف

الصور والوثائق

- قبل رحيله -

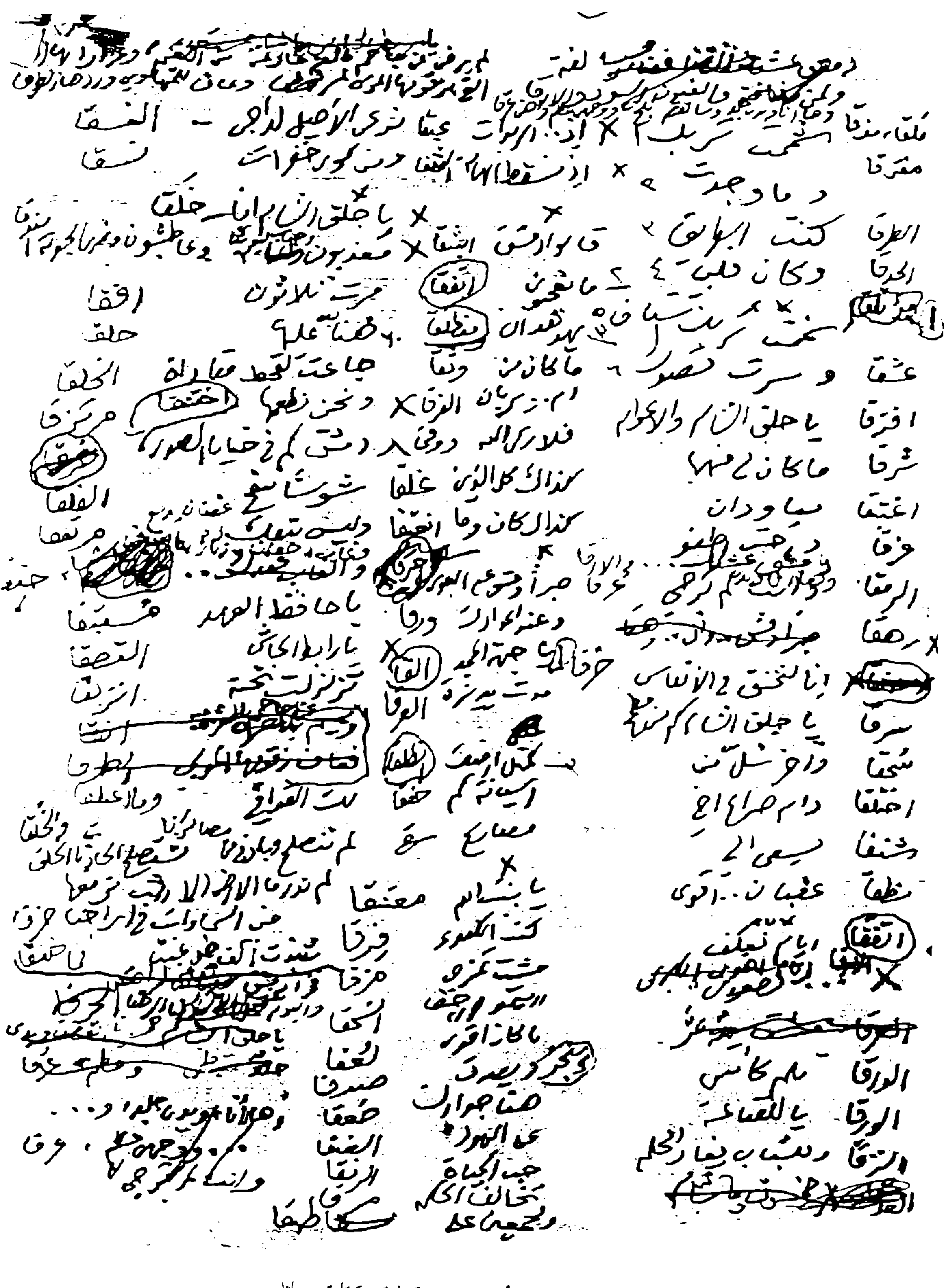

نموذج من خط الجواهري وكيفية كتابة رسائله

الجواهري في صورة تعود لأوائل الثلاثينيات

الشاعر مع مجموعة من الأدباء في بغداد - الخمسينيات أوائل ثورة تموز ، يظهر في الصورة عبد الغني الفكيكي

الجواهري في مؤتمر الأدباء في بغداد

الشاعر مستقبلا جمال الجواهري

يلتقي بالأستاذ مسعود البارزاني

عائدا ولده فرات في المستشفى في دمشق

الجواهري مع السيد وليد جنبلاط

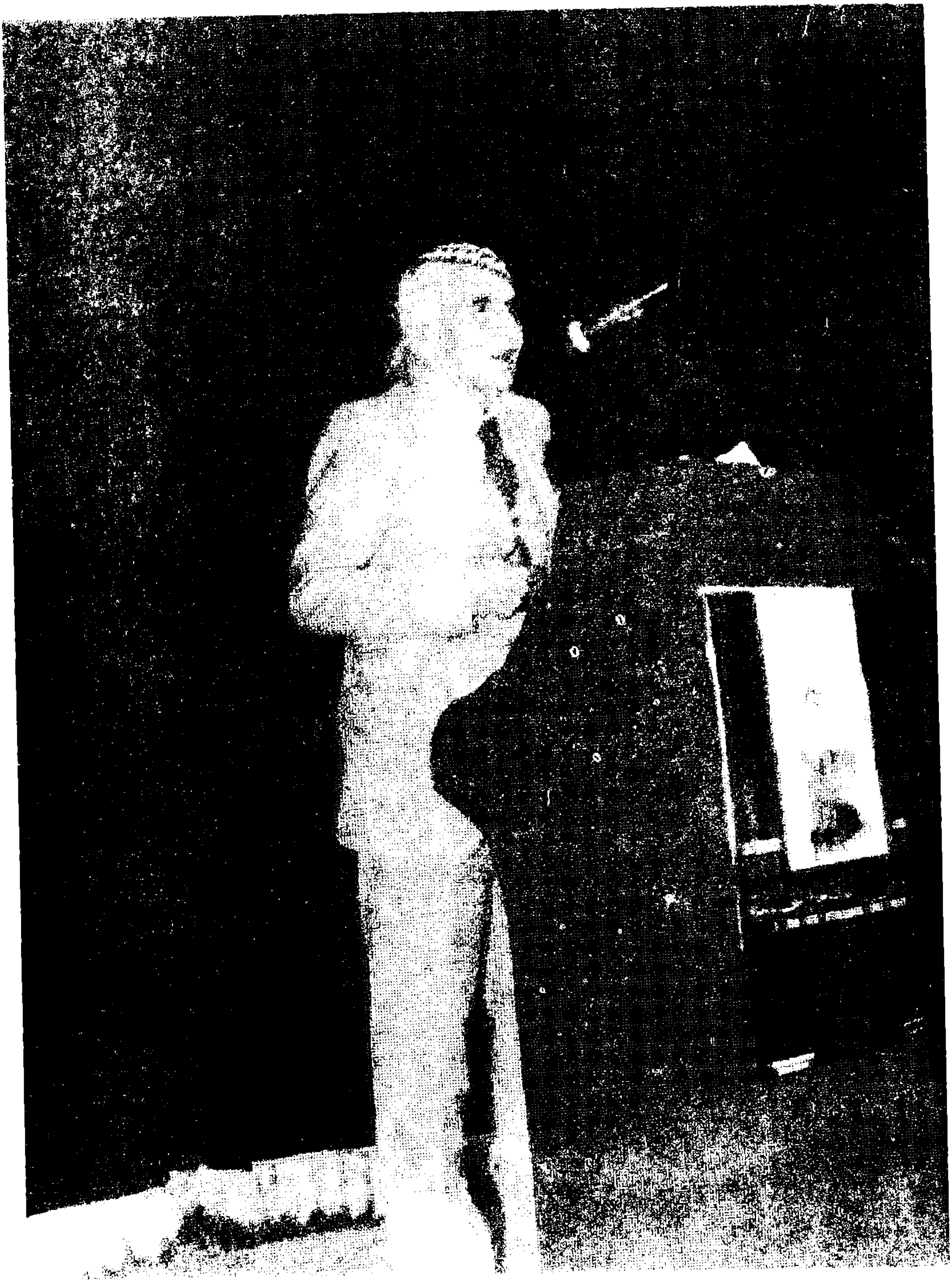

الشاعر يلقي قصائده في دمشق ١٩٨٥

الجواهري في صورة
أخذت له ١٩٨٦

الشاعر مع د. نجاح العطار وزير الثقافة السورية لدى استقباله في مطار دمشق ١٩٨٧

الجواهري في داره في سوريا الصورة أخذت عام ١٩٩٣

الجواهري يستقبل أحد زائريه من المثقفين

الجواهري في منزله في دمشق عام ١٩٩٤

الشاعر في صورة أخذت له
في تلفزيون دمشق ١٩٨٩

الجواهري متأملا

مع الشاعر القروي عام ١٩٨٣

من اليمين: سعد البزاز - الشاعر البياتي - الأمير عبد الله - الجواهري لدى زيارته للمملكة العربية السعودية عام ١٩٩٥

-الشاعر مع صحافي كويتي

الشاعر و د. نجاح العطار لدى تكريمه في دمشق، و يظهر ولده الدكتور كفاح

الجواهري بحضرة الأمير عبد الله حين زيارته للمملكة العربية السعودية

الشاعر في أحد الإجتماعات الأدبية

١٣ أ-الجواهري وهو يلقي إحدى قصائده

الجواهري في مطار دمشق لدى عودته من احدى سفراته وتظهر حرمه

الجواهري مع زوجته أم فرات وابنته الكبيرة أميرة و فرات و فلاح (الصغير)

الجواهري مع عائلته على البحر في لبنان حين ١٩٣٦

مع عائلته في صورة أخرى في لبنان ١٩٣٦

الجواهري أواخر الخمسينيات

الشاعر في سجن بغداد ١٩٣٦

الجواهري في صورة تعود إلى ١٩٥٤ كان قد أهداها إلى والدته

الجواهري وعائلته في مصيف بكفيا في لبنان مع صديقه محمد حسين الشبيبي وزوجته

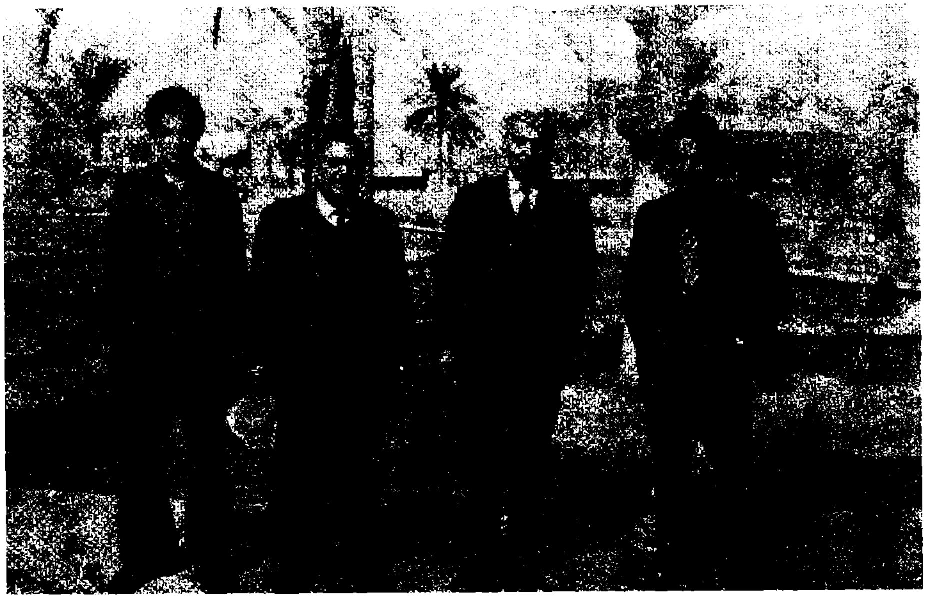

الصورة تعود إلى أواخر الستينات و الشاعر مع نجله فلاح إلى اليمين ثم صهره عيسى و حفيده رائد عيسى

الشاعر مع زوجته و ابنه فرات الى اليمين . و فلاح إلى اليسار لبنان ١٩٣٦

الجواهري في صورتين خلال زيارته لليمن الجنوبي ١٩٨١

الشاعر مع زوجته أواخر الثمانينات

الجواهري في حديقة منزله في دمشق - الروضة ١٩٨٥

ملـــــف

الصـــور والوثـائـق

-بعد رحيله-

عاش ٩٤ عاما شاعرا ومقاوما للاحتلال

الجواهري .. شاعر العرب في ذمة الل

جريدة الاتحاد الإماراتية تؤبن الجواهري

■ دمشق: انتقل الشاعر العراقي المعروف محمد مهدي الجواهري الى جوار ربه في العاصمة السورية دمشق صباح امس الاحد عن عمر يناهز ٩٤ عاما. (اقرأ ص٨)

وقالت مصادر رسمية ان جثمان الجواهري سيشيع من احد مستشفيات دمشق الى مثواه الاخير اليوم الاثنين اثر صلاة الظهر.

وولد الجواهري في مدينة النجف في العراق ونشأ في بيئة غلب عليها الالتزام بعلوم الدين والفقه وقواعد اللغة العربية وادابها.

ونشر الجواهري اول قصيدتين له عام ١٩٢١ في جريدة «الاستقلال» في العراق حيث كان بين الذين قاوموا تقدم القوات الانجليزية الى العراق واتخذ خط الشعر الثوري الوطني لنفسه من حينها.

ووصل الشاعر العربي الى منصب نائب في البرلمان العراقي عام ١٩٤٨ ووقف ضد الحكم الملكي وحكومة نوري السعيد واعلن تأييدد للصداقة بين العرب والاتحاد السوفييتي السابق.

وقال الجواهري في عام ١٩٤٨ اثر الانتفاضة العراقية ضد معاهدة بورتسموث مع الانجليز والتي استشهد فيها اخوه جعفر..

اتعلم ام انت لا تعلم ... بان جراح الضحايا فم
يصيح على المدقعين الجياع ... اريقوا دماءكم تطعموا
تقدم لعنت ازيز الرصاص ... وجرب من الحظ ما يقسم
وخضها كما خاضها الاسبقون ... وثن بما افتتح الاقدم

وترك الجواهري العراق عام ١٩٥٠ اثر قضائه فترات مديدة في السجون الى لبنان الا ان رجال الامن دفعوه الى خارج الاراضي اللبنانية.

ثم جاب مدنا عربية وعاد الى العراق ليهرب من جديد من الملاحقة والتهديد بالقتل ابان حكم عبد الكريم قاسم ويعيش لاجئا في مدينة براغ.

ويعود الجواهري الى العراق في اواخر الستينات الا ان السلطات تعود الى ملاحقته فيهرب الى دمشق لتكون بيته الدائم ويقول...

ويارب الشام لاجافتك ناضحة ... بالنخل تندى عشيات وابكار
مشت بمغناك اعراس الربيع ولم ... يحضن عروسا كارض الشام اذار
دمشق لي في رباك الخضر جمهرة ... هم لي الاهل والجيران والدار
احببتهم واحبوني كما امتزجت ... فيها تجاوب انغام واوتار

واصدر الجواهري دواوين عديدة الا ان اول دواوينه كان عام ١٩٢٣ وهو مجموعة قصائد يعارض فيها متاخير عصره مثل امير الشعراء احمد شوقي وايليا ابو ماضي واصدر ديوان «بين الشعور والعاطفة» عام ١٩٢٨ وجريدة «الفرات» عام ١٩٣٠ و«الانقلاب» عام ١٩٣٦ و«الرأي العام» عام ١٩٤٨.

سقط القلم وبقيت القصيدة

الجواهري .. عاشق دمشق.. سكنها للأبد

الجواهري في احتفال تقليده وسام الاستحقاق

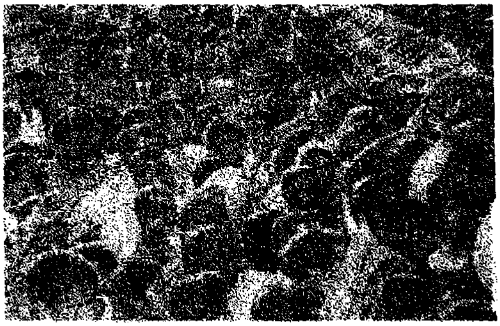

جماهير غفيرة ودعت الراحل الكبير إلى مثواه الاخير

دمشق – خالد مجر:

قدر المبدع ان يسقط قلمه يوماً، وسقط قلم الجواهري يوم الأحد الماضي «عطلة الثورة» لكن قصيدته بقيت وستبقى ابداً في ذاكرة أمة تعرف من الادب الكثير وتحفظ الشعر دائماً وتتغنى بشعرائها منذ ١٥٠٠ سنة وحتى الآن.

العقل والوجدان يحفظان الكثير مما قاله واحد من اكبر شعراء العربية في هذا القرن، فقد ولد محمد مهدي الجواهري عام ١٩٠٣ في النجف بالعراق ومن حينها لم يعرف قلمه ولا عقله أو جسده معنى للراحة والاستقرار إلا حين حط رحاله في دمشق.

فقد تعرض الجواهري في النصف الأول من هذا القرن للملاحقة والسجن، والتهديد بالقتل في النصف الثاني من القرن الحالي، فغادر العراق حيث عاش في براغ بين عامي ١٩٦١و١٩٦٨، وهو منذ حوالي ربع قرن عاش في دمشق معززا مكرما برعاية خاصة من سيد الوطن الذي لايبخل على المبدعين كافة بالرعاية، فكيف بالكبار منهم وأصحاب الهامات التي لاتنحني.

وزاد السيد الرئيس حين منح الشاعر الكبير وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة في السادس من تموز عام ١٩٩٥، وأقيم لهذه المناسبة احتفال أدبي كبير في مكتبة الأسد، وقامت ممثلة السيد الرئيس الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة حينها بتقليده الوسام.

وبدفن الشاعر الكبير في مقبرة السيدة زينب الجديدة تكون أمنية الشاعر قد تحققت بأن يضم ثرى دمشق جسده الناحل الذي بقي سبعة وتسعين عاماً يكافح من أجل الحق والعدالة وخير الأمة من محيطها الى خليجها.

وكتب الجواهري قصائد خالدة في دمشق وقائدها معبراً عن عظيم حبه لما قدماه له، مبيناً بالكلمة الصادقة والعاطفة المتقدة، حال دمشق التي تأبى الضيم وقائدها الذي يخوض معركة تلو الأخرى لاحقاق حق العرب جميعاً.

وكان تشييع الجواهري الى مثواه الأخير شهد حضوراً رسمياً عالي المستوى يتقدمه ممثل السيد الرئيس حافظ الأسد الدكتور محمد زهير مشارقة نائب رئيس الجمهورية وشارك في التشييع الرفاق والسادة عبد القادر قدورة رئيس مجلس الشعب ومحمود الزعبي رئيس مجلس الوزراء والدكتور سليمان قداح الامين القطري المساعد لحزب البعث العربي الاشتراكي واعضاء القيادتين القومية والقطرية للحزب والامناء العامون لاحزاب الجبهة الوطنية التقدمية واعضاء القيادة المركزية للجبهة ونواب رئيس مجلس الوزراء والوزراء بالاضافة الى حشد كبير من الأدباء والمثقفين وجماهير غفيرة،فكان تشييع الراحل الشاعر الكبير احتفالا رسميا وشعبيا.

وقد ألقيت كلمات في التشييع تحدث فيها ممثل السيد الرئيس الدكتور محمد زهير مشارقة والسيد الدكتور محمد سلمان وزير الاعلام والسيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة والسيّد علي عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب والسيد فلاح الجواهري نجل الشاعر الراحل.

وعن علاقة الشاعر الكبير بدمشق وقائدها لايمكن لنا أن نضيف إلى ماقاله شيئاً، حيث قال فاوفى ووصف فصدق، حتى إن بعض أبياته ذهبت على لسان الناس لبلاغتها وسهولة حفظها كقوله:

سلاماً أيها الأسد   سلمت وتسلم البلد
وتسلم أمة فخرت   بأنك فخرُ من تلد

ويبقى مطلع قصيدته «جبهة المجد» عنواناً للحب بينه وبين دمشق وقائدها حيث يقول:

شممت تربك لازلفى ولا ملقا   وسرت قصدك لاخبّاً، ولا مذقا
وما وجدت الى لقياك منعطفا   إلا إليك، ولا ألفيت مفترقا
وكان قلبي إلى رؤياك باصرتي   حتى اتهمت عليك العين والحدقا
شممت تربك أستاف الصبا مرحا   والشمل مؤتلفاً، والعقد مؤتلقا
وسرت قصدك لا كالمشتهي بلدا   لكن كمن يتشهى وجه من عشقا
«دمشق» عشتك ريعانا، وخافقة   ولمة، والعيون السود، والارقا
وها أنا، ويدي جلد، وسالفتي   ثلج، ووجهي عظم كاد أو عرقا
وأنت لم تبرحي في النفس عالقة   دمي ولحمي والأنفاس، والرمقا
دمشق صبراً على البلوى فكم صهرت   سبائك الذهب الغالي فما احترقا
ياحافظ العهد، ياطلاع ألوية   تناهبت حلبات العزمستبقا
يارابط الجأش، ياثبتاً بمستعر   تآخيا في شبوب منه، والتصقا
تزلزلت تحته أرض فما صعقا   وازخرفت حوله دنيا فما انزلقا
لك القوافي، وما وشت مطارفها   تهدى، وما استن مهديها، وما اعتلقا

هذا بعض مما قاله في «معلقته» الخالدة «جبهة المجد» وهي قصيدة تعبر بوضوح عما يكنه الشاعر الكبير لدمشق وللقائد الرمز. وهاهو يطوي شراعه ويمضي في تربتها حتى يقضي الله عودة في يوم لايعرفه سواه ليسجل الجواهري بذلك قصة عشق تروى بينه وبين دمشق.

جريدة الثورة السورية تؤبن الجواهري

ظلال القصائد في محطات القرن العشرين

تسعة أصوات عربية عن شخص

محمد مهدي الجواهري وشعره

□ لندن - «الحياة»:

■ محمد مهدي الجواهري الشاعر الذي رحل عن عالمنا الأحد الماضي، امتدت ظلاله على محطات أساسية خلال القرن العشرين، لكنه، أبعد من المراثي، يبقى واحداً من أواخر الانفاس الموصولة بزهو الشعر العربي الكلاسيكي، خصوصاً في العصر العباسي.

بغداد عاصمة العالم القديم، وبغداد حطام العالم الحديث، نجد وجهيها المتناقضين يتكاملان في شعر الجواهري، حيث الكلمة جوهر يعلو على عرض الحياة اليومية وان انطلق من هذا العرض.

وأبعد من المراثي، هذه التقويمات لشعر الجواهري وشخصه من شعراء ونقاد عرب مختلفين التقوا في الكلام على هذا المختلف الفرد.

سعيد عقل *: بين اكبر الشعراء

احترمه جداً كشاعر قوي، وكانت بيننا صداقة عميقة.

شعره لا يكمل فقط الخط الكلاسيكي، انما يعطي جديداً ايضاً من ضمن هذا الخط.

وهو، في هذا العصر، بين اكبر الشعراء.

* شاعر لبنان.

جريدة الحياة اللندنية في تأبين الجواهري

رحيل الشاعر
محمد مهدي الجواهري

دمشق - الخليج:

توفي صباح امس في دمشق الشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري عن ٩٤ عاما. ونعت الفقيد وزارتا الثقافة والإعلام في سوريا كما نعاه اتحاد الكتاب العرب.

ونقل جثمان الجواهري من مستشفى الشامي في دمشق حيث توفي الى مثواه الأخير في مقام السيدة زينب في ضواحي العاصمة السورية حيث يشيع ظهر اليوم (الاثنين).

ولد الجواهري عام ١٩٠٣ في النجف بالعراق. وكان يعيش في دمشق منذ عشرين عاما حيث كرم في العام ١٩٩٥ فمنحه الرئيس السوري حافظ الأسد وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة. وكان قد عاش في العاصمة التشيكية «براغ» بين ١٩٦١ و١٩٦٨

وقد حاز الشاعر الراحل على جائزة سلطان بن علي العويس الثقافية عن حقل الانجاز الثقافي والعلمي عام ١٩٩٢. حيث حضر الى الامارات وتسلم الجائزة من راعيها سلطان بن علي العويس في حفل كبير. كما أحيا امسية شعرية ضمن الفعاليات المصاحبة لحفل تكريم الحائزين على الجائزة

والجواهري يعتبر من كبار الشعراء العرب له ديوان باسمه في أجزاء صدر في عدة طبعات من دمشق وبيروت اضافة الى عدد من المجموعات الشعرية. الشعور والعاطفة، حلبة الادب. بريد العودة، ايها الأرق. خلجات.

وقد عمل الشاعر الراحل الذي كتب مذكراته في «الخليج» عام ١٩٩٢ في مجالي الصحافة والتعليم وصدرت في شعره كتب عدة منها: الجواهري شاعر العرب - عبد الكريم الدجيلي. الجواهري العملاق - غالي شكري. الجواهري ديوان العصر - حسن العلوي. الجواهري في راي كبار الادباء - تحرير: هادي العلوي. فضلا عن عدد من الدراسات والاطروحات الجامعية التي قدمت حول شعره في بلدان عربية واجنبية.

الخليج
العدد ٦٦٤٤ الاثنين ٢٣ ربيع الأول ١٤١٨ هـ - ٢٨ يوليو ١٩٩٧م

صحيفة الخليج الإماراتية وتأبين الجواهري

برحيله انطوت الكلاسيكية الشعرية العربية

الجواهري.. القامة العالية وسور العربية المتين

القاهرة، عمان، صنعاء - «الخليج»:

رحل الشاعر العربي الكبير محمد مهدي الجواهري، ولأن الجواهري ليس أي شاعر ورحيله ليس أي رحيل فقد التقت «الخليج» بعدد من النقاد والشعراء الذين سجلوا مدى احساسهم بالخسارة الفادحة لساحة الشعر العربي الذي كان الجواهري أحد العلامات البارزة فيه كما كان علامة هامة في تاريخ النضال العربي ضد القهر والظلم والطغيان.

صحيفة الخليج في صورة أخرى لتأبين الجواهري

رحيل الجواهري

انطفأ محمد مهدي الجواهري، أمس الأحد الواقع فيه السابع والعشرون من تموز ١٩٩٧، في دمشق التي احتضنته حادياً للثورة والثوار، واحتضنته منفياً، واحتضنته «شهيداً» لزمن الردة والتردي، فحفظت عهدها مع الشعر والابداع، وحفظت الجواهري رمزاً مضيئاً لنضال الانسان العربي ضد الظلم والظلام.

رحل اكبر الشعراء العرب في هذا القرن، واحد اعظم شعرائهم على مر العصور، مختتماً زمن الشعر ـ القضية، الذي يسهم في صياغة الوجدان وكذلك برنامج العمل من اجل التغيير طلباً لغد عربي افضل لهذا الانسان المقهور والمهدورة كرامته وحقوقه.

رحل «أبو فرات»، ثالث النهرين، وبغداد أسيرة، منفية عن ذاتها، عن أهلها وامتها.

يا لبغداد.. التي اغلقوا عليها ابوابها، فما عاد للجواهري وآلاف المبدعين العراقيين، ومئات الآلاف من العراقيين، مكان فيها.

يا للعراق، يا للنجف، يا للكرخ، يا للمرابع التي عاش فيها وعاش لها الجواهري، وحملها معه في منافيه وغربته بل غرباته، غنى افراحها، وغضب لنكباتها، وانتصر لضعفها، واستنهض كوامن قوتها، فكان ضمير العراق والامة، ورائد مبدعي ذلك الوعي المتوهج بالعرب والعروبة.

«ايها الفارس ولا سيف

«لقد لقيتك في جنبات الارض جميعاً الا في بغداد، فما جئتها مرة قبل الطوفان الا وانت منفي، وكنت احسها هي المنفية.. انت المثل الساطع في قرن العرب الرديء هذا، لاغتراب الاوطان عن ابنائها.. اغترابها وهي كامنة في صميم قلوبهم.

يا ثالث النهرين: لأنت الديوان وغيرك قصيدة».

الجواهري الذي غاب بالأمس هو ديوان الشعر العربي.. تعرفت اجيالنا من خلاله الى ما كان وسيكون الشعر. قالوا انه «كلاسيكي جديد». وقالوا انه «تقليدي فريد». لكن الأمة قالت انه «الديوان» لا يخضع لمقاييس الصيغ والاشكال، ولا لعنعنات الحداثة والتقليد.

يا شاهد العصر

كنا نراك في الصحائف فيتجدد لدينا الامل ونشد معك: باق واعمار الطغاة قصار.. بقاؤك تجديد للامل على طول العمر (وحسبك داء ان تصح وتسلما)، وشسوع المنفى، واحزان الغربة: فهل قررت ان تودعنا لان الشعر ذهب مع الزمن الجميل، ومع الرجال الذين اعطوا ارواحهم ليكون الوطن، وما هلعوا ولا استكانوا امام الصعاب؟

هل تؤذن وفاتك بذهاب «زمن الشعر»، واستيلاء «دولة النثر»، نثر معاهدات الصلح الدقيقة، ونثر مستلزمات التطبيع بين الجلاد والضحية؟

يا فارساً اعزل! أيكون زمن الفروسية قد انقضى، فتستنكف ان تترجل بعد طول صمود.. وتمضي باقياً «كانك في جفن الردى وهو نائم».

يا ثالث النهرين

فيك وبك قرأنا التاريخ، وشهدنا بقاءك على تبدل العهود والرجال والمصائر. لقد استعصيت على السيل الجارف، و«وقفت وما في الموت شك لواقف» تُصارعُ التيار، وتنتظر جماهير الحرية والتحرير.. الجماهير التي حولتها عقود القهر والاغراق والطغيان الى قطعان من المعذبين في الأرض الممنوعين من ممارسة انسانيتهم، الهاربين من جلاديهم الى جلاديهم.

ايها الجواهري،

البغدادي، الدمشقي، البيروتي، القاهري، المغربي، اليمني، يا فتى الزمن الجميل، الزمن الذي صنعته في قصائدك، واردته أن يبقى لنا جميعاً فاغتالوا زمن حلمك، وزمن غنائك، حتى اغتالوا الدمعة في عينيك.

«ها نحن نلتقي بك من جديد. نلتقي كأننا في مأتم جماعي، وما عودتنا نظم المراثي إلا من اجل الباقين أحياء في حضن الأمة او ذاكرتها».

تقحّم لُعنْت! اردت لنا ان نطلب الموت لكي توهب لنا الحياة. لكننا نموت من دون حساب ولا بطولة منذ زمن. فمتى يعود للشهادة معناها وطعمها، ومتى يرجع زمنك، زمن الأمل والاقتحام؟!

يا شاهداً على العصر واهله، من قضى منهم ومن ينتظر: نحيي فيك بعد العبقرية تلك العزيمة القعساء، انك لم تهنْ ولم تضعف ولم تيأس ولم تُلقِ السلاح، وتركت لنا ذخيرة للأمل والرجاء والإصرار على مواصلة الطريق الى الشمس.

أنى طوّفنا فنحن في رحابك، نحوم بين الفك والياء، ونردد بعدك بعض قولك، إذ لم تغادر وأنت ديوان الأمة اي متردَّم، وسنظل نستعير بعض لغتك لأننا نعيش الحلم الذي صنعته الى ان يكون لنا زمننا فنستعيد لغتنا لا هجرانا للغتك بل انتصاراً لغاياتها.

قضيت في دمشق، ودمشق البداية والنهاية والبداية الأخرى. نأتي مثلك إليها من الأمكنة جميعاً، ومن الأزمنة جميعاً. الى دمشق العرب، ودمشق الأمة، والباقية على الدهر موئل العرب وحصنهم وثغرهم، ومشتبك سنابك جيادهم عندما يكون الصمود، ويحل النصر.

سلامٌ عليك يا ثالث النهرين

سلامٌ عليك يا شاهد العصر

سلامٌ عليك يا ديوان العرب

سلامٌ عليك أيها الغريب النازح، يا ثالث الرافدين، يا نجمة بغداد وقمر النجف، يا مؤذن الكوفة وحادي اجيال الثورة في الأمس واليوم والغد.

صحيفة السفير البيروتية و تأبين الجواهري

لا ليس كفنك من ذاك الشراع !

ابا الفرات، شيخي وصديقي، دائمَ الرحيل، دائمَ الاقامة، محمد مهدي الجواهري.
قلتَ في رائعتك الباقية " يا دجلة الخير ":

حَيّيْتُ سَفْحَكِ عن بُعد فحيّيني
يا دجلة الخيرَ. يا امَّ البساتين
حيّيتُ سفحَكِ ظمآناً الوذ به
لوذ الحمائم بين الماء والطين
يا دجلة الخَير. يا نبَعاً افارقُهُ
على الكراهة بين الحين والحين
اني وردت عُيون الماء صافية
نبعاً فنبعاً فما كانت لتَرويني
وانتَ يا قارباً تلوي الرياح به
ليَّ النسائم اطرافَ الافانين
وددتُ ذاكَ الشراع الرَخصَ. لو كَفَني
يُحاكُ منهُ غداةَ البينُ يطويني..

***

وهوذا البين يطويك، قريباً - بعيداً عن "نبع" فارقته الآن ايضاً "على الكراهة".. اما كفنك، فلم يكن من "ذاك الشراع الرخص".. وما دام أهلك المقيمون على شاطيء "دجلة الخير" محرومين، على ايدي الطغاة الغزاة الاجانب، من أكفان تحاك من اشرعتهم بعد احتراق الاشرعة وانخفاض منسوب المياه في دجلة، فلا بدّ من شكر - على واجب - نرفعه الى أهلك في دمشق الشام، الذين كفنوك بقلوبهم وبما يملكون من اشرعة الحبّ والوفاء في زمن الحقد والخيانة.
ويا ابا الفرات. يا حبيب الشعر والوطن.. يا شيخي وصديقي، قد يتاح لي في ما تبقى من العمر يومٌ أحجّ فيه إلى ضريحك لاهمس في أذن موتك باعتراف لم اجاهر به في حياتك: يشهد الله انني احببتك اكثر مما احببتُ المتنبي.
ولو لم تكن مسكوناً بهاجس المتنبي لكنتَ جنّبتَ هديرك الشهم شيئاً من التواءات الدنيا.. إنما رحمة الله عليكما أنت والمتنبي... ولتحلّ رحمته علينا من بعد، وعلى خلقه اجمعين، انه أرحم الراحمين.
كان اول عهدي بك، يوم حطمت سيول روحك المباركة حواجز الحصار الاسرائيلي المضروب حولي منذ النكبة.. يومَ حوّمت نسور قصائدك في سماء قلبي ووجداني، وتحدُّر وهجها العربي الانساني الاصيل الى أرض قصيدتي البكر العطشى. يومذاك أحببتك اكثر مما تعلمتُ منك ذلك ان العذاب القومي والغضب الانساني لا يحتاجان الى معلّم!
انها الحياة فحسب، تنتجُ ملحها وجمرها، ومن ثمّ، يختلط ملح بملح وجمرٌ بجمر وملحٌ بجمْر..
ويوم نما اليّ انك عابرٌ بصوفيا، العاصمة البلغارية، في العام ١٩٦٨ فقد بادرت واخي محمود درويش وبعض من محبيك ومريديك الى لقائك، فتحت لنا الباب بيدك الطيبة التي تنطف شعراً واصالة واحتضنتنا كما يحتضن أبٌ رؤوفٌ عطوفٌ ابناءَه العائدين من سفر بعيد. كنت هناك، شامخاً وضيئاً مشرقاً وكانت دهشتنا وكانت بداية ألفة وصداقة تنسخ الحدود وتمسخ الزمن..
خاطبتُك آنذاك، قصيدةً وانساناً، وأعدتُ على سمعك كلاماً قالته فتوّتي في الشعر والعذاب:

عفواً يا عملاق الكلمة
إن شابتْ الفاظي عُجْمَة
عَفواً فجراحي نازفةٌ
والظلمةُ تقتلني الظلمة
انا "جعفر" في ارض اخرى
يمتصُ فمُ الطاغي دَمَهُ...

وما ان ذكرتُكَ بانني "جعفر" في ارضِ أخرى، حتى

سميح القاسم، محمد مهدي الجواهري، محمود درويش

شددتني إلى قلبك مرة أخرى، ولن انسى ما حبيت زهرةً من ياسمين الدمع تفتحت على حدقتيك المجهدتين وكان لي ان سعدتُ بلقاءات أُخرى. ولن انسى ما يذكره بعض اصدقائنا من ندائك المحبب اليّ " اعد يا عدوّ الله " وانا اتلو في حضرتك قصيدة " شهداء الحب " التي كانت مشاركتي في مهرجان الطلبة العراقيين في مدينة روستوك الالمانية على بحر البلطيق في العام ١٩٧٠ كما اذكر.

صاد. وحفنةُ ريٍّ منك تكفيني
فجدّ نُميتَ لاجوادٍ ميامين

***

وليس بي ظمأٌ للدمّ. ان دَمي
كما علمتَ لو استسقيتُ يرويني
لكنْ بي ظمأ للشمس، تجرعُها
غُبر الجذاء فتُحييها وتحييني

***

ماذا اقولُ اذا استنطقتُ عن وجعي
والجرح جرحيَ والسكين سكّيني
ويوم يَزْحمُ وجه الموت ذاكرتي
ابكي عراقيَ أم ابكي فلَسطيني ؟!

و"أعد يا عدوّ الله ".. و "كما شئتَ يا حبيب الله"... وسهرة لاحقة في مفاتن براغ (براها على لسانك) حتى ساعات الصباح وظهور "دوريّة الجواهري" التابعة للشرطة التشيكية!
أما لقاؤنا الاخير، والذي هجَس القلبُ بانه سيكون اخيراً، فقد كان في احتفالات مئوية الهلال في ربوع حبيبتنا القاهرة، في شهر سبتمبر ايلول ١٩٩٢.
كنت انت ضيفَ الشرف المعزّز المكرَم.. وكان لي شرف تقديم امسيتك الشعرية التاريخية في دار الاوبرا حيث احتشد جمع غفير من محبيك وعارفي فضل قصيدتك.
حين عرضنا عليك ان تقرا جالساً فقد عادت الى عينيك المنهكتين ياسمينة الدمع القديمة، ابيتَ الا ان تقرا واقفاً مثل نخيل العراق.. وكعهدك فقد ابدعتَ حتى الذهول.
سالك رجل عن سنك فقلت " أنا أكبر من هذه السنة بسنة "... وفهمنا انك في الثالثة والتسعين...
وسالتك صبيةٌ عن سنّك فقلت " انا اكبر منك بسنة "... وفهمنا ان نارك متمرّدةٌ عَلى الانطفاء...
واستضافتك مصر. وشرّدتك هزة ارضية، بعد الهزات السياسية التي طالما شرّدتك من وطن إلى وطن. ومن وطن إلى غربة ومن غربة إلى غربة..
أما الآن. فقد استقرَّ بك المطاف في وطن من وطن. هنا دمشق. هنا القدس، وبغداد قريبة، قريبة جداً. انها هنا ايضاً، هنا في القلب، وبغداد تحبك.
ربما آتيك قريبا ". لن نشرب ولن نصخب ولن نستعيد حكاية " بنت الشيطان " التي عشناها في براغ - أعني براها، كما تحب ان تسميها أنت باسمها المحلّي.
ربما آتيك، وسآتيك، ولن احمل اليك زهوراً لانني أعرف انك لم تحبّ الزهور في الاصص والمزهريات او في الاكاليل والباقات. سآتيك بولاّعة وبسبحة (تذكر طبعاً أنك في لقائنا القاهريّ إحتفظت بولاّعتي وبسبحتي متذمراً بخبثك الطفوليّ الجميل: إنهما بسيطتان، ليستا غاليتين، ومع ذلك سآخذهما، ذكرى منك يا سميح. ذكرى يا عدوّ الله!)
سآتيك يا حبيب الله.. لن احمل إليك زهوراً مقلّمةً منظمةً منضّدة. اعلم انك أحببت الزهور حرةً طليقةً بريّةً عفويّةً بفوضاها المرتَّبة بإرادة الله وبسرّ مشيئته... إذهبْ الى زهورك.. إذهب إلى هدوئك.. إذهب الى راحتك.. إذهب الى وطنك.. إذهب الى حبك.. إذهب الى رحمتك.. إذهب إلى حياتك.. نم على رَهَق غير دار بما جرى للفراتين.. واخلُد في الخلود يا شيخيَ وصديقي.. انذا قادم بإذن الله يا حبيب الله.

سميح القاسم

صحيفة كل العرب من الناصرة في رحيل الجواهري، والصورة أخذت في بلغاريا أواخر الستينات

شعر: حبيب الصايغ

عمري وعمرك بغداد وعشتار
أي النبيذين من أسمائه النار؟
مالي من الصحو بد كي أقول دمي
دمي شرابي، وبعض الصخر انهار
وبيننا الشعر مهدور ومنتهك
كأن احلامنا السوداء اشعار
مصفدان ولا قيد سوى يدنا
وميتان ولا قبر وحفار
ومستحيلان لم نولد وقد يبست
منا عروق وأنواء وامطار
شبنا سويا.. بياض العمر يكسبه
عمرا، وفي الموت اعمار واعمار
لا الموت ينسى، ولا بغداد ناسية
وجه الحسين، فهل أنأى وأختار؟
الحزن حزني، ودمعي لن يعاندني
والعين عيني، ودمعي المجد والغار
وانني مغرم والدهر منشغل
عني بأسفاره والدهر أسفار
أمسى بعيدا وفي الاهداب جذوته
وهل سوى الموت او بغداد تذكار؟
فهل يعود الى كهفي ليأخذني
مني، ويمضي، وهل إلاي يختار؟
وهل يقربني منه لأسكره
به، وبي منه اقداح واوطار؟
وأين لي الخيل والايام واقفة
في كربلاء ودمع الشمس مدرار
ذاب العراق الى ان ذاب في ندمي
وذبت فيه، فضجت فيّ أسرار
جسر الرصافة مأهول بأغنيتي
والكرخ في بحري المغرور بحار
وللشمال دماء كالشمال، ولي
من الشمال حكايات واسمار
وجنة كالجبال الخضر واهبة
عروبتي دربها، فالكرد اقمار
ساروا وسرنا، وقد كان الفراق لنا
حتفا، ولكننا سرنا وقد ساروا
فما وصلنا الى ماء وما وصلوا
وقد عطشنا وملح الأرض أبار
أبا فرات: لك البشرى، فإنك في
صوت الملايين بشار وبتار
كلتا يديك خطوط الحلم ما بهتت
كأنها في المنافي تلكم الدار
الشعب في نبضه الدنيا قد ازدحمت
من بابل، وبنى رؤياه احرار
والشعب في نبضه تخليص هامته
وفي الضحية مجزور وجزار

أبا فرات، وفي عينيك منبعه
صاف وجدوله دام وهدار
أبا فرات وانت الشعر متقدا
الشعر أكبر، لكن جلجل العار
الشعر منفاك.. منفى كل منهمك
فيه، وانت به طاغ وجبار
والشعر انت. بلاد كلها صدف
احلى، ومستقبل أبهى، وأهوار
والشعر انت. زمان لا يمر على
فكر، وما قيل في معناه اخبار
وانك الجذر.. هل للفرع موهبة؟
وانك الأصل.. هل للظل أثار؟
أين القصائد كالابراج شامخة
تروى، فيروي ثرى بغداد ثوار
جددت حتى كأن الشعر ليس له
إلاك راع وصحراء ومزمار
فاكتب غرامك في التسعين مفتتحا
نهاية القرن.. والاعصاب أوتار
جددت جدد. أعد. جددت. مد يدا
جددت. جدد، وجد، فالوجد إعصار
ولتسقنا دمنا في كأس وحشتنا
الكأس فارغة والقلب خمّار!

الجواهري

قصيدة للشاعر حبيب الصائغ في الجواهري والصورة تعود لأواخر السبعينات - بغداد

من تأبين الجواهري في عدة صحف

شاعر لم يترك الدنيا

المغرب ـ محمد بنيس:

مثل محمد مهدي الجواهري نموذجا متفردا، في شعرنا الحديث، فهو تعلم الشعر بالآلام ليكتبه بالآلام ايضا. وهو احب الشعر ممزوجا بالفروسية فلم يتخل عنها طيلة حياته. ألام وفروسية هي التي صنعت الجواهري، شاعرا لا يتنازل عن ان يكون حرا، بمعنى ان يكون على الدوام، رافضا لاشكال من الطغيان التي عاشها شعبه العراقي، على امتداد قرن، دون ان يعرف لحظة اشراق.

قرأنا شعر الجواهري بشغف وسنقرأه كذلك، فهو جعل من الشعر نمط حياة ونمط موت. فيه اعطى لانفاسه علو امواجها وشتيت رذاذها وفيه كان ينظر الى زمنه كما لو كان الشعر مرآة صقيلة، لا تكذب ولا تخون. بعض قصائد الجواهري اقامة في ضوء الشعر. من الشعر كان ينتقل الى الحياة الفردية والجماعية ، وليس منها الى الشعر. فما تعلم من اسرار الشعر العربي جعله يمتلك طريقة في الاقتراب من عالمه الشخصي ومن كوارث شعبه وامته.

لن اضع له مرتبة الاول أو الأخر. انه، قبل كل شيء، شاعر اخذ من الشعر العربي القديم صورة للحياة ظل لها وفيا. وكل القيم التي كان يكتبها تظل هي ذاتها قيم مجد الشاعر الذي لا يتنازل عن ان يكون شاعرا عربيا، له من القدماء سعة الذاكرة وسلالة النباله.

ذلك ما تأكد لي وانا اشتغل على شعره في عملي عن «الشعر العربي الحديث»، فكون الجواهري شاعرا تقليديا لا يدل على ان تقليديته سجنته في نموذج شعري وحيد، ينتسب للقدامة، بقدر ما يدل على تأثير التعلم في حسه الشعري ونزوعه الجمالي ومغامرته الوجودية. صفات تخلق بها حتى وهو ينتقل الى المديح والمناسبات. لدرجة ان ما غلب عليه، باستمرار، هو ربطه بين الشعر وبين الذاكرة والنبالة.

عندما اقرأ «يا دجلة الخير» يتملكني احساس بالقدرة المتفردة لدى الجواهري على استحضار بغداد، ابدية وحضارية في آن. وهو ما يتردد في العديد من قصائده بنفس مأساوي. فيه نتعرف على وفاء الجواهري للشعر والشاعر، مهاجرين معا في افق الوحدة، التي لم يفارقها متمردا، غاضبا، اومغنيا بوداعة لا ننساها، في زمن غربة الشعر والشعراء.

أنيتا

نظمت في اواخر عام ١٩٤٨ واوائل عام ١٩٤٩.

كان حبا عارما لا يريد ـ ولا يقدر لو اراد ان يقف عند حد! وكان كأنه يتفجر عن «ينبوع» خفي لجاج ..

وكان سر الخفاء في هذا الينبوع .. رغبات! .. وآلام ! ومطامح! .. ظلت طوال ثلاثين عاما هي عصارة العمر الزاحف! .. يسحق بعضها بعضا!

حتى لو وجد هذا الينبوع المختنق منفذا بديلا عنه لما اختلف الامر بكثير!

لقد كان هذا الحب من «الفورة» و «السورة» ... بدرجة ان صاحبه كان لا يرى في ملامح المرأة التي احب الا ما يراه العازف المتجرد في انغام قيثارته من انها طريق للتعبير! وشعار للانطلاق..

على هذا الضوء تلتقط الصورة .. الصادقة للقصيدة .. أنيتا!

أني وجدت «انيت» لاح يهزني ... طيف لوجهك رائع القسمات
ألق «الجبين» أكاد أمسح سطحه ! ... بفمي، وانشق عطره بشذاتي
ومنور «الشفتين» ، كادت فرجة ... ما بين بين تسد من حسراتي
وبحيث كنت تساقطت عن جانبي ... نظرات محترسين من نظراتي !
نهب العيون يثيرها ويزيفها ... إطراق أشعث زائغ اللفتات
متوزع الجنبات يرقب قادما ! ... شق وآخر مال للطرقات
حسبي وحسبك شقوة ! وعبادة ! ... أن ليس تفرغ منك كاس ! حياتي

أطبق دجى !

نظمت في بغداد خريف ١٩٤١

أطبق دجى، أطبق ضباب ... أطبق جهاما يا سحاب
أطبق دخان من الضمير ... محرقا أطبق ، عذاب
أطبق دمار على حما ... ة دمارهم ، أطبق تباب
أطبق جزاء على بناة ... قبورهم أطبق عقاب
أطبق نعيب، يجب صدا ... ك البوم، أطبق يا خراب
أطبق على متبلد ... ين شكا خمولهم الذباب
لم يعرفوا لون السماء ... لفرط ما انحنت الرقاب
ولفرط ما ديست رؤو ... سهم كما ديس التراب
أطبق على المعزى يرا ... د بها على الجوع احتلاب
أطبق على هذي المسوخ ... تعاف عيشتها الكلاب
في كل جارحة يلوح ... لجارح ظفر وناب
يجري الصديد من الهوا ... ن كأنه مسنك ملاب

في عام ١٩٤٨ .. حسين مردان في نقاش حاد مع محمد مهدي الجواهري الذي انتخب رئيسا لاتحاد الادباء العراقيين، وفي جانبه بلند الحيدري، ومعهم القاص العراقي المعروف ذنون أيوب

عبدالوهاب البياتي:
واكتمل ديوان الشعر العربي

لم يمت الجواهري، بل انه رحل ليستقر في نهر مجرة الكون الشعري بجوار المتنبي والمعري وابي تمام وابي نواس وسواهم من شعراء العربية الكبار، عاصر وعاش زمن القتلة ورآهم يصعدون ويهبطون الواحد تلو الاخر وعاصر حربين كونيتين، وحروب ومجاعات وكوارث، وصعود الفاشية للعالم وسقوطها لقد مثل بشعره قوة الانسان العربي وعنفوانه وجبروته امام التحديات واطلق صرخة مدوية في فضاء الشعر الينبوع الاصيل للحرية، نازل الطغاة وقهرهم بشعره وجعل منهم امثولة واضحوكة لدى الصغار والكبار.

كما انه وصمهم بأوصاف ستظل عالقة في ذهن التاريخ ، بموته او رحيله يكتمل الجزء الاول من ديوان الشعر العربي الذي بدأه امرىء القيس، فهو اخر سلالة الشعراء العظام الكلاسيكيين، وقل ان نجد شاعرا معاصرا كلاسيكيا يقف الى جواره ، فقد حلت في شعره روح الشعراء الاسلاف وكان يعبر عنهم وعن عصرنا ، وهو من الشعراء القلة في تاريخ الشعر العربي الذين اقاموا جسرا بين التراث والمعاصرة.

وقد التقيت «الجواهري» في الامارات وجلست معه في الشارقة وكان يصحبه ابنه «فرات» الذي ودع الحياة منذ ثلاث سنوات.

ولقد احببت الجواهري كثيرا لمواقفه وشعره.

وارى في كلمات «نزار قباني» وصفا جميلا للجواهري ونزار ايضا من نسور الشعر المحلقة، وهو من ثوار الكلمة والموقف يقول قباني:

لم يستطع احد من القدامى ان يزاحمه ولا من الحداثيين ان يزاحمه فهو دائما الحصان الاول، حيث تعبت اكثر الخيول من الصهيل واكثر النسور من الطيران.

ويتساءل قباني : من هو أبوفرات؟

الى اي فصيلة من فصائل الزرافات ينتمي؟ هل هو هوميرس او شكسبير، ام طاغور ام المتنبي؟

من هو هذا المزيج القديم، والنار الحارقة والرياح العاصفة والبحار التي لاموانيء لها.

والجواهري في كلمة واحدة. كان شاعرا وتلك هوية الشعر. واذا كان الشاعر قد مات فان شعره سيظل حيا لا يموت.

الشاعر في كلمات لعبد الوهاب البياتي

الجواهري

كان في السابق يقف عاجزا عن اعتقال الجواهري اما اليوم!!

واخيرا المح د. رعد عبدالجليل الى ان وفاة ودفن الجواهري خارج العراق دليل قوي ومؤشر لزمن شتات العراقيين.

بعد تلك المداخلة استمع جمهور الحفل الى صوت وصورة الشاعر وهو يلقي قصيدته الشهيرة (يا دجلة الخير) التي يقول في مطلعها:

حييت سفحك عن بعد فحييني
يا دجلة الخير يا ام البساتين
حييت سفحك ظمآنا الوذ به
لوذ الحمائم بين الماء والطين
يا دجلة الخير يا نبعا افارقه
على الكراهة بين الحين والحين
اني وردت عيون الماء صافية
نبعا فنبعا فما كانت لترويني
وددت ذاك الشراع الرخص لو كفني
يحاك منه غداة البين يطويني
يا دجلة الخير قد هانت مطامحنا
حتى لادنى طماح غير مضمون
انضمين مقيلا لي سواسية
بين الحشائش او بين الرياحين
خلوا من الهم الا هم خافقة
بين الجوانح اعنيها وتعنيني

اعقب هذا مشاركة الشاعر عبدالقادر الكتيابي بقصدة رثاء عبرت عن عمق مكانة الفقيد في قلوب الشعراء وخلو الساحة بعد رحيلة المهيب وهو الذي كان يملؤها صخبا ومنافحة لشعراء الحداثة الذين خلا لهم الجو الآن بعد رحيل الجواهري، حيث لم يعد هناك من يردعهم كما كان يفعل:

دجلة والغريب

اما مشاركة الاديب محمود سعيد فجاءت سردية تطرق خلالها الى ذكرياته التي ارتبطت بالجواهري في نهاية النصف الاول من هذا القرن.

وقال ان الجواهري عاش داخل العراق غريبا مقاتلا وفارسا وصانع حياة محبا لها، اما خارج العراق فقد عاش غريبا ايضا يحلم ببستان السفح والجبل، وقد كان من اعظم فرسان القرن العشرين وكان جواده اجمل خيول العالم وارشقها، وحينما اراد ان يطفىء ظمأه توجه نحو دجلة.. اصبح قاب قوسين منها، لكن دهره اسقطه من على جواده ليدفن ويذوب في ماء الذات (الفقيد مات ودفن في دمشق).

على ان اهم ما اشار اليه محمود سعيد هو انه لم يكتب عن الجواهري اي كتاب يتناول شعره بالدرس والنقد والتحليل:

مسك الختام كان من جانب الشاعر الموريتاني سيدي ولد الامجاد الذي القى قصيدة رثاء لاقت استحسان الجمهور واعتبرها البعض اجمل ما رثي به الفقيد في تلك الامسية وهي بعنوان «يا شاعر العصر».

نضال قبلان

سيدي ولد الامجاد

نجيب الشامسي

جمعة اللامي

شعراء عرب والجواهري في احدى الصحف العربية

حيـن التقيتـه عنـد المحقـق

وهكذا تنطفئ (جوهرة االعرب - الجواهري) في الزمن الذي تحوّل فيه جوهر الوجود العربي الى اكوام من الفحم تفترش ساحات العواصم العربية، وتعتلي الأسوار والأبراج لتتراشق بالسواد.

كان الجواهري وقد غنّى الثورات والانتفاضات - وعايش مشعليها، بل قادها وخاض ساحات معاركها، وانتظر في سني عمره المكافح المديد ان يرى النور الذي اشعله المكافحون بدمائهم يشق عتمة ذاك الظلام - كان الجواهري أبى ان يكون شاهدا على ما تنسجه الاجهزة الحاكمة من ستائر العمى لتحجب عن العيون حقائق ما تحيك من اساليب التخلف والانهزام والردة توصلاً الى قمع الراي والكلام بل والرغبة في الحياة.

ولكن هل تنطفئ جوهرة الجواهري وقد ضرّجت الأجواء العربية بالضياء بكل الألوان الساطعة من حقيقة حياة الشعوب ومعاناتها.

شاعر في قمة الراي الحر والدفاع عنه، في قمة الكفاح من اجل تحرير الرأي العام من اباطيل الحكام الملتزمين باوامر ساسة الاستعمار وصنائعهم. متمرد على الاغراءات والمكاسب والمناصب وهو الفقير المنكفئ عن اطماع الدنيا بخبز القوافي ومحبة الناس.

قامة باسقة متسقة الصمود والعلو كقامات النخيل في بلاده التي نشا تحت ظلال أفيائها، وعلى وقع كفاح فلاحيها ومثقفيها، وعلى متابعة بؤس عيشهم وتمرد إرادتهم والصراخ بصوتهم شعراً ومواقف بطولية على مدى العمر.

عنيد أمام طاغوت الحكام وسيطرتهم، شامخ في وجه إغراءاتهم ومحاولاتهم استيعاب صوته الهادر في سماء العراق وكل أرض العرب. لقد ظنوا ان كرسياً في المجلس النيابي كفيل باحتوائه بين جدران تحايلهم لاستيعاب صوته وجبروته بهذا المنصب، لكنه لم يرضخ لهذا القيد واستنكف عن الانجرار في المنزلق الذي أراده له الحكام.

وغادر الى المنفى نسراً محلقاً بجناحي الفكر والشعر للانطلاق في سماء عيش الناس ومعاناتهم.

يعلو صوت الجواهري على اصوات سواه من الشعراء والكتاب لانه غرف بسمعه وقلبه ووجدانه من كل آهة ونسمة أمل في قلوب الناس حوله في العراق، وهم الذين يصدقون القول في الحب والصداقة والتمايز في الجرأة والانطلاق.

في مرحلة من مراحل القمع الدامي في عهد نوري السعيد في أواخر ١٩٤٩، لن انسى لحظة الصدمة التي عشتها في بغداد عند التقائي بالجواهري في مكتب التحقيق، في دائرة الأمن العام - عندما انتهى المحقق الأول من استجوابي وأطلقني، هالني ان أجد الجواهري على طاولة محقق ثان خاضعاً لاستجواب وتحقيق، صامداً بكل جبروته وعنفوانه، ولما التقت عيوننا بتحية الشوق والاستغراب من وجوده في التحقيق بادر الى خفض نظراته يحميني من مسؤولية المعرفة به وما يمكن ان تضيف الى سجلي عندهم، قلت وانا اغادر المكان والألم يمزقني (حتى الجواهري؟!) ووجدت وراء قضبان لغرف اخرى في طريقي شباباً نضراً يسالون، لعلهم يسالون عن وجودي وماهيتي وكنت قد عدت الى بغداد منذ ايام قليلة، وبقيت حتى الآن تدمع عيناي ويتلهف قلبي لأسال عن مصيرهم وسواهم.

ولكن ايتها البلاد التي شبعت عيون ابنائها دموعاً وقلوبهم تساؤلات متى يأتي اليوم الذي تنبا به الجواهري في قصيدته الجوهرة التي انتظرتها الأمة العربية في كل اقطارها والتي قالها إثر استشهاد شقيقه جعفر في التظاهرات العارمة التي سار بها الشعب العراقي ضد معاهدة (بورتسموث) - كان جعفر طالباً في جامعة دمشق، ولما اهتز العراق ثورة ضد المعاهدة ترك جعفر الجامعة في دمشق، وسافر الى بغداد ليشترك في الثورة، وقد قتل في اليوم الثاني لوصوله وأثناء التظاهرة، وكانت قصيدة الجواهري نبوءة بما ينتظر الشعب العربي فقد قال فيها:

أخي جعفراً لا أقول الخيال
وذو الثأر يقظان لا يحلمُ
أرى أفقاً بنجيع الدماء
تنوّر واختفت الأنجمُ
وحبلاً من الأرض يرقى به
كما قذف الصاعدَ السلمُ
تكوّر من جثث حوله
عظامِ وأمجادها أعظمُ
يقولون من هم أولاء الرعاع؟
فأفهمهم بدم من همُ
وإنك أشرف من خيرهم
ونعلكُ من خدّه أكرمُ

سلاماً يا دجلة الخير، سلاماً يا نخيل العراق بسعفه الاخضر وتمره الأحلى وتمرد زارعيه الاشرف، سلاماً يا اهل العراق بما أودعنا الزمان من ثوراتنا وشهدائنا، سلاماً ايها العراقيون في المنافي والسجون، سلاماً وأنا احدى النخلات التي اقتلعت من ارضها الحبيبة وإني لتغمرني الدموع.

فكتوريا نعمان
(كاتبة عراقية)

المحتويات

كلمة لابدّ منها ١١

الفصل الأول ١٣

وثبة كانون ١٥
مؤتمر المثقفين العالمي ٣٣
حواء الثانية ٤٣
أنا والمرأة ٤٩
مشانق وفاقة ٥٣
قصيدة «هاشم الوتري» ٥٧
مضاعفات قصيدة «الوتري» ٦٧
الهدية الأولى لحكومة العراق إلى إسرائيل ٧٩
سفرة لبنان ٨٣

الفصل الثاني ٨٩

السفرة الأولى إلى القاهرة ٩١
السفرة الثانية إلى القاهرة ٩٣

انتفاضة تشرين ١٠٥
اهاوية ١٢١
قصة الأرض الخراب ١٢٩
«غاشية الخنوع» ١٣٣
قصتي مع البحتري ١٤٣
العودة إلى العراق ١٤٩
مزارع من جديد ١٥٧

الفصل الثالث ١٥٩

أنا والتاريخ ١٦١
عراق ماقبل الثورة ١٦٣
اهاوية الثانية ١٦٩
تاريخ وموقف ١٧١
من هو عبد الكريم قاسم ١٧٥
الليلة الأولى والبيان الأول ١٩١
زيارة قصر الرحاب ١٩٥
عبد الكريم قاسم، بداية وأزمات ٢٠١
الفقر والعقد والقرارات ٢٠٥
الشراكة الخاسرة ٢١١
علاقة ودسائس ٢١٣
شفاعات ٢١٥
النقابة الأولى والاتحاد الأول ٢١٩
ضجّة في الكويت ٢٢٣
السفر إلى موسكو ودول أخرى ٢٢٩
رأس الكَرْيّة ومحاولة اغتيال قاسم ٢٣٧
عاشوراء الستين ٢٤٣
مؤتمر الصحفيين العالمي ٢٤٥

استقلال الذات واستقلال القرار ٢٥٥
ماذا في الميمونة ٢٥٩
ليلة فريدة من نوعها ٢٦٧
حلقات متسلسلة ٢٧١
مهزلة سرقة البيت الذي زاره قاسم مرتين ٢٧٥
نقابة العمال والازدواجية ٢٧٧
موقف وموقف ٢٧٩
اليوم الحاسم ٢٨١

الفصل الرابع ٢٨٥

مرحلة وصولي إلى براغ ٢٨٧
الألق والأرق ٢٩١
الناجون من يوم شباط ٢٩٧
حركة الدفاع عن الشعب العراقي ٣٠١
منع من جديد وهزيمة قبل النصر الموعود ٣٠٩
إقامة محدودة ٣١٣
في سبيل العودة إلى العراق ٣١٥
«أرح ركابك» . . !
و«رسالة مملحة» إلى الفريق عمّاش ٣١٩

الملحق الشعري ٣٢٧

أخي جعفر ٣٢٩
يوم الشهيد ٣٣٢
باريس ٣٣٦
أنيتا ٣٣٨
ذكريات ٣٤١

فراق	٣٤٣
وداع	٣٤٥
هاشم الوتري	٣٤٧
أطبق دجى	٣٥٠
إلى الشعب المصري	٣٥١
باقٍ وأعمار الطغاة قصار	٣٥٤
تنويمة الجياع	٣٥٦
قفص العظام	٣٥٨
في مؤتمر المحامين	٣٦٠
الدم الغالي	٣٦٢
ماتشاؤون	٣٦٣
ظلام	٣٦٥
كما يستكلب الذيب	٣٦٧
كفارة وندم	٣٦٩
الراعي	٣٧١
يا أم عوف	٣٧٣
خلفت غاشية الخنوع	٣٧٦
الجزائر	٣٧٩
ذكرى المالكي	٣٨٠
وخط المشيب	٣٨١
أزف الموعد	٣٨٣
الرصافي	٣٨٤
الشيخ والغابة	٣٨٥
رباعيات	٣٨٧
المستنصرية	٣٨٨
لبنان ياخمري وطيبي	٣٨٩
أنتم فكرتي	٣٩٢
يادجلة الخير	٣٩٣

أيها الأرق ٣٩٧
يا نديمي ٣٩٨
حييتهن بعيدهن ٤٠١
يا غريب الدار ٤٠٣
بريد الغربة ٤٠٦
بائعة السمك في براغ ٤٠٨
الخطوب الخلاقة ٤١٠
أطياف وأشباح ٤١١
براغ أو حوار ٤١٢
الفداء والدم ٤١٤
أرح ركابك ٤١٦
رسالة مملحة ٤١٨

الفهرس ٤٢٠

مدونة

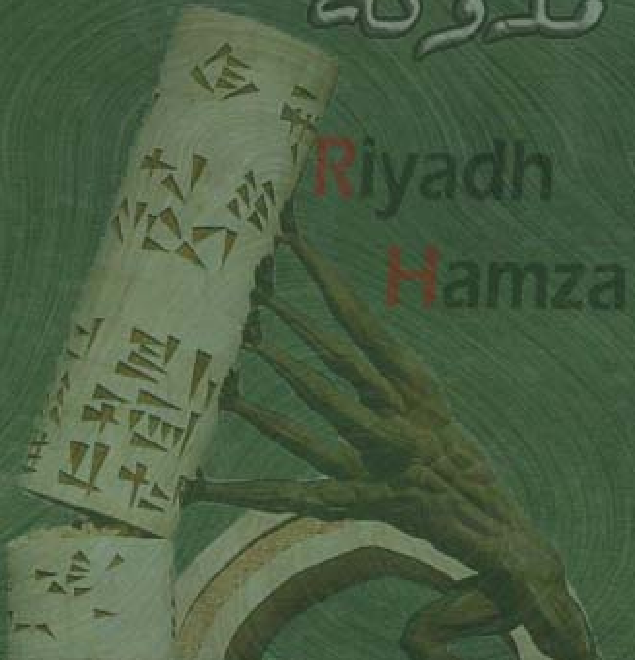

Riyadh
Hamza

Bani-Alzahra Institute

Tel : 0098 251 7732730 - 7748555
Mob : 0098 9123514148

كتبة رياض الغرّاوي ، النجف الأشرف - سوق الحويش/ نقّال : ٠٧٨٠١٢١٤٥٨١